مصطفى جحا

سلسلة نافذة على المعرفة - ٣

نحنُ... وصنمية التاريخ

١٩٨٦

"إن الزمن لا يقاس بالتقويم الفلكي وإنما بالأحداث التي تقع فيه"

لويس ممفورد

مصطفى جحا

سلسلة نافذة على المعرفة -٣



١٩٨٦

"إن الزمن لا يقاس بالتقويم الفلكي وإنما بالأحداث التي تقع فيه"

لويس ممفورد

كُتب للمؤلّف

- المخالب — فصول في الحرب اللبنانية
- صدى ونغم — قصائد ولدت في الحرب
- أية عروبة أية قضية ؟
- رسائل من خلف المتراس — الجزء الاول
- رسائل من خلف المتراس — الجزء الثاني
- الى امرأة واحدة
- يوميات تائه
- في سبيل وطن وقضية
- الخميني يغتال زرادشت — الطبعة الاولى ١٩٨٠ — الطبعة الثانية ١٩٨٣
- محنة العقل في الاسلام — الطبعة الاولى ١٩٨١ — الطبعة الثانية ١٩٨٣
- ابعد من زحلة وصور (حرب الوفاق الشرق الاوسطي)
- جزيرة الكلمات
- حبيبتي ما زالت تغالب الفجر — رواية
- شاهِدُ الثعلب ذنبه
- قاموس حرب علي ومعاوية وسباعية طلال سلمان
- نحن ... وصنمية التاريخ

الاهداء

القائلون لي دائمًا: "أكتب.. ثمّ أكتب..
ثم اكتب أهم الكتاب الذي أعجز عن تأليفه...
إليهم نحن... وصمنيّة التاريخ"

مع شكري واخلاصي

مصطفى

المحتوى

الباب الثالث : المحور الاسلامي

الباب الرابع : المحور العالمي

المقدّمة

ليس للتاريخ باب واحد فحسب • وانما له أبواب ومداخل شتى ، تنتهي جميعها الى الماضي المصنوع ، حيث لا بد من الجدل الحاد ، والمناقشة الصاخبة ، ليغدو الفرض هو الحدث ، والخيال هو الواقع ، واذ ذاك يُحسَم الامر الاكبر ، فتبرد العقول والقلوب ، وتهدأ الارواح والاعصاب • ويمكننا القول ان التاريخ هو الحاضر يخلق الماضي ، بوجه عام ، حسبما يراه مناسبا •

واذ نواجه التاريخ ، فانما نواجه الحاضر ، بكل ما عنده من مصالح وامكانات ، مادية وغير مادية ، معلنة ومستترة ، فاذا أخفقْنا فلن نقنط ونيأس ، واذا نجحنا فلن نسْكر وننتشي •

يتمثل الحاضر بالمؤرخ، الذي يمثله هو أيضا الكتاب، لا بالحدث كما يعتقد البعض منا ، وبين الحدَث والراوي ،

كما بين الكتاب والكاتب • على أن الكتاب هو ، عندنا ، حدَث ، بل حدث على الحدث ، ولهذا نبدي اهتماما غير عادي بما يصلنا من كُتب ورسائل وأبحاث ودراسات ،ولا سيما التاريخية منها •وليس شرطا أن يكون هذا الكتاب أو البحث أو الرسالة « وطنيا » أو « قوميا » ، لكي يثير اهتمامنا أو شهوتنا على القراءة ، وقد أصبح العالم كأنه « القرية الكبيرة » بفضل التغيير « الذي أحدثته الحربان العالميتان الاولى والثانية » •

لقد صار التاريخ هو « ضمير القرن العشرين » [1] ، وصار عالميا انسانيا ، وكذلك الكتاب التأريخي ، فلماذا النقْد التعصبي المتزمت ؟ ولماذا نُقيم هذه السدود العالية والاسلاك الشائكة في وجه الافكار والآراء المغايرة لافكارنا وآرائنا ؟

صحيح أن لكل أمة ماضيها ، ولكن الصحيح أيضا هو أن الحاضر ، أي حاضر ، له الحق في اعادة خلْق الماضي ، كل ماضٍ ، مهما يكن بعيدا عنه ، جغرافيا أو زمنيا ، وكما يُوجد حاضر يَكْتب ويَخْلق ، كذلك يوجد حاضر يقرأ ويفكر بصوت عالٍ نقدي واضح وجريء وموضوعي •

(١) الدكتور عادل العوا : معنى التاريخ في الفكر الاسماعيلي، دراسة نشرت في « المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام » (ثبت كامل لاعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الاردنية من ٢٠ الى ٢٥ نيسان ١٩٧٤) الدار المتحدة للنشر ١٩٧٤ ص ٢٠٠ •

معركتنا ، اذن ، هي مع الحاضر ــ ليت كان « للحاضر » صيغة الجمع ــ الذي يكتب وينحت تاريخا ، وربما امتدت لتشمل من هو أبعد من الذي يَفترض ويتصور ، ويجادل ويتفلسف ،ويَحْكُم ويتحكم، ويحابي ويتكتّم •

ماذا نريد ؟

نريد تاريخا مكتوبا بعقل حار، وقلب نابض، وأعصاب مهددة بالانهيار أو التمزق • بل نريد واقعا لا خيالا ، وحقيقة لا افتراضا ، ويقينا لا وهْما ، فقد سئمنا عبادة هذا الصنَم الواحد ، التاريخ ، المنحوت ، أو المصنوع ، وكل أمورنا فيها مزاعم وأباطيل ، بشكل أو آخر ، في حين إنّ حقوقنا « مقدسة » وشروطها « واجبة » و « ضرورية » ، وهي التي سببت لنا ضبابية الذاكرة (blurring of memory) والارتياب والغيرة والعناد في الدفاع عن التراث ــ الصنم، وبخاصة القومي والديني ، والتسليم بما سمي « وحياً » و « تنزيلاً » ، والاعتقاد بالثوابت والمسلّمات •

منذ اكثر من عشر سنين ونحن ننازع التاريخ والصنمية التاريخية ، بعزيمة ونشاط • واليوم نقف وجها لوجه مع عدد من الباحثين والمؤرخين والمفكرين ، لبنانيين وغير

لبنانيين،كان لاعمالهم المتنوعة ـ كتبوا وبحثوا في موضوعات متعددة وقضايا كثيرة ـ عندنا،صدى مؤثر وعميق،فمنهم من تجاوبنا معه مؤيدين بالثناء والمديح ، ومنهم من عارضناه بعنف مع اللوم والتثريب ،واذا بنا جميعا في مواجهة التاريخ كل من موقعه ، ولكل اسلوبه وغايته ، ولست أدري اينا هو المنتصر ، ولكنني أحسبُ ان حربا «شرسة» قد خضتها ضد التقليدي والفاتر والفاقع والغامض والمستكبر والطائفي والمذهبي والمتلون والدعيّ ، وأما المتواضع والشجاع والجريء والمنفتح والمستكشف والمتساهل والواضح والمتطلب والانسانوي ، فانني معه ، دائما معه ، وقد ابليت البلاء الحسن في رد السهام عنه ، وفي تسفيه معارضيه وحاسديه والذين يكيدون له ويحاربونه بما لديهم من الوسائل والادوات .

وبما ان التاريخ هو عالمي انساني ، مثلما قلنا ، و « ثقافة » [٢] و « حركة حياة » [٣] و « مشاركة » [٤] فان مواجهته تقتضي ، ولا شك ، الصراع لاجل حرية الآخرين،أيا كانوا،وأينما كانوا ، في العيش الكريم والقول والمعتقد والامن والسلام ، تماما مثلما هو صراعنا لاجل حريتنا نحن ، مما يبرر هذه « الهجمة » الجديدة على «الصنمية التاريخية» ومن المحاور الاربعة : المحور اللبناني

(٢) (٣) (٤) المصدر السابق .

المحور العربي ، المحور الاسلامي والمحور العالمي ـ يؤلف بينها خيط رفيع ـ وذلك مع حرصنا الاكيد على الحق الانساني العام ، الذي يتضمن أيضا حقنا في العرض والتحليل والتفسير والموافقة والقبول،مثلما في النقد والرفض والمعارضة والاستقراء والاستنتاج ، وأيا كان موقفنا من هذا الباحث أو ذاك ، فهو لا يعني سوى الاخلاص للانسان والكتاب ـ الحدث والحقيقة والحرية .

بيروت ٢٨ شباط ١٩٨٦

مصطفى جحا

الباب الأول
المحور اللبناني

كلمة لا بُدَّ مِنها
العاصفة والطوفان

عندما كان بشير الجميّل « بندقية » كان « مقبولا » « معقولا » •

صار « فكرة » و « وطنا » و « زعيما » فأصْعَبَ حتى انفضّت الدموع كأنها كانت مختومة •

هو الحرب ، والحلفاء كما الاعداء • اذا قال : نعم او لا ، فكل امرىء الى محلّ انقلابه !

رأى الحرية لا يعيش لها ولد ، فدعاها امه ، ومسح ضرْعها فدرَّ لبنها وجرى •

« البشيريون » شربوا دم الحرية حليبا [1] ••

---

(١) هؤلاء انتفض بعضهم على بعض ثلاث مرات حتى الان : الاولى في ١٢ آذار ١٩٨٤ ، الثانية في ٩ أيار ١٩٨٥ ، على أثرها اعلنت « الهيئة التنفيذية في القوات اللبنانية » انها انتخبت السيد ايلي حبيقه رئيسا لها « لادارة كل =

عاصفة اسمها « بشير الجميل » ضربت لبنان، فاستيقظ في الشرق، الوحش الطائفي، ليعلن على الناس الجوع والفشل والبؤس والارهاب .

حسب الغرب ان « اللعبة البشيرية » هي من النـوع الخفيف البسيط ، فأتانا بمشاريع « نيو حضارية » ... وأخذ يتنقل بين الرمل والرمل ، والبحر والبحر !!

ولكن بشيرا الذي اكتشف « نيات » الغرب صمم على القتال اذ صمم على الاستشهاد .

سأل عن التاريخ .. فقيل له : مُقعَد الحسَب مريض يمضي « اجازة » منذ الف سنة أو اكثر .

وسأل عن الجغرافيا .. فاتاه الجواب : نافذة على البحر ونافذة على الصحراء، تعرفهما النوارس والصقور، وتدخلهما الارياح من كل مكان ، فاما الثورة واما الركود .

اذ ذاك وضع « الامير الصغير » متراسه بين الماء والسراب وعلّق صليبا ولوحا أسود ، بينهما راية بيضاء في وسطها قلب ينزف ، والقلب حوّطته عين باصرة .

= الاجهزة والعلاقات»، الثالثة في ١٥ شباط ١٩٨٦ ، فأبعد، عن البلاد ، السيد حبيقة وعدد من رجاله ومحازبيه ، ثم أخذ مكانه الدكتور سمير جعجع، الذي قام بهذه الانتفاضة، وأصبح المحامي كريم بقرادوني ، رئيس الدائرة السياسية والاعلامية في « القوات » ، نائبه .

لانه فكـّر في السلام اطلق الحرب .. وقرر الثورة .

قال : لا نريد غريبا على ارضنا .

رد الذين هم بين الحلم والواقع ، بين النافذة والنافذة: بل انت الغريب البعيد .

اطلق بشير النار . قصف . نشر الحواجز المسلحة . صنع مدفعا . انشأ دبابة . انتزع من الجامعة اللبنانية فرعا « شرقيا » . ألف « جيشا » . اقام جدارا . استحدث مرفأ . كثف المهرجانات واللقاءات الشعبية . استدعى الغرب والشرق . شرح قضيته . كشف اوراقه . جدّد مطالبه . اشترى الاعتدة اللازمة وغير اللازمة .

ان احدا من الذين زاروا « شرقية » بشير الجميل لم يصدّق ما سمع وما رأى . الجميع قالوا : الامير صغير والقضية كبيرة !!

ولكن « البشير » رأيه ضاحك ، أي ظاهر لا لبس فيه . فهو ريفي ومحام ومحارب ومحاور ومثالي .

كلمة بشير رصاصة في بيت النار . والحقّ ، عنده ، كلمة ، والحرية كلمة ، والانسان كلمة ، والارض كلمة ، والاستقلال كلمة ، والعهد كلمة ، والميثاق كلمة ، والشرف كلمة ، والدستور كلمة ، وما كل رصاصة هي الكلمـة .

وفكّر بشير في السياسة الرئاسة،فأعلن السلام والحب
ذهب الى عواصم القرار والمال . زار السياسيين اللبنانيين
« المخضرمين » و « المحدثين » . ناقش حزبه ووالده
وشقيقه ورفقاءه ومعاونيه . أجاب عن كل مسألة كبيرة او
صغيرة . دعا الاطفال اليه ، فغنى معهم ووعدهم بشمس
الحرية والفخر والسلام واللعب . جال على المدارس
والمستشفيات ودور مشوّهي الحرب وبيوت العجزة
والمقعدين ، فصارحوه بما في نفوسهم ، فبيّن لهم سياسته
وأوضح منهجه ، فاطمأنوا اليه اذ صلّوا لاجله ودعوا له.
حذر التجار والموظفين والعمال والصيارفة والسماسرة من
التلاعب أو الغش أو الاحتكار أو الرشوة أو الاهمال.وأكد
على رجوع القضاء والعدل ، وتعهد ارزاق المواطنين
وأملاكهم وحقوقهم وحرياتهم ، فأحيا فينا الضمير المهني
والحس الوطني ، واذا المؤسسات قد انتعشت ، والدوائر
نشطت ، والمعابر فتحت ، فلا « شرقية » ولا « غربية » ،
وزالت من الطرقات المظاهر المسلحة وكل اسباب الخوف
والرعب، وساد البلاد شعور بالامن كبير،والى بكفيا زحف
المهنئون من كل مكان ، فرأينا العمائم البيض والسود تختال
في ساحة بلدة الرئيسين،فرحا وزهوا، وقد عانقتها القلانس
في ظلال الرئيس العتيد .

عندئذ فتحنا قلوبنا ومنازلنا للسلام الآتي . ورفعت
الاعلام وصور الرئيس الشاب في كل لبنان : في الجنوب

كما في الضاحية والزيدانية والمصيطبة وبرج ابي حيدر
والبسطة ، حتى اعماق الشوف والجبل والبقاع والشمال ،
ما عدا زغرتا واهدن .

لقد طغت علينا الدهشة ، فكأن آمالنا لا تتعاظمها الآمال
وامانينا لا تدركها الاماني ، كذلك رغباتنا وطموحاتنا
وامكاناتنا ، فما بالك اذا كان الرئيس هو بشير الجميل ،
صديق الاطفال (...) وأمل الامهات (...) وسند الاباء
(...) ورفيق الشهداء (...) ورجاء البؤساء (..) !!

في غضون اسبوعين ، كل شيء — في لبنان — أخذ
مكانه .. واستقر ، وبعدهما كان الطوفان ... اذ سقط
« البشير » !

هل نصدّق ما حدث ؟

لقد برهن الرئيس بشير الجميل ، باستشهاده ، ان
« كل رئيس لبناني شهيد » [٢] ، وان لبنان لا ينجب البطل
«الذي يُغنينا عن الجيوش الاجنبية و «الغزاة»و«المبعوثين»
وسعاة الخير » [٣] ، ولذلك سيبقى اللبنانيون بين العاصفة
والطوفان ؟!

١٤-٩-١٩٨٥

---

(٢) كتابنا « شاهد الثعلب ذنبه » طبعة ١٩٨٤ ص ٨٨/٩٣.
(٣) كتابنا « محنة العقل في الاسلام » . طبعة ثانية ١٩٨٢ ص ٤٦٨ .

(١)
بين بكركي وجبل عامل

لعل قراءة « الأوضاع السياسية في لبنان بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ ودور البطريركية المارونية في اعلان دولة لبنان الكبير »[١] للدكتور ناجي (حكمت) الحداد ، في هذه الايام الحزينة والمضطربة والمعقّدة ، كالنظر الى الصورة من المرآة المتناظرة والمصقولة • كذلك قراءة « الاتجاهات السياسية في جبل عامل ١٩١٨—١٩٢٦ »[٢] للدكتور محمد سعيد حسن بسّام • على ان لكل من الباحثيْن : الحداد والبسام ، موقعه السياسي والثقافي ، فالاول ماروني من

---

(١) الجزء الاول : ٤٠٠ صفحة ضربت على الالة الكاتبة ، اطروحة دكتوراه في التاريخ ، من جامعة الروح القدس — كلية الآداب والعلوم الانسانية — قسم التاريخ . باشراف الدكتور زين زين ، ١٩٨٥

(٢) ٣١١ صفحة ، أيضا ضربت على الآلة الكاتبة . أطروحة دكتوراه في التاريخ ، من جامعة القديس يوسف — كلية الآداب والعلوم الانسانية فرع الآداب العربية — بيروت ، باشراف الدكتور منير اسماعيل ، ١٩٨٣

عين كفاع من أعمال بلاد جبيل ، والثاني شيعي من عيناتا قضاء بنت جبيــل ، في جبل عامل ، وما تفرّقه الاديــان والسياسات ربما لا توحّده الارض والنيّات ،وقد برهنت حربنا القائمة ، التي توشك ان تدخل عامها الثاني عشر ، ان الحروب مثلها مثل الناس أو الحيوان ، تتوالد وتتناسل ، على رغم رسل السلام واصحاب الارادات الخيرة والافعال النبيلة (٣) .

صحيح ان المسافة بين بكركي ، بيت الكلمة المسيحية اللبنانية ، وبين صيدا ، عاصمة القرار الاسلامي ـ العاملي ١٩١٨ ـ ١٩٢٦ ، قصيرة في زمن السلم ، ولكنها بعيدة ، وبعيدة جدا في زمن الفتن والانقسامات الطائفية . وليست بيروت أقرب الى بكركي من صيدا ، ولا صور أبعد مـن طرابلس أو بعلبك او المختارة أو راشيا . الامر الذي يجعل

---

(٣) ولان المشكلة اللبنانية ما زالت تمثل الشغل الشاغل للكثير من الباحثين والمفكرين في مختلف الاوساط المعنية بهذه القضية ولا سيما في اسرائيل حيث تكثر الكتب والمؤلفات الصادرة في هذا الصدد ، ففي الاونة الاخيرة صدر عن دار « غرينهلم » في لندن كتاب للدكتور مائير زامير المحاضر في القضايا التاريخية في جامعة بن غوريون في النقب تحت عنوان « اقامة لبنان الحديث » ، ويعرض الدكتور زامير في كتابه هذا الظروف والملابسات التي ادت الى اقامة دولة لبنان كما هي عليه حتى الان ، ويتطرق ايضا لنسيج العلاقات القائمة بين لبنان وبين جارته سوريا .
(السفير ١٨ ـ ١٢ ـ ١٩٨٥ ص ١١)

لبنان اليوم ، على رغم مآسيه ، استمرارا « للبنان الكبير الذي أُعلن سنة ١٩٢٠» (٤) و « من اراد فهم الواقـع اللبناني الحالي ، توجب عليه العودة الى الاوضاع السياسية في لبنان ما بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ » (٥) .

فاذا ظلّت بكركي هي بكركي،وبيروت هي بيروت ، وجبل عامل جبل عامل ، والشوف الشوف ، والبقاع البقاع وطرابلس طرابلس،أي اذا استمر التباعد بين المنطقة اللبنانية والاخـرى فـإن لبنـان الواحد الى زوال ، ومـن لـه أن يبكي فليبك ، ومن له أن يضحك فليضحك !

ماذا بين الارض والارض ؟

مذ بدأ الانسان يتطلع الى السماء بدأ الصراع على الرغيف .

الذي أكل وشبع حسب نفسه خالدا أبدا ، والذي جاعت معدته جاعت كرامته وانسانيته ، فاذا الاثنان رغيف الموت الذي وحده لا يشبع ولا يرتوي !

يقول الدكتور محمد بسام :

« مع سنة ١٩١٨ انتهت الحرب العـالمية الاولـى وانتهى معها عهد عثماني دام اربعة قرون بمؤسساته ومفاهيمه الادارية والاسلامية الخاصة ليبدأ عهد جديد من الادارة العسكرية الفرنسية المباشرة في المنطقة امتد من سنة ١٩١٨

---

(٤) الدكتور ناجي (حكمت) الحداد : ص ١٥ .
(٥) المصدر نفسه .

حتى سنة ١٩٢٠ حين ولد كيان « لبنان الكبير » في ظل انتداب فرنسي فرضته مؤتمرات الحلفاء وأقرته عصبة الامم المتحدة [٦] .

ويقول الدكتور حكمت الحداد :

« لقد تعارف الكثيرون ، على ان لبنان الحالي هو وليد الاوضاع السياسية التي طرأت ما بين ١٩١٨ – ١٩٢٠ » و « بالطبع كان هناك الانكليز والفرنسيون ونزاعاتهم المزمنة على اقتسام مناطق النفوذ في الشرق، كما كان هناك الاميركيون ومبادئهم الديمقراطية التي حملتها لجنة كينغ – كراين ، وكانت هناك التيارات العربية الداخلية المتجاوبة مع الاطماع العربية بلبنان ، من خلال الامير فيصل، وكان هناك التيارات القومية اللبنانية ، يقودها البطريرك الماروني (الياس) الحويك والتي ترمي الى الانفراد بلبنان بعيدا عن كل تذويب بهويته الخارجية » .

ويقول ايضا :

« فكل هذه العوامل الخارجية والداخلية ، كانت تتفاعل وتتصارع على الساحة اللبنانية ، وأخطر ما في الامر كما على مر العصور ان القوى الخارجية كانت تجد لها بين

(٦) الدكتور محمد سعيد حسن بسام : من المقدمة ص أ .

اللبنانيين بالذات آذانا تصغي وارادات تنصاع وأيادي تنفذ. وعلى الرغم من كل ذلك قام الوطن » [٧] .

مما لا شك فيه ان القوى ، التي شاءت ان يقوم الوطن (لبنان)، كانت آنذاك أعظم نفوذا من تلك التي خالفتها الرأي. فهل ادرك « صانعو » لبنان الكبير انهم فعلوا ذلك مثلما امرأة معجال تضع ولدها قبل اوانه ؟!

ماذا تقول بكركي ؟

ماذا يقول جبل عامل ؟

ماذا تقول بيروت ؟

اذا شاءت بكركي أو بيروت أو صيدا أن لا ترد على هذا السؤال ، فهناك باريس ولندن ، وهنالك موسكو وواشنطن .

ولئلا يظن الدكتور بسام اننا نسينا دمشق ، سنلفت الى عمان والرياض وبغداد ، كما الى القاهرة وطهران ، من دون أن « تتجاهل » تل أبيب و «عضلاتها الحديدية » .

ما الذي حدث للبنان الكبير ؟

في اطروحة الدكتور الحداد عرائض لبنانية .. وفي اطروحة الدكتور البسام عرائض عروبية اسلامية . وكما

(٧) الحداد : ص ٢٠ .

حرب تركيا والحلفاء، كذلك حرب العرائض،وحرب الاعلام أو الرايات ، في كل وقت وحين .

يذكر الدكتور البسام ان رئيس الحكومة العربية الامير سعيد الجزائري أبرق الى محمود الفضل ، أحد بكوات النبطية ، ومن خلاله الى زعماء صور وكل جبل عامل ، يطالبهم بضرورة التنسيق بين الحكومات العربية المتعددة التي انشئت في مختلف النواحي اللبنانية ، يقول :

« أعلنوا الاستقلال العربي قبل وصول الانكليز والعرب أو غيرهم حتى اذا وفدوا يروا كل شيء مهيئا ، فيحق لكم الاستقلال الكامل » (٨) .

ويذكر الدكتور الحداد ان رئيس الوزارة الفرنسية المسيو ميلران « أصدر في ٢٤ آب ١٩٢٠ وثيقة الى المطران عبدالله خوري رئيس الوفد اللبناني الثالث الى مؤتمر الصلح ، اكد فيها قرار الجنرال غورو بتاريخ ٣ آب ١٩٢٠ والقاضي باعادة الاقضية الاربعة الى لبنان وهي أقضية حاصبيا ، راشيا ، بعلبك والمعلقة (البقاع) ، وان يحتوي لبنان على سهول عكار في الشمال وان يمتد الى حدود فلسطين (اسرائيل) في الجنوب ، وان تربط به مدينتا طرابلس وبيروت ارتباطا تاما ... لبنان الكبير يستطيع الان ودائما ان يعتمد على فرنسا » (٩) .

---

(٨) البسام : ص ١٢ .
(٩) الحداد : ص ٢٥٧ .

الفريق « الغالب » جلس يغني .. و « المغلوب » راح يرقص من الألم .

فرنسا وبريطانيا تنازعتا على الارض والناس . بينما الصهاينة وحدهم كانوا يعرفون ماذا يريدون.توسيع حدود فلسطين يعني توسيع حدود اسرائيل . الماء تحت كراسي الزعماء العامليين كماء الليطاني : هذا الى مكانه وذاك الى مكانه . وليس صعبا على فرنسا او بريطانيا ان تنفذ الى بعض هؤلاء ، أو كما يقول الدكتور البسام :

« ان جبل عامل كتلة اسلامية ، معظمها شيعية تعاني من حرمان اجتماعي وعزلة سياسية تاريخية بحكم اختلافها المذهبي مع العهود السنية المتعاقبة . هذا الاختلاف المذهبي يمكن ان يكون مدخلا سياسيا لكسب جبل عامل ، وبالتالي اختراقا للرأي العام الاسلامي في المنطقة . ان جبل عامل — عدا بعض المدن الساحلية — هو بيئة ريفية زراعية مغلقة اجتماعيا تسلم امرها السياسي الى زعماء شبه اقطاعيين كانوا يستثمرون هذا الولاء الشعبي الشيعي .

« ولما كان لدى فرنسا من مقومات السلطة والنفوذ ما يشبع طموحات هؤلاء الزعماء فان اكتساب جبل عامل الى جانبها يسهل امره باكتساب هؤلاء الزعماء باللعب على التناقضات الداخلية » (١٠) .

---

(١٠) البسام : ص ٤٦ .

وما يقال عن زعماء جبل عامل يقال ايضا عن زعماء البقاع والشمال وبيروت • ففرنسا التي كانت مرفوضة هنا وهناك اصبحت مقبولة ، ومقبولة جدا ، اذ المواقف ، دائما تخضع للظروف ليس الا : مات الملك عاش الملك •

ان هذا لا يعني ان زعماء الموارنة لا يعانون الصراعات الداخلية ، ولا ينافس بعضهم بعضا ، مثلما الزعماء الآخرون الا ان للبطريركية المارونية سلطة محترمة تمكنها من تخفيف مثل هذه النزاعات ، بل فرض الوفاق الماروني ، وبخاصة اذا كان البطريرك صاحب شخصية قوية ورؤية مستقبلية واضحة• ومن الحق ان ندعو البطريرك الياس الحويك عرّاب لبنان الكبير وشيخه، لندعو المطران عبدالله الخوري « الطبيب الجرّاح » الذي على يده وُلد لبنان الكبير ، لبنان الوطن •

ان رسالة الدكتور الحداد هي ، في معظمها ، صفحات « حويكية » مشرقة ، مما يجعل الاختيار صعبا وسهلا في آن معا •

ونحن اذ نستحسن صفحة أو قسما من صفحة فاننا نكون قد استحسنّا الاطروحة كاملة ، والدليل على ذلك ما يلي :

ينقل الدكتور الحداد مقتطفات من خطاب الجنرال غورو في قصر الصنوبر يوم الاول من أيلول ١٩٢٠ ،ولدى

وصوله الى مقولة الجنرال : « ان لبنان الكبير تألف لفائدة الجميع ولم يؤلَّف ليكون ضد أحد ، فما هو الا اتحاد سياسي اداري » ، يفتح (الحداد) هامشا ليقول : « ان هذا التعبير ظل مبهما وقد أعرب يوسف السودا (كما في كتابه « في سبيل الاستقلال » ص ٣٥٢/٣٨٤/ ٣٨٥/ ٣٨٦) للبطريرك في ٢٣ أيلول ١٩٢١ عن انها فكرة (اتحاد) Fédération مع سوريا مما حرّك وطنية البطريرك الماروني في حفلة استقبال غورو بالذات في ذلك التاريخ وحصل نقاش حاد حول هذه القضية المستجدة وهدّد البطريرك في خطابه في الديمان (مركز البطريركية المارونية صيفا) قائلا : (اذا مُسَّت حفنة من تراب لبنان، فانا — خلال أربع وعشرين ساعة — أشعلها ثورة في البلاد) • فتراجع غورو عن موقفه وطمأن البطريرك بأنه (لا يصير شيء الا بموافقتكم) »[11] •

---

(١١) الحداد : ص ٢٦٢ وهامش (١) في الصفحة نفسها .
ويقول الدكتور مائير زامير ، المذكور سابقا ، في حديث اذاعي بثته الاذاعة الاسرائيلية بتاريخ ٢٩ — ١١ — ١٩٨٥ : « ... فالموارنة طمحوا للعودة الى حدود لبنان التاريخية مثلما كانت عليه في ايام الامير فخر الدين الثاني في القرن السادس عشر والسابع عشر في أيام الامير « بشير الثاني » ، وهنا سأله مقدم البرنامج افرايم أبا : ولربما طمحوا للعودة الى أيام حيرام ملك صور ؟ فرد قائلا : « كلا بل توجد لدى الموارنة تطلعات ايديولوجية تطورت ووصلت ايضا الى حد الحديث عن ان الموارنة هم ورثة الفينيقيين . هذا هو احد العوامل . والعامل الثاني هو عامل اقتصادي والبقاع كان =

وانطلق الجنرال في تنفيذ قراره ، فأخذ البقاع بعد أن استقر في بيروت التي منها توجه الى جبل عامل بحملة عسكرية ضاربة ، أو كما يقول الدكتور البسام :

« بدأ غورو باستنفار الثكنات العسكرية المحاية ، وتعزيزها بفصائل من المشاة والمدفعية اقتطعت من ثكنة بيروت ، كما أرسل قطعا بحرية الى مياه صيدا وصور فقصفت « القرى المتمردة » . وفي نفس الوقت قام بابرام هدنة مؤقتة مع مصطفى كمال لمدة عشرين يوما ليتسنى له سحب قواته العسكرية من الجبهة الشمالية المضطربة الى نواحي جبل عامل » .

أضاف :

= يشكل مدى أساسيا في اي حال فجبل لبنان كان يضيق ويصغر كلما زاد عدد السكان الموارنة وكان هذا الجبل بحاجة للمزيد من الاراضي للزراعة . وبدأت لذلك هجرة مسيحية وكان الجبل بحاجة ايضا لمرافىء فبيروت كانت خارج نطاقه وخارج نطاق المتصرفية ، كما وان بعض المسيحيين كانوا ملاكين لبعض الاراضي في وادي البقاع،وارادوا ان يسيطروا مباشرة على هذه الاراضي ، ولكن وادي البقاع كان جزءا من الاراضي التابعة لدمشق . والحت فكرة الدولة الموسعة على الموارنة خاصة أثر المجاعة والامراض التي فتكت بالناس وذهب ضحيتها نحو ١٠٠ الف شخص ، فازداد الموارنة اندفاعا نحو فكرة اقامة دولة لبنانية موسعة يكون بمقدورها ان تستقل ليس فقط من الناحية السياسية بل ايضا من الناحية الاقتصادية » .

السفير ١٨ ـ ١٢ ـ ١٩٨٥ ص ١١

« وبانتظار اكتمال وصول التعزيزات العسكرية المطلوبة ، بدأ خطوات تمهيدية سياسية وعسكرية في جبل عامل ، ففي التاسع من أيار أبلغ غورو العاملين بواسطة المسؤولين الاداريين قرارات مؤتمر سان ريمو التي قضت بفرض الانتداب الفرنسي على سوريا ، وفي النبطية علّق الاعلان بالسوق رسميا » .

وقال البسام أيضا :

« ثم أصدر غورو قرارا «بجمع السلاح من المسلمين» في جبل عامل وكلفت قوة عسكرية بمباشرة تنفيذ القرار .

وفي السابع عشر من أيار عقد غورو اجتماعا لمستشاريه في بيروت وأعلن أنه عازم هذه المرة على العدول عن خطة اللطف والملاينة مع العصاة ، وأنه قرر أن يضربهم الضربة القاصمة كي يعود الامن الى نصابه » [١٢] .

ومن أجل حقن الدماء وإبعاد المزيد من الخراب والدمار عن المنطقة ، « استدعى (الجنرال) بعض أعيان العامليين الى صيدا حيث حجر على البعض منهم وطلب الى البعض الآخر مرافقة الحملة (كرهائن) تسهم في اقناع القرى العاملية بعدم المقاومة » [١٣] .

---

(١٢) البسام : ص ١٤٩ ـ ١٥٠
(١٣) المصدر نفسه .

و « في هذه الاثناء كان الجنرال قد شكل رتلا عسكريا من حوالى أربعة الاف جندي مساحين « بالمترليوزات » ، والمدافع بقيادة الكولونيل نيجر للزحف على جبل عامل .

وفي السابع عشر من ايار وصل الكولونيل الى صور على ظهر دارعة فرنسية ، واول عمل كان له في صور اعدام ستة رجال رميا بالرصاص لان بعض اهل عين ابل زعموا ان لاولئك الرجال يدا في حادثة قريتهم » [١٤] .

هل كان الجنرال غورو يبني قصرا على رمل ؟

نعود الى عرائض لبنان .. لنقرأ في رسالة الدكتور الحداد ما يلي :

« قدم شيعة جبل عامل ، في تموز ١٩١٩ ، عريضةطولها حوالى متر وربع (المتر) ، وتحمل مئات التواقيع،وقد جاء فيها : (... أما الان وقد رجعنا ودرسنا المصلحة العمومية درسا مدققا وتأملناها عميقا ظهر لنا الان ان لا راحة لنا في الحال والاستقبال الا بارجاعنا للوطن العزيز لبنان الكبير تحت مساعدة دولة فرنسا الفخيمة التي تحافظ على حقوق عموم الطوائف بدون تحيز لاي كان) . كما وجه الشيعة في قرية السكسكية (صيدا) (وهـي اليوم مـن اعمال الزهراني) في ١١ تموز ١٩١٩ ، برقية الى جورج بيكـو

---

(١٤) المصدر نفسه .

يطلبون الحاقهم بلبنان الكبير انسجامـا مع قرار المجلس الاداري ومع مساعدة فرنسا » [١٥] .

هكذا فعلت أيضا قرى شيعية وسنية وأرثوذكسية في جنوب البلاد وشرقها وشمالها . غير ان الذين تعهدوا لبنان الكبير، وبالتالي لبنان الاستقلال ، ما كانوا على قدر المهمة التي القيت عليهم ، فظل اللبناني في العاصفة ، حتى كان الزلزال الرهيب .

هل يتفق اللبنانيون بدون الرجوع الى هذه الدولة أو تلك ، فيتفق الباحثان : الحداد والبسام ، وسائر الكتـاب والادباء والصحافيين اللبنانيين ؟

لقد قال الجنرال غورو في رده على الخطباء الذيـن استقبلوه يوم وصل الى بيروت في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٩: « أتيتُ لخدمة فرنسا في سوريا ، فخدمتي لمصالح سوريا هي خدمة دولتي لان المصلحة واحدة لا تتجزأ . فمصلحة سوريا نفسها وخدمة فرنسا وسوريا واحدة » [١٦] .

---

(١٥) الحداد : ص ٢٨٨ .
(١٦) المصدر نفسه ص ٣٢٠ .
والصحيح عند الدكتور زامير هو « ان فرنسا هي التي اقامت لبنان في حدوده الحالية . وهذا ما سمي بدولة لبنان الكبير » و « ان فرنسا هي التي فصلت لبنان عن سائر انحاء سوريا ، أي انها هي التي منحته استقلاله وبالرغم من ذلك فان القرار الفرنسي الذي اتخذ في أول شهر ايلول (سبتمبر) =

كل الجنرالات الغربيين والشرقيين الذين جاؤوا الى لبنان انما جاؤوا لخدمة بلادهم • ان هذا يعرفه الدكتور الحداد والدكتور البسام وغيرهما من اللبنانيين • ولكن المعضلة الكبرى هي ان اللبنانيين أنفسهم يجهلون مصلحة لبنان !•

كان لا بد من قراءة رسالتَي الحداد والبسام معا ، وذلك لغير سبب • وكما نجح الدكتور الحداد في ابراز دور البطريركية المارونية في اعلان دولة لبنان الكبير ، كذلك نجح الدكتور البسام في عرض وتحليل الاتجاهات السياسية في جبل عامل ١٩١٨ – ١٩٢٦ •

تتألف رسالة الاول من مقدمة عامة (موسعة وغنية) وقسمين فيهما تسعة فصول [١٧] وخاتمة • وتتألف رسالة

= ١٩٢٠ ، هذا القرار لم يتخذ بصورة تلقائية على خلفية تلك العلاقات التاريخية الوطيدة بين الفرنسيين والموارنة ، بل كانت هناك مسارات معقدة جدا ، أدت في النهاية الى ان يتخذ الفرنسيون هذا القرار المصيري. و (اذا استعرضنا) بعض المواد والوثائق التاريخية يتبين ان قسما كبيرا من متخذي القرار من الفرنسيين لم يرغبوا ولم يريدوا ولم يكونوا معنيين باقامة دولة لبنان مثلما قامت عليه في عام ١٩٢٠ ». السفير ١٨ – ١٢ – ١٩٨٥ ص ١١

(١٧) الفصل الاول من القسم الاول : السيطرة الاوروبية ، الفصل الثاني : لبنان والحركة الفيصلية ، الفصل الثالث : أي وطن وأي انتداب ، الفصل الرابع : التحرك اللبناني الرسمي الاول .
الفصل الاول من القسم الثاني : البطريركية المارونية =

الثاني من مقدمة (متواضعة) وستة فصول [١٨] • فما نفتقده في الواحدة نجده في الاخرى • بيد أن مقدمة رسالة الدكتور الحداد هي ، في ذاتها ، بمثابة قسم يكاد يكون مستقلا ، بل هي المدخل الفكري الى لبنان الكبير ، بحيث تناولت الواقع الجغرافي والمراحل الاساسية في التاريخ اللبناني ، كما القت نظرة على تاريخ لبنان القديم والوسيط حتى شملت السيطرة العثمانية ، التي انهتها الحرب العالمية الاولى ، وكان الكلام على : امارة الجبل وعلاقتها بلبنان ، عهد القائمقاميتين ، نظام المتصرفية ، لبنان الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ – ١٩١٨ ، اواخر العهد العثماني ونهاية الحرب العالمية الاولى •

ليس غريبا ، اذن ، أن يعتمد الدكتور الحداد المصادر والمراجع نفسها التي اعتمدها الدكتور البسام• وانما الاهم والانفع ، بالنسبة الينا جميعا ، هو ان الدكتور الحداد قد

= والكيان اللبناني. الفصل الثاني : البطريرك الياس الحويك يكمل المسيرة . الفصل الثالث : قضية الوفد الرابع. الفصل الرابع : المواقف والعرائض اللبنانية . الفصل الخامس . الصراع الدولي والحقيقة اللبنانية .
(١٨) الفصل الاول : الحكومات العربية المؤقتة في جبل عامل الفصل الثاني : جبل عامل بين الامير فيصل والفرنسيين . الفصل الثالث : المقاومة العاملية للاحتلال الفرنسي. الفصل الرابع : خضوع جبل عامل للفرنسيين، الفصل الخامس : جبل عامل وولادة دولة لبنان الكبير : (الارض ، الحدود ، السكان) . الفصل السادس : جبل عامل في لبنان الكبير .

أتيح له الاطلاع على وثائق جديدة لم تنشر بعد وأخصها يوميات المطران عبد الله الخوري ، فكشف عنهافي اطروحته فيما تسنى للدكتور البسام الحصول على مخطوط «وسائل ومسائل » للسيد عبد الحسين شرف الدين أحد ابرز رجال الدين العامليين الذين قاوموا الانتداب الفرنسي ومشروع لبنان الكبير ، وعلى « مفكرات » سليمان ظاهر ، ممثل « دار الاعتماد العربي » في النبطية فكشف هو ايضا عنها.

واذ يختم الدكتور البسام رسالته فيقول :

« ويؤكد الدكتور ادمون رباط ان الدستور اللبناني لم يكن من وضع اللبنانيين ، لا بنصه الفرنسي ولا العربي الركيك .

اما عن معالجة الدستور لمشاكل « الطوائف والاعراض المختلفة » في لبنان فان كوتنان ــ بيرون يقول ان هذا الدستور (كان بالفعل ابعد من ان يتناسب مع مستوى التطور السياسي للشعب اللبناني وغير معبر اطلاقا عن حاجاته وامانيه) .

«وأخيرا،هل اصبح الانتداب أكثر صحة من الامس؟ كما توقّع دي جوفنيل » [١٩] .

يختم الدكتور الحداد ، من جهته ، رسالته فيقول :

(١٩) البسام : ص ٢٤٨ .

« واخيرا على الرغم من كل الظروف فقد عرف لبنان الكبير حقبة من البحبوحة والازدهار والانتاج والشمولية والتحدي القوي لما يتعلق بالمستقبل . وهو بحاجة اليوم للعودة الى ذاته المميز بعيدا عن تضارب المصالح الخارجية الدينية والسياسية والإثنية ، لكي تتطور الصيغة الكيانية لبقائه دولة وحكما ضمن اطار الثوابت الحضارية التاريخية التي طبعته منذ أجيال وقرون » [٢٠] .

افلا يكون الباحثان : الحداد (الماروني ــ الجبيلي) والبسام (الشيعي ــ العاملي) متفقين ولو شكلا ؟

بين حرب اليوم وحرب الامس مرايا مصقولة . فلكي نعرف الماضي والحاضر لا بد من النظر الى هذه المرايا . وما همّ ان هي تعددت أو اختلفت في الشكل ، فجميعها من لبنان واليه . فما بالنا لا ننظر اليها ؟

١٩٨٥/١٢/١٨

(٢٠) الحداد : ص ٣٣١ .

(٢)
من جبل الدروز الى دير المخلّص

كتاب « جبل العرب » (صفحات من تاريخ الموحّدين الدروز ١٦٨٥–١٩٢٧[1]) لمؤلفه الاستاذ حسن أمين البعيني هو جبل لجبل ، وان تلاقيا فإما على ظهر حصان عربي أصيل وإما فوق شاربين كأنهما جناحا نسر،و« حنّا روَيْنا سيوفنا من القوم »[2] ليست كلمة سر ، بل باب مفتوح على

(١) ٣٧٧ صفحة من القياس الكبير ، مجلد ، الى ملاحق وعددها ٥١ ، الى فهرس الاعلام ، وفيه تقديم من مشيخة عقل الطائفة الدرزية ، بقلم الشيخ محمد ابو شقرا (٢٥ شباط ١٩٨٤) ، دار النهار للنشر ومنشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، الطبعة الاولى ١٩٨٥ .

(٢) من اغنية بصوت المرحومة اسمهان الاطرش :

« يا ديرتي مالك علينا لوم
لا تعتبي لومك على من خان
حنا روينا سيوفنا من القوم
مثل الردي مانرخصك باثمان =

« الجبلين » فمن طأطأ رأسه ودخل منه فهو آمن ، ومن تكبّر أو تضايق واستنكر برز لقتاله العقّال قبل الجهّال اذ ان الدروز كـ « طبق النحاس ، اذا ضربت احدى نواحيه اهتز كله » (ص ٥٠) .

لولا التهجير الطائفي ، الذي نشهده منذ اكثر من عشر سنين ، لقلنا لصاحب « جبل العرب » : نعم . نعم . ان ما صنعته حوافر خيلكم هو الزمن الموعود ، والكيان المعهود وقد يُتَوقّى السيف وهو مُغْمَد . وربما قلنا له ايضا : انتم الاصل وسواكم الدخيل .

ولكن غساسنة حوران وموارنة الشوف وروم عاليه وبحمدون والاقليم لهم علينا وعليكم حق ، فان ضاع او تبدد ، فحقنا لا بدّ هالك ، إن لم يكن اليوم فغدا ، وإن بقي منه شيء فمثل بين الامثال : « عقّال بلا جهّال ضاعت حقوقهم، وجهّال بلا عقّال راحوا قطايع»(ص١٢٧/١٢٨) .

● **الدير والجبل**

في وثيقة عن تاريخ « دير المخلص » (جون–الشوف)

= لا بد ما تمضي ليالي الشوم
وينعز جيش قايده سلطان
وان ما اخذنا حقنا المهضوم
يا ديرتي ما احنا الك سكان »

ودوره ، قدمها الوفد البطريركي للروم الكاثوليك ، الى السلطات السورية ، ما يلي :

« ١ ــ دير المخلص مؤسسة دينية ، رهبانية ، ثقافية ، اجتماعية ، يرجع تاريخ تأسيسه الى عام ١٦٨٣ .

٢ ــ مؤسسه المطران افتيموس بن ميخائيل الصيفي من مدينة دمشق .

٣ ــ ثلث رهبانه تقريبا من الجنسية السورية .

٤ ــ خلال تاريخه الطويل كان رمز التعايش بين الطوائف والاديان، ومكان تلاقي الفاعليات الوطنية، والبيت المفتوح لكل محتاج وملهوف . وطوال امتداد الحرب اللبنانية منذ عام ١٩٧٥ استقبل وفود المهجّرين من كل انحاء لبنان . وكان استقبل عام ١٩٤٨ وفود الفلسطينيين التاركين ارضهم ولمدة ثلاث سنوات متواصلة .

٥ ــ تخرّج من رهبانه علماء لغة عربية وادب وتاريخ وفلسفة ، وبرز ثمانية بطاركة وستون اسقفا .

٦ ــ فيه مكتبة عامة تضم ١٨ ألف مجلّد وألفي مخطوطة قديمة ومجموعة كبيرة من التحف والايقونات .

٧ ــ تعرّض في تاريخه الطويل ، وبالتحديد منذ عام ١٧٧٧ الى عام ١٨٦٠ لخمس هجمات نُهب فيها وأُحرق

وقُتل ستون راهبا من رهبانه . وها هو سنة ١٩٨٣ يتعرض لهجمة جديدة مماثلة لسابقاتها ويُشرّد رهبانه ولا سيما منهم الشيوخ في كل الانحاء .

٨ ــ دير المخلّص مركز ديني مسيحي ذو شهرة عالمية أصر رهبانه على البقاء حيث هم في منطقة مختلطة الاديان والمسيحيون قلة فيها ، ليبقى رمز التعايش وتلاقي الاديان. بضربه اليوم تُضرب صيغة العيش المشترك ويثبت مخطط الفرز السكاني » .

وناشدت الوثيقة السلطات السورية قائلة :

« نستجير بكم للمحافظة على هذا البيت الوطني الكبير ، خصوصا لاعادة الرهبان والراهبات الى بيتهم وكثيرون منهم سوريون ويطلبون مساعدة الدولة السورية دولتهم » [٣] .

---

(٣) النهار : ٢٣ــ٥ــ١٩٨٥ ، ضم الوفد الى دمشق البطريرك مكسيموس الخامس حكيم ، المطران اندره حداد ، الاب عصام درويش ، الاب عبدالله حميدية ، وممثلا عن دير المخلص .
وللاطلاع على تاريخ دير المخلص بالتفصيل، فهناك كتاب: « تاريخ الرهبانية الباسيلية المخلصية (قسمان) ، فالاول : سيرة الطيب الذكر المطران افتيميوس الصيفي رئيس اساقفة صور وصيدا ، ويشتمل على تاريخ انشاء رسالته الرهبانية الكاثوليكية وتشييده دير المخلص ، بقلم الخوري قسطنطين الباشا المخلصي، مطبعة دير المخلص ١٩٣٣ . ومما جاء في =

. . . .

= الفصل السابع والعشرين منه(في نشأة الرهبانية المخلصية وأصلها) :

« لا بد من التنبيه بان أصل الرهبانية المخلصية اقدم عهدا من دير المخلص الحالي الذي ما قام الا بافرادهم وما تشيد الا لاقامتهم بعد أن كثروا في صيدا حتى ضاقت بهم دار المطران معلمهم هناك فاقتضى الحال حينئذ ان يشيد لهم هذا الدير لسكناهم فيه » .

ويتابع الخوري الباشا قائلا :

« واذا رجعنا الى سجل دير المخلص نجد في اوله ذكر تلاميذ المطران ورهبانه الاولين الذين كانت لهم يد في تأسيس وتشييد هذا الدير الشريف . ومعما (ومع ما) في هذا الذكر من الايجاز المخل جدا نستطيع ان نستدل منه على ان رهبان دير المخلص الاولين كانوا يقيمون في مزرعة مشموشة (بطريق الايجار او الضمان من صاحبها الشيخ قبلان قاضي الذي كان يعتبر لذلك العهد شيخ مشايخ الدروز) قبل قيام هذا الدير .

فان السجل المذكور يذكر اولا بعد ذكره المطران افتيميوس عن الخوري ابراهيم الطوطو الدمشقي الاصل انه نذر وارتسم كاهنا من يد معلمه المطران ١٦٨٤ ، ثانيا عن الخوري نعمة زيادة البانياسي الاصل انه نذر وارتسم كاهنا من يد معلمه المطران سنة ١٦٨٥ ثالثا عن الشماس أثناسيوس نصر من غريفة (الشوف) انه نذر وارتسم شماسا من يد معلمه المطران سنة ١٦٨٢ ومات ودفن في صيدا سنة ١٧٠٩ ، رابعا عن الخوري اغناطيوس البيروتي الذي خلف معلمه فيما بعد على كرسي صيدا انه نذر وارتسم كاهنا من يد معلمه المطران سنة ١٦٨٤ .

وبعد ذكر سيرافيم طاناس ابن اخت المطران واسطفان عطا الله يفهم ان تلاميذ المطران كانوا في اواخر القرن السابع عشر لا يقلون عن عشرة رهبان على اقل تقدير . وبالتالي كانت =

وفي كتاب « جبل العرب » تحت عنوان « رأيان في النزوح الدرزي » نقرأ الآتي :

« في انتقال الدروز الى جبل العرب رأيان يحسن التوقف عندهما . الرأي الاول يقول : « ان استقرار آل الحمدان في الشمال الغربي من جبل حوران لم يكن حسب بعض الروايات بسبب النزاع القيسي اليمني بين الدروز ودولة المعنيين شرقا » (٤) . والرأي الثاني يقول : «وكما ان الفائض من السكان المسيحيين هاجر الى بلدان الغرب، هكذا وجد الفائض من السكان الدروز في حوران موطنا ثانيا » (٥) (ص ١٦٨) .

وحَدَث لجبل العرب (جبل الدروز) ما حدث

= دار المطران او قلايتهم في صيدا لا تسعهم فضلا عن كونهم لا يستطيعون الاقامة في صيدا وجوارها ولا يستطيعون ان يعيشوا عيشة مشتركة كرهبان في بيت أو في دير بدون ان يكونوا عرضة لكل تهمة ، ولكل بلاء من طغام الجند وسواهم » الامر الذي حدا المطران الخروج الى مزرعة مشموشة حيث اخذ رهبانه يشتغلون هذه المزرعة حرثا وزراعة ويستغلونها لحسابهم ويقيمون فيها غالبا كلهم او بعضهم وهم بحمى وحماية الشيخ المذكور (قبلان قاضي) حكما وفعلا لا يعارضهم في عمل معارض ولا يتعدى عليهم احد الى ان تم لهم بعناية المخلص اقامة هذا الدير فيها على اسمه ممجدا الى اليوم والى ما شاء الله تعالى » (من ص ٢١٠ — الى ص ٢١٥) .

(٤) ذكر هذا الرأي الدكتور عباس ابو صالح في كتابه « تاريخ الموحدين » ص ١٩٦ .

(٥) الدكتور فيليب حتي: تاريخ لبنان ، بيروت ١٩٧٢ ص ٥٧٨

لدير المخلص ، اذ هجَر الرهبان المخلّصيون ديرهم ، وهجر الدروز « جبلَهم » ثم عاد كل الى موقعه ، ثم هجر، ثم عاد ، ، ثم هجر ، ثم عاد •

الا ان الجبل ، اليوم ، مطمئن ، أو هكذا يبدو ،فيما الدير يعاني محنة جديدة قاسية وخطيرة ، ايقوناته في مكان، ورهبانه في مكان آخر ، وهو في وحشة رهيبة يعذّبه بُعد القلب عن المودات ، مثلما الهم والانقطاع والقلق والغموض •

جبل الدروز (جبل العرب) ودير المخلص وُلدا في زمان واحد ، ومرّت عليهما أحداثُ ونكبات قرنين وربع القرن من السنين ، فصمد الدير كما صمد الجبل ، وصان كل منهما حريته وكرامته ، كما لو أنهما توأمان •

لماذا الكلام على دير المخلص ، ونحن في صدد قراءة « جبل العرب » ؟

لأن الدير الآن في ذمة « الحزب التقدمي الاشتراكي» ودروز الشوف ، والجبل في ذمة الدولة السورية •

هل يعود الرهبان المخلّصيون الى ديرهم ، الذي عمره من عمر جبل العرب ؟ أم ان كل شيء قد انتهى حسب اعتقاد السيد وليد جنبلاط ؟

يقول الاستاذ البعيني :

« وخلال فترات متعددة ، متقاربة احيانا ، ومتباعدة أحيانا أخرى ، تحوّل الجبل الى مسرح للحروب ، وتأثر بالنزاع القيسي اليمني • وكان أفدح النكبات التي تعرّض لها دخول تيمورلنك عام ٨٠٢ هـ • فخرّب البلاد ، وأهلك العباد ، وغوّر الينابيع • ففُقد الامن ، وانتشرت فيه الفوضى ، ونزح منه مسلموه ، وبقي فيه بقية من النصارى فأصبح وطنا للعربان (كما يقول سعيد الصغير) •ولا تزال بقايا آثار مملكة سيع شاهدة على هذا الخراب والتدمير ، وهي معروفة في الجبل باسم خرائب سيع» (ص ٢٢) •

ان هذا معناه أن الدروز قد انتزعوا الجبل انتزاعا، أو هم احتلّوه احتلالا ، فاذا ما قامت اليوم ، أو غدا ، جماعة من المسلمين الدماشقة مثلا ، وادّعت انها هي صاحبة الجبل الشرعية ، وطالبت بالرجوع اليه ، وكانت لديها القوة الكافية التي قد تمكّنها من تحقيق مأربها هذا ، فهل نقول : ليرجعْ « الحق » الى صاحبه ؟ أم نقف الى جانب الدروز ونناضل معهم حتى لا يتشرّدوا مثلما تشرّد مسيحيو الجبل اللبناني ورهبان دير المخلص ؟

على أن مؤسس دير المخلص المغفور له اسقف صور وصيدا للروم الكاثوليك (١٦٨٢ ـ ١٧٢٣)المطران افتيموس الصيفي قد اتخذ مقرا لرهبانيته في أرض للدروز الشوفيين ، أي حيث يقع دير المخلص المهموم ، حبا

وكرامة ، لا بالسيف أو البندقية ، وكان عزيزا على الدروز، اقطاعيين ومشايخ وعامة ، اذ كان محبا لهم ، فوثق بهم وأركن اليهم آمنا مطمئنا (٦) ، وعلى نهجه سار خلفاؤه

---

(٦) في الفصل الرابع عشر من كتاب « تاريخ الرهبانية الباسيلية » يقول المؤلف الخوري قسطنطين الباشا : « .. نعم ان الابرشية (ابرشية المطران الصيفي) كانت واسعة كثيرا بطولها وعرضها . الا انها كانت غير عامرة . بل كانت اقرب الى الخراب مما هي الان (١٩٣٣) عليه من العمران بسكانها وكان النصارى فيها – واكثرهم من الروم اقل عددا واقل شأنا (بسبب الهزيمة التي حلت في الصليبيين سنة ١٢٩١ لتترك آثارها على مدن السواحل اللبنانية من عكا الى اللاذقية فتجعلها خالية من النصارى طيلة ثلاثة قرون أو اكثر) ، اذ كان اكثر سكان مدينة صيدا من المسلمين نظير ما هم اليوم وأكثر سكان بلاد بشارة وجبل عامل من المتاولة أهل الشيعة العلوية وكذلك كان يقال لها بلاد المتاولة . وكذلك كان اكثر سكان جبل لبنان ووادي التيم من الدروز ولذلك كان يعرف بجبل الدروز .

« ومهما كان عدد رعيته في هذه البلاد قليلا ومهما كان شأنهم حقيرا كان يرجو ان يكثر عددهم وتتحسن احوالهم بنعمة الله وتعود هذه البلاد الى عمرانها السابق بالنصرانية بعودة سكانها الى ايمان المسيح الصحيح بكنيسة واحدة كاثوليكية . وهو الامر الذي جعله غاية له باعماله . وكذلك كانوا هم يرجون من الله بهمة مطرانهم الجديد وغيرته عليهم وببركته لهم في زيارته لهم في بيوتهم تحل نعمة الله عليهم » .

اضاف :

« ولا بد ان يكون (المطران افتيميوس) قد تعرف حينئذ باسياد البلاد واصحاب المناصب في صيدا او البلاد التابعة لها وزارهم في منازلهم وعقد معهم عهد صداقة وموالاة ولم تكن حينئذ ايالة صيدا ذات شأن عظيم نظير ايالة الشام =

. . . .

= وغيرها بسعتها وبجندها ورجالها ودخلها . وكان الباشا أو الوزير صاحب الايالة يقيم هو واكابر رجال دولته وجنده في القلعة المعروفة في صيدا . ولم يكن لديه من الجند المعروف لذلك العهد في دمشق وغيرها من الانكشارية والقبيقول والسكبان او السكمان واليمق سوى المغاربة (من بلاد المغرب في افريقيا) وبعض الارناؤوط من الاتراك ويطلق عليهم اسم فداويين . وكلهم مأجورون من الوزير نائب السلطان . ولم تكن ولايته تتجاوز فعلا وحقيقة ساحل البحر جنوبا الى حيفا اذ كانت البلاد الموازية للساحل من كسروان الى بلاد صفد تعد تابعة لايالة صيدا حكما فقط . لان أهلها كانوا لذلك العهد على طريقة العشائر المعروفة . فكان لكل عشيرة او طائفة من عدة عيال مقاطعة خاصة من هذه البلاد . وكان لهم منهم وفيهم زعيم له الامر المطاع في قومه ومقاطعته بلقب شيخ او أمير او شيخ مشايخ البلاد على ما يكون له ذلك عن ابيه وجده .

وكان في كل مقاطعة شيخ يتولى الامر فيها بالارث عن ابيه وجده ويقيم في القرية التي تكون كلها او اكثرها من املاكه وقد يكون له غيرها عدة ضيع .

وكان شيخ مشايخ الدروز المقدم فيهم بعد الامير الكبير الشيخ قبلان قاضي من سلالة الشيخ بدر الدين العنداري يقيم في المختارة من الشوف . واذ انقرضت سلالته بعد موت ولده الوحيد ورثه بارزاقه ومقامه صهره زوج ابنته الشيخ علي جنبلاط الكبير .

وكان الحاكم في وادي التيم الامير موسى شهاب صهر الامير احمد السابق ذكره زوج ابنته وهو والد الامير حيدر شهاب الذي تولى الحكم في لبنان بحق الارث لجده الامير احمد المذكور آخر بني معن .

وكان حينئذ شيخ مشايخ بلاد بشارة مشرف ابن علي الصغير زعيم عشائر المتاولة وكان يقيم في قلعة تبنين (مسقط =

الرؤساء العامون والرهبان ، حتى كان الدير للدروز كما هـو للمسيحيين ، كـذلك بالنسبة الى المسلمين ، السنّة والشيعة ، ممّن هم جيران الدير ، ولا أبالـغ ان قلت ان الـدير والمدرسة المخلّصية التي أنشئت فيما بعد ، قـد استفاد منهما الدروز والمسلمون علما وأدبا أين منهما ذلك

رأس الوزير نبيه بري ، رئيس حركة « أمل ») واليه تنسب مزرعة المشرفة (المشرف) المعروفة في تلك البلاد .

« وقد تعرف بهم المطران (افتيميوس) وتقرب اليهم اولا بـواسطة أولاده الروحيين أبناء أبرشيته الذين كان لهم مع اكثر اصحاب المناصب علاقات شتى من تجارية وصناعيـة وغيرها اذ كانت التجارة والصناعة الشرقية او البلدية في يد النصارى الروم في صيدا والبلاد التابعة لها حتى تكاد تكون خاصة بهم . ولم يكن يزاحمهم عليها ولا يصلح لها سواهـم ولم يكن يهتم بها المسلمون ولا المتاولة ولا الدروز الا نادرا فكان من النصارى الروم الكاتب والقيم على الاشغال وعـلى حاصلات المواسم وتصريفها واستيراد مـا يحتاج اليـه دار الشيخ والامـير والوزير ومنهـم كان التـاجر والسمسار والصائغ والحداد والنحاس والقرداحي عامل السلاح والمعمار والنجار والحياك والحلاق والفلاح والبستاني وغيرهم من اصحاب المهن الرفيعة والوضيعة .

وقد ازداد المطران قربا اليهم بلطف حديثه ورصانتـه وأدبه مع سعة معارفه لا سيما علم الطب العربي الذي كان فيه نعم الدارس ونعم الممارس وما كان أقل الاطباء في هذه البلاد في تلك الايام وما اكثر حاجة الاكابر والحكـام فيها الى الطب والاطباء ولا سيما اذا كان الطبيب لا يبتغي أجرة لعمله . بل يقصد بذلك الخير للناس والاجر من الله » (من ص ١١٤ الى ص ١١٧) .

الذي جرى لهذا الدير وهذه المدرسة على أيـدي بعض الدروز والمسلمين !!

● خصائص ومفاهيم

لئلا تتحوّل بكلامنا عن « جبل العرب » (جبـل الـدروز) الى « دير المخلص » ، ونُتَّهم بالخروج عـن الموضوع ، نعود الى خصائص المجتمع الدرزي وتكوينه، حيث يقول المؤلف الاستاذ البعيني : « وهم (الدروز) شعب محارب ، يهوى الفروسية ، ويجيد ركوب الخيـل والرماية ،ويعتمد في حروبه على الفرسان الكثر من المشاة ويتقن الكر والفر » ، « وقد علـّمَتْهم التجارب والظروف القاسية أن يبقوا دائمـا مستنفرين ، وتـاريخهم حافـل بالمعارك ، لا ينتهون من حرب حتى يبـدأوا بـأخرى »

أضاف يقول :

« ويتباهون (الدروز) بالسلاح لا بالمال والارزاق والبيوت • وسلاحهم منذ وطأت أقدامهم الارض الحورانية لا يفارقهم ، بل يلازمهم كظلـّهم يحملونه بيد والمحراث بيد أخرى • وشاعرهم ، شبلي الاطرش ، يوصيهم بوضعه تحت الوسادة تحسـّبا للاخطار والمفاجآت • (إيـاك سيفك أن يفارق وسادتك) • فالأعزل من السلاح فريسة للاعداء •

وتُظهرهم الصور حاملين البنادق ، أو متمنطقين بالسيوف وأيديهم على مقابضها » .

ويقول أيضا :

« وهم مجتمع عشائري . وهذه الخاصة مصدر مفاهيم متعددة كان لها نتائج بارزة وخطيرة في حياتهم مثل التعصب للعشيرة ، واعتماد مبدأ وراثة الزعامات ، والاخذ بالثأر ، والاحتكام للعنف في أكثر الاحيان لمعالجة المواضيع . ويبدو هذا جليا في تاريخ علاقاتهم المشتركة ، وعلاقاتهم مع غيرهم ، الحافل بالخلافات والمعارك ، ففي فترات السلم بينهم من جهة ، وجيرانهم والدولة العثمانية من جهة أخرى ، حصلت نزاعات داخلية نكّدت عيشهم ، وعكّرت صفاء الامن والسلام في ربوعهم » (ص ٤٨ / ٤٩) .

وكثيرا ما يعاني الدروز النزاعات الداخلية ، التي «منها خلافات فردية في عشيرة أو بين رجلين من عشيرتين أو قريتين قد تبقى في اطارها الضيّق ، وقد تتوسع لتشمل جميع أفراد العشيرة والعشيرتين أو القريتين ، وخلافات على رئاسة العشائر وأسبقية الاختام وترتيب البيارق ، وخلافات بين عشيرتين على النفوذ أو بين قريتين على الارض » (ص ٤٩) .

وقد يمتد الخلاف بين عشيرتين درزيتين « ليشمل

العشائر الموالية لهما » ، وعندئذ « يصبح الموضوع أكثر تعقيدا » وتغدو المصالحة أمرا شبه مستحيل . و « يطلق الدروز على النزاع الداخلي اسم (مهاوشة) . ويقولون (تهاوش فلان وفلان) أو (تهاوشوا) » (ص ٤٩) أي ثاروا واضطربوا وعظم بينهم الشر .

ويعزو الاستاذ البعيني أسباب « المهاوشات » الدرزية وتفاقمها الى « انعدام السلطة النظامية ، وغياب القانون ، وسيادة المفهوم العشائري الذي يقضي بنصرة الاقارب والعشيرة والبلدة وبوجوب الاخذ بالثأر . ونادرا ما تحسم هذه الخلافات بتدخل الدولة ، وانما تحسم بتدخل الوسطاء والمصلحين الذي ينتهي بعقد الراية بين المتخاصمين» (ص ٤٩/٥٠) .

ويمضي المؤلف في الكشف عن خصائص الدروز المجتمعية فيقول :

« والذي تجدر الاشارة اليه هو أن نزاعات دروز الجبل لم تحصل على أساس حزبي كدروز لبنان بل على أساس فردي وعشائري وطبقي ، وارتدت طابع الحركات الشعبية ضد زعماء الاقطاع . ونزاعاتهم مع غيرهم تنسيهم خلافاتهم الداخلية . فعلى صوت المدفع يجتمعون ، وفي وجه أي خطر خارجي يتّحدون وخاصة في القضايا التي تتعلق بهم ككل » . اذ ذاك « يتم التفاهم وتجمع الالفة

من أكبر شيخ حتى أحقر فلاح » على قول الجنرال الفرنسي اندريا في « ثورة الدروز وتمرّد دمشق » . « فليس أسهل على الدروز من الاتحاد في الخطر والشدة ، مهما تأزمت خلافاتهم وتباعدوا عن بعضهم » (ص ٥٠) . وكما يقول المرحوم محمد كردعلي في « خطط الشام » : « فاذا جاءهم الغريب والدماء تسيل بينهم كالسيول لا يلبثون أن يكونوا يدا واحدة ، ويصدقوا قتال عدوهم المشترك بما فيهم من شمم وإباء عربي . وعند الشدائد تذهب الاحقاد » . (خطط ج ٣ ص ١٠٨) (البعيني : ص ٥٠) .

وأما « اذا لم تلغ مواجهة العدو المشترك خلافاتهم نهائيا ، فهي على الاقل تجمّدها . فحين كانت طريقهم الى دمشق غير آمنة بسبب تعديات البدو والحوارنة ، كان عليهم أن يسيروا قوافل كبيرة لتوفير الحماية لانفسهم . فاذا وُجد بينهم متخاصمون ، واستعصى حل خلافاتهم ، يوافقون قبل اجتياز حدود الجبل على وضعها تحت البلاطة أي تجميدها ، ويظهرون جميعا بمظهر اخوة متعاونين ضد الخطر الذي يتهددهم حتى اذا عادوا ، ووصلوا الى تخوم الجبل ، وزال عنهم خطر الغريب ، قال الخصوم لبعضهم قبل أن يتفرقوا : (الذي كنا عليه نحن عليه) » (ص٥٠).

● أين الخطأ ؟

قبل الحكم على الدروز أو لهم ، يجب ألا ننسى

الظروف السياسية والاقتصادية والدينية العربية والاسلامية ، التي تحيط بهم ، كما بالمسيحيين ، واليهود ، وسائر الاقليات في دنيا العرب والاسلام ، من علويين واسماعيليين وشراكسة وأكراد وتركمان وغيرهم وغيرهم . وان مال الدروز أو غيرهم الى العزلة ، فلكي يُبعدوا عن أنفسهم ظلم الاكثرية وتسلطها وتعنّتها ، الا ان هذا ، يا للاسف ، قد أوقعهم ، كما أوقع سواهم ، في أزمات قضت أو كادت تقضي على الآمال الوطنية والقومية التي سعى اليها المخلصون من علمائنا ومفكرينا وأدبائنا وشعرائنا وصحافيينا وبعض زعمائنا ، من المسيحيين والمسلمين .

هل أخطأ دروز جبل العرب حتى استحقوا غضب البدو والحوارنة والعثمانيين ، وغضب الدماشقة وابراهيم باشا والفرنسيين ؟

يقول الاستاذ البعيني :

« وفي البدء تقبّل السكان وجود المصريين بارتياح (اثر انتصار ابراهيم باشا على عكا وجميع مدن بلاد الشام) وخاصة المسيحيين منهم الذين رحّبوا كثيرا باصلاحاتهم على صعيد النظام والادارة ، بينما عمّ التذمر صفوف المسلمين لمساواة المسيحيين بهم . وما لبثت الثورات أن نشبت ضدهم في فلسطين وسورية ولبنان وكان أشدها عنفا ثورة الدروز في حوران » .

وقال أيضا :

« وأسباب هذه الثورات عديدة ، وتتلخص بلجوء ابراهيم باشا الى التجنيد ، والتسخير ، والتجريد من السلاح ، وفرض الضرائب الباهظة ، والاحتكار . وبعد أن قضى على الثورات التي نشبت ضده في جوار البحر الميت ونابلس وصفد والخليل وطرابلس وعكار وبلاد العلويين ، عمد الى تجنيد دروز جبل لبنان ، ونجح في ذلك بمساعدة الامير بشير » (ص ١٧٨) ولم يمض زمان على تفهّم ابراهيم باشا لواقع الدروز ، حتى« غيّر سياسته معهم ، وأراد في أواخر ١٨٣٧ أن يجندهم في جيشه ،وعهد الى شريف باشا (حكمدار بلاد الشام) تنفيذ ذلك . فاستدعى هذا الوالي زعماءهم الى دمشق ليعلمهم بأمر التجنيد ، فنزل شيخ الدروز يحيى الحمدان ، وتواقع على شريف باشا (راجيا) أن يرفع عنهم ظلم النظام ، فما أمكن الا أن يقدّموا مائة وسبعين زلمه (رجل) . وتعهّد أن يمشي مائتين فدان زيادة ، اذا ارتفع عنه النظام» .ولكن الباشا تمسك بقراره ، فأظهر الشيخ الحمداني « اصرارا في كلامه ، وثباتا في موقفه ، مما أغاظ الوالي ، وأخذته الحدّة عليه،فتقدّم منه وصفعه في المجلس . فعاد الحمداني من دمشق كاظما غيظه » (ص ١٧١) . واشتعلت الثورة الدرزية ضد المصريين في حوران و « انضم الشمانمائة متطوع درزي ، ومعظمهم من دروز الشوف ، وهبّ الشوافنة

الدروز للاشتراك في معارك وادي التيم . لكن العامل الذي وقف حائلا بينهم وبين الثورة من قبل ، أي موقف الامير بشير ، كان نفسه عاملا أساسيا في هزيمتهم ،واخماد الثورة في سفوح جبل الشيخ ، لان الامير بشير أمدّ حليفه ابراهيم بألفي مقاتل مسيحي لاخضاع مواطنيهم . وهذا ما أدى الى تعكير العلاقات بين الدروز والمسيحيين ، وكان أحد أسباب تفجير الصراع الطائفي في لبنان بعد انسحاب المصريين » (ص ١٨٧) .

وما يقال عن ثورة الدروز ضد المصريين ، يقال مثله ــ بشكل أو آخر ــ عن ثورتهم ضد العثمانيين وضد الفرنسيين ، كذلك عن علاقتهم مع البدو (العربان) والحوارنة الذين طالما حاولوا اخضاعهم لنفوذهم وفرض الضرائب عليهم . ودائما هنالك زعماء دروز ، روحيين وسياسيين ، يخالفون الدروز الثوار ، ويقفون الى جانب الوالي أو الدولة أو المحتل ، وهم كغيرهم من القبائل والعشائر والمجتمعات ، التي مزقتها وتمزقها الاطماع والمصالح المادية والمداخلات الخارجية الاقليمية منها والدولية .

من جبل الدروز الى الجبل اللبناني الى دير المخلص الى جبل عامل الى جبل العلويين الى بلاد السريان الى

جبل الاكراد الى بلاد الآشوريين والآلام لا تنتهي، والاحزان لا تطوى ، والقضايا لا تُسوّى •

ومما لا شك فيه أن كتاب « جبل العرب » الذي جعله مؤلفه في قسمين : الاجتماعي والسياسي ، فاشتمل الاول على السكان والاقتصاد والخصائص العامة والنواحي الاجتماعية والنواحي الدينية والعادات والتقاليد الدرزية، بينما اشتمل الثاني على « جبل العرب ١٦٨٥ – ١٨٤٠ » و « جبل العرب ١٨٤٠–١٩٠٠ » (نزاعات في الداخل والجوار) و « جبل العرب ١٩٠٠–١٩١٤» (حرب المعجل وحملة سامي باشا الفاروقي) و « جبل العرب في الحرب الكبرى في العهد الفيصلي (١٩١٤ – ١٩٢٠) و « جبل العرب في عهد الانتداب الفرنسي » (١٩٢٠ – ١٩٢٥) و « ثورة جبل العرب عام ١٩٢٥ » و « ثورة جبل العرب تتحول الى ثورة سورية كبرى ، هذا الكتاب يضج بحب الاستاذ البعيني لقومه وعشيرته وأبناء مذهبه ، ويحبه لابطال الدروز ولا سيما منهم الشيخ ابراهيم الهجري وسلطان باشا الاطرش والشيخ الشاعر أبو علي قسّام الحناوي والشاعر أسعد نصار وشبلي الاطرش وزيد الاطرش ومتعب الاطرش وغيرهم • فهؤلاء رموز درزية عربية «قاتلوا بعيدا عن مناطقهم في دمشق والغوطة والاقليم والقلمون ولبنان متجاوزين كل نظرة اقليمية وطائفية » (ص ٣٧٤) •

فهل للاستاذ حسن أمين البعيني وغيره من المثقفين الدروز ممّن يتفانون في الدفاع عن حق الدروز في جبل العرب ودمشق والجبل اللبناني وفلسطين ، أن ينظروا ايضا الى حق الرهبان المخلّصيين وغير المخلصيين في الرجوع الى أديارهم المنكوبة والمغتصبة والى «الحق الاسمى الذي للمهجرين المسيحيين في أن يتابعوا تاريخهم في جبلهم ومناطقهم أي الموطن الذي وُلدوا فيه ورأت عيونهم النور ووُلد فيه آباؤهم وأجدادُهم واختلط ترابهم الغالي بتراب هذا الوطن الاعلى » ؟؟ (٧) •

فكما الظلم واحد كذلك الحق واحد • ومن ناضل من أجل حق عشيرته أو طائفته أو جماعته أو حزبه فليناضل من أجل كل حقٍ سليب •

١٩٨٥/٩/٨

---

(٧) المحامي أمين خوري : النهار ١٩٨٥/٧/٧ من كلمة له القاها في القصر البلدي–ذوق مكايل، يوم السبت ٦–٧–١٩٨٥ حيث عقد « مكتب الجبل » مؤتمرا بمناسبة مرور سنتين تقريبا على مأساة الجبل.

(٣)

بعلبك في التاريخ

يقول ابن خلدون في أول صفحة من كتابه :

« اما بعد فان فن التاريخ ... في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الاول ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ... وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » .

ويقول مهدي عامل معلّقا :

« نحن هنا ، في هذا النص ، أمام مفهومين نقيضين للتاريخ : مفهوم يقف عند ما هو من التاريخ ظاهره ، ومفهوم يخترق الظاهر الى الباطن في بحث عن حقيقة التاريخ ، ليجعل منها موضوعا لعلم ، المفهوم الاول ليس بعلمي ، ولا يسمح بتكوين التاريخ في علم . وهو الذي

كان سائدا في «تاريخ» المؤرخين السابقين على ابن خلدون، انه مفهوم تجريبي ، ومن حيث ان الواقع التاريخي فيه يتماثل مع ظاهره . وظاهره أحداث الماضي تتابع بلا رابط أو مبدأ يفسرها » [١] .

بناء على هذا النص الخلدوني وتعليق مهدي عامل عليه ، نحاول ــ هنا ــ قراءة كتاب« بعلبك في التاريخ»[٢] لمؤلفه الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي [٣] .

بديا من الضروري أن نشير الى الاعتقاد بأن المؤلف ميَّز وهو يميز بين بعلبك في التاريخ وتاريخ بعلبك ما دام قد اختار الاول واستبعد الثاني . ولو هو لم يفعل ذلك لجاء كتابه مخالفا للاصول كافة التي ينبغي للمؤرخ معرفتها ثم اتباعها والتقيد بها والمحافظة عليها .

والحق أقول ان مقدمة سماحة المفتي الشيخ حسن خالد لا تتفق ، بكل ما جاء فيها ، مع « بعلبك في التاريخ » وبخاصة حيث يقول سماحته :

---

(١) مجلة « الطريق » العدد شباط ١٩٨٤ ص ١٨٤ :مقالة بعنوان « في علميــة الفكر الخلدوني » بقلم مهدي عامل .
(٢) ٦٤٥ صفحة من القياس الكبير . مجلد . يتضمن صورا وآثارا وفهرس الاعلام. المكتب الاسلامي ــ بيروت، لصاحبه زهير الشاويش ، الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
(٣) رئيس دائرة الشؤون الدينية في دار الفتوى ومفتش التعليم الديني في مديرية الاوقاف الاسلامية .

« ولم تفته (يقصد المؤلف) في بحثه هذا قطعة مهمة الا وبحثها بحثا دقيقا أو أشار اليها اشارة رقيقة • ولقد وصف مدينــة بعلبــك وصفا جغرافيا واجتماعيا شاملا واستعرض الفتوح والمعارك التي توالت عليها عبر الزمن ، وأبرز دور الفتــح الاسلامــي لها في عهد ثاني الخلفــاء الراشدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه » (ص ٦) •

وبهذا يكون صاحب المقدمة قد حمّل المؤلف والكتاب ما يحتاج تحقيقه الى عمل أشمــل وأعم ، ان في النقــل والسرد ، وان في البحث والتحليــل ، مما نحن في صدد الكلام عليه •

و«بعلبك في التاريخ» يستدعي منا التنبه الى الفوضى التي تدب فيه ، مع علمنا بما يبذله الاستاذ زهير الشاويش ــ صاحب المكتب الاسلامي للنشر ــ من مجهود في «مجال نشر الفكــر الاسلامي والتاريــخ الاسلامي والتشريــع الاسلامي مما أثرى المكتبة العربية والدينية في مختلف البحوث وبخاصة في علم الحديث والتفسير والفقه » كما يقول سماحة المفتي خالد نفسه •

فبعد مقدمة من المؤلف (من ص ١١ الى ص ١٦) هناك «خلاصة تاريخ بعلبك» (من ص١٧ الى ص٢٤) و «بعلبك في التاريخ » (من ص ٢٥ الى ص ٣٢) حيث الكلام عن موقــع بعلبــك و « ضبط اسم المدينــة بعد التعريب »

و « مداخيل بعلبك » و « تمهيــد » (؟) و « أين كانت الوقعة ؟ » و « توطئة » تتألف من تسع عشرة كلمة فقط لا غير، تلاها مباشرة «الاسلام وعلاقاته بالديانات الاخرى» (من ص ٣٣ الى ص ٤١) ، ومما قالــه في هذا المكان ، الذي لم نعرف هل هو فصل أو باب أو أي شيء آخر :

« ان جميــع ما في الارض من مختلف الديانات قد سميت بأسمائها ، إما بالنسبة الى اسم رجــل خاص ، اما (كذا) أمة معينة ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها ، فالمسيحية فعلا أخذت اسمها من السيد المسيح عليه السلام ، وسميت البوذية على اسم بانيها بوذا » •

ويقول :

« واشتهرت الزردشتية باسمها لان مؤسسها وحامل لوائها كان زرادشت •

« وكذلك ظهرت اليهوديــة بين ظهراني قبيلة تعرف بيهودا فسميت باليهودية ، وهلم جرا » •

ويقول أيضا :

« الا الاسلام فانه لا ينتسب الى رجل خاص • ولا الى أمة بعينها ، وانما يدل اسمه على صيغة خاصة يتضمنها معنى كلمة الاسلام • ويظهر من هذا الاسم بنفسه انه ما عني بايجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال ، وما هو

خاص بأمة معينة دون سائر الامم . ولا علاقة لهذا الدين بفرد أو أمة أو قطر خاص » (ص ٣٣) .

هذا الكلام ان دل على شيء فعلى تشبث المؤلف ـ الشيخ بالخبر دون النظر في الباطن ، وكأنه لم يسمع بما استحدثه العلماء والمؤرخون من طرق ومناهج في كتابة التاريخ هي بمثابة القوانين في بيداء الوهم والغلط .

فما من دين أو عقيدة أو حزب الا وله هوية . ولا شيء يسيء الى الاسلام اذا ما قلنا انه ينتسب الى العرب الذين حملوه الى العالم فجاهدوا وناضلوا في سبيل انتشاره ، وها هم ـ اليوم ـ يواصلون جهادهم ونضالهم من أجل المحافظة على هذا الدين ، وقد بلغ العالم مرحلة خطيرة أين منها الازمنة المظلمة وعصور الانحطاط ، اذ لا حرية الا حرية الآلة ، ولا سيادة الا لمن يملك أدوات القمع والقهر والتعذيب ، وترى الشعوب ، كل الشعوب ، كأنها خلقت لتحيا وتموت بأمر تجار الحرب وسماسرة الاسلحة وذوي النفوذ المادي والسياسي ، الذين هم ـ بالتالي ـ شركاؤهم بل « اخوان » لهم ، تجمعهم الطبقة (Class) الواحدة على الرغم من العقائد والايديولوجيات المتباينة المختلفة .

ولست أدري ما حاجة « بعلبك في التاريخ » الى « الاسلام وعلاقاته بالديانات الاخرى » الذي يبدو مثل شعرة بيضاء في رأس فتى أسمر لا يتجاوز عقدا من

السنين . وحبذا لو يكشف لنا المؤلف ـ الشيخ معنى قولته هذه : « والاسلام في مدة قصيرة من الزمن ، انتشر لواؤه في الخافقين ، وأكمل له هذا الدين ، وأتم به النعمة على الناس أجمعين » (ص ٤٠) .

أما اذا كان الامر كما يتصور الشيخ الرفاعي فعلا ، فلماذا الصراعات الحادة بين الناس اذاً ، وقل بين أبناء الدين الواحد ، أم ان « النعمة » أيضا تسبب التقاتل والتذابح بين أبنائها بعضهم ضد بعض ، كما الحرمان والظلم والامتيازات الطبقية والطائفية ؟!

وما أحوجنا أيضا الى لغة العقل التي مذ غابت عن ساحاتنا غاب ما سواها وصرنا هدفا لكل ريح حتى تمزّقنا كل ممزّق .

ونستمر في قراءة « بعلبك في التاريخ » فيطالعنا كلام على « المساجد » (من ص ٤٣ الى ص ٥٤) و « المدارس » (من ص ٥٥ الى ص ٥٧) والنتيجة واحدة : لا شيء يبقى في الذاكرة اذ المعلومات ضعيفة أو سطحية أو مرتجلة .

ففي بعلبك مساجد وقبتان وأضرحة ومحاريب وزوايا ومقامات وقبور ، حشرت كلها حشرا ، كما لو المؤلف لم يكلف نفسه عناء البحث والتقصي في بطون الكتب والمعاجم والدراسات عن هذا المسجد أو ذاك ، أو عن هذه الزاوية الصوفية أو تلك ، وجميعها من الآثار البعلبكية التي

تستصرخ المخلصين كي يلتفتوا اليها ، وقد أهملتها الايام والاحداث فبعضها خرب وانهار ، وبعضها ما زال يقاوم استحياء وقد صح فيه المثل العربي : « لا حي فيرجى ولا ميت فينسى » •

يتكلم الشيخ الرفاعي عن مسجد رأس العين مثلا فيقول :

« يقع هذا المسجد في رأس المنتزه المعروف بهذا الاسم، وقد تم بناؤه في عهد الملك الظاهر بيبرس البنقداري (كذا) ومساحته بالامتار المربعة، الف وستماية وخمسة وأربعون•

«وهو مؤلف من حرمين ، داخلي وخارجي ، قائم على أعمدة ، وتعلوه مئذنة ، شيدت فوق باب الجامع الرئيسي، من الجهة الشمالية لم يبق منها سوى قاعدتها ، ومدخله مزخرف بنقوش جميلة يتوسطه كتابة (؟) تشير الى العهد الذي بني فيه » •

ويقول أيضا :

« والجامع والمئذنة خربان ، فقدت مئذنته عبر القرون الغابرة وجدره قائمة ، ومنذ عهد قريب رمم ترميما أثريا تماسكت بفضله الجدران ، وقد أنشىء في جنبه قناة ، تتزود مباشرة من مياه نبع رأس العين ، وتخترق الساحة الخارجية للمسجد ، وقد نظمت على جانبيها مقاعد خاصة للمتوضئين » •

ويختم الشيخ حديثه (كل حديثه) عن هذا المسجد فيقول :

«وترميم جامع رأس العين هو خير دعاية ناطقة لحضارتها السابقة واللاحقة» (ص ٤٦) •

لم يأت الشيخ الرفاعي بجديد ••• وقل ان هذا هو أسلوبه في موضوع «المساجد»، مع الاشارة الى أن الشيخ لم يذكر أيا من المساجد الشيعية أو « الحسينيات » التي هي أيضا من وجوه بعلبك المشرقة • ولا هو ألمح الى قبور أولياء الشيعة البعلبكيين وأشرافهم ومشايخهم وساداتهم؟! أما عن المسيحيين فصمت مطبق مريب وهو يعرف ان النصارى في بعلبك هم قبل السنّة والشيعة، ولهم كنائسهم وأديارهم ، ولهم أيضا حضورهم الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي • فليس « بعلبك في التاريخ » الا لاجل بعلبك الاسلامية وتحديدا بعلبك السنّية والرفاعية على الاخص ؟!

ولعل « المساجد » أوفر حظا ، عنده ، من «المدارس» ففي بعلبك ، كما يقول المؤلف ، ثلاث مدارس : النورية ، والامينية ، والطاووسية •

وبما ان الشيخ « مستعجل » فالموضوع لا يحتمل المعالجة ، وهات يدك والحقني • الطريق قدومية •

حقا ان المثل يقول: «من أحب شيئا أكثر من ذكره» ولكن ماذا عساه (الشيخ) يقول في المدرسة الامينية ، مثلا ، وهي التي تنتسب الى « واقفها امين الدولة ، أبي الحسن بن غزال ، وهو وزير الملك الصالح اسماعيل بن ايوب ، وكان يهوديا من السامرة مقيما في بعلبك فأسلم وتقرب من الملك الصالح حتى استوزروه » ؟

على ان أبا الحسن هذا « لم يكن محمود السيرة (؟) وانتهى به الامر الى ان مات شنقا سنة ٦٤٨هـ » (ص ٥٧).

هل كل من مات أو يموت شنقا لا يكون محمود السيرة ؟

ألم يُشنق عبد الغني العريسي والاخوان محمصاني وكلهم بيارتة وسنّيون على يد السفاح جمال باشا ؟

اذا كان كل من يُقتل شنقا أو رميا بالرصاص أو صلبا أو رجما غير محمود السيرة ، فلا بد أن جمال باشا هو صاحب السيرة العطرة والحميدة اذاً ؟!

على كل ، الشيخ قاسم الرفاعي لم يعطنا أي برهان يثبت التهمة الملصقة بابن غزال ، وهذا من عيوب المؤرخ — والباحث التي كشفها علم التاريخ الذي يُعتبر ابن خلدون رائده بحق .

لولا حق الكلمة عليَّ لاعلنت يأسي وتركت « بعلبك في التاريخ » الى غيره من الكتب المتراكمة أمامي .

هنالك : « بعلبك في الفتح العربي الاسلامي » (من ص ٥٩ الى ص ٦٥) والشيخ لا يزال يركض ويركض . فمن حكاية بطريق بعلبك مع أبي عبيدة الجراح (ص ٦٠) الى زمن السلطان الملك الظاهر بيبرس البنقداري (كذا) الذي صارت له البلاد في سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م (ص ٦٢) والاحداث « مختصر مفيد » كأن يقول مثلا « وما زالت بعلبك منذ فتحت يتولاها نواب من يلي دمشق (كذا) من بني أمية ومن بعدهم بني العباس (كذا) حتى استولى عليه (كذا) احمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م » (ص ٦١) .

وبعد هذا الايجاز الذي يصفعك كما الملاكم ، يأتيك بأخبار السيل العظيم الذي « أتى ، يوم الثلاثاء الواقع في ٢٧ صفر ٧١٧هـ/١٠ ايار ١٣١٨م ، من الجهة الشرقية فخرب المدينة وأهلك من أهلها عددا غفيرا على السور (كذا) فدفعه وطفحت المياه على المدينة فأخربت منها ما ينيف على /١٥٠٠/ بيت، ودخلت الجامع فخربت بعض جدرانه، ورمت المنبر ، وبلغت الى رؤوس العمد ثم اندفعت على البساتين ، فأتلفت شيئا كثيرا ولم يزل المكان الذي أتت منه المياه يدعى « وادي السيل » الى الآن (ص ٦٢) (نقله عن تاريخ بعلبك (؟) كما يقول .

وبما ان الشيء بالشيء يُذكر، ينقل الشيخ «وصف لشاهد عيان» و «وصف آخر لاضرار السيل» ليختم هذا الموضوع بـ «بلاء من نوع آخر» حيث يقول :

« ففي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ابتليت بعلبك بمصاب من نوع آخر، فان تيمورلنك بعد أن صب ويلاته على حلب، قصد دمشق، فمر على بعلبك ولم يدخل اليها » (ص٦٥).

هنا أيضا، استنكف المؤلف ـ الشيخ من التفصيل، الا اذا كان مرور تيمورلنك من أمام بعلبك يعني البـلاء والمصاب ؟!

بعد « بعلبك في الفتح العربي الاسلامي » الى « بعلبك في عهد التخلف » (من ص ٦٣ الى ص ٨٠) الى « بعلبك في العصر الحديث » (من ص ٨١ الى ص ٩٢) واللبيب من الاشارة يفهم . بل يجب أن يفهم .

ويأتي دور « العلماء » ... وأولهم الياس، نبي بعلبك (من ص ٩٥ الى ص ١٠٥) ولـولا رواية مفصلة في أمر هذا النبي، أخرجها ابن عساكر عن الحسن ـ قد لا تكون صادقة ـ لبقي الياس هو اما ادريس واما الياسين واما الاثنان معا . خبر . مجرد خبر . أما عن الاسباب والدوافع السياسية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية التي صنعت من الياس هذا أو ادريس أو الياسين نبيا لبعلبك، فالعلم

عند الله وحده، كما يقول الشيخ قاسم، ولا أحد يعرف ماذا ترك هذا النبي .

واذ يترك المؤلف ـ الشيخ، الياس، يمسك الإمام الاوزاعي (من ص ١٠٧ الى ص ١١١) هكذا مرة واحدة، متجاوزا العصور والاجيال، التي بينهما، وما شهدت من حضارات لا تزال ملء التاريخ .

وكمن يغرف ماء البحر بقمع الخياط، أي الكشتبان، غرف الشيخ قاسم الرفاعي من بئر الاوزاعي، وبقي يعاني العطش الشديد .

كذلك فعل الشيخ مع الإمام أحمد بن حنبل ومحدثي المذهب الحنبلي وفقهائه في بعلبـك، الذين منهم الشيخ عبد الله اليونيني الكبير، الذي أكرمه الله حتى استطاع أن يحول الخمر خلا(؟)، كما روى القاضي يعقوب ـ قاضي البقاع قائلا : « كنت يوما بدمشق عند الجسر الابيض في مسجد هنـاك وقت الحر، واذا بالشيخ عبدالله قـد نزل يتوضأ، واذا بنصراني عـابر على الجسر ومعه بغل عليه حمـل خمر، فعثر البغل على الطريق ووقـع الحمل على الطريق، وليس في الطريق أحد، فصعد الشيخ وصاح بي، يا فقيه تعال، فجئت فقال : عاوني، فعاوتنـه حتى حمل الحمل على البغل، وذهب النصراني، فقلت في نفسي : مثل الشيخ يفعل هذا، ثم مشيت خلف البغل الى العقيبة،

فجاء الى دكـان الخمّار !! ويحك ، هذا خل ، فبكى ،
وقال : والله ما كانت الا خمرا ، وانما أنا أعرف العلة ، ثم
ربط البغل في الحال ، وصعد الى الجبل الى عند الشيخ ،
فدخل عليه وقال : يا سيدي أنا أشهد ان لا اله الا الله ،
وان محمـدا رسول اللـه • وصار مريدا من مريديه »
(ص ١٢٩/١٣٠) •

صدّق أو لا تصدّق • القاضي يعقـوب روى « عما
شاهده بأم عينه » ، والشيخ قاسم الرفاعي نقل ذلك وكله
ثقة وايمان بالفقيه والشيخ الذي « كرّمه الله » ؟!

ان هذا الخبر يجب أن يؤخذ كما هو ، يقول المنطق
الرفاعي • والرفاعي ، المؤلف ، ابن أسرة لها « طريقة »
عرفت باسمها ، وكل أبناء هذه الاسرة « أوليـاء » ذوو
« كرامات » ، وما عليك الا أن تقول : نعم • نعم •

ماذا بعد ؟

هناك صلاح الدين الايوبي والمقريزي والعلاّمة الدقر
(محمـد علي بن عبد الغني) (١٨٧٠ — ١٩٤٦) •••
والشيخ الرفاعـي لا يزال يركض ويركض بينما المسافـة
قصيرة جدا ، أي من ص ١٣١ الى ص ١٤٤ •

وهناك أيضا « بعلبك والقرن الرابع عشر الهجري »
(من ص ١٤٧ الى ص ١٧٧) حيث يحلـو للمؤلف أن

يتحدث عن نقيب الاشراف محمد بن قاسم الرفاعي البعلبكي
(١٨٣٥ — ١٩٣٠) والطبيب مصطفى بن محمد الرفاعي
(١٨٩٤ — ١٩٦٣) وسعيد حيدر ، والمؤلف نفسه (قاسم
الشماعي الرفاعي) والدكتور سليم حيدر (١٩١١—١٩٧٩)
(الشيعي) مسك الختام •

يخطىء الشيخ — المؤلف في تحديد القرون ، فيعتبر
الفترة الممتدة بين ٦٠١ و ٧٠٠ القرن السادس (ص ١٢٤)
والصحيح :القرن السابع ، ويعتبر الفترة الممتدة بين ٧٠١
و ٨٠٠ القرن السابع (ص ١٢٤) والصحيح القرن الثامن،
وهكذا مع كل قرن حتى القرن الذي لا يزال واقفا !

أما موقفه من الحرافشة الشيعة فمعروف، اذ يحمّلهم مسؤولية
خراب بعلبك (ص ٦٨) ويعدّهم من الظالمين والمتسلطين
(ص ٦٨) ، وربمـا لهذا السبب انصرف عن الشيعـة
البعلبكيين باستثناء سعيد وسليم حيدر ؟

هل انتهى الكتاب ؟

المؤلف — الشيخ ما فتىء يركض ، ولكن الى الوراء
هذه المرة • فمن صفحة ١٧٩ الى ص ٦٠٢ ، ترجمـات
لرجال بعلبكيين وغير بعلبكيين : من شرف الدين ابن ابي
عصرون الى الشيخ هبة الله التاجي ، والعدد كبير كبير ،
(٤٢٧) شخصية ما عدا السهو والغلط • ومعظم الترجمات

من « الدرر الكامنة » لابن حجر العسقلاني و « الضوء اللامع » للسخاوي • ولا شيء من عند المؤلف ـ الشيخ قاسم الرفاعي سوى التوثيق وجمع ما هو منشور هنا وهناك وهنالك •

ولعل هذه الترجمات أهم ما في « بعلبك في التاريخ » نظرا لاهمية بعض الشخصيات من اصحابها •

ويضيع منك جزء كبير من بعلبك ، اذ المؤلف يرى بعين واحدة (One sided eye) •وبعلبك كما يفهمها هي بعلبك الرفاعيين وحسب ، وكل من سواهم ، شيعة ومسيحيين ، لا يساوون شعرة في مفرق رفاعي واحد مهما يكن صغيرا •

١٩٨٤/٥/٢٠

(٤)
تاريخ بعلبك

الآن ، صرت اعرفك يا بعلبك • اذا قالوا : الشمس ، قلت : بعلبك ، واذا قالوا : الارض ، قلت : بعلبك •

فمن كان يجهل تاريخ بعلبك ، ولو هو عرف الشرق والغرب ، فكأنه لم يعرف شيئا •

هذه المدينة ، التي تصارع ، اليوم ، الاهمال والحرمان ، كم ألبست° وأطعمت ملكا وخليفة وسلطانا وباشا وأميرا وزعيما وقائدا وتاجرا وحكيما وفيلسوفا وكاتبا وشاعرا وفقيرا ويتيما وسائلا ومحروما ؟!

مدينة على درب ••• وقلعة على رأس الامم هي بعلبك •

المجد أعطي لها فنثرته ، على الدنيا ، بسخاء عظيم ، وما قلّت الامور •

ظلّت بعلبك ضائعة ، في بطون الكتب ، حتى أيامنا هذه ،فانبرى واحد من أبنائها ، هو الدكتور حسن عباس نصرالله [1] ، يبحث عنها ، ليلملمها ، ويجمع أشتاتها ، وأشلاءها ، متحديا الصعوبات والعراقيل ، على اختلاف أنواعها ومصادرها ، فاذا كتابه « تاريخ بعلبك » [2] شهادة له ولها ، ستبقى ما بقيت بعلبك .

أما بالنسبة اليه (المؤلف)، فهو برهان لا يحتمل الشك، على وفائه لمدينته وأهلها ، اذ نجح الدكتور نصرالله، كمؤرخ وأديب ، في عمله هذا ، وان بدا لك ، منه ، بعض هوى ، فلأنه بعلبكي ... ومعجب بل مسحور بذلك الاسم : بعلبك ، وقد قال ، في المقدمة ، يناجي مدينته :

« بعلبك، تاريخك نقشه الازميل في الصخر، وزركشته يد مترفة بالفن ، مدّت أناملها العنمية [3] الى أشعة

(١) مولود في بعلبك (لبنان) ١٩٤١ ، حائز على دبلوم دراسات عليا ، دكتوراه في الادب العربي من جامعة القديس يوسف (بيروت)، استاذ في الجامعة اللبنانية (فروع البقاع).

(٢) ١٣٨٣ صفحة من القياس الكبير، جعله المؤلف مجلدين، مؤسسة الوفاء بيروت ـ لبنان ، مع ثبت للمصادر والمراجع، ويتضمن صور بعض الاعلام والاشخاص وصور المعالم البعلبكية ، طباعة فاخرة وانيقة ، لولا بعض الاخطاء لجهة الترتيب ، وتلك مسؤولية الناشر حسبما اعتقد ، اذ ان الكتاب تم طبعه في بيروت ، وكان المؤلف في بعلبك ، فلم يقدر له مراجعته اثناء الطبع ، على ما قاله لي عبر الهاتف .

(٣) عنم البيان : خضبه ، العنم ، الواحدة « عنمة » (ن) : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب . العنمي : الحسن الوجه المشرب حمرة .

الشمس ، ولملمتها حزما من الضياء ، وزعتها على رباك الحقول ، فصرت مدينة الشمس ، وبات في الكون شمسان : الام في السماء ، والطفلة في الارض . ولما كان النور مورد الجمال أمّت رحابك حوريات السماء ، أحببن التطواف في حرمك ، ومع الزمن شبّت الطفلة ، والوهج يلفّها وأتاها الانسان ينشد حقيقتها فاستعصت عليه ، فنسبها الى عالم الاساطير ، وغدت بعلبك أسطورة منسوجة من أصابيغ الشمس والجمال والقدسية والقِدم ،ومنحها الفكر مواهبه اتقانا وابداعا » .

أضاف : « وغبطت الايام في سعادتها فرماها الدهر بسهم الحقد عن قوس الحسد . ولفّها الظلام ، وما عابها، فالبدر يدركه الكسوف ليلة التم . أما أنت فطال كسوفك، حتى غاب تاريخك عن ندّاتك ، ومن هن بعمر أحفادك... وخلت المكتبة العربية من سِفْر يروي قصتك محبوكة الاحداث ، متلفعة بثوب الحضارة » (ص ٩).

وأما بالنسبة الى بعلبك ، فقد وجدت ذاتها، واستردت ما أخذ منها ، سلبا أو اغتصابا ، فهي ، منذ الآن ، سفر الاسفار ، وملحمة الملاحم ،فان تناساها الحكام والحاكمون، فلن ينساها كل ذي ضمير حي ، أو فكر خلاق مستنير، أو أدب رفيع ، أو شعر بديع ، أو علم عظيم .

ومن المؤكد ان البعلبكيين سوف يجدون ، في «تاريخ

بعلبك » للدكتور نصرالله ، ما يحرّضهم على تحطيم الاغلال والقيود التي تحاصرهم وتأكل من ارادتهم وعنفوانهم وشجاعتهم وشهامتهم وصبرهم على المآسي والنكبات .

لقد حان الوقت يا بعلبك !

ان مدينة تقبض على مجد مثل مجدك ، لا يجوز أن تبقى رهينة الموت .

من حلب الى الشام الى بغداد الى صفد الى عكا الى القاهرة ، والى طرابلس فبيروت وصيدا وصور ، وأنت كما أنت ، المحور والدائرة ، قلب (سوريا المجوّفة) بل قلب كل سوريا .

عجبا هذا النوم الطويل يا بعلبك !

النار ما زالت تحت الرماد ، وما عاد فيك موضع غامر .

« هذه معالم مدينة حسدتها الايام ، وكادت لها فحسرت نشاطها وحدّت من تساميها ، وأنزلتها من مملكة هانئة سعيدة ، الى ولاية فمحافظة فقضاء ، فقرية كبيرة.. » (ص ١٧) .

ومن دواعي الاسف والحزن الشديدين ، ان « تعيش (بعلبك) مخاضا عسيرا لتشرذم ابنائها زمرا وفي كل زمرة زمر ورؤوس » (ص ١٧) .

لماذا ؟

حجر الحبلى « الملقى في المقلع » (ص٣٦/٣٧) بعيدا عن « أمثاله الثلاثة في التريالیتون (التريليتون (Trilithon) (ص ٣٧) [٤] مسألة وأي مسألة !

ذكر الدكتور حسن نصرالله ، نقلا عن د. فيليب حتي ، ان كاتبا فرنسيا رأى بعض أعمدة بعلبك قد نكّست فقال :

---

(٤) يقول الدكتور نصر الله في وصف الهيكل الكبير او هيكل جوبيتر : « ويحيط بالهيكل الكبير من الغرب والشمال سور ضخم ، بني السور الشمالي من تسعة احجار فقط طول الحجر منها تسعة امتار ونصف المتر ، وارتفاعه اربعة امتار وعرضه ٣ امتار و ٦٥ سنتم . اما الجدار الغربي (الدكة الكبيرة) فتضم مدماكين : الاول مركب من ستة احجار يبلغ طول الواحد منها عشرة امتار وعلوه اربعة امتار . ويعلوها المدماك الثاني معجزة الهياكل واسطورتها وقد تألف من ثلاثة احجار طول كل منها ١٩ مترا ونصف وارتفاعها ٤ امتار و ١٠ سنتم وعرضه ٣ امتار و ٦٥ سنتم أي ٢٩٢ مترا مكعبا بزنة (٧٢٠ طنا) (اعطيت قياساتها بالقدم ... طول الحجر ٦٢ قدما وعرضه ١٤ قدما ، وارتفاعه ١١ قدما ، وزنته ٧٥٠ طنا) وهذه الضخامة اذهلت زوار القلعة واثارت الشكوك في نفوسهم ، اذ كيف استطاع الانسان ان يرفعها الى مكانها ، وعرفت هذه الجلاميد في كتب الكلاسيكيين بالحجارة الثلاثة (Trilithon) (تريليتون) وهناك شبهها وما زال في مقلعه ، جنوبي بعلبك . ويعرف (بحجر الحبلى) (ص ٤٦٢) وهو « اكبر حجر منحوت في العالم طوله ٧١ قدما (٢١ مترا) وعرضه ١٤ قدما (٥ امتار) وارتفاعه ١٣ قدما (٤،٣٠ م) ويكون حجمه ٤٥١ مترا مكعبا وزنته اكثر من ٤٠٠٠ قنطار اي الف طن (ص ٤٨٤) .

« اذا تداعت هذه الاعمدة وسقطت يوما ، فان العالم يشعر بأن شيئا من الجمال قد فارقه ، ويشعر لبنان انه لم يعد هنالك شعر تحت سمائه » (ج ١ ص ٤٦١/٤٦٢) .

ماذا يقول البعلبكيون ؟

هل نترك ذلك للطبيعة والسياسة ونقول « علينا وعلى أعدائنا » أم نتحدى الخراب والدمار ، ونوقف عجلة الانهيار السريع ؟

ان الذي أنشأ مدينة بعلبك وبنى قلعتها هو الشعب البعلبكي والزمان والحب . أو كما يقول الدكتور نصرالله «... اذا كانت لكل شعب رائعة خالدة (un chef d'œuvre) فمعجزة شعبنا تجسّدت في هياكل بعلبك . ان الياذة هوميروس الاثر الغني ، لم تكن من صنع شاعر واحد، انما هي نتاج شعب بكامله ، نهد له هوميروس وجمعه في ملحمته ، وهياكل بعلبك أسطورة شعب لم يقتصر عملها على عبقري واحد انما أولدتها عباقرة المدينة ولبنان وسوريا وروما ...» (ج ١ ص ٤٤٤) .

اذاً فما لنا وللخرافة القائلة بأن سليمان (الملك الحكيم) هو باني هذه المدينة ــ العالم ؟!

بعلبك حقيقة وليست أسطورة ...

بعلبك لم تهبط من السماء ...

واذ يرد الدكتور نصرالله على ميخائيل ألوف (صاحب « تاريخ بعلبك ») وعلى المؤرخين العرب ممن « عزوا بناء هياكل بعلبك لسليمان » (ج ١ ص ٣٦/٣٧) يقول عن الجمال البعلبكي :

« وُهب البعلبكيون الفصاحة ، والبعلبكيات مسحة الجمال الفاتن لان فينوس (Venus) أشادت في هذه المدينة عرشها ، وأشاعت في نواحيها سحر الجمال ، حتى قيل : ان أجمل نساء آسيا نشأت في بعلبك » (ج ١ ص ٣٩) .

أضاف :

« قال الجغرافي اليوناني المجهول : اشتهر بعض الرجال من بعلبك بالفصاحة وهي نعمة هبطت عليهم من ربات الفنون الجميلة . وان نساء هليوبولس (بعلبك) اشتهرن بجمالهن الفتان ، وهي نعمة أغدقتها عليهن الهة الجمال « فينوس » « اتركاتس » السورية ، التي كانت تحب التطواف على سفوح الجبال المحيطة ببعلبك ، وان سيدات هليوبولس كن يتمتعن بلقب اللبنانيات الفاتنات ، وكانت بعلبك تصدّر الى جانب الجميلات العديد من الموسيقيين والعازفين والبارعين ، لان جماعة من أهلها رجالا ونساء برعوا بضرب العود ، وطارت شهرتهم في البلاد البعيدة ، وكان الطلب عليهم شديدا ليس فقط في الاعياد

والمسرات بل عند تأدية الشعائر الدينية في المعابد ، وهذه الجودة في الفن مصدرها حوريات كل لبنان » .

وقال أيضا :

« من أجل ذلك شاد الاهالي في هليوبولس معبدا شهيرا لفينوس خطرت في نواحيه الشموس ، وموُرست فيه طقوس العبادة الجمالية .

واستغل البعلبكيون ـ في العهدين الروماني والبيزنطي ـ جمال حسناواتهم وأقاموا احتفالات عربيدة للغرباء ،في مواسم الاعياد وخصوصا مهرجانات«مايوماس» (Maioumass) التي اتسمت بفجور لا يحد » .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يقول ابن بعلبك أيضا ، شاعر القطرين ، خليل مطران ، في قصيدته«بعلبك» التي نشرها ، كاملة ، الدكتور نصرالله في كتابه (الجزء الثاني ص ٢٠٣/٢٠٦) :

« معبد للاسرار قام ولكن
صنعه كان أعظم الاسرار
مثّل القوم كل شيء عجيب
فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمرا يُجنى
ولكن بالعقل والابصار

وضروبا من كل زهر أنيق
لم تفتها نضارة الازهار
وشموسا مضيئة وشعاعا
باهرات لكنها من حجار
وطيورا ذاهبات آيبات
خالدات الغدو والابكار
في جنان معلّقات زواه
بصنوف النجوم والانوار
وأسوداً يخشى التحفز منها
ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب
باديات الانياب غير ضواري
في عرانينها دخان مثار
وبألحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في
كل آن روائع الزوار
ضمّها كلها بديع نظام
دقّ حتى كأنها في انتشار
في مقام للحسن يعبد بعد العقل
فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسما وأبهى
ما تحج القلوب في الانظار

اهل « فينيقيا » سلام عليكم
يوم تفنى بقيّة الادهار
لكم الارض خالدين عليها
بعظيم الاعمال والآثار
خضتم البحر يوم كان عصيّا
لم يُسخّر لقوة من بخار
وركبتم منه جوادا حرونا
قلقا بالمرس المغوار
ان تمادى عدواً بهم كبحوه
وأقالوه إن كبا من عثار
واذا ما طغى بهم أوشكوا
يأخذوا لاعبين بالاقمار
غير صعب تخليد ذكر على الار
ض لمن خلدوه فوق البحار
شيدوها للشمس دار صلاة
وأتمّ « الرومان » حلي الدار
هم دعاة الفلاح في ذلك العصر
وأهل العمران في الامصار
نحتوا الراسيات نحت صخور
وأبانوا دقائق الافكار
وأجادوا الدمى فجاز عليهم
انهـا الآمرات في الاقدار

سجدوا للذي هم صنعوه
سجدات الاجلال والاكبار »

ونشارك الدكتور نصرالله اعتقاده « ان هذا الجمال الفاتن حفز الفنانين لتجسيده رسوما تزين الهياكل » أو كما يقول « وبتنا نجد مئات التماثيل (الدمى كما دعاها خليل مطران) المجسّمة للمليحات البعلبكيات تنتصب الى جانبها تماثيل الآلهة . وكثرة الصور النسائية توحي بأن النقّاشين كانوا يستقدمون حسناوات المدينة ويستلهمون ملامحهن الساحرة الاخاذة ، وينقشون صورهن رموزا لانصاف الآلهة » (ج ١ ص ٤٠) .

من هنا نبدأ !

مع الجمال والحب ننطلق لنبعث بعلبك المشرقية . الحب للجمال ، والجمال للحب ، وكلاهما طاقة كبرى ، لا غنى للواحد عن الآخر . وليست المعجزات أو الخوارق الا من أعمال الحب والجمال ، وحيث توجد الروائع يوجد الحب والجمال بكل تأكيد .

صحيح ان بعلبك « شهدت تجمعات مكثّفة للفرس» (ص ١٠٤) و « استقبلت أسرى الروم ورهائنهم » (ص ١٠٤) ثم جاءها العرب (المسلمون) والاتراك والارمن والشركس واليهود والمماليك ، الا ان الواقع ، على الرغم

من مرارته ، يفرض ، اليوم ، بل يحتم وحدة البعلبكيين ، المسلمين والمسيحيين ، التي بدونها لن تنهض بعلبك من بين الرماد •

أولئك الاقوام انتشروا أيضا في المدن السورية ، وأقاموا فيها ، تجمعهم وحدة المشاعر والمصالح والاهداف، حتى أصبحوا يتكلمون اللغة الواحدة (العربية)ويتدينون، في معظمهم ، بالاسلام ، غير ان السياسة عملت وما تزال تعمل على تمزيقهم وتفكيكهم ، ما جعل هذه المنطقة ، ومنها بعلبك ، مسرحا للصراعات الطائفية البغيضة ،فكانت النتيجة أن ذل هذا الشرق العزيز ، وخفت صوته ، اذ ضعف وبلغ أقصى الكبر •

من هذا المنطلق نتطلع الى « تاريخ بعلبك »للدكتور نصرالله ، ونعترف بأهميته وجديته ، ونلحظ مصداقيته في تعميق الشعور الوطني (National Sentiment) الذي بسبب فقدانه تكاثرت علينا المصائب والهموم ، وبتنا مهجَّرين في وطننا ، لا نملك سوى الصمت والخضوع لهذا القدر الغاشم اللئيم •

على ان المؤلف يرى عمله هذا « جزءا من (موسوعة بعلبك) التي يبغي « اصدارها لتشمل كل النشاطات

السياسية والثقافية والاقتصادية والعمرانية ••• » (ج ١ ص ١٠) •

وبما ان الواجب يقضي العرض لهذا الكتاب ، ولو بقدر ما يسمح المجال هنا ، فسوف نحرص على نقل أكثر الاحداث ، التي شهدتها بعلبك ، اثارة ، وهي عديدة على كل حال ، على أمل أن تتخذ منها عبرة وعظة ، ولئن كان حاضرنا من أعظم الفواجع في هذا العصر •

لقد أنزل الدكتور حسن عباس نصرالله دراسته في قسمين :

ـ الاول (الجزء الاول) ضم المقدمة و « بعلبك » حيث شرح كلمة (بعلبك) وفكك رموزها وكشف معانيها ، معتمدا على « معجم البلدان » (الحموي) و « مروج الذهب » (المسعودي) و « تاريخ سورية » (الدبس) و « سفر القضاة » ومجلة « الارض المقدسة » (سنة١٨٨٢) و « المسالك والممالك » (ابن خرداذبة) و «صبح الاعشى» (القلقشندي) ، وأخذ عن بعض الباحثين الاجانب،منهم : (Macrobius) و (J. de la Roque) و (Ernest Renan) ، ويضم هذا الجزء أيضا « نشأة بعلبك»و « بعلبك في العهد الظراني » (الحجري)(٦٠٠٠ـ

٣٠٠٠ ق٠م) و « بعلبك مع سليمان بن داود » و « بعلبك في عهد الاسكندر وخلفائه » و « بعلبك في العهد الروماني» (٦٤ ق ٠ م ٠ — ٣٩٥ ب ٠ م ٠) و « بعلبك في العهد البيزنطي » (٣٩٥ — ٦٣٥ م) ٠ ان جميع هذه الفصول يغلب عليها الاقتضاب ، إما لقلة المصادر والمراجع المختصة ، واما لضآلة الاحداث التي تشجع على الكتابة ، ولعلّه للسببين معا ٠

ومهما يكن ، فلا بد من القول بأن بعلبك التي ضربتها الزلازل،غير مرة ،واجتاحتها السيول والجيوش،قد فقدت، حتما ، سجلاتها ومحفوظاتها ، وعليه يصبح التأريخ لتلك العصور السابقة على هذه الزلازل والاجتياحات الطبيعية والعسكرية ، ولا سيما زلزال(٢٠ ايار ٥٢٦ م) الذي دمَّر بيروت وخرب هياكل بعلبك (ص ٦٨) غير دقيق ، ويكون الاخذ به نوعا من المغامرة وحسب ٠

وحينما يأتي الكلام على بعلبك والفتح الاسلامي،نجد الدكتور نصرالله يصول ويجول على الكتب ، العربية والاجنبية،التي ذَكَرَتْ ، بشكل أو آخر ، من قريب أو بعيد ، بعلبك ، منقبا عن أخبارها ، وحوادثها ، الكبيرة منها والصغيرة ، محققا ومدققا ومقارنا ، فلما استقام له الامر ،

فرز بعضها عن بعض ، ثم نسّقها طبقا لمنهجية لا تقبل الطعن ٠

وهكذا ترى نفسك تمشي مع بعلبك من عهد الى عهد ، والمدينة اما في ازدهار واستقرار ، واما في شقاء ليس بعده شقاء ٠

فهنالك الامويون والعباسيون والاخشيد والحمدانيون والفاطميون والسلجوقيون والبوريون (بعلبك صدّرت حكامها البوريين ملوكا لدمشق) (ص ١٢٣) وصولا الى العهد الزنكي الثاني ثم الايوبي يتلوه « بعلبك مع المماليك» من دون أن ينسى المؤلف الغزو التتاري (ص ١٧٩) ٠

وتقع بلاد الشام في قبضة الاتراك ، ويطول هذا الاحتلال ليمتد حتى الربع الاول من القرن العشرين٠ ففي ذلك العهد يبرز ، في بعلبك ، الامراء الحرافشة(الشيعيون) لتشهد مذابح ومجازر ، ابطالها الامراء الحرافشة أنفسهم، اذ كان الواحد منهم يتآمر على أخيه أو ابن أخيه أو ابن عمه ، استجابة لرغباته وشهواته ، لان « المُلْك عقيم»حسبما يعتقد الدكتور نصرالله (ص ٢٨٦) من جهة ،وارضاء لهذا

الوالي أو ذاك ، من جهة أخرى [٥] .

ومن العهد التركي الى بعلبك مع لبنـان ، وطريق الجلجلة لا ينتهي .

ـ الثاني (الجزء الثاني) وكله تراجم ورصد لمعالم المدينة الثقافية . فتراجم الاعلام « سلكت طريق الترتيب الابجدي للاسم الاول ، وتحكي عن الاموات فقط » (ج٢ ص ٩) ، أما القسم الآخر ، الذي يتألف من أربعة أبواب ، فهو للمساجد والكنائس والحمامات والمدارس والمكتبات والصحافة والخاتمة والملاحق .

---

(٥) حري بنا ، هنا ، أن نشير الى بعض الدراسات التاريخية المفيدة ، التي تضمنها « المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام » (راجع المقدمة) وهي : « العرب والارض في بلاد الشام » . للدكتور عبد العزيز الدوري ، «مظهر من مظاهر الحكم الاموي في الشام» للدكتور عبد الامير دكسن ، « جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري » للدكتور نقولا زيادة ، «دفاع عن كرامة الحمدانيين » للدكتور جعفر شهيدي ، « المجتمع الاسـلامي في بـلاد الشام في عصر الحـروب الصليبية » للدكتـور سعيـد عبـد الفتـاح عـاشور ، « دخـول الترك الغز . . » للدكتور شاكر مصطفى ، « جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق » للسيد عبد الودود برغوت ، « بلاد الشام علاقة المماليك والعثمانيين » للدكتور تاج السر احمد حران ، و « المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الاسلامي » ، للدكتور صالح الحمارنة . ان هذه الدراسات قد تساعد على كشف ما قد غمض من تاريخ المنطقة الشامية ، ولا سيما منها المدن والقرى المتاخمة للعاصمة السورية مثل بعلبـك وزحلة وطرابلس .

والحق ان الدكتـور نصرالله قد أظهر اخـلاصا لا يجارى ، في رصده للاعمال الثقافية ، في بعلبك ، القديمة منها والجديدة ، وقد تجلّى ذلك في غير بحث أدبي مثل : « الامجد بهرام شاه ملك بعلبك وشاعرها (٥٧٨ـ٦٢٧هـ (١١٨٢ـ١٢٣٠ م) » (من ص ٧٥ الى ص ٨٧) ، « الشيخ توفيق بن حسين الصاروط (١٨٧٥ ـ ١٩٣٧ » (من ص ٨٩ الى ص ٩٧) ، « الشيخ حبيب آل ابراهيم (١٣٠٤ ـ ١٣٨٤ هـ) (١٨٨٦ ـ ١٩٦٥ م) » (من ص ٩٩ الى ص ١٣٣) » ، « السيد حسين الحسيني آل مرتضى ، تـوفي سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م » من ص ١٤١ الى ص ١٦٠) ، « خليل مطران (شاعر التجديد) (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) » (من ص ١٧٣ الى ص ٢٠٦) ، « سليم حيدر (١٩١١ ـ ١٩٨٠) » (من ص ٢٣٣ الى ص ٢٤٤) ، « طرز الريحاني عبـد الحي السليمي (١٠٣٤ ـ ١٠٩٩ هـ) (١٦٢٥ ـ ١٦٨٧ م) » (من ص ٢٦٣ الى ص ٢٧٧) ، الشيخ علي التقي زغيب (١٢٨٤ ـ ١٣٥٦ هـ) (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧ م) » (من ص ٣٧٩ الى ص ٣٩٩) ، « القطب الفقيه محمد بن أحمد اليونيني (٥٧٢ ـ ٦٥٨ هـ) (١١٧٦ ـ ١٢٦٠ م) » (من ص ٤٣١ الى ص ٤٤٠) ، « بهاء الدين العاملي (٩٥٣ـ ١٠٣١ هـ) (١٥٤٧ ـ ١٦٢٢ م) » (من ص ٤٥٠ الى ص ٤٦٩) ، « الشيخ محمد الحرفـوش (٠٠٠/١٠٥٩ هـ /

١٦٤٨ م) » ، (من ص ٤٨١ الى ص ٤٩٥) ، « الشيخ محمد باقر زغيب (١٨٨٨ ــ ١٩٦٨ م) » (من ص ٥٢٥ الى ص ٥٣٧) ، « قطب الدين موسى بن محمد اليونيني البعلبكي الحنبلي (٦٤٠ ــ ٧٢٦ هـ) (١٢٤٢ــ١٣٢٦م)» ، (من ص ٥٦٥ الى ص ٥٧٧ ، و « ميخائيل ألوف ١٨٦٩ ــ ١٩٤٦) » (من ص ٥٨١ الى ص ٥٩٦) .

لقد بلغ عدد الذين ترجم لهم الدكتور نصر الله (٤٠٤) شخصيات ، بين أديب وشاعر وفقيه ومحدث وطبيب وسياسي ، ومنهم نساء مثل : « مؤنسة المعمري » (القرن الثامن الهجري) (ص ٥٧٨) و « ملكة بنت صصري » (٦٦٤ ــ ٧٤٩ هـ) (١٢٦٥ ــ ١٣٤٨ م) (ص٥٥٥)و « كلثم ابنة معبد » (٠٠٠ ــ ٧٧٧ هـ /١٣٧٥م) (ص ٤٢٥) و « فلفلة البعلبكية » (القرن الثامن الهجري) (ص ٤٠٨) و « فاطمة ابنة البطائحي » (٠٠٠ ــ ٧١١ هـ / ١٣١١ م) (ص ٤٠٦) و « فاطمة ابنة غشم » (القرن الاول الهجري) (ص ٤٠٦) و « فاطمة ابنة البنحاني » (٧٢٠هـ ٠٠٠) (١٣٢٠ م / ٠٠٠) (ص٤٠٧) و «فاطمة اليونينية» (٦٦٥ــ ٧٣٠ هـ) (١٢٦٦ ــ ١٣٣٠ م) (ص ٤٠٧) و « فاطمة ابنة حمود» (القرن الثامن الهجري) (ص٤٠٧)و « سارة بنت الصدر » (٠٠٠/٨٦٠ هـ) (٠٠٠ ــ ١٤٢٧ م) (ص ٢١٩) و « ست الاهل بنت علوان » (٦١٣ ــ ٧٠٣ هـ

(١٢١٦ ــ ١٣٠٣ م) (ص ٢١٩) و (ست البنين ابنة يقين » (القرن الثامن الهجري) (ص ٢٢٠) و « زينب ابنة الفخر » (كانت حية سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) (ص ٢١٣) و « زينب الكندية » (٦١٠ ــ ٦٩٩ هـ) (١٢١٣ــ١٣٠٠م) (ص ٢١٣) .

وفي باب «المكتبات» يقول الدكتور نصرالله:« جفاء مكتبي عايشته بعلبك أسبابه اهمال لاواعي ، وفقر السكان وندرة المعلمين ، وغياب التشجيع الثقافي ، وانحطاط فرضته صراعات مستمرة بغية الاستيلاء على المدينة من قبل الزنكيين ، والايوبيين ، والمماليك ، والصليبيين ، والاتراك والحرافشة ... » (ص ٧٣٣) .

ويقول :

« وما زالت المكتبات الموجودة حاليا في بعلبك ملتزمة بمدلول الكلمة (القديم) فهي مستودع للكتب ، يحرص أصحابه عليه خوف ضياع بعض المحتويات ، ولا يرحبون بحرارة بالرواد طالبي المصادر والمراجع ، وكأن كتبهم تحف نادرة ، ومكتباتهم متاحف آثار ، يباح النظر ، ويحظر اللمس » (ص ٧٣٣) .

لماذا يا أصحاب المكتبات ؟

لمن أسستم مكتباتكم اذاً ؟

اذا كان للورثة فحسب ، فخير لكم أن تورثوهم أي شيء ما عدا الكتب .

الورثة ليسوا دائما من عشاق الكتب والمجلدات .

افتحوا مكتباتكم لطلاب العلم .

الكتاب رسالة الى الغير ، وليس خاتما أو قلادة أو سوارا أو مزهرية أو صحنا من الخزف .

يذكر المؤلف ، من المكتبات القديمة ، مخطوطات قسطا بن لوقا (٨٢٠ ــ ٩١٢ م) « التي ضاعت مع الزمن» (ص ٧٣٦) ومكتبة ملك بعلبك « الامجد بهرام شاه الايوبي ، ومكتبة أمين الدولة أبو الحسن بن غزال السامري ... وغيرها الكثير ، وجميعها ضاعت أو أتلفت جزئيا أو كليا ، ومكتبة ميخائيل ألوف (نزل بلميرا) » (ص ٧٤٣) .

ومن مكتبات القرن العشرين ، وكلها خاصة ، هنالك مكتبة ابراهيم محمود حيدر (ص ٧٤٤) ومكتبة عبده مرتضى الحسيني،والاخيرة يقول عنها الدكتور نصرالله «قيض لمدينة بعلبك أحد أبنائها لمسته أحرف الكلمات ، وابتسمت له سطور الكتب ، واستهوته طموحات المعرفة ... فبدأ

يلملم مصادرها ، ويقرأ بنهم مضامينها ، وهكذا بدأت رحلة السيد عبده مرتضى الحسيني ، أكبر مكتبة خاصة في الشرق الاوسط » (ص٧٤٥)،ومكتبة صالح ديب نصرالله (أسسها عام ١٩٦٤) ومكتبة الشيخ سعدون صبحي حمية (أسسها في النجف سنة ١٩٧١م) يوم نفر طلبا للعلم الديني ثم نقلها الى بعلبك سنة ١٩٧٥ م) (ص ٧٦١) وفيها « مخطوطة نسخة كاملة لفروع الكافي للمحدّث الشيعي الاثني عشري محمد بن يعقوب الكُلَيْني المتوفى (٣٢٩ هـ) بخط واضح يعود تاريخ نسخها الى خمسماية سنة تقريبا وعدد صفحاتها ٧٧٠ » ، ومكتبة محمد علي السعيد(أسسها في بعلبك سنة ١٩٧٢) ومكتبة محمد عادل الرفاعي(اسسها سنة ١٩٧٧) ومكتبة بعلبك العامة التي اسستها بلدية المدينة سنة ١٩٦٨ (ص٧٦٣/٧٦٤) .

ويشتمل الباب الخامس والاخير ، على الجرائد والمجلات البعلبكية،وهي:جريدة « بعلبك » لمؤسسها المحامي يوسف غندور المعلوف وجريدة « الاضاحي » اصدرها المحامي لطفي حيدر ، ومجلة « جوبيتر » أسسها الشاعر يوسف فضل الله سلامة ، ثم حولها الى جريدة اسبوعية دعاها « العصر » ، وجريدة « رأس بعلبك » اصدرها وديع حداد.

يختم الدكتور نصرالله كتابه بأربعة ملاحق ، منها : (الملحق الاول) وموضوعه « ندوة الخميس (مؤسسة

بعلبك الثقافية) » بقلم مؤسسها علي محمد شرف (ص٨٠٥)

الملحق الثاني « ذكريات بعلبكية » .

الملحق الثالث نص الحلف الذي اقامه عبد المطلب مع خزاعة ، وهنا يقول الدكتور نصر الله « هذا الحلف بين بني هاشم وبني خزاعة أحياه أحفادهم في بعلبك: بنو الحرفوش الخزاعيون وآل المرتضى الهاشميون » (ص ٨١٥) . والملحق الرابع صورة لدعوة من « محفل الشمس » (الماسوني) في بعلبك ، لحضور الحفلة التذكارية التي اقامها « المحفل » ، يوم الاحد الواقع في ٢٧ ايار (مايو) ١٩٢٣، «لذكر فقيد الوطن والانسانية والادب الدكتور حسين حيدر» . شارك في هذه الحفلة «الاخوان»: محمد زين ، المحامي يوسف حيدر ، الشيخ ابراهيم منذر علي ناصر الدين ، (صاحب جريدة المنبر) ، الشيخ علي زغيب (قصيدة) ، الدكتور ملحم فريجي ، المحامي يوسف المعلوف (قصيدة)، نجيب الكحتوني (خطاب في الماسونية والانسانية) المحامي فؤاد ابي ناصر (قصيدة) ، الدكتور ميشال عون ، ميخائيل ألوف ، وديع الشرتوني (قصيدة)، المحامي لطفي أفندي حيدر (قصيدة) ، والدكتور محمد حيدر (عن عائلة الفقيد) .

لوحات وصور جمعها الدكتور نصرالله من هنا

وهناك وهنالك ، تكاد تكون كل بعلبك ـ الماضي وكل بعلبك ـ الحلم ، وان فاته ذكر حادثة أو واقعة أو كاتب أو شيخ أو أسقف أو كاهن أو « زعيم » أو «ثائر » أو عالم أو طبيب أو فنان أو صحافي أو سياسي أو وجيه ، فعن غير سوء نية ، ومن لحظ « تقصيرا » أو « خطأ » أو « سهوا » فعليه أن يذكّر به المؤلف بمحبة وتسامح .

ولا أراني بالغت اذا قلت ان الذي يضع ، في هذه الايام ، كتابا مثل « تاريخ بعلبك » ، ولو وقع الناشر (صاحب دار الوفاء) في أخطاء كثيرة لجهة التنسيق يستحق منا المكافأة والتقدير ، ويخطىء من يتهمه بـ«التجني» أو « التطرف » أو « فقد الاعصاب » حسبما جاء في مقالة أحدهم .

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

بعد هذا العرض الموجز لكتاب « تاريخ بعلبك » نعود الى الجزء الاول منه ، لنطالع بعض الاحداث المأساوية، التي تتكرر ، في أيامنا هذه ، بشكل أو آخر ، وكأن التاريخ يعيد نفسه فعلا .

ففي صفحة (٣٢٠) يقول نصرالله :

« ما كان الاتراك يسمحون للحرافشة الشيعة بحكم البقاع البعلبكي لولا وجود الصراعات الطائفية في لبنان اذ تبلورت في عهد الاتراك النظم الطائفية فظهرت التكتلات المذهبية مثل الدروز ، والشيعة ، والموارنة ... وبرزت الاسس الاقطاعية ، المعنيون والحرافشة والسيفيون والشهابيون ... وحاول الحرافشة أن يربطوا بعلبك بجبل لبنان مثلما كانت في الحقبة الفينيقية واليونانية والرومانية، فالوشائج الحضارية كانت متينة بين بيروت وبعلبك المستعمرتين المميزتين في العهد الروماني ...

« ومنذ الفتح الاسلامي ارتبطت بعلبك ببلاد الشام وحاول الحرافشة (الشيعة) التخلص من سلطة دمشق ، وعقدوا معاهدات الصداقة مع المعنيين والشهابيين ، لكن الاتراك أفسدوا أكثر من مرة هذه الارتباطات وقاموا بأكثر من عشر محاولات فاشلة لانهاء حكم الحرافشة في بعلبك واستعان (باشوات) دمشق خلالها بسنّة بعلبك لاضعاف هذا النفوذ الشيعي،مما أدى الى صراعات دوافعها سياسية ومظاهرها طائفية » !

ويقول :

« فنتج عنها تهجير العائلات السنّية الى الزبداني ودمشق ، ووفود أسر شيعية من بلاد كسروان وعكار الى

بعلبك ثم تبعه نزوح الطوائف المسيحية من رأس بعلبك ، وبعلبك والفرزل ، الى قرية زحلة ، وأقاموا تجمعا هناك وولدت مدينة زحلة ، التي غدت أكبر مدينة في متصرفية جبل لبنان » (ص ٣٢٠) .

واليوم ، ينزح مسيحيون من مناطق أغلبية سكانها من المسلمين أو الدروز ، وينزح مسلمون أو دروز من مناطق أغلبية سكانها من المسيحيين .

أي لبنان يريدون ؟

بين الوطن والكيان الطائفي فرق كبير . مشكلتنا اننا ما زلنا ننشد « التقسيم » وندّعي « حب الوطن » ،وبين المساحة والتاريخ تتبخر أحلامنا الجميلة .

وينقل الدكتور نصرالله عن (المحبي) قوله : « أما أسباب نقمة أهل الشام على يونس الحرفوش وتتلخص بأن الحرفوشي (الرافض) (بمعنى المتوالي) أخذ يضيّق على السنّة في بعلبك فنزحت منهم عائلات كثيرة الى دمشق وهناك حرّضت عساكر الشام ضده ثم عمد فشيّد أول مسجد للشيعة في بعلبك سنة ١٠٢٨ هـ / ١٦١٨ م . واتصالاته بمتاولة بلاد بشارة (جبل عامل) أزعجت المعنيين وحلفاءهم » (ص ٢٥٥) .

الاقتتال التاريخي يملأ تاريخنا : السنّة ضد الشيعة، الشيعة ضد الدروز ، الدروز ضد الموارنة ، المسلمون ضد المسيحيين • ويحدث ، احيانا ، العكس • حتى ان الامير فخر الدين ، باعث لبنان الموحّد ، اجتاح بعلبك وحاول هدم قلعتها •

الذين كانوا ، بالامس ، في نزاع مرير ، بعضهم ضد بعض ، تراهم اليوم شركاء متحالفين ، والذين يحاربون، اليوم ، في خندق واحد ، قد يتحاربون غدا،ويتذابحون • والخسارة ، دائما ، على المواطنين الابرياء الذين يحلمون بالامن والسلام والاستقرار •

المأساة واحدة مهما تبتعد بنا السنون ، والخاسر واحد هو الشعب •

ويقول الدكتور نصرالله :

« ولما كانت امارة بعلبك تباع سنويا من أمير حرفوشي ، تبعا لنظام (المزايدة) سعى جهجاه الى استعادة امارتها (كان أخذها منه شقيقه الامير سلطان اذ دفع لسليمان باشا ، نائب دمشق ، رشوة مايتي ألف غرش) فتحرّك في مطلع سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م وحلّ بالهرمل •

وأجرى المفاوضات بوساطة صديقه الملاّ اسماعيل والي حماه • واستاء سلطان من وجود شقيقه في الهرمل فتأهّب لطرده • ولما ورده قرار الباشا بتولية جهجاه ، فضّل الفرار فأدركه جيش الباشا في الطريق فساقوه الى دمشق فأودع السجن لانه لم يؤدِّ كل الاموال التي التزم بدفعها ، وعاد جهجاه الى بعلبك » (ص ٢٩٩) •

أضاف :

« أدّى سلطان ما عليه من أموال ثمنا للافراج عنه ، وتوجّه الى منفاه المعتاد ، الى بلاد عكار ، وبعد مدة طلب الصفح من أخيه جهجاه فتجاوز عن سيّئاته واستقدمه الى مسقط رأسه •

«ظل جهجاه متسلما لبعلبك حتى شهر آذار(مارس) سنة ١٨١٧ ، يوم أدركته الوفاة فضبط أخوه الامير أمين جميع متروكاته وكان ولده نصوح (كان جهجاه يكنى بولده (بنصوح باشا) قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، فصحبه عمه الامير أمين الى الشام ومثلا أمام واليها صالح باشا فأنعم عليهما وأقرّهما على حكم بلاد بعلبك ، وكان الامير أمين أصغر اخوته ولم يحدث شقاق بينه وبين جهجاه • واثر عودة أمين ونصوح عاد سلطان الى الهرمل» •

ويقول أيضا :

« طمع الامير أمين في حكم بلاد بعلبك ، لان نصوحا ما زال حدثا • واعترف نائب دمشق سليمان باشا بهذا الواقع ففوض سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م الى الامير أمين أن يطرد المشايخ النازحين من جبل لبنان وهم (من الدروز (بيت عبد الملك ، وبيت تلحوق) فأعدّ الامير أمين قوة ضدهم ففرّوا من قرية (معذر) شرقي البقاع الى (قارا والنبك) » (ص ٢٩٩/٣٠٠) •

و « بسبب هذه المشاحنات تغيّرت المواقف السياسية والمواقع العسكرية ، ودبّر الامير أمين (الحرفوشي) قتل ابن أخيه (نصوح) وتم ذلك على يد أحد اتباع الامير أمين (مكباشي درزي) الذي خنقه في قرية (مجدلون) (شرقي صيدا) وكان ذلك حوالى سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م • » (ص ٣٠٣) •

تلك هي نماذج من تاريخ بعلبك والمنطقة ••• وفيها لا ذكر الا للامراء والولاة (الباشوات) والمشايخ والزعماء والبكوات وأصحاب الجاه والنفوذ • أما الشعب ، من مسيحيين ومسلمين ودروز ويهود ، فحقه مغتصب وكرامته مستلبة ، من أجل الكبار ••• الذين هم أيضا مثل الدجاج الذي يأكل لحم بعضه البعض •

غابت تركيا وبريطانيا وفرنسا ، فجاءت أميركا وروسيا واسرائيل ، وظل امراء السياسة ، في بلادنا ، مثلهم مثل الذين من قبلهم •

فهلاّ قرأنا « تاريخ بعلبك » لنرى كيف نجترّ مآسينا وانكساراتنا وأحزاننا ؟

١٩٨٤/٦/٢٣

(٥)
التغيير الصّعب

في كتابه « السياسة » يقول أرسطوطاليس (١) :

« بما ان الحكومة والدستور شيء واحد ، وبما ان الحكومة لها الولاية العليا على المدينة ، ينبغي على الاطلاق ان يكون ذو الولاية هذا إمّا فردا واحدا واما أقلية واما المواطنين كافة . متى كان حكم الفرد أو الاقلية أو الاكثرية منصرفا الى المنفعة العامة فالدستور صالح بالضرورة، وحينما يحكمون لمنفعتهم الخاصة سواء أكانت منفعة فرد واحد أم منفعة الاقلية أم منفعة السواد (سواد الناس) (عامة الناس) فالدستور ينحرف عن غرضه لان احد الامرين

(١) السياسة ، مع مقدمة في علم السياسة منذ الثورة الفرنسية حتى العصر الحاضر ، للبروفسور بارتملي سانتهيلير ، ترجمة احمد لطفي السيد ، منشورات الفاخرية بالرياض، بالاشتراك مع دار الكاتب العربي في بيروت، بدون تاريخ ، الباب الخامس ، المادة الاولى ص ٢٠٤ .

لازم : اما أن يكون أعضاء الجماعة ليسوا مواطنين حقا واما انهم ، اذا كانوا هم ، ينبغي أن يكون لهم نصيبهم من الفائدة المشتركة » .

اصبع أرسطو ... اصبع لبنان الوطن المقتول .

ماذا يقول الدستور ؟

ماذا تقول الحكومة ؟

محكمة الوطن أكل الصدأ بابها والاقفال .

لن يُعيرَنا أرسطو أذنيه .

هل نحن تغييريون فعلا ؟

من الاقتصاد نبدأ وبه ننتهي .

اذا تنفّست أميركا أو روسيا شرّعنا السفينة ، واذا تثاءبت اسرائيل امتقعنا من حزن أو فزع أو ريبة .

العرب ، اذا اتفقوا أو اختلفوا ، لا يعرفون ماذا يريدون منا ، ولا نحن نعرف ماذا نريد منهم !

كنا بيتا على الحدود . وهكذا اليوم ... وغدا .

في زمن الامن والرخاء ، نستقطب عواصف الدنيا كلها ، ونبْطر النعمة حتى نصرفها الى غير وجهها .

لنا الجوع أو التخمة ، اذ لا فرق عندنا ، بين الحرية والانفلاش ، والواضح والغامض ، والقوي والضعيف .

بعد مؤتمر « لوزان » أعلنت يأسي من « الامراء » والعالم .

« لن ينفع الكلام بعد ... » أو قُل : انها الكارثة الثالثة (٢) .

« خلوات » بكفيا ، ورحلة الرئيس رشيد كرامي الى واشنطن ، ولعبة « المعابر » بين شطري العاصمة ، ورقصة الدولار الاميركي ، والآتي — المعلوم والمجهول — كلها أوراق محروقة ، واللاعبون جُرْد ما لهم سبد ولا لبد !

ثم يأتي كتاب « التغيير الصعب » للاستاذ جورج سكاف (٣) ، ليذكّرنا ببعض أضغاث أحلام راودتنا ، عاما أو عامين ، كنّا لها مخلصين ، حتى جاء ذلك اليوم الذي فيه تبعثرت الانفس ، فذهبنا أباديد !

في مكاتب « الجريدة » عقدنا لقاءات واجتماعات لننقذ أحلامنا ... والوطن .

---

(٢) كتابي « شاهد الثعلب ذنبه » الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، ص ١٨ .

(٣) ٣٥٠ صفحة من القياس الوسط ، قدم له الاستاذ ادوار حنين . دار الجريدة

« شيوخ » الادب صاروا « شيوخ » السياسة .

و « أي لبنان نريد ؟ » سؤال ألقته « الجريدة » — قبل غيرها حسب علمي — على أصدقائها من أهل الرأي والقلم ، وبذلت لهم الحب ، فمنهم من رد لها الجواب ، ومنهم من صمّ أذنيه ، إما خوفا واما لانه يجهل قيمة « الجريدة » واستقلاليتها ، وترفّعها عن المطامع وعن ملائم الاخلاق .

آنذاك ، انقسم المحللون السياسيون و « الشيوخ » و « الاساتذة » وممثلو الهيئات والجمعيات والفاعليات الى فريقين : متفائل ومتشائم .

أعترف بأنني كنت ولا أزال أميل الى عدم استعمال هاتين الكلمتين : « متفائل » و « متشائم » ، وسبب ذلك ان الاحداث — في رأيي — يصنعها « الكبار » بلذة فائقة ، وهم مستعدون لتجديدها وتطويرها ، ما دامت تنفع رغباتهم وأهدافهم وأغراضهم ، ولا سيما اذا كان « الصغار » عاجزين — كما نحن — عن الانتقام لحقوقهم وحريتهم وعن الاصلاح والتغيير .

أما الاستاذ جورج سكاف ، صاحب « الجريدة » التي صادرتها الحرب منذ حوالى ثماني سنوات ، فمن المتفائلين ، بل من « المتطرفين » في التفاؤل ، وله رأي جدير بالاحترام والدرس والمناقشة .

يقول الاستاذ سكاف :

« لبنان النظام الواحد الموحّد غير قادر على القيام
وغير قابل للحياة ، فهو معرّض دائما للاحتكاك ، للتماس
والاصطدام والانفجار ، لان كل وحدة داخل تركيبته
المتنوعة والمختلفة نمت بصورة مختلفة ومتباينة عن الاخرى ،
وهي تريد ، كلما سنحت لها الفرصة ، ان تجرّ سواها في
تيارها ، وأن تضمها اليها ، وازاء الممانعة والمقاومة يقع
الاصطدام ويتجدد الصراع » (ص ٥٤) .

ويقول :

« وكما ان لبنان الاستقلال ، لم يتقيّد يوما ، بالميثاق
غير المكتوب فان لبنان الانهزام اليوم ، لن يقيّد نفسه
بالبيان الجديد ، بل سنّة الحياة والتطور ستدفع بلبنان
الحي الى النهوض والتقدم والتطور ، حالما تسقط عن
كاهله الاثقال . وهي حتما ساقطة ، وفي وقت قريب ، وهو
حتما سيتحرر وينهض ، ليحيا بكل حرية ويسابق كل عصر
في التقدم والتطور » (ص ٨٠) .

أي لبنان يريد جورج سكاف ؟

الواضح انه قد يئس من «لبنان الواحد الموحّد» ..
وكلنا أيضا يائس مثله . لكن الحل ، ليس ، دائما ، كما
نشتهي أنت وأنا ولا كما يشتهي هو . هناك « كبار » وهناك
أكثرية ، لا يمكننا أن نتناساهم . انهم الغائبون الحاضرون
في شكل أو آخر . الذين يشاركون جورج سكاف الرأي

قلة قليلة . ربما لان لبنان ، الذي يدعو اليه ، سيبقى في
الوجدان كما الحلم الكبير .

جورج سكاف متفائل ومثالي ، بقدر حبه للحرية ،
وايمانه بلبنان وطنا لها ومقرا !

عندما تأكد له ان صورة لبنان القديم قد تحطمت ،
تناول ريشته وكل أدواته ، وراح يرسم لبنان الذي يتمنى .

الافكار والالوان التي جمعها جورج سكاف يتفق
بعضها مع بعض ، وهي متناسقة ومتشابهة ، لكأنها من
مصدر واحد ولاجل نظام واحد :

« ازاء ما سقط من صيغة لبنان الامس .

وازاء ما بقي صامداً قائماً فوق الخراب .

ما هو مستقبل لبنان ؟

على أي أساس سيقوم لبنان الجديد ؟

ما هي تطلعات اللبنانيين اليوم ، سواء الذين انتظروا
طريق التطور للتغيير ، أو الذين سلكوا طريق الثورة
والتفجير ؟ » (ص ٩٢/٩٣) .

هذه الاسئلة يطرحها جورج سكاف على نفسه ،
ليجيب عنها هو بنفسه أيضا وكما يلي :

« التطلعات الى لبنان الغد تذهب بعيدا ، وفي طرق

متشعبة ومختلفة • الا انها تنطلق من نقطة واحدة ، هي عدم العودة الى ما يسبب الاحتكاك فالانفجار •

« مقومات لبنان الغد غنية ، بغنى انفتاح اللبناني على كل جديد في العالم ، وعالية بقدر عمق جذوره في أن يكون جبلا شامخا لا حصاة تتدحرج عند فقش الموج •

«هذه المقومات برزت اليوم ، لانه كما يقول فؤاد افرام البستاني : (في الكوارث يتخلى الرجل المسؤول الواعي عن حاضره فلا ينظر الا الى الماضي والمستقبل) • ويقول : (الشعب كان دائما أعظم من حكامه) •

« الشعب اللبناني العظيم ، رغم تخاذل حكامه ، سيقوم ببناء لبنان المستقبل » (ص ٩٣) •

لمن يكتب جورج سكاف ؟

أنا لست ضد الرجوع الى الماضي ، ولكني لست مع التخلي عن الواقع •

فالماضي ، الذي نستند اليه ، هو ، في الحقيقة ، كان واقعا لفترة من الزمن ، طالت أو قصرت •

ويقول جورج سكاف :

« الولاء الوطني للبنان لم يكن يوما ، ولم يصبح ولاء كاملا ونهائيا ، فلا يزال المسيحيون يتهمون معظم المسلمين

بالولاء ، لأي شيء عربي أو اسلامي قبل الولاء للبنان • وان المسلم في لبنان لا يزال أقرب الى أبعد مسلم في العالم منه الى مواطنه وجاره ورفيقه غير المسلم في لبنان •••كما ان المسلم لا يزال يتهم المسيحيين بعدم الانتماء للعروبة، وبالتقصير تجاه القضايا العربية •••هذه الاتهامات المتبادلة فتحت الساحة اللبنانية أمام كل النزاعات العربية والعداوات الدولية ، فجعلت اللبنانيين وقودا لهذه النزاعات ،ورؤوس حراب تستخدمها هذه الجهة ضد تلك ، وتلك ضد هذه ، بل أصبحت هذه الجهة وتلك فرقا عسكرية تحاول أن تفرض ارادتها ، أو ارادة الذين وراءها ، بالقوة المادية » (ص ٨٨/٨٩) •

طبعا ان هذا هو جزء من واقعنا ، الذي يطلب منا الدكتور البستاني والمؤلف ان تتخلى عنه ، وليس كل الواقع •

واقعنا مؤلم ومعيب ، والماضي لا يغيّره ولا هو يؤثّر فيه •

هل عرفنا لماذا ؟

الحكام تخاذلوا ويتخاذلون لان « الشعب العظيم » يفضل الصمت على الثورة •

أين هو الشعب ؟

الحكام يتوارثون السلطة والمجد والديمقراطية جيلا بعد جيل !

الشعب ، عندنا ، هو ملك الحكام ، وليس الحكام ملكا للشعب .

ومع ذلك ندّعي الديمقراطية والحرية والانفتاح !

من الذي يقول ان ماضينا هو أحسن من واقعنا ؟

نترك المستقبل لئلا نجرح مشاعر « الشعب العظيم » والحكام « الاكارم » .

الكلام على الغد يحتاج لا الى « التنظير » فحسب، بل الى المعرفة أيضا .

هل نحن نعرف ذاتنا تماما ؟

هل نحن نعرف الآخرين كما هم ؟

ان الواقع،الذي نشكوه، معا صنعناه : نحن وهم . ولكي نصلحه أو نبدله فلا بد أن ننظر اليهم والينا .

معا أيضا يجب أن نصنع مستقبلنا . والا فلا مستقبل ولا من يصنعون .

« المسيحي في لبنان هو حر كما ليس حرًا في أي بلد

شرقي ، والمسلم في لبنان (...) هو حر كما ليس حرا في أي بلد اسلامي .

«واذا كان قد قيل بأن ما ينعم به المسيحي من حرية في لبنان ، ينعكس صمودا وكرامة على أي مسيحي في الشرق ، فان هذا القول يصح أيضا ، على المسلم (...) » (ص ١١٢) .

أعتقد ان هذا القول ومثله قد صار في ذمة التاريخ، وربما لن يُبعث « حيا » بعد اليوم .

« لقد قلبت الحرب مفاهيم كثيرة ... ونسفت طرقا وعادات وشؤونا ، حسبناها ثوابت ومسلّمات ، ولما تمسكنا بها وقعنا في الخسران العظيم .

« يكفي الحرب انها قسمت الناس فريقين هما : منتفع ومتضرر .

« ان أيا من هذين الفريقين يضم عددا ،قليلا أو كثيرا، من هذه الطائفة أو تلك ، ومن هذا الحزب أو ذاك ، بيد ان الاكثرية هي الممثلة بأولئك الذين جمعتهم المصائب والنكبات ، والاحزان والمآسي ، لا الطائفية ... ولا التعصب الطائفي ، ولا الحزب والحزبية »[٤] .

---

(٤) انظر رسالتي الى العماد (قائد الجيش) ميشال عون، الانوار ، الخميس ٤ تشرين الاول ١٩٨٤ ، ص ٧ .

لبنان جورج سكاف « سيكون أكثر حرية » (ص ١٢٢) ؟!

على الخريطة : « الحرية الطائفية » و« الحرية التربوية » و « حرية التنمية » و « حرية الامن الذاتي » •

والمستقبل بدأ يتبلور حسبما يقول المؤلف • اذ ان « التوزيع البشري الذي صحح نفسه بنفسه ، قد جعل بيروت الكبرى للجميع على السواء ، أي عاصمة مركزية ، بينما جعل كل منطقة يغلب عليها طابع فئة معينة • وبذلك ارتسمت خطوط اللامركزية التي ليس من الصعب التنسيق فيما بينها ، اذا ما رُوعيت مبادىء احترام الحرية لدى كل فئة » (ص ١١٣) •

ولكن « التوزيع البشري » هذا لم « يصحح نفسه بنفسه » كما يظن جورج سكاف •

بل ان هذا التوزيع ، الذي لم ينته بعد ، قد نفذته وتنفذه مذابح ومجازر طائفية وسياسية ، تقف من ورائها ، أطماع وأحقاد ومصالح وأزمنة من الفشل على صعيد الادارة والحكم والتربية والتوجيه •

المساحة « الروحية » صغيرة ، والناس في تكاثر مستمر •

من يحكم من ؟

يجب أن نتواضع اذا كنا سنبحث عن مستقبل كريم •

أخاف على الحرية الحقيقية من هذه « الحريات » و « الأخيلة » •

لنتذكر اننا شرقيون !

ويحلو للاستاذ سكاف أن يقنعك بأن « لبنان الذي اجتاز كل المحن بالتغلب على الموت بالحياة ، وعلى التضييق والاضطهاد ، بمزيد من الانفتاح والحرية ••• يشق طريقه الى مستقبل أفضل محطما القيود التي أعاقت مسيرته في التقدم الحضاري ، وفي الازدهار الاقتصادي ، وفي رفع راية الحرية التي بها سيتغلب أيضا على كل الانظمة التي حاولت غزوه غزوة همجية ، وضربت ازدهاره بعاصفة رملية حارقة » (ص ١١٥) •

هذا الكلام جميل جدا لو يتحقق • ولكن كيف ومتى ؟

ليتني أقف عنده !

لقد تعبتُ من قراءة الاحداث ••• ومن البحث في وجوه صانعيها وزبانيتهم الذين أدخلونا في شقاء كالح •

سألت نفسي : متى كتب الاستاذ جورج هذه الدراسة أو تلك ؟

وضاع مني التاريخ ... أو هو مضيّع أصلا .

لكن اشارة من المؤلف ، في الصفحة الاخيرة ،تقول:

« صدرت هذه الدراسات في مجلة « الفصول اللبنانية » في الاعداد : ٢و ٣ و٤ (١٩٨٠) ، ٥ (١٩٨١)، ١٠ (١٩٨٣) ، ١١ و ١٢ و ١٣ (١٩٨٤) ، والعدد الخاص من «الجريدة» رقم ٧١٦٢ (٧ حزيران ١٩٨٢) » (ص ٣٥٢) .

هل يكفي ؟

الاجتياح الاسرائيلي وسّع المسافة بين دراسة وأخرى .

جورج سكاف يفتتح « التغيير الصعب » فيقول :

« من مفارقات الحرب اللبنانية ان الفرقاء يلتقون دائما على الثوابت مع انهم يقاتلون ويتقاتلون من أجل التغيير ...

« فكل أوراق العمل التي قدمتها الطوائف ، منفردة ومجتمعة ، مبنية على المسلّمات والثوابت ، التي تضمن لكل طائفة،حقوقها المكتسبة ومكاسبها الموروثة والتقليدية، أو التي انتهت اليها بالممارسة والعرف والتوافق . ولكنأي طائفة لا تقبل بأن تتنازل وتكرس على الورق ، ما تم عن طريق الممارسة (ص ١٥) .

ما الحل إذاً ؟

تسع دراسات متباعدة ومتباينة ، لا تملك الا أن تقول : « في الختام ، القضية اللبنانية ، رغم مضاعفاتها الداخلية (اذ ان لبنان هو الآن صورة مصغّرة عن كل التناقضات العربية والصراعات الاقليمية والنزاعاتالدولية) قد توصلت بالتعريب والتدويل ، الى اثبات شخصية لبنان المميزة في هذا الشرق ، فما من تيار استطاع أن يطيح بهذا البلد الصغير ، القادر على أن يحرق المنطقة بأسرها قبل أن يحترق » (ص ٣٤٧) .

و« ما كانت القضية اللبنانية لتحظى من الاهتمامات الدولية بأكثر من نداء باسم الانسانية ، أو دعوة الى التفاهم ، او تحذير من مواصلة انتهاك أجوائه أو اجتياح حدوده . ولكن ، منذ الاجتياح الاسرائيلي (الاول) في آذار (مارس) ١٩٧٨ ، وضع مجلس الامن يده على القضية اللبنانية ، وفي مدى خمس سنوات ، اتخذ مجلس الامن أكثر من ثلاثين قرارا (نقلها المؤلف بنصها الحرفي) كلها في مصلحة لبنان (؟) ، وأهمها القرار ٤٢٥ (الصادر في ١٩ آذار ١٩٧٨) ، الذي يعرّف بصورة جازمة بحدود لبنان الدولية ، وينتدب قوات دولية لمساعدة الشرعية

اللبنانية على استعادة الارض وبسط السيادة على كل الاراضي اللبنانية » (ص ٢٩٣) •

وتدخلت الدول العربية «لمنع الانفجار في لبنان أو حصره » (ص ٢٦٣) • ففي عام ١٩٧٦ « وصلت الحرب اللبنانيةالى حد التهديد بتفجير كل منطقة الشرق الاوسط، اذ ان الجيش السوري دخل الاراضي اللبنانية بصورة أقلقت العرب بقدر ما أقلقت العالم كله ، وازاء تسارع المساعي الدولية لمحاولة ايجاد حل يضع حدا لأزمة لبنان، تحرّكت المبادرة العربية ، مفضلة التعريب على التدويل ، فكان مؤتمر قمة سداسية عقد في الرياض في ١٨ / ١٠ / ١٩٧٦ ، اتخذت فيه مقررات مهمة لا تزال هي الاساس لكل المؤتمرات التي عُقدت فيما بعد ،في القاهرة وفي بيت الدين، وأخيرا في تونس والمغرب » (ص ٢٦٤) •

وكما المقررات العربية كذلك المقررات الدولية :حبر على ورق •

بين التدويل والتعريب تمزّق لبنان وجيشه،وتحطمت أحلى صوره•

أين هي الشخصية اللبنانية المميّزة ، وماذا بقي منها ؟

ان دراسات الاستاذ جورج سكاف لهي محمّلة بالوثائق ، وخواتيمها مفعمة بالتفاؤل ، وبعضها يشبه بعضا•

ففي نهاية « تطور الحكم في لبنان » (الدراسة السادسة) يقول المؤلف : « ليس من الصعب على اللبناني الذي عرف في كل حياته كيف يصمد بوجه التيارات العاصفة والهجمات البربرية ، فحافظ على استقلاليته وعلى شخصانيته ، ليس من الصعب عليه أن يعود فيقوّم كل ما التوى وينهض كل ما سقط ، عن طريق الممارسات الخاطئة والمستضعفة » (ص ١٨٠/١٨١) •

ويختم سكاف دراسته السابعة «مطارحات برسم لبنان الغد» فيقول : «الحرب ، سواء انتهت غدا أو استمرت هكذا في أشكالها التخريبية المتواصلة ، فهي لم تصب من اللبناني مقتلا ، ولا أقعدته عن التقدم والطموح ، فكأنها أعطته جناحين ليحلّق أعلى فأعلى » (ص ١٩٨) •

وينتهي ، في دراسته الثامنة « حوار بدون طاولة » ، الى القول : « اللبنانيون يشعرون اليوم بأنهم لم يعودوا وحدهم متروكين في خضم المحنة ، بل أصبح انقاذ لبنان هدف الكبار في العالم أجمع ومطلب المنطقة التي زجّته في النار وبدأت المبادرة الدولية تأخذ صيغة أكثر وضوحا ، وأكثر جدّية بحيث لا تأتي الاستحقاقات الكبرى ، الا ويكون لبنان ، بصيغته الجديدة

قد أصبح حقيقة واضحة ... وأصبح اللبنانيون قادرين لوحدهم على اتخاذ القرار الحاسم » (ص ٢٥٢) .

جورج سكاف تغييري ، يؤمن بالحرية والانسانية ، ويثق بارادة الشعب(؟). الا انه طوباوي أيضا ، احلامه جميلة ، وآماله كبيرة ، يا ليتها تتحقق !

هذا الصحافي النبيل شرّدته الحرب عن بيته ومكتبه ، وعطّلت له جريدته الغرّاء ، فلا هاجر ولا تنازل عن أنفته ، بل استعان بذاته على ذاته ، واستمر يكتب دفاعا عن لبنان والديمقراطية ، بأسلوب هادىء ورزين ، يجمع الادب الى التحليل السياسي الى الامانة في البحث عن الوثائق والمعلومات .

وما زلت أذكر يوم الثالث والعشرين من آذار — مارس — ١٩٧٦ ، حينما توفي المغفور له والد الاستاذ جورج سكاف ، وكان الاخير مهجّرًا الى الزلقا — المتن — فحالت الاوضاع الامنية ، يومذاك ، دون ذهابه الى زحلة لكي يلقي ، على والده ، نظرة الوداع الاخير ، ولقد كان ألمه عميقا جدا حتى بدا كأنه لم يسمع بذلك النبأ المشؤوم واحتفظ جورج لنفسه بالحزن والوجع معتبرا ان حزن الوطن هو المصيبة العظمى ، فلا يجوز أن تتشاغل عنها بالهموم الخاصة والقضايا الفردية مهما تكن صعبة وخطيرة .

فلا عجب اذا ما سمعناه يقول :

« أكثر ما يلفت النظر ، ويجعل اللبناني يعتز بأنه كان أكبر من المحنة ، في إبّان احتدامها ، ان كل القوى اللبنانية الناشطة ، من تلك التي تتخرج من مقاعد الدراسة ، الى التي تزدهر أعمالها ، في مشارق الارض ومغاربها ، تنظر كلها الى لبنان نظرة مستقبلية واسعة ، فتصمم أوسع من الخيال ، وتخطط لأبعد من كل التحسينات ... فكأن اللبناني لا يريد أن يعوض الوقت الذي فاته ، ولا الدمار الذي لحق بثرواته ... فيكتفي بالترميم ، والاصلاح فحسب ، بل يوظف ما اصابه للقفز فوق المعوقات التي كانت تعترض تقدمه ، والتي لم يكن باستطاعته إزالتها إلا بحرب أو زلزال » (ص ١٩٨) .

٢٠/١٠/١٩٨٤

(٦)
الرئيس أمين الجميّل والوطن والدولة

اذا قلنا لبنان فانما نقول الحرب والرعب والمستقبل المجهول .

هذا البلد الصغير رُسمت ، حوله ، علامة استفهام تكاد تكون أوسع منه وأكبر .

نريده وطنا ... الا اننا لا نعرف كيف السبيل اليه!

ونريده دولة ... فيما نحن نجهل معنى الدولة وأهميتها وحقوقها وواجباتها !

المسافة بين القول والفعل تتجاوز حدود لبنان ، بل حدود العالم الثالث ، ولا يبرز ، في الافق ، أي بارقة أمل تنشّط العقل والقلب ، وتجدد الثقة والعهد .

كل الامور قد تم كشفها واكتشافها ، وهي تراوح مكانها بلذة مجنونة .

لماذا لبنان ؟

مسألة تاريخية تتحدى التنظير والافتراض والتطبيق . واذ هي تلامس ، منا ، الوجدان ، بنعومة وهدوء ، تنفر ، من أمامنا ، بخشونة وهلع ، فنحسبها « لعبة الامم »،لكي نعلّل بؤسنا وفشلنا ، ونلقي بها على غيرنا ، البعيد قبل القريب ، وليس فينا من يعذّبه الشعور بالذنب أو التقصير ، ودائما قبضاتنا فارغة ، أو هي ممدودة تسأل أصحاب القلوب القاسية .. والعقول المتحجرة .. الرحمة والمساعدة والتواضع .

مع كل رئيس يأتي لبنان ويذهب . الرئيس ولبنان مثل المطر . مثل الهواء . مثل زهر اللوز . مثل الحلم .

والرئاسة الاولى ، في لبنان ، موسم أوله التفكير في الهجرة الى الشمال (...) ، وآخره الحسرة واللوعة ، ثم العزف الحزين على قيثارة « الشعراء العشّاق » . ولولا استشهاد الشيخ بشير الجميل لقلنا انها عسل مصفّى .

نستطيع القول بأن مصرع بشير الجميّل كان منعطفا خطيرا ، أحْدث تغييرات في الآراء والمواقف ، وقلب مفاهيم سائدة رائجة . فما كان موسما أصبح عصرا له مقتضياته وهمومه ومشكلاته ، وله أيضا منهجه وفكره وشخصيته ، وهو يُدعى عصر الرئيس أمين الجميّل ، فان نجح وازدهر

تحقق لبنان الفكرة أو المشروع ، وان تعثّر ، فلا لبنان ولا لبنانيون .

لبنان ، اليوم ، على المحك .

والرئيس أمين الجميّل يجب أن نسدّه بكل ما لدينا من امكانات .

انها على كل حال ، فرصة العمر ، بل الورقة الاخيرة .
هل نتركها تمر ، وينتهي كل شيء عظيم عملنا لهمخلصين؟
أم نتمسك بها ونواصل جهادنا فننتصر ، نحن وهو ، ونلملم لبناننا الذي مزقناه بأيدينا وما كنا عالمين ؟

ففي جلسة القسم الدستوري [١] قال الرئيس امين الجميل :

« انني اتسلم الرئاسة والوطن في حال من العناء والعياء وحدته حقيقة في الضمائر، وواقعه تمزق على الارض وتشتت تتجاذبه الاطماع وتتقاذفه الاهواء، تعصف به الاحقاد وتقوم الحواجز بين ابنائه » .

اضاف :

« والدولة تتنازعها مصالح الدول والدويلات ، معطلة

---

(١) عقدت هذه الجلسة في قاعة المحاضرات التابعة للمدرسة الحربية في الفياضية ، بتاريخ ٢٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢ .

المؤسسات، منهوبة الموارد ، مغتصبة المرافق، بيروت العاصمة مشطورة بين غرب وشرق ، مثخنة بالجروح ، تعاني آثار الدمار ، الجبل قلق من تفكيك الاواصر بين قراه وكثرة الفواصل بين أهله » .

ويلتفت الرئيس الى بقية المناطق اللبنانية فيقول :

«اما الشمال فأصابته العاصفة التي اجتاحت لبنان ، فباعدت بين جزء غال من الوطن وسائر اجزائه ، الشمال يشدُّ بنا الحنين اليه ، ويناديه الوطن للخروج من دوامة المآسي والغربة ، واعادة اللحمة بين ابناء العائلة الواحدة، بروح التسامح والاخاء .

« والبقاع ، مصدر الخصب والعطاء في أرضنا الطيبة، تحوّل الى ميدان تتصارع فيه القوى الخارجية ، وتشكل تهديدا مباشرا عليه وعلى لبنان .

« أما الجنوب ففي تطلع دائم الى الوطن والدولة ، متشبّث بهويته اللبنانية وانتمائه العضوي الى الارض الموحّدة » .

هذا هو لبنان بعد حرب دامت عشر سنين ، وهذا هو لبنان الذي تعهّده الرئيس امين الجميل حيث قال :

« اننا أمام تحديات مصيرية لا بد من مواجهتها ، وأنا مصمم على تأدية واجبي كاملا في قيادة مسيرة الخلاص ».

ماذا عند الرئيس الجميل اذاً ؟

هو قال :

«لن أقدّم لكم برنامج عهد، لان همّاً واحدا يتملكني، الآن ، هو وقف دورة العنف والنزف على أرض لبنان ، وعلى حساب لبنان • يجب ضمان أمن الوطن وسلامة المواطن، ولن يتحقق ذلك الا من خلال دولة قوية، مستقلة سيدة ، تصون الحريات العامة ، وتعمل على جلاء كل الجيوش الاجنبية عن تراب الوطن ، ويكون جيشها من كل لبنان ، لكل لبنان ، ليكون على كل أرض لبنان ، جيش قادر يضع حدا لاي انتهاك للحرمات أو تطاول على القانون » •

المهم ، في رأي الرئيس ، تحرير الارض فحسب •

فلكي يتم لنا ذلك يلزمنا جيش موحّد ، ودولة ذات قوة وسيادة •

هذا هو المطلوب فعلا •

بدون الجيش لا يكون الوطن ، وبدون الدولة لا يطمئن المواطن •

بعد خطاب القسَم تكلم الرئيس كثيرا ، وسافر كثيرا،

هذا الرسول اللبناني لا يملك ، اليوم ، سوى الكلمة

الطيبة ، في لوزان ـ سويسرا ، كما في جمعية المقاصد الاسلامية ، كما في كل مكان :

« بين لقائنا في جنيف وملتقانا اليوم في لوزان مسافة قصيرة في حساب الزمن ، لكنها طويلة مضنية خطيرة في حساب المعاناة والقرار • ولا أرى هذا اللقاء التاريخي يقتصر على المجتمعين هنا ، بمن يمثّلون وما يمثّلون ، بل أتشخّص اللبنانيين جميعا بيننا ومعنا ، وألمح الدموع في عيون الثكالى وأمهات المفقودين ، وأرى الأيامى واليتامى والمعذبين والمهجّرين والمعوزين والخائفين على الحياة والمصير ، يتطلعون الينا على أمل أن نحمل بشائر الخلاص لشعب أنهكته المجازر ووطن أثقلته الجروح » [٢] •

ولنسمَعْهُ يخطب في قمة دول عدم الانحياز [٣] ، اذ يقول :

« على حدود العالم الثالث ، يقف لبنان ، في تركيبته الحضارية ، وطابعه المميز ، فاذا هو ، في هذا المؤتمر ، يحتل موقعه الطبيعي ، لان عدم الانحياز هو من أسس تكوين الدولة اللبنانية ، ان لم يكن من أسباب وجودها

---

(٢) من كلمته في مؤتمر الحوار الوطني الذي عقد في لوزان ١٩٨٤/٣/١٢ .

(٣) عقد هذا المؤتمر يوم ٩ آذار (مارس) ١٩٨٣ برئاسة المغفور لها انديرا غاندي .

بالذات ، لهذا ، فان تعلّقنا بعدم الانحياز هو تعلّق كياني يتخطى المصالح السياسية والمحاور ، لانه يجسد طموح لبنان ، ويوطّد سلامته ، ويحافظ على وحدته .

« وبقدر ما يتمسك لبنان بعدم الانحياز ، فان من حقه أن يتمسك بانحيازه لاستقلاله وسيادته ، ووحدة شعبه والارض ، فيتمكن من تأدية دوره المنشود ، ضمن هذه المجموعة الدولية » .

ولعل الرئيس امين الجميل يعرف ، اكثر من سواه ، معنى الحياد ومعنى الانحياز ، وهو القائل :

« ولا أظن ان ثمة حيادا ازاء سيادة الاوطان وحرية الشعوب ، وازاء العدالة والكرامة والقيم الانسانية ، لان الحياد ، في هذا المجال ، يعني الانحياز للاذلال والرضوخ للاستعباد والاستغلال » .

ماذا قال آنذاك ، أصحاب الجلالة والفخامة والسمو ؟

وماذا يقولون اليوم ؟

ربما سمعناهم يهمسون : اذهبوا أيها اللبنانيون واتفقوا ، بعضكم مع بعض .

هؤلاء أصحاب دول عدم الانحياز (؟) معهم حق ، والرئيس الجميل معه حق أيضا .

الا ان المشكلة هي في « عدم الاتفاق » و « عدم الانحياز » كما هي في انعدام « الشعور الوطني » .

سيادة الوطن هي قبل أي شيء .

والجيش هو الحق ... والحقيقة .

كم من اللبنانيين يريدون هذه السيادة الوطنية وهذا الجيش ؟

بين جلسة القَسَم في الفياضية (٢٣ ايلول ـ سبتمبر ١٩٨٢) ومؤتمر الحوار الوطني في لوزان (١٢ آذار ـ مارس ١٩٤) واحد وعشرون خطابا ، بل نداء ، بل صرخة، بل رسالة ، نقلها الدكتور جورج شرف [٤] ، عن موسوعة « حاليات » الفصلية ، باب « وثائق » [٥] ، فاذا هي القسم الثاني من كتابه « لبنان الوطن والدولة في تفكير الرئيس امين الجميل » [٦] ، الذي هو دراسة لنصوص وتصريحات للرئيس (امين الجميل) قيلت في مناسبات عديدة .

---

(٤) دكتور دولة في العلوم السياسية . استاذ في كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية في الجامعة اللبنانية . له كتاب بالفرنسية (Communautés et pouvoir au Libar صدر عن «المركز اللبناني للبحوث والتوثيق/بيت المستقبل» ١٩٨١ .

(٥) تصدر هذه الموسوعة عن « بيت المستقبل » المذكور اعلاه . والاعداد هي من ٢٧ الى ٣٣ .

(٦) ٢٠٧ صفحات من القياس الكبير ، تشمل « خطب مختارة » ودراسة . دار النشر والتسويق ، بيت المستقبل ١٩٨٤ . قدم له الدكتور فكتور الكك .

يرى الدكتور فكتور الكك ، في باب الكتاب ،ان « ايديولوجية امين الجميل ذات رؤيا بعيدة المدى ، لكنها تنطلق من الواقع وتصب فيه « وهي » بسيطة ومركبة في آن » (ص ١٣) .

ويصف الدكتور الكك ما فعله الدكتور شرف لدنْ قراءته أقوال الرئيس فيقول :

« وقد تكون أول محاولة علمية تبغي الشمول والدقة في فهم ديناميــة هذا التفكير . وليس في الامر تنظير أو تعقيد ، أو دعاوة . بل هو نهج علمي يعتمد أساليب البحث الحديث لينفـذ من ذلك الى غاية محـددة : كيف يفكر الرئيس ؟ ما أبعاد تفكيره ؟ ما مفهوم الوطن والدولـة ؟ واستطرادا : كيف ستكون دولة لبنان المستقبل؟»(ص١٣).

أما الذي استعصى علينا فهمــه ، فهو قول الدكتور الكك نفسه :

« لا يهمّنا إنْ حال دون تحقيق هذه الدولة حتى الآن عوامل خارجية واقليمية ودولية . حركة هذا الكتاب مثل حركة النهر الجاري . وجهته البحر ، لا توقفه سدود ، ولا يغيّر طبيعته تغيير مجراه » (ص ١٣) .

نحن نعرف ، والدكتور الكك يعرف كذلك ، ان النهر اذا ما تغيّر مجراه تغيرت غايتــه . ليس هدف النهر أن

ينتهي ، عند شاطىء البحر ، رخيصا لا طعم له ولا فائدة . النهر ما يروي الارض العطشى ويسقي الانسان والحيوان والنبات والاشجار . النهر طاقة طبيعية لا يجوز أن نقف أمامها تتفرج كيف تذهب في البحر هدرا .

بيننا وبين النهر علاقـة لا يمكننا التسامـح بها أو اهمالها . فمذ كان الانسان وهو يبحث عن الماء .«وجعلنا من الماء كل شيء حي » . الصراع على الماء قديم جدا . كم من أجله قامت وتقوم الحروب ؟!

ان في الماء حياتنا نحن وحياة أرضنا وحيواننا .

يهمنا جـدا ، بل يؤلمنا ويحزننا ويخوفنـا إنْ حالت العوامل والظروف بيننا وبين الدولة التي يسعى الرئيس الجميل الى تحقيقها .

نحن بحاجة الى الدولة . الى الامن . الى الاستقرار .

أعداؤنا الذين يقفون بيننا وبين حاجتنا . بيننا وبين الماء . بيننا وبين الحياة .

في رسالتـه الى اللبنانيين عبر التلفزيون قال الرئيس الجميل :

« فلا تمييز عند الدولة بين مواطن ومواطن ، بين حزبي وغير حزبي ، بين مواطن من هذه المنطقة ومواطن من تلك

المنطقة ، من هذه الطائفة أو تلك ، ولا فضل للبناني على آخر ، الا بقدر التزامه مصلحة لبنان الواحد الموحّد ، وبقدر استعداده للعمل في سبيل مصلحة لبنان الوطن ، لبنان المستقل ، المتضامن مع محيطه العربي ، المقدّس لقيم الديمقراطية والحرية والمساواة » [٧] .

هذه الدولة كيف لا يهمّنا إنْ « حالت دون تحقيقها العوامل الخارجية ... » ؟!

ومهما يكن ، فان كتاب الدكتور شرف ومقدمة الدكتور الكك لمن الاعمال الوطنية التي تنشد قيام مثل هذه الدولة والتغني بها .

تتألف دراسة الدكتور شرف من : « رؤيا الانقاذ » (من ص ١٥ الى ص ٨٣) و « طريق الانقاذ » (من ص ٨٥ الى ص ١١٨) .

وسواء اتفقت مع الدكتور شرف أو لم تتفق ، فان « رجل الحكم (الرئيس الجميل) الغارق في خضم التفاصيل اليومية والقرارات الملحّة ، لا يمكن ان يكون المنظّر السياسي القابع في عليائه والجاهد لبناء اطار سياسي منطقي متكامل ومترابط العناصر » و « ان ممارسة الحكم تصبح

(٧) هذه الرسالة وجهها الرئيس الى اللبنانيين عبر التلفزيون يوم ٢٥ آب (اغسطس) سنة ١٩٨٣ . انظر « لبنان والوطن والدولة في تفكير الرئيس امين الجميل » (ص ١٨٣) .

اعتباطية ومزاجية وانفعالية ، اذا لم تقم على حد أدنى من الترابط النظري والبُعد الايديولوجي » (ص ١٧) .

ولكن خطب الرئيس الجميل ، على الرغم من بساطتها ووضوحها ، تتطلب تفسيرا يخرجها من اطار المنبرية الى اطار القضية ، اذا كنا نريد أن نعي تماما الضرورة الداعية لها ، والواقع الذي فرضها ، شكلا ومضمونا ، والذي يفرض قبولها ويسوّغها . الى هذا وُفّق الدكتور شرف ، بالطريقة المثالية ، الذي يُخشى أن تنهزم كما انهزمت من قبل نظريات وسُبُل وعهود .

يشرح لنا الدكتور شرف « اللبنانية » فيقول : « انها ليست نعتا منشقا من اسم لبنان ، أو نعتا يتبع جنسية ، وليست وقفا على التطلع المسيحي أو الاسلامي. «اللبنانية» اليوم صيغة فريدة يجب أن يلتقي فيها الاسلام والمسيحية في كيان سياسي واحد ، حيث يتفاعلان في اطار من المساواة والتعاون ، وبدون غبن أو ظلم أو هيمنة . و « اللبنانية » اليوم هي التحدي المطروح على المسيحية والاسلام من خلال امكاناتهما ، كأديان سماوية موحدة (كذا) ، على اطلالة سياسية موحدة في اطار كيان نموذجي يبرهن للعالم ان علاقات الاديان يمكن أن تكون في اطار من التفاعل وليس في الصراع المطلق » (ص ٤٠) .

الصحيح ان «اللبنانية» لا تتحدى المسيحية والاسلام.

بل هي تتحدى المسيحيين اللبنانيين والمسلمين اللبنانيين .
ذلك لان « اللبنانية » ، كما يطرحها الدكتور شرف ،ليست
الحادا ، وانما هي صيغة سياسية ، ومثل هذه الصيغة ،
تحتاج الى قوة تدعمها وتحميها من حنين الاقليات
الى الاوطان الطائفية ، ومن التوسع السياسي القومي ،
والانفلاش ، والانقباض ، وتحميها من القوى العسكرية
المتضاربة المتنافسة ، ومن سائر الاخطار .

ولكننا « اللبنانية » عندنا ، هي « قوة وكيان »[8]،أساء
السياسيون اللبنانيون فهمها ، وعجزوا عن حملها ونشرها،
وأخطأوا في تطبيقها ، فاذا لبنان الخمسين عاما (١٩٢٠ —
١٩٧٠) هو « طفرات خواطر ، وتصورات شخصية ،
ورؤى سطحية ، ورغبات خاصة ، وتسابق على المكاسب ،
وتتائج لمؤثرات وعوامل متعددة ومختلفة ، وصداقات
شخصية ، وعلاقات مخلصة ، وغير مخلصة ، تدعو الى
تنفيذ مآرب وأهداف آنية ، دائمة التلون والتحويل
والتعديل » [9] .

قلنا ان الدكتور جورج شرف هو مثالي في تفسير خطب
وتصريحات الرئيس امين الجميل ، ومردّ ذلك الخطب
والتصريحات نفسها ، التي هي ، في مجملها ، مثالية أيضاً.

(٨) انظر كتابنا « اية عروبة اية قضية ؟ » الطبعة الاولى ١٩٧٧ ص ٣٢٣ .
(٩) المصدر نفسه ص ٣٢٢/٣٢٣ .

يقول الدكتور شرف :

« فتمادي لعبة الدمار والاقتتال بين اللبنانيين يثير
الحيرة ، ويدفع الى التساؤل حول المسببات والابعاد
والنتائج فهل يعي اللبنانيون ان لعبة التدمير المتبادل ليس
فيها منتصر واحد . بل فيها خاسرون كثيرون ؟ وهل يتوهم
الافرقاء المتصارعون ان انتصار أي منهم سيكون انتصارا
للوطن ؟ وهل الارادة اللبنانية عاجزة عن التحكم بهذا
الفلتان ؟ وهل أصبح اللبنانيون أسرى اللعبة الجهنمية
التي تمارس في وطنهم ؟ وهل يعجز الابداع اللبناني عن
تصور المخرج من هذه اللعبة ؟ وهل التباعد حول مفهوم
الوطن بين اللبنانيين كبير الى درجة يُطرح فيها وجود هذا
الوطن بالذات ؟ وهل أصبح اللبنانيون قصار النظر الى
حد يعجزون معه عن تخيُّل النتيجة الحتمية لهذا التدمير؟»
(ص ١٠٠) .

بعد هذه التساؤلات التي هي بمثابة أسئلة العارف ،
يتابع الدكتور شرف فيقول :

« انه من غير المفهوم وغير المقبول أن لا يتلاقى
اللبنانيون على الحد الادنى في وجودهم المشترك ، في
الحفاظ على وجود لبنان واستمرار دورة الحياة فيه .
وليس من المفهوم أن يختلف اللبنانيون حول صيغة لبنان
وتوزيع الحصص والنفوذ قبل أن يتفقوا على استمرار

الوطن والدولة التي سيتقاسمون • فلعبة الموت في حال استمرارها، لن تكون في النهاية اكثر من رهان على امتلاك جثة وطن ووهم سلطة » (ص ١٠٠/١٠١) •

في الواقع ، اختلف الناس ويختلفون وسيظلون على اختلاف على « توزيع الحصص والنفوذ » •

لكن المحنة الكبرى هي في الاوطان الصغيرة ، مثل لبنان ، الذي لا حول له ولا قوة • فالذي يجعل اللبنانيين (السياسيين) يتمادون في الصراع والاقتتال هو كونهم متعددي الطوائف ومتعددي الاحزاب والعقائد والايديولوجيات •

الرئيس الجميل يطالب بتلاحم هذه الطوائف والجماعات •

والمؤلف (شرف) يترجم هذا المطلب بالقول :

« انه تحدٍّ مطروح على الطوائف ، فإمّا أن تندرج خصوصيات الطوائف في اطار الانسانية الاشمل ، ويكون لها باب مفتوح على الانسانية، وبالتالي على باقي الطوائف والمجتمعات ، وإمّا أن تكون خصوصيات هذه الطوائف كلاًّ قائما بذاته ومنغلقا على ذاته ومنقطعا عن رحاب الانسانية، فتنتفي خطوط الالتقاء مع الآخرين وينتفي معها

الاعتراف والتعارف ، وتنزلق الطوائف في متاهات التعصب والعدائية والتحجّر والتآكل » (ص ١١٧) •

هل نسي المؤلف محنة الرئيس الجميل مع المعارضة (اللبنانية) والاطراف الاقليمية ؟

ان المتاعب والمصاعب والهموم والآلام التي واجهت الرئيس الجميل وتواجهه دفعتنا الى القول بأن «كل رئيس (لبناني) شهيد » [10] •

المعارضة القوية في الوطن الصغير لا ترحم ولا تلين •

« لم يبق أحد من « الوطنيين » و « التقدميين » الا وطالب باستقالة امين الجميل ومحاكمته » [11] •

هل نسي المؤلف أيضا ان المعارضة « دعت امين الجميل (دكتاتورا) و (خائنا) و (عميلا) و (مستبدا) و (طائفيا) » و « ان فريقا منها دعاه (شاه بعبدا) و (النيرون) و (الطاغية) » [12] ؟!

آن لنا أن نفكر بالحزب الوحيد ـ الكبير •

وآن لنا أيضا أن نعتقد بضرورة انتصار فريق على آخر •

---

(١٠) انظر كتابنا « شاهد الثعلب ذنبه » الطبعة الاولى ١٩٨٤ ، ص ١٢٧/٨٨ •
(١١) (١٢) المصدر نفسه ص ١٠٣ •

حرام أن ننتظر « تلاحم الطوائف والاحزاب » .

هذا المطلب لن يكون ، ما دام لبنان على حاله .

غدا ستنتهي مدة ولاية الرئيس الجميل .

غدا يغادر الرئيس الجميل قصري بعبدا وبكفيا .

لبنان بعد أمين الجميل كيف تتصوره ؟

يجب أن يكون في لبنان حزب كبير قادر على تمثيل البلاد ، في أيام الشدائد كما في السلم .

يقول موريس ديفرجيه :

« في النظام الرئاسي تنزع التعددية الحزبية (في لبنان يمكن القول : والتعددية الطائفية) اكثر الى تقوية سلطة الحكومة والى اضعاف سلطة البرلمان . واذا كان هناك من تصادم بين الحزب الرئاسي والحزب الاكثري في البرلمان ، فان تزايد هذه السلطة يبدو اكثر وضوحا بالقياس مع الثنائية . فبدلا من أن تجد السلطة التنفيذية يوجهها ، في المجالس ، اكثرية متجانسة ومتماسكة فانها لا تجد الا تكتلا متنافرا متباعدا يساعد على قيام مناورات انقسامية وتباعدية » (١٣) .

(١٣) الاحزاب السياسية : تأليف موريس ديفرجيه، الطبعة الثانية (منقحة) ، دار النهار للنشر ، نقله الى العربية عن الطبعة السادسة الفرنسية (١٩٦٩) علي مقلد وعبد الحسن سعد ص ٤٠٨ .

« فالتعددية الحزبية تحوّل بعمق أيضا بنية النظام الرئاسي حيث تفاقم صفته الذاتية. في النظام الثنائي تكون الاحزاب من الكبر بحيث لا يتيسر لها أن تحيط بالرئيس الذي يبدو وكأنه زعيم لاحدها اكثر مما يبدو شخصية مستقلة. وبالعكس من ذلك تبرز شخصية الرئيس الكبيرة، في النظام التعددي ، وحدها في وسط جماهير الاحزاب . وانتسابه الى أي واحد منها لا يزيد في اعتباره ، اذ انها جميعا أحزاب أقلية لا تستطيع أن تحكم بمفردها . فالاكثرية الشعبية التي تلتف حوله انما تفعل (ذلك) من أجل شخصه . وليس باستطاعة أي حزب أن يدّعي لنفسه تمثيل البلد ، أما الرئيس فوحده يستطيع » (١٤) .

هل لنا ، نحن اللبنانيين ، أن نقرأ هذين النصين قراءة علمية وموضوعية ؟

أحزابنا كثيرة وأقلية . وطوائفنا أيضا كثيرة وأقلية .

مَن يحكم مَن ؟

الرئيس يأتي ويذهب . الاحزاب تحكم ولا تحكم .

والطوائف تحكم ولا تحكم .

ودائما الشعب هو آخر مَن يعلم . الشعب، في لبنان، مظلوم. مطيته سفينة الموت. ومطية زعمائه سفينة النجاة.

(١٤) المصدر السابق .

بعض المسيحيين هُجِّروا من قراهـم ومنازلهم • وبعض المسلمين والدروز أيضا هُجِّروا من قراهم ومنازلهم •

ماذا فعلت الاحزاب التي من أعضائها والمنتسبين اليها مسلمون ومسيحيون ودروز ؟

ماذا فعلت الخصوصيات الطائفية ؟

لو كان ، في لبنان ، حزب كبير قابض على الحكم هل كان حصل ما قد حصل ؟

الفتن الطائفية لا يقمعها الا الحكم القوي •

والمعارضة الجائرة العميـاء لا يُسكتها الا النظـام العادل •

أما التسليم بأن لبنان « محكوم عليه بأن يكون وطن جميـع الاديـان والطوائف والثقافـات والايديولوجيات والتيارات » (ص ١١٤) فأمر خطير جدا ، اذ انه يُبقي هذا البلد الصغير الجميل في قلق دائم وحرب طائفية شبه دائمة، لان جميع هذه الطوائف والاحزاب والتيارات هي أقلية ، لا غنى لها عن مساعدة من لهم مطامع ، في بلادنا ، دولية واقليمية • وقيل إنّها تتغذى بطعام وشراب هذه الدولة أو تلك ، ومن يأكل خبز السلطان لا بد أن يضرب بسيفه،بل لا بد أن يحارب بدباباته وصواريخه وطائراته وعساكره •

١٩٨٤/١٢/١

(٧)
أيّام وقضيّة سُوري قومي اجتماعي

كتاب « أيام وقضية » (من معانيات مثقف عربي)[١] للمحامي مصطفى عبد الساتر ، فيه جزء من تاريخ الحزب السوري القومـي الاجتماعـي ، وجزء من سيرة المؤلف نفسه•وترى أنطون سعادة[٢] وبعلبك،مدينة عبدالساتر ، في كل صفحة ، من هذا الكتاب ، بل في كل سطر ، وكلمة، وسيد الموقف ، دائما هو الوفـاء للقضية و « الزعيم » (أنطون سعادة) والارض •

---

(١) ٣٦٨ صفحة من القياس الوسط، مؤسسة فكر للابحاث والنشر ، طبعة اولى ١٩٨٢ ، تأخر نشر وتوزيع هذا الكتاب الى أيلول ١٩٨٤ لاسباب نشأت عن الغزو الاسرائيلي للبنان. حسبما يقول المؤلف .

(٢) انطون سعادة (١٩٠٤–١٩٤٩) هو ابن العلامة والدكتور خليل سعادة ، ولد في الشوير (لبنان) . مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي ، له «نشوء الامم» ، «الاسلام في رسالتيـه : المحمدية والمسيحيـة» و «المحاضرات العشر» وغيرها ، أعدم في بيروت .

أما رفقاء مصطفى فمثلهم مثل الايام ، والغربال ليس واحدا.أما وإنْ هو بدا لك رشيقا وماهرا ووسيما،فلأن المناخ مضطرب متقلّب ، والاحـوال السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية والنفسية غير مستقرة ، وهي تـارة كالزوبعة، اذ الارياح في هيجان عظيم وتتصاعد الى السماء ، وتارة جامدة كالماء ، اذا قام وتماسكت أجزاؤه ، أو كالـدم اذا تيبّس .

اثنان من رفقـاء مصطفى قرآ « أيام وقضية » هما : الشاعر محمد يوسف حمود ، والمحامي عبد الله قبرصي . الاول بعث اليه ، عبر « النهار » (الثلاثاء ٦/١١/١٩٨٤)، خرزة زرقاء ، عقفاء ، في طرفها انحنـاء وانعقاف ، عليها هتاف القلب أو الجراح ، فقلنا لا بد أن في كتاب مصطفى ما يدعـو الى الحسد ، والاّ ما كانت هذه « التعويذة » القومية ، من شاعر قومي كبير ، ذبَح قلبَه لبنانه«الحبيب البغيض» ، و «جلّدتْه أناشيده» !

وبما أن الاتصال بمصطفى مستحيل ، بسبب انقطاع الهاتف في الضاحيـة الجنوبيـة ، فضلا عن الحواجـز «العقائدية» المسلّحة التي تفصل بيننا ، استعنتُ بولدي حسين (١٥ سنة) ، فحمّلتُه بعض مؤلفاتي وباقة زهر الى شاعرنا محمد يوسف حمود، على أمل أن يعود اليَّ حسين ومعـه كتاب مصطفى ودواوين محمد وكتبـه . غير أن

«الرحلة» كانت غير موفّقة تماما ، لان الشاعر لا يملك من مؤلفاته ما يسمح له بأن يقايضنا الكتاب بالكتاب . اذ ذاك عدت الى مجلة «الشراع» (العدد ١٣٢ / الاثنين ٢٤ أيلول١٩٨٤)لأردد ما قاله الاستاذ محمد : « لقد جار لبنان على شبابه فجارت عليه شيخوخته ... ألم ترَ اليه كيف تهاوى كقصبة يابسة تحترق في لهيب عيون بنيه ؟» « أنا أدري أنه لن يبقى في أعماق البحار ، بعد أن تفنى أسماكها، سوى طحالب الزمن .. ولكنني موقن بأن أعنف الزلازل لا تدمر عشاً ولا تقتـل عصفورا ولا تمحور شعرا .. » (ص ٦٢) .

سلِم قلبك وقلمك أيها الشاعر !

الثاني (المحامي عبد الله قبرصي) كتب في «السفير» (الاثنين ١٢/١١/١٩٨٤) مقالـة مؤثرة أيضا ، فيها وُد وعظة وعتاب ، ما شجعني على الاتصال بالاستاذ قبرصي ، فجاءني صوته غير متكلف ، كما لو كنت أعرفه منذ زمن بعيد . سألته عن « أيام وقضية » وعن مصطفى .. وعن « عبد الله قبرصي يتذكر » [٣] ، فكان كريمـا في رده ، الامر الذي دفعني الى الاستعانة ، ثانية ، بولدي حسين ،

(٣) كتـاب في جزئين . الاول ٣٤٠ صفحة ، من القيـاس الوسط، والثاني ٢٤٩ صفحة، من القياس نفسه، مؤسسة فكر للابحاث والنشر، الطبعة الاولى ١٩٨٢ .

ولطالما فعلت مثل ذلك في الظروف الحرجة والصعبة، لانني بعيد عن كل عبد الله ـ مثل عبد الله قبرصي ـ كما عن كل مصطفى وكل محمد . وانطلق حسين يحمل الى المحامي ما حمله الى الشاعر، آخذاً معه أيضا ثلاثة من مؤلفاتي الى مصطفى ، على أن يتولى نقلها اليه عبد الله قبرصي حسبما وعدنا .

كانت الرحلة ، هذه المرة ، ناجحة وسعيدة . رجع حسين وفي حقيبته : «أيام وقضية» و«مصرع السمّنة»(٤) و «عبد الله قبرصي يتذكر» ففرحت واطمأنت نفسي .

قرأت «مصرع السمّنة» فأعجبتُ بما فيه من أدب وجمال نفسي وخلق كريم وتعلّق بالطبيعة والطير والحرية، الى رفضه التسلط والتعنت والاغتصاب ، فلا بأس أن نقرأ معا ما يقوله القبرصي في الصفحة (٦٩) :

---

(٤) تأليف عبد الله قبرصي (المحامي) ، ١٠٨ صفحات من القياس الصغير ، الطبعة الثانية ٥ كانون الثاني ١٩٧٠ ، يتضمن رسالة من ميخائيل نعيمة (الى مؤلف مصرع السمنة) مؤرخة في ٢٤ آب ١٩٤٤ ، اذ ان القبرصي وضع كتابه هذا عندما كان أسيرا في معتقل «المية ومية» ـ صيدا ، الجنوب، من ١٩٤٢/١١/٢ الى ١٩٤٣/١٢/٢٧ . الاخراج والرسوم بريشة رأفت. الاهداء في (الطبعة الثانية) : « الى روح التي رافقتني في مصرع السمنة ، وفي كل صراع وكفاح طوال حياتها الغنية بالصبر على المكاره ، الغنية بالوطنية والاخلاص والصمود ، شريكة حياتي الغالية ، جورجيت بربر ، التي ماتت قوية قادرة كما عاشت قوية قادرة » .

« لقد شرب الشاعر من ماء الفلاح
وأحس أنه ابن الريف الابرّ
من طبقة البشر التي لم تسنّ قانونا ،
بل تطبق القانون !
الطبقة التي تجيء الحكمة على لسانها ،
فيقول الناس انها جهالة !
وراح الشاعر يفكر لو أن العالم ينقلب ، ويصبح الفلاّح حاكما ،
لساد العدل وعمّ الرخاء ،
لقد حكم العالم قادة ورؤساء وأغنياء
فما ورثت المدنية الا الاضطراب ،
فليت البساطة تسود وتحكم ،
ليت الاخلاق ، أخلاق الفلاح تسود وتحكم ،
فيسود السلام والاطمئنان ،
عوضا عن المطامع والحديد والنار ،
وعوضا عن المكر والخداع
في الهجوم والدفاع ... »

هكذا ، ببساطة يكتب عبد الله قبرصي ، ويفكر ،

ويتحدث ، ويتحدى المتاعب وتقلبات السياسيين وألاعيبهم وحيلهم •

وببساطة أيضا يتمنى عبد الله « لو يصبح الفلاح حاكما » •

كيف يصل الفلاح الى الحكم ؟

ألا يخشى الاستاذ قبرصي طبقة الفلاحين اذا ما حكمت؟

قالت الماركسية بضرورة سيادة البروليتاريا •• فما الذي حصل ؟

دكتاتورية الطبقة ، أي طبقة ، سيف لا بد منه •

القمع السلطوي ، على أنواعه ، وسيلة لا غنى عنها لمن يريد البقاء في الحكم •

العدالة كما الحرية ، اذا أُعطيت لهذا الفريق،فانها ، لا شك ، مفقودة عند ذاك ، واذا كانت ، في هذا المكان ، فانها في مكان آخر ، لا وجود لها • وفي جميع الاحوال يظل الصراع من أجل الحرية والعدالة هو الباقي أبدا •

ليتك تعلم أن صاحبنا القبرصي يقول أيضا :

« وحدي أنا الشاعر ، يحق

لي أن أحاكم الآلهة ،

لأني لست غريبا عنها » (ص ٩٤) •

اقرأْ ولا تصدّق !

إنّ الذي يضرب بحجر كبير لا يصيب • وحجر القبرصي صخرة ، التجأ اليها واعتصم بها ، ولما أمِن أطلق النار على السمّنة !

نعود الى كتاب الاستاذ مصطفى عبد الساتر • الى أيامه وقضيته •

في السادس والعشرين من حزيران ١٩٦٢ ، وقف مصطفى ، أمام المحكمة العسكرية في بيروت ، يقول :

« أنا من بعلبك •

من احدى « الملحقات » التي أصبحت تشكل جزءا من الكيان اللبناني الحاضر منذ أعلن غورو (الجنرال) دولة لبنان « الكبير » في الاول من أيلول ١٩٢٠ •

« نشأتُ وترعرعتُ في محيط معادٍ لهذا الكيان السياسي ـ الذي اعتبره أبناء منطقتي من صنع المستعمر ـ مطالبا باستمرار ، ان لم يكن بالوحدة الكاملة ، فعلى الاقل بالانسلاخ عن « دولة لبنان » وبالعودة الى « أمة الشام » (ص ١٤) •

ولكن مصطفى «تحرّر من هذا التفكير العفوي الجزئي،

الذي يعطي السلبية من الكيانية السياسية المكان الاول في العمل القومي » منذ اليوم الذي وعى (مصطفى) فيه وآمن بأن « الكيانات السياسية المجرّدة ، والاشكال والقوالب السياسية لا تعني لوحدها شيئا ، وليست هي الامر الجوهري الاول ، رغم كبير أهميتها ، في حياة الامة ، أية أمة . اذ ان الجوهر والاساس هما في الارتقاء بالمجتمع الى حد قيام الوحدة الاجتماعية ، شعورا وممارسة ، بين أبناء المجتمع الواحد » (ص ١٤) .

كما بعلبك كذلك سائر البقاع وجبل عامل وطرابلس وكل الشمال .

غير أن «الامة السورية» هي أمة «السوريين القوميين» . غيرهم ، في هذه « الملحقات » ، أكثرهم عروبيون .

بين «الامة السورية» و «الامة العربية» ضاع لبنان ، أو هو كاد يضيع .

في قلب «المعركة» بين هذه وتلك ، وُلدت «الامة اللبنانية» .

الكيان — كل كيان — له دولته ورجاله . ولكن «الدولة اللبنانية» و «الرجال اللبنانيين» في واد ، والوطن في واد آخر .

من لا يتحسس الخطر ، على لبنان — الوطن والكيان،

من هذه «الامم» يكون غير عارف بتاريخ هذا البلد المعقّد والمأزوم .

ليس ادّعاءً القول إن بعلبك والبقاع والجنوب وعكار أهملتها « الدولة الكيانية » وتناستها ، حتى استبد بهذه «الملحقات» الحنين إما الى « الوحدة العربية » وإما الى «الوحدة السورية» . ويُعتبر مصطفى عبد الساتر واحدا من الشهود على هذه «المجزرة الشرعية» التي نفذت في أجزاء غالية من الوطن .. المشروع .

نحن ، الآن ، على أبواب الفصل الاخير من هذه «المجزرة» .

أين الجنوب ؟

أين البقاع وبعلبك ؟

أين طرابلس والشمال ؟

أين الجبل ؟

ماذا بقي من «الدولة الكيانية» ؟

هذه أسئلة نطلقها ، هنا ، بعفوية وبراءة ، ممتلئين حزنا وخوفا ، ولا أراني أنتظر جوابا عنها .

أيام مصطفى عبد الساتر هي ، بشكل أو آخر ، أيامنا جميعا . بينما قضيته تدعو الى الاخذ والرد .

يقول عبد الساتر :

« فبينما لا يشكل العِرْق والمعتقَد ، مشكلة في شبه الجزيرة العربية حيث الاكثرية الساحقة من أصل عربي وتدين بالمذهب الاسلامي السُنّي ، فان الامر ، في الهلال الخصيب ، على العكس حيث فسيفساء متنوعة جدا من الاعراق والسلالات والاديان والمذاهب • حتى القسم الافريقي من العالم العربي ، وادي النيل وسائر شمال افريقيا ، ليست مشاكله هذه على جانب كبير من الحدة والتعقيد • فمن حيث الاصل ـ باستثناء مصر والسودان حيث التنوّع على كثرته يبقى أقل منه في سورية ـ يكاد السكان أن يكونوا مقسومين الى عرقين فقط، عرب وبربر في سائر شمال افريقيا • كما تقوم وحدة دينية مذهبية هي الاسلام السنّي ـ باستثناء أقلية مسيحية ، قبطية في مصر، وأخرى في السودان ـ مع افتقاد أي مذهب آخر ذي وزن في شمال افريقيا ، بحيث يكاد مفهوم العرب والعروبة يختلط اختلاطا طبيعيا بالاسلام» (ص ٢٤٥) •

الاقليات السورية هي قلب هذا الجسد الكبير الممتد من أقاصي المغرب الى أقاصي المشرق • طوائف وفرق وهيئات وجماعات تنطلق ، كل صباح ، نحو هدف واحد، نحو الحرية • ولكن المصالح الاجنبية هي التي حالت وتحول دون تحقيق الوحدة التي تتمنى • بلادها جسور

ومعابر وبوابات ، الغرب له فيها مطامع ومآرب ، والشرق أيضا له فيها مطامع ومآرب •

ان هذا يعني، يا للاسف، أن الحل بعيد جدا ، والامل صعب تحقيقه •

«ونظرا لان الدعوة الى القومية العربية كانت ، وما زالت ، شئنا أو أبينا ، تأخذ الطابع العرقي ، طابع الاصل البشري المختلط بالاسلام المحمدي وباللغة العربية ، فان اعتماد مثل هذه الدعوة في الهلال الخصيب من شأنه أن يقصي عنها حكما جميع الاقليات المتحدّرة من أصول وأعراق أخرى ، وكل الاقليات المذهبية التي تدين بغير المذاهب الاسلامية المحمدية، في بقعة من العالم لعب الاصل العرقي والمعتقَد المذهبي دورا أساسيا في مجرى حياتها على مرّ العصور • وهو ، هذا التعدد المذهبي بخاصة ، الذي كان وسيلة المستعمِر ، منذ البيزنطيين والسلاجقة والتتر والصليبيين والمماليك والعثمانيين والفرنجة وأخيرا اليهود ، الى تفتيت قوة الشعب فيها والى تسهيل مهمة المستعمر الغريب في فرض نفوذه عليها» (ص ٢٤٥/٢٤٦)•

ولكن هذه الاقليات، الهاربة من حكم الاكثرية،لا تبدي ميلاً قويا الى الوحدة • بل ان بعضها يخاف بعضا • والذي يزيد الامور تعقيدا الاستعداد الدائم والجهد الكبير

اللذان تبذلهما الاكثرية ، لكي تظل هذه الاقليات متباعدة متنافرة متناحرة .

ان الافكـــار التي يتضمنها كتاب «أيام وقضية» هي كثيرة ، والملاحظات والانتقـادات السياسية والاجتماعيـة كثيرة أيضا . لكن موقف كاتبـه من بعض الرفقاء ليس دقيقا دائما ، ولا هو واضح كما ينبغي ، له أن يكون .

عند مصطفى حشد كبير من الاسماء . وانما العرض سريع ، والتحليل نادر أو قل انه معدوم . فمن القوميين (بعضهم ما زال قوميا وبعضهم انسحب أو طُرد) : هشام شرابي ، جـورج عبد المسيح ، عصام المحـايري ، أسد الاشقر ، عبد الله قبرصي ، محمد يوسف حمود ، نعمة ثابت ، مأمون اياس ، خالـد مورلي ، معروف صعب ، الدكتور صبري قباني (؟) ، ممدوح العظمة ، الياس جرجي قنيزح ، نظمي عزقول ، نعمة حمـادة ، الطبيب عبد الله الرفاعي ، ابراهيم المعلوف — من زبوغا—المتن — ، رياض طه ، فايز الصايغ ، يوسف الدبس ، يوسف حاتم ، فؤاد أبو عجرم ، أديب قدورة ، انعام رعـد ، محمد بعلبكي ، غسان تويني ، جميل ذبيان ، توفيق حمدان — الذي فشل في اغتيـال رياض الصلح — حنـا الكسواني ، وأديب الشيشكلي ، وغيرهم ، وغيرهم . ومن غـير القوميين : بشارة الخوري ، رياض الصلح ، كميل شمعون ، عدنان

المالكي ، رشدي الكيخيا ، ناظم القدسي ، صبحي حيدر، سليم حيدر ، ابراهيم حيدر ، فيليب تقلا ، منتصرا على الياس ربابي في الانتخابات ، بيار ادة ، منتصرا على بيار الجميل رئيس الكتائب ، موريس الجميل ، منهزما أمام أسد الاشقر ، صبري حمادة ، اللواء فؤاد شهاب ، الاب يوحنا مارون ، الإمام موسى الصدر ، تقي الدين الصلح ، موسى فريج ، حسني الزعيم، ومحسن البرازي، الخ.الخ.

الكل أخطأ ، بشكل أو آخر، والكل تهوّر واستعجل، ما عدا اثنين :أنطون سعادة والمؤلف ؟!

يقول مصطفى عبد الساتر مادحا نفسه :

« كما آمنتُ بالديموقراطية السياسية ، آمنت مـن خلالها أيضا بنوع من المثالية فرض علي دائما الكفر بالمبدأ اليسوعي (الجزويتي) ، أو المكيافللي ، القائل ان الغاية تبرر الواسطة . أنا ممن يرون ان الواسطة يجب أن تتناسب مع الغاية ، فالغاية الشريفة يجب ان تكون الواسطة اليها شريفة . وقد رأى البعض في ذلك ، مأخذا عليّ نعتوني ، بسببه « بالوجدانيـــة » ! ورغم اعتباري ان الوجدانيـة ليست مأخذا ، فأنا لا أسلّم بمقولة هذا البعض . أعتبر نفسي واقعيا موضوعيا ينطلق من التحليل المنطقي والموضوعي للوقائع ليصل الى ما يرى فيه الصواب والخير »(ص٢٠٨).

ويقول مادحا نفسه أيضا :

« وبعد فأنا تلميذ اثنين : علي بن ابي طالب القائل : « ايها الحق ما تركت لي صديقا » ، وانطون سعاده القائل في خطاب طويل له هام جدا في بيت مري سنة ١٩٤٨ : « اننا لا نطلب شيئا لاشخاصنا • لو كنت أطلب شيئا لنفسي لكنت سياسيا لبقا كما يريد الذين يدوسون الشعب باقدامهم ويعطون من السنتهم حلاوة • لو كنت اطلب لنفسي لكنت سلكت غير هذا السبيل • كنت سلكت سبيل ان اكون مارونيا مع الموارنة ، ارثوذكسيا مع الارثوذكس الخ ••• واني واثق اني كنت اكتسبت صداقات كثيرة • ولكني رفضت هذه الصداقات عن وعي وعن عقيدة» (ص٣٢٤) •

أي تلميذ لا يطمع في ان يبزّ كل اساتذته ؟

الانا ، هذه ، مشكلة ، اذا كثر الكلام على مآثرها وفضائلها ، ومشكلة أيضا اذا ما بيّنا مثالبها ومعايبها •

من الذي يجرؤ على ممارسة النقد الذاتي من الحزبيين؟

يقول موريس ديفرجيه :

« •• تحاط حياة الاحزاب عن عمد بالغموض ، فلا يمكن أخذ المعلومات الدقيقة عنها بسهولة ، حتى ولا المعلومات الاولية • فالنظام هنا قانوني بدائي • القوانين والاعراف فيه سرية • وينأى بها المطلعون عن اعين الاوغاد بصورة

فطنة • والمناضلون القدامى وحدهم يعرفون جيدا ، منعطفات التنظيم ودقة الالاعيب التي تُحبك في داخله • ولكنهم نادرا ما يمتلكون فكرا علميا يتيح لهم الاحتفاظ بالتجرد الموضوعي ، اللازم للبحث • ثم انهم لا يتكلمون ابدا مختارين » (٥) •

والحزبية في الشرق ، مهمة مستحيلة • اصحابها هم المعذّبون ، والمستهدفون حتى من أقرب الناس اليهم • وممن عانوا وتعبوا وقهروا وظُلِموا بسبب حزبيتهم ونضالهم الحزبي الدكتور جورج عبد المسيح ، صاحب « زينون الروائي » رسالة دكتوراه ، قدمت الى جامعة كراتشي ـ الهند •

يقول مصطفى :

« توجهنا الى دمشق لمعرفة ما يجري • لم تكن قضية الاشخاص تهمني ابدا ، كما لم تهمني في يوم من الايام • كل ما يهمني هو تجنب الحزب أي انقسام • بعد اتصالات ومداولات كثيرة وجدت تعنتا مع جورج عبد المسيح والمتحزّبين له في موقفهم وفي تصميمهم على السير في ذلك ولو أدى الامر الى شق الحزب » •

أضاف :

---

(٥) الاحزاب السياسية ، المذكور سابقا ص ٤ .

« واذْ لمستُ خطورة ذلك أطلعتُ الاخرين على حقيقة الوضع وعلى مدى خطورته ودعوتهم الى مخرج يجنب الحزب الانقسام . وهكذا كان اذ ان رئيس الحزب، عصام المحايري ، واعضاء المجلس الاعلى اتخذوا حلا وسطا بان حلّ المجلس الاعلى نفسه بعد أن كان منح رتبة الامانة الى عدد من الامناء الجدد ، ودعا الى انتخابات جديدة للمجلس الاعلى . وقد فوجئت اني كنت في عداد من مُنح رتبة الامانة ، اذ ان الموضوع لم يكن واردا في فكري » (ص ١١٧) .

حدث ذلك خلال ١٩٥٤ ، عندما كان مقر الحزب في الشام . هذه المرحلة هي السابقة على مرحلة ما بعد اغتيال العقيد عدنان المالكي . وتفاقمت الخلافات بين القوميين أنفسهم واضطرمت سنة ١٩٥٧ ، حتى ان المجلس الاعلى « اتخذ قرارا بطرد عبد المسيح اثر تمرده على السلطات بعد انتخاب مصطفى رشيد رئيسا جديدا للحزب ، اذ أخذ يقيم تكتلا سافرا ضمن الحزب للانقضاض على السلطة » (ص ١١٧ / ١١٨) .

« وحصل نتيجة ذلك الانقسام الحزبي العلني الاول . ومن اللافت للنظر ان أكثر الذين تحمسوا لعبد المسيح في ازمة ١٩٥٤ كانوا في طليعة معارضيه سنة ١٩٥٧ »(ص١١٨) .

غير ان جورج عبد المسيح هو ، باعتراف المؤلف ،

« مناضل عنيد » له « دور رئيسي ، بشكل خاص ، في إعادة تنظيم الحزب بعد مصرع سعادة ، وفي تقويته وانتشاره بخاصة في الجمهورية السورية (الشام) » (ص ١١٨) . وعلى الرغم من ذلك ، طُرد بسبب « تمرده على السلطة »!

هلا سألنا المؤلف والمحايري ورشيد وكل السوريين القوميين : لماذا يُطرد المناضل عبد المسيح ؟

هنالك كلمة من مصطفى عبد الساتر ، في جورج عبد المسيح تجعلنا نتّهم « المجلس الاعلى » بالتسرع والاستعجال ، وربما بالانانية والطمع والحسد أيضا ، اذ يقول :

« كان عبدالمسيح(جورج)من القائلين بتصهْيُن السلطة الاميركية الى حد لا رجوع عنه في المستقبل المنظور . وقد حدّثنا عن مدى تأثر السياسة الاميركية بالصهيونية لا سياسيا فحسب ، بل وعلى اساس معتقد مذهبي مستمدّ من عظيم تأثير التوراة اليهودية في الشعب الاميركي اكثر من تأثير الانجيل المسيحي . وأخبرنا انه لم يجتمع يوما باميركي ، رسمي أو تبشيري ، الا وكان الاميركي يضع قضية وجوب التسليم « بالحق الاسرائيلي اليهودي التوراتي في فلسطين » ! أساسا غير قابل للنقاش . الامر الذي كان يؤدي الى قطع كل بحث فورا لتعارض المعتقد اليهودي مع حقنا القومي الاساسي ومع حقنا بالوجود . وأبدى عبد المسيح اقتناعه بان ساسة اميركانيين مستعدون للتضحية

حتى بالكثير من مصالح اميركا ذاتها ، وعلى التساهل مع الشيوعية الدولية في كثير من أطماعها ، في سبيل ضمان وتقوية اسرائيل » (ص ١٢٣).

ومع ذلك طرد عبد المسيح بسبب «تمرده على السلطة»!

ماذا فعلتم بأخيكم ، اذن ، ايها القوميون ؟

اتراه كان على خطأ في ما قال ، ام هي رغبتكم في ارضاء اميركا واصدقائها في المنطقة ؟

روى لي الدكتور جورج عبد المسيح ان أحد رجالات المخابرات الاميركية (...) جاءه الى الشام ــ كان ذلك عام ١٩٥٣ ــ يعرض عليه المال ثمنا لمعلومات تطلبها اميركا عن الشيوعيين وغيرهم ، فرفض عبد المسيح هذا العرض رفضا مطلقا ، ومما قاله لزائره الاميركي بالانكليزية:

« If you put me at the top of the world I loose my self ».

جورج عبدالمسيح لا يريد أن يربح العالم ويخسر نفسه.

هذا السوري القومي ، الذي « اعاد تنظيم الحزب بعد مصرع سعادة » وجاهد في سبيل « تقويته وانتشاره (ولا سيما) في الجمهورية السورية ــ (الشام) » ، كيف خسر رفقاءه ؟ بل لماذا خسره الرفقاء ؟!

قد يكون جورج عبد المسيح قوميا طوباويا ، ولكن

مصلحة الحزب كان يجب ان تفرض على السوريين القوميين التعامل معه باخلاص وصدق واحترام ووفاء .

ان القرار القاضي بطرد عبد المسيح لا يقل في ظني خطورة بالنسبة الى الحزب ، عن تلك الرصاصة التي اغتالت أنطون سعادة في بيروت .

ما أصعب قراءة تاريخ هذا الحزب أو ذاك. فليس لي أن ادّعي تصحيح « أيام وقضية » ، ما دمت غير حزبي ، وانما هي علامات شئت رسمها على طريق حزب لعب دورا كبيرا في احداث كثيرة تعاقبت على الساحتين : اللبنانية والشامية .

السوريون القوميون هم كغيرهم ، يحتاجون الى نقد ذاتي جريء وموضوعي ، يتناول لا الاشخاص فحسب، بل العقيدة أيضا ، وطفولة الحزب والمؤسس ، وجميع الذين يتقنون « مسح الجوخ » و « الحرتقة » من الحزبيين .

يبقى عليّ ان أقول ان في كتاب « أيام وقضية » ما يجعلك تحب مصطفى عبدالساتر، الطالب في عاليه، والطالب في الشام ، والمحامي في بعلبك وبيروت ، والاديب باسلوبه السلس العذب .

أما همومه الحزبية والاجتماعية فلا يمكنك تجاوزها الا وفي نفسك بعض منها . فمن فراره (عام ١٩٤٩) الى

جرود بعلبك ، الى احتراق مكتبه في مدينته ، عام ١٩٥٨ ، الى محاكمته اثر انقلاب ١٩٦١ ، والى احتلال مكتبه في بدارو — بيروت (١٩٧٥)، وكلها بسبب «الاثم الكنعاني » أي « شرف تعلق سكان بلادنا القدامى بالوطن الام ، ذلك الشرف الذي رأى فيه قدماء اليونان نقيصة عيّروا بها الكنعانيين، واعتبروه اثما٠ وقد كشفه لنا سعادة في (نشوء الامم) » (ص ٣٦٢/٣٦٣)، والقضية هي رأس الشهداء٠

على أن هناك من وقع عليه «الاثم اللبناني» فتعذب وخسر ما بناه بعرق الجبين ، أو هو أُبعد عن أرضه وبيته ، أو قُتل ٠ كذلك بعض الذين حُمّلوا « الاثم العربي » و « الاثم الماركسي » و « الاثم الفينيقي » و « الاثم اليهودي » ، فكأن الآثام ، في النتيجة ، واحدة ، والاثماء يشبه بعضهم بعضا ٠

يقول مصطفى :

« وكنتُ ، كلما سمعتُ بأخبار المجازر ، وبخاصة أعمال القتل المذهبي « على الهوية » والتعذيب والتنكيل والتشويه في الجثث ، وذبح الابناء على مشهد من ذويهم، وبأعمال النسف والحرق والنهب ، تطال في معظمها حتى الابرياء غير المشاركين في القتال ، اشعر بالمزيد من الغربة ، وأنا من الذين يستفظعون الاعتداء على الكتاب وعلى الفكر

وعلى الشجرة ، اكثر حتى من استفظاعي العدوان على الانسان » ٠

وتابع يقول :

« لما نزلت ، اول مرة ، الى الاسواق التجارية المعموسة في بيروت ، أخذني القرف الى اقصى الدرجات ، ولما عدت الى منزلي، مترحما على أتيلا وهولاكو وجنكيزخان وأمثالهم عبر التاريخ البشري الطويل ، بكيت ، بكيت كثيرا ولاول مرة ، أنا العصيّ الدمع في أقسى المناسبات »(ص٣٦٠) ٠

كلنا ، على الرغم من اختلاف « الآثام » التي نحمل، بكى ويبكي بيروت، والجبل، والبقاع والجنوب، والشمال٠ كلنا يستفظع الاعتداء على الكتاب ، وعلى الفكر ، وعلى الشجرة ٠ كلنا ينشد الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية ولكن هيهات ٠٠٠

أما أن يقول مصطفى عبد الساتر ، وهو المحامي والمثقف « أدركت ان « الاثم اللبناني » المحقّر بدأ يتقدم في نفسه على « الاثم الكنعاني » المشرّف ٠٠ » (ص ٣٦٣) فذلك عندي هو ضرب من الآثام حصدتنا جميعا ٠

٨—١٢—١٩٨٤

(٨)
السوريّون القوميّون يقولون ولا يعملون

في منزل جبلي ، التقيت رجلين أرمنيين ، احدهما صاحب مطعم ، والآخر يعمل في الحقل الثقافي الاجتماعي . صاحب البيت لبناني كريم مثقف ، يحب الكيف والطرب والاصدقاء . بعد الموسيقى الكلاسيكية الهادئة ، أخذنا نتحدث عن الغلاء الفاحش ، الذي بات يهدد اللبنانيين ، والدولار ، قاتله الله ، والشر الكامن فيه ، وعن الوضع الامني ، وما يرافقه من انفجارات ، صارت شبه دائمة ، مروّعة،وهدامة،فضلا عن القصف العشوائي والمركّز .

استمر الحديث ، هكذا ، بيننا ، حتى شمل الحكومة والاحزاب واسرائيل وسوريا . ومن الطبيعي ، اذ نحن نستعرض شريط الاحداث ، ان نناقش المقاومة الفلسطينية وأميركا وروسيا وفرنسا وكل العرب . لم ننس الطوائف اللبنانية ، الكبيرة منها والصغيرة . شرّحنا الموارنة والشيعة

والدروز والسنّة والارثوذكس والكاثوليك ، وأيضا الارمن والسريان والكلدان والاشوريين والاكراد . حلّلنا أعمال ومواقف أمين الجميّل ووليد جنبلاط ونبيه بري ورشيد كرامي وريمون اده وكميل شمعون . تذكّرنا ياسر عرفات (أبو عمار) و « أبو اياد » و « أبو موسى » و « أبو نضال » و « أبو الهول » و « أبو الغضب »وزهير محسن وخالد الحسن و « أبو اللطف » و « أبو الليل » . وتذكّرنا أيضا وأيضا أنطون سعادة (الزعيم) ورياض الصلح وبشارة الخوري وكمال جنبلاط وطوني فرنجيه وبيار الجميّل وبشير الجميل .

لقاؤنا هذا مثله مثل أي لقاء بين لبنانيين أو أكثر . فاللبناني ، الذي لا يعرف من أين يأتيه الموت ، لا بد أن يقول ما يريد وما لا يريد . لم يبق للبناني سوى لسانه . تساءلنا ، بل قل تساءل بعضنا : ماذا فعل كامل الاسعد ؟ لماذا أعطيت رئاسة الحكومة لرشيد كرامي ولم تعط لصائب سلام أو تقي الدين الصلح ؟ لماذا رُفع حسين الحسيني لمجلس النواب لا عبد اللطيف الزين أو علي الخليل ؟ لماذا تلاشى فيصل أرسلان (سياسيا) ؟ لماذا عُزل أو طُرد ،من حزب الكتائب ، لويس أبو شرف وادمون رزق ؟ أين فادي افرام و « القوات اللبنانية » ؟ لماذا انتُخِب) أو (عُيّن) عصام المحايري (السنّي ـ الشامي) رئيسا للحزب السوري القومي ؟

لماذا يقتلون الجيش ؟ ما نوع العلاقة بين الشيخ محمد مهدي شمس الدين ونبيه بري ؟ ماذا بقي من « الجبهة اللبنانية» ؟ ماذا يقول الشيخ حسن خالد الى الشيخ محمد ابو شقرا ؟ أي دور سوف يُعطى ، مستقبلا ، الى كل من : عاصم قانصو وعبدالله الامين ؟ أين ابراهيم قليلات ؟ ماذا تخبىء الايام لسليمان فرنجيه ؟

قبل أن نختم لقاءنا هذا ، الذي فرضته المصادفة ، شاء أحد الارمنيّيْن أن يسألني : لماذا الارمن لبنانيون في لبنان، وسوريون في سوريا ،وعراقيون في العراق ،ومصريون في مصر ، وأتراك في تركيا ، وايرانيون في ايران ؟

قلت : الارمن لا هم عرب ولا هم مسلمون .

عبس صاحبنا وقال : هل لك أن تفسّر لنا هذا الكلام ؟

قلت : إن أي فلسطيني أو عراقي أو سوري أو مصري أو خليجي أو مغربي يستطيع أن يطالب ، من لبنان أو غيره من بلدان المنطقة ، بالوحدة العربية ، بل بالوحدة الاسلامية الشاملة الكاملة .

ان هذه مشكلة ... مشكلة كبيرة فعلا . الوحدة هل هي قبل الحرية أو بعدها ؟ قبل الاشتراكية أو بعدها؟ اصحاب هذه العقائد لا يملكون الجواب عن مثل هذا

السؤال . المهم ان هاتين القضيتين : الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ، ليستا من هموم الارمن . لذلك نجدهم ، كما قلت لبنانيين في لبنان ، وسوريين في سوريا، وعراقيين في العراق ، وأميركيين في أميركا ، وفرنسيين في فرنسا الخ الخ ...

هز السيد هاروت رأسه وقال : معك حق ، معك حق .

أرجعني الى هذا « الاجتماع » — المصادفة، المحامي والشاعر عبدالله قبرصي ، في مقالة له عنوانها : « موقف الحزب السوري القومي من عبد المسيح ولبنان والوحدة العربية » (١) ، كتبها ردّاً على نقدي لكتاب « أيام وقضية» لصاحبه المحامي مصطفى عبد الساتر ، تحت عنوان « أيام مصطفى عبد الساتر وقضيته بين « الاثم الكنعاني »و«الاثم اللبناني » — ماذا فعلتم بأخيكم أيها القوميون ؟ » (٢) ، ورحت أقارن بين السيد هاروت (الارمني) — القائل لي : « معك حق . معك حق » — وبين الاستاذ قبرصي ، اللبناني — السوري — العربي ، الذي يكرر مع الاستاذ عبد الساتر ، قول سعادة : « لا نقول بالوحدة العربية بل نعمل لها » ، ليبيّن لنا ، كيف ان « الحرب البغيضة (على

---

(١) الاسبوع العربي العدد ١٣١٩ الاثنين ٢١ كانون الثاني ٨٥

(٢) أنظر الفصل السابق .

لبنان) المستمرة منذ عشر سنوات أفسحت في المجال أمام
الحزب السوري القومي الاجتماعي أن يطالب بالوحدة
السورية » (؟) و « حارب (الحزب) وناضل تحت شعار
وحدة لبنان أرضا وشعبا ومؤسسات ، تحت شعار لبنان
العربي الديمقراطي السيد المستقل العلماني » ، فبدا لي
الاستاذ قبرصي وحزبه كأنهما تحت الارض أو في الفضاء ،
يضربان بحجر كبير كبير ، لاعتقادهما ان « رأس الافعى »
مثل « رأس السمّنة »التي ظل الاستاذ قبرصي يلهث خلفها
ـ أيام الانتداب الفرنسي ـ في كروم الكورة ، حتى
أصابها ، ولما وجدها لا تُسمِن ولا تغني من جوع ،اعتراه
الحزن وتملكّه الشعور بالذنْب ، فكتب « مصرع
السُمْنة » من معتقل الميّة ومية (قرب صيدا ـ
الجنوب) سنة ١٩٤٣ ـ إما ليكفّر عن « اثمه » ، واما
ليتسلّى بالادب عن السجن وبُعْده عن زوجته وولديه ،
وربما للسببين معاً .

وكما ضاع الاستاذ قبرصي بين جمهورية الفلاح
وجمهورية الشاعر ، ضاع حزبه بين الوحدة السورية
والوحدة العربية .

لقد نسي الاستاذ قبرصي انه عندما كان يجر«عضلاته»
على السمنة ، لم يكن لدى اللبنانيين ، آنذاك ، لا قذائف
ولا عبوات ولا مفخخات ولا صواريخ .

أمّا أن يلوم الاستاذ قبرصي أديبا يرفض جمهورية
الفلاح أو جمهورية الشاعر ، كما جاء في مطلع ردّه علينا،
فهذا أيضا ضرب بالحجر الكبير ، ولن نبالي ، ما دام الامر
كذلك ، وحبذا لو يدرك هذا «الصياد» ان الفلاح لا يتردد
في قطع شجرة اذا هي لم تثمر ، وحرّق غابة جميلة لكي
يأخذ منها حطبه وفحمه . وكما الفلاح كما الشاعر ، على
ان الشعر العظيم يحاكي الجنون ، بينما السياسة والادارة
والحكم ، القومي أو غيره ، أمور جد عقلانية ، يؤذيها
الفلاح ، ببساطته ، والشاعر ، بخياله .

ولكي يحكم الفلاح أو الشاعر أو البروليتاري أو
البرجوازي أو الامير أو الملك ، لا بد له من استعمال القمع
والسلطة والقوة ، ومن لا يملك المقدرة على فرض سيطرته،
لن يعيش ملكا أو رئيسا أو أميرا أو حاكما مستقرّا .

نعم ! لقد ضاع لبنان بين الامة السورية والامة
العربية . ولكن الاستاذ قبرصي يأبى الا أن يساير ويجامل
العرب و « الشوام » فيقول :

«كيف يجوز القول بأن لبنان ضاع أو كاد يضيع بين
الامة السورية والامة العربية ؟ بل كيف يجوز اطلاق مثل
هذا القول وسوريا (التي نسميها الشام) باذلة اقصى
جهدها في سبيل انقاذ لبنان من حروبه الداخلية وتحريره

من المحتل الاسرائيلي ؟ كيف يجوز اطلاق هذا القول وأبواب العالم العربي وخصوصا السعودية والامارات مشرّعة أمام اللبنانيين ليجنوا الثروات الطائلة وينتجوا الازدهار لهم ولعيالهم ؟... »

أرأيتم كيف «يتسامح» الاستاذ الفلاح والشاعر ؟
ماذا بقي من لبنان ؟

السؤال ليس مطروحا لا على الاستاذ قبرصي ولا على العرب .

السؤال مطروح على العقل ... اذ الواقع شيء والتنظير شيء آخر .

أبواب العالم العربي مفتوحة للبنانيين وغير اللبنانيين.
المهم أن لا نفتح أبواب لبنان للفتن والاطماع والاحقاد و « النظريات » .

العرب ، مثل لبنان ، بحاجة الى إقفال أبوابهم ،بل عقولهم ، أمام التفرقة والنزاعات والانقسامات .

أين هي الوحدة العربية التي يعمل لها الحزب السوري القومي ؟

مع أي فريق من العرب أنتم أيها القوميون ؟

نعود الى كلمة سعادة : « لا نقول بالوحدة العربية بل نعمل لها » .

انهذا ، برأيي، هو بسبب الاضطراب النفسي والادبي والسياسي والتاريخي، الذي كان يتحكم في «الزعيم» بالذات.

اذا السوريون القوميون يعملون لما لا يقولون به ، أفلا يقولون بما لا يعملون ؟

يقول ابن منظور الافريقي المصري :

«القول: الكلام على الترتيب ، وهو عند المحقق ، كل لفظ قال به اللسان ، تاما كان أو ناقصا ، تقول : قال يقول قولا ، والفاعل قائل ، والمفعول مقول ، قال سيبويه :واعلم ان قلت في كلام العرب انما وقعت على أن تحكي بها ما كان كلاما لا قولا ، يعني بالكلام الجُمَل كقولك : زيد منطلق وقام عمرو ، ويعني بالقول الالفاظ المفردة التي يُبنى الكلام منها كزيد من قولك زيد منطلق ، وعمرو من قولك قام عمرو ، فاما تجوزهم في تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا فلأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف الا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال ، فلما كانت لا تظهر الا بالقول سميت قولا اذ كانت سببا له ، وكان القول دليلا عليها ، كما يسمى الشيء باسم غيره، اذا كان ملابسا له وكان القول دليلا عليه » [3] .

ويقول عن العمل :

(٣) لسان العرب ، طبعة صادر ، المجلد الحادي عشر ص ٥٧٢ مادة (قول) .

« قال الله عز وجل في آية الصدقات : « والعاملين عليها ، هم السعاة الذين يأخذون الصدقات من اربابها ، واحدهم عامل وساع » و « العامل هو الذي يتولى أمور الرجل في ماله وملكه وعمله ، ومنه قيل للذي يستخرج الزكاة : عامل » و « العمل : المهنة والفعل ، والجمع اعمال » (٤) .

سامحكم الله ، أيها القوميون ، ماذا تريدون ؟

لا نقول ونعمل ... أو لا نعمل ونقول ؟

الامة السورية تقولون بها ولا تعملون لها . والامة العربية لا تقولون بها وتعملون لها . والامة اللبنانية فانكم لا تقولون بها ولا تعملون لها ، وتصرون على سيادة لبنان واستقلاله ؟!

هات يا منطق ما لديك !

وهاتوا يا عرب ما عندكم !

قلنا : « ان الاقليات الهاربة من حكم الاكثرية لا تبدي ميلا الى الوحدة بل ان بعضها يخاف البعض الآخر » (٥) .

وقال الاستاذ قبرصي : « اننا في النهضة القومية الاجتماعية قدمنا العقيدة التي تصهر كل الاعراق وكل

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧٤–٤٧٥ ، مادة (عمل) .

(٥) انظر الفصل السابق .

الطوائف وكل الطبقات ، أكثريات أو أقليات ، في مصهر واحد ، لن يبقى هنالك دول ضمن الدولة ولا أمم داخل الامة.لن يكون هناك امتياز لمواطن على مواطن الا بالكفاية والاختصاص.لن يكون مواطنون من درجة أولى ومواطنون من درجة ثانية ... لقد قدّمنا العلاج الشافي للامراض التي تآكلت جسد لبنان وروحه وتسببت بخرابه وعطّلت دوره الرائد في انتاج المعرفة والعمران » .

وكمن يعصم نفسه على الخطأ يقول الاستاذ قبرصي:

« في الدولة القومية الاجتماعية لو تحققت في لبنان ينتفي الخوف ، لان السلطة بيد الشعب اللبناني ، لا بيد طائفة أو طبقة!لقد حققنا نحن القوميين الاجتماعيين الوحدة الروحية في ما بيننا ، فلم يبق علينا الا أن نحققها في صفوف شعبنا اللبناني ، ليصبح عائلة واحدة ، بالفعل لا بالادعاء ولا بالتكاذب » .

وقال أيضا :

« انني أزعم أن لو نجحت ثورتنا سنة ١٩٤٩ أو نجح انقلابنا سنة ١٩٦١ لما صار لبنان الى ما صار اليه . لكنّنا بنينا فيه الدولة النموذجية ، دولة الحرية والعدالة والكرامة، ولانقذناه من المجزرة التي ذبحته وتكاد أن تذبح وجوده! لكان اليوم شعلة حضارية ، في وحدة بنيه وقدرته على الانتاج والتعمير» .

مرة أخرى يضرب صاحبنا الاستاذ قبرصي بحجر كبير ، بل أكبر من تلك « الصخرة » التي أصاب بها سمنته • كنا مع الوحدة السورية ثم أصبحنا مع الوحدة العربية ••• ثم انتهينا الى الوحدة اللبنانية • تماما كما السمنة ، سواء كانت من فصيلة الشحروريات ، او من مرتبة الدجاجيات ، التي تقفز من شجرة الى شجرة ، ومن مكان الى آخر ، لتنجو بلحمها اللذيذ وريشها الجميل ، من خطر « الصيادين » الذين لا يرحمون ولا يشبعون •

رأى السوريون القوميون ان عملهم ، عند العرب ، غير مقبول أو مشكور ، فانكفأوا الى لبنان ، لكي يعملوا، على أرضه ، من أجل العرب •

أرض العرب ممنوع فيها الصيد الا للعرب ، على أن يقتل بعضهم بعضا • وأرض لبنان سائبة لمن يحب ويرغب•

خطأ السوريين القوميين انهم من الارض السائبة ينطلقون ، وبالمريض يحاربون • انهم «صيادون» على كل حال • ولكن أين ؟ في لبنان ••• حيث لا المكان المناسب ولا الزمان المناسب •

انهم والفلسطينيين وسائر الاحزاب ، التي تقاتلت وتتقاتل ، وتذابحت وتتذابح ، في لبنان ، مثلهم مثل ذلك الصياد الذي خرج ليصطاد البزاة ، فلما عجز عن تحقيق

هدفه ، تلهّى بقنص السمّن وعصافير التين والشوك والحقول وعصافير البيوت أيضا •

بعد الكلام على جمهورية الفلاح وجمهورية الشاعر والامم الثلاث : السورية والعربية واللبنانية ، ينتقل الاستاذ قبرصي الى الدفاع عن موقف حزبه من صديقنا الدكتور جورج عبد المسيح ، الذي « كان ملاكا فأصبح شيطانا » — حسبما قال لي السيد انعام رعد ، على الهاتف ، صباح يوم الثلاثاء ٩ كانون الثاني (يناير) الماضي — فيعلن ، بأسلوب المحامي ، لا بأسلوب الشاعر أو الفلاح ، قائلا :

« ان رأيي في موضوعه (يقصد عبد المسيح) وهو رأي شاهد ومسؤول ، فان مصطفى عبد الساتر اعطى عبد المسيح حقه في الحزب وأخذ حق الحزب منه وعليه • فالرجل ناضل وجاهد وتحمّل أكثر من أي واحد منا في مطالع شبابه حتى مطالع كهولته وهو أول عضو في الحزب لبّى دعوة سعادة في الجامعة الاميركية وانتمى على يده•• الا انه مع الاسف ارتكب جريمة شق الحزب سنة ١٩٥٧ لينجو من أحكامه في مقتل عدنان المالكي سنة ١٩٥٥ الذي ثبت لنا بما لا يقبل الشك انه حرّض عليه دون علم المجلس ومن وراء ظهره » •

وتابع يقول :

« لقد كان علينا إما أن تتستر عليه فنكون شركاءه ،

واما أن نصدر بحقه قرار الطرد فيعاقَب على ما ارتكب ونعلن على الملأ براءة الحزب كما أعلنتها محاكم دمشق برئاسة القاضي النزيـه المغفور له بدرالدين علوش ، سنة ١٩٥٦ • لم نكن مخيَّرين في عملية الطرد بل مرغَمين•فهل أصعب على الانسان وأقسى من أن يوقّع قرار طرد بحق رئيسه ورفيقه وأمينه » •

هل الاحكام جميعها عادلة ونزيهة ولاجل الحق ؟

هل السجناء ، كل السجناء ، مجرمون ومتـآمرون وسَرَقة ؟

ما أكثر أولئك الذين قضوا السنين الطوال في السجون وكانوا مظلومين !

المحامي ، قبل غيره ، يجب أن يعرف ذلك جيدا •

ينبغي للاستاذ قبرصي ، على ما يبدو ، أن يتعلم كيف تُتَّخذ ، في بلادنا ، الاحكام السياسية والعسكرية ،وكيف تُنظَّم وتُنفَّذ •

مما لا شك فيه ان الجهة التي اغتالت المغفور لـه العقيد عدنان المالكي كانت ترمي الى تدمير الحزب السوري القومي والقضاء عليه ، فهل ان جورج عبد المسيح هـو الذي تآمر على الحزب أم ان رفقاء عبد المسيح ضلَّلتهم العقد التي سبّبها لهم صراعه معهم ، من أجل حزب قـوي

متماسك وموقف واحد موحَّد ثابت [٦] ؟

نحن لا ندّعي حق الدفاع عن جورج عبد المسيـح وانما ندعو الى اجلاء حقيقة ما زالت غامضة حتى الآن •

لذلك ، نعود الى كتاب « عبدالله قبرصي يتذكّر » لنقرأ بعض ما كتبه الاستاذ قبرصي في جورج عبد المسيح نفسه •

ففي الصفحة ١٦٧ من الكتاب المذكور يقول الاستاذ قبرصي : « الا ان المواصفـات التي وردت في القـانون الدستوري السابع (قانون الحزب) لم تكن تنطبق عليهم جميعا (الامناء) على نفس السوية وبعضها ــ كمرور مدة خمس سنوات على الانتماء ــ لم تكن تنطبق الا على جورج

---

(٦) جاء في مذكرات الامين العام السابق للجامعة العربيـة السيد محمود رياض ما يلي :
« ... واتضح ان الذي اغتال المالكي (العقيد عدنان) جندي سوري برتبة رقيب ينتمي الى الحزب القومي السوري الذي ينادي بقيام سوريا الكبرى ويرفض القومية العربيـة كفكر والوحدة العربية كهدف . وتبين أثناء محاكمة القاتل ان قادة الحزب (...) كانوا على اتصال مع نوري السعيد لتنفيذ سياسته في سوريا ، وانهم كانوا يتلقـون معونـات مالية منه . وكان الحزب قد نجح في التسلل الى صفوف العسكريين من ضباط وجنـود ، وأصبح الصراع يـدور داخل الجيش بين ايديولوجية الحزب وايديولوجية حـزب البعث الذي ينادي بالوحدة العربية » (« السفير » ١٩/٩/١٩٨٥ ص ٧) . وهذا القول يعني أن الذي اغتال العقيـد المالكي ، وان ادعى الانتماء الى الحزب السوري القومي ،انما فعل ذلك ليغتال الحزب نفسه .

عبد المسيح وحده لان الباقين ومنهم أنا ـ لم يكن مر على
انتمائهم ، الا ثلاث أو أربع سنوات » .

وفي الصفحتين ٢١٢/٢١٣ يذكر الاستاذ قبرصي كيف
ان المهندس جورج حداد « أكل » اذن جورج عبد المسيح،
فيقول : « لم يحقد عبد المسيح كما كان متوقعا ، وأثناء
تواريه في دمشق بعد استشهاد سعادة اذكر جيدا ان جورج
حداد كان يرسل له الهدايا ويقابله كلما سنحت الفرصة .
التسامح ابن المحبة والمحبة رأس القيم » .

ويكتب الاستاذ قبرصي موضوع « عالم السجن
والسجناء » (من ص ٢٦٠ الى ص ٢٦٨) ومما قاله :

« كان لكل منا ملف لدى قاضي التحقيق . وبدون
مبالغة أكرر عبارة قالها لي أحد كتّاب المحكمة العسكرية
أو تراجمتها ، ان ما ضبط من أوراق ووثائق وكتب من
بيوت القوميين بلغ الاطنان . فغربلت هذه الاطنان ،وانتقي
منها ما يتعلق بكل منهم ، وجرى التحقيق على أساسها ».
أضاف :

« لم أستطع ـ رغم مساعيّ الحثيثة ـ معرفة
المواضيع والسؤالات التي طُرحت على نعمة ثابت وجورج
عبد المسيح ، كل ما قاله لي المحامي الاستاذ كابدوجال
(Capdegelle) الذي حل محل الاستاذ أموري (Amory)
في الوكالة عنا ان عبد المسيح فنّد ما ورد في نداء سعادة

قبيل الحرب بدقة وعمق ولا أزال أذكر اللفظة بالفرنسية
(Décortiqué) ولهذا ذهبت الى التحقيق دون أن اكون
على بيّنة من التهم الموجّهة الينا والاسانيد التي ركّزت
عليها » (ص ٢٦٦/٢٦٧) .

وفي موضوع « من سجن القلعة الى سجن المرض »
(من ص ٢٧٥ الى ص ٢٨٢) يقول الاستاذ قبرصي :

« كنت أفضل الاقامة (في السجن) مع نعمة ثابت
ولكني لم أكن مستاء من مشاركة عبد المسيح زنزانته،
فالرجل في أيامه الاولى في الحزب كاد أن يكون لنا قدوة
في الصبر والعطاء والرجولة . كان بيته بكل افراد عائلته
من والديه الكريمين الى شقيقه الى شقيقاته بيتا قوميا
اجتماعيا مفتوح الذراعين لاستقبالنا . فكلّنا مهما كثر
عددنا نلتقي في دار آل عبد المسيح فكأننا بالفعل لا بالقول
أصحاب الدار » (ص ٢٧٨ـ٢٧٩) [٧] .

أما الاستاذ مصطفى عبد الساتر ، من جهته ، فقد
خصص في كتابه « أيام وقضية » موضوع « بدء الصراع
الداخلي » (من ص ١١٤ الى ص ١٢١) ليثبت ان سيئات
عبد المسيح « كانت أكثر من حسناته » (ص ١١٨)؟!

---

(٧) ان جميع النصوص المأخوذة من كتاب « عبدالله قبرصي يتذكر » هي من الجزء الاول منه . والكتاب صدر ، في طبعته الاولى ، عن مؤسسة فكر للابحاث والنشر ، الطبعة الاولى ١٩٨٢ .

على ان الاستاذ عبد الساتر نفسه يقول :

« لم نعرف بوجود أية خلافات في صفوف القيادة الا سنة ١٩٥٤ . كان الحزب في أوج نموه ونشاطه وانتشاره. كنا نسمع بعـدم رضا السلطات الحاكمـة في دمشق عن الحزب (؟) لانها كانت تخشى قوته ، ولكننا لم نكن نعرف بوجود عداء مرير لديها يصل الى حد رغبتها في تصفيتـه وقد بدأنا نشعر بذلك على اثر الانقلاب على الشيشكلي ، اذ فوجئنا بعزل فرضته الاحزاب والقوى المتكتلة ، ضده في الشام ،على الحزب،رغم انه لم يساند أديب الشيشكلي» (ص ١١٤) .

إذاً ، كان الحزب قويا في عهد عبد المسيح ، وكـان خطيرا اذ كان يُخشى منه .

أفلا يكون أولئك الذين خافوا الحزب وانتشاره ، أو بعضهم ، هم الذين خططوا لاغتيـال العقيد عـدنان المالكي ؟

« كلّنا في الهم شرق » ... وكلّنا ظالم ومظلوم .

يُفهم من كلام الاستاذ قبرصي وعبد الساتر ان وجـود جورج عبد المسيح ، في الشام ، كان يعرقل « مصالـح كثيرة»و«غايات كثيرة»ولا سيما منها « مصالح الاستعمار وعملائه » . فالذي يثير العجب هو اصرار الاستاذ قبرصي وحزبه على اتهام جورج عبد المسيح باغتيال المالكي ، بل

التأكيدعلى انههو المحرّض أو القاتل، فيما جورج عبدالمسيح هو الحزبي القوي والدقيق والامين والثـابت والمخلص وابن البيت القومي بشهادة الاستاذ قبرصي نفسه !!

لماذا تفصلون بينه وبين الحزب ؟

لماذا نسيتم ذلك البيت المفتوح في بيت مري ؟

يبدو لي ان المؤامرة كانت على عبد المسيح والحزب معا ، وربما شارك فيها ، بشكل أو آخر ، كـل الذيـن عقّدتهم شخصية عبد المسيح القوية ، ممن يدّعون الغيرة على الحزب و « الزعيم » والامم الثلاث : العربيةوالسورية واللبنانية .

واني اذ أدعو الرئيس الحالي للمجلس الأعلى ، التابع للحزبالسوري القومي الاجتماعي ،المفكر الدكتور مروان فارس ، الى النظر في هذه القضية الانسانية بموضوعيـة وعقلانية ، أرجو من الاساتذة عبدالله قبرصي وانعام رعد ومصطفى عبد الساتر وعبدالله سعادة وعصام المحايـري وسائر الحاقدين والغاضبين على جورج عبد المسيـح ، أن يتبعوا الهدى ... ويجنّبوا أنفسهم وورثتهم الحزبيين خطر الانزلاق في أتـون الاهواء والانانيـات والاحقـاد والنزاعات الشخصية .

ألا قال لي الاستاذ عبدالله قبرصي ، كما قال السيد هاروت (الارمني) : معك حق . معك حق ؟!

١٩٨٥/٢/٤

(٩)
قومي اجتماعي "معصوم" و"كامل" ؟!

كيف تكون القضايا أو بعضها داخلية ... وكيف تكون خارجية ؟

ان هذا ليس سؤالا ، بل مسألة وأية مسألة ؟

لقد شنّ المحامي مصطفى عبد الساتر ، عليّ ،حربا، هي من « الوزن الثقيل » ، سلاحها التفسير والتأويل والتعليل ، وفيها من كل نوع غريب عجيب .

قرأت كتابه « أيام وقضية » ... لا لأفصل كلمة عن كلمة ، أو فكرة عن فكرة ، أو رأيا عن رأي ، فجاءني ردّه [1] مثل الرعد ، في الصيف ، أو البكاء في العرس ،

---

(١) الاسبوع العربي العدد ١٣٢٢ الاثنين ١١ شباط (فبراير) ١٩٨٥ ص ٦٨-٦٩ .

وبرغم ذلك صدّقت هذا «الصوت» ، لاكذّب الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب ، وكدت أنهمك ، ولو الى حين ، في أمر الذي بكى وناح،لولا « أزيز الرصاص»، من «بندقية» المحامي عبدالله قبرصي [2] ، الباحث ابدا عن « السّمنة الخالدة » !

يقول الاستاذ عبد الساتر في حاشية رده :

« كُتب هذا المقال قبل اطلاعي على مقال الاستاذ عبدالله قبرصي المنشور في ٢١/١/١٩٨٥ ، وهو لا يستدعي أي تعديل في مقالي هذا » .

الا ان مقال الاستاذ قبرصي نفسه تبعه مقال مني أيضا[3] ،فالاثنان سبقا هذا «السيف» القومي...البعلبكي، ولست أدري ان كان مقاله « لا يستدعي أي تعديل » فعلا .

أراني نسيت ؟

عفوا !

صاحبنا الاستاذ عبد الساتر قال : « لا أنا كامل ولا كتابي ، ولكننا صادقان قولا وممارسة » .

فهو إذاً معصوم وكامل . وان قال بغير ذلك فمن باب

---

(٢) راجع الفصل السابق .
(٣) راجع الفصل السابق .

« التواضع » و « التخاشع » ، وتلك هي صفة « الصادقين » على كل حال .

لماذا المناقشة ؟

لماذا النقد ؟

لماذا الردّ ... والرد على الرد ؟

ومهما يكن ، فلا بد من الصبر . وأما الذي قال « ان للصبر حدودا » فلا حاجة الى رأيه دائما ، وان كنا نطلب له الرحمة والثواب الحسن .

ويقول الاستاذ عبد الساتر أيضا :

« والنقد الذاتي ، كما مارسته أنا بحق نفسي في أكثر من موضع في هذا الكتاب (...) قد مارسته من ضمن التزامي وانتمائي الفكري » .

فلننظر الآن الى طريقة الاستاذ في ممارسة هذا العمل الشاق ، وعسى أن نكون نحن أيضا « شبه صادقين » ان لم نكن صادقين مثل الاستاذ عبد الساتر ، فاليكم هذه النماذج :

ـ يقول في التوطئة :

« ليس ، ما في هذا الكتاب ، مذكرات أو مجرد

ذكريات شخصية ، في المعنى المتعارف عليه ، تقوم على سرد وقائع مرّ فيها كاتبها أو عايشها . وقد لا يكون في ذكريات مواطن عادي من عظيم أخبار العظماء (!) ما يغري بالكتابة . ولكنها بعض معانيات مواطن مثقف من أبناء الجيل القلق الذي عاش هذه الحقبة الخطيرة الحرجة الصعبة المرة من تاريخ مجتمعنا ، قد لا يكون في تدوينها لا مجرد سرد وقائع ، بل اعطاء بعض تفسيرات لكثير من الواقع المرير الذي حييناه ، وبعض عبر ، وربما فوائد ، للاجيال الطالعة التي ننقل اليها الاعباء والامانة علّها تكون أشدّ عزيمة وأكثر توفيقا منا في تحقيق الانتصارات وفي انهاء ليلنا الطويل » (ص ٩) .

سامحك الله .

ان هذه من صفات العظماء وأخبارهم ، لا من صفات « المواطنين العاديين » .

وما وعدتَ به الاجيال (...) أنّى لمواطن « عادي » أن يدّعيه أو يتبجح فيه ؟!

أنت عظيم يا أخي ... ولولا ذلك لما « تطاولت » عليك .

ـ ويقول في باب « مع سعادة » :

« بعد زواجي حلا لي أن أخلد الى شيء من الراحة ،

أو ربمـا الى الهرب من ساحة النضال ، لتأمين مستقبلي المادي بعد أن أصبحت رب عائلة • استأذنت سعادة فـي التقدم للحصول على وظيفة في سلك القضاء فوافق،ولكني شعرت ان موافقته كانت على مضض • كان يريدنا أن نبقى الى جانبه في ساحة النضال • تقدمت الى الامتحانات وكنت في طليعة الناجحين » •

أضاف :

« كان من المنتظر أن أعيَّن قبل سواي في مطلـع حزيران (يونيو) من تلك السنة وقـد شاهدت مشروع المرسوم بعيني على طاولة رئيس الوزراء • كنت سأكـون محاميا عاما في طرابلس • وبينما كنت أنتظر تلقّي المرسوم وأنا اشعر بمرارة الانتقال من العمل الحر الى الوظيفـة ، اذا بحوادث حزيران (يونيو) ١٩٤٩ التي افتعلتها الدولة لتنفيذ مؤامرتها ضد سعادة والحزب تنفجر ، وعوضا عن مرسوم التعيين يصدر بحقي أمر اعتقال » (ص ٩١/٩٢) •

الحمد لله على سلامتك •

أهو السجن الناقد ••• أم قرار التعيين ••• أم طاولة رئيس الوزراء ؟

على ان الوظيفة ليست عارا •

هـل كان سيفعل النقد الذاتي معك لو ان مرسوم التعيين لم يتحوّل أمر اعتقال ؟

ــ ويقول في باب « شجون مادية » :

« فرص كثيرة أضعتها على نفسي حرمتني من منافـع جمّة ، وولّدت في نفسي شيئا من الندامة • البعض يردّ ذلك الى تردّد مني في اتخاذ المواقف الحاسمة ،في الظروف والقضايا التي تتطلب سرعة القرار • وأنا أفسّره نتيجـة لافتقادي العقلية التجارية » (ص ٣٢٣) •

ما معنى ذلك ؟

كلّنا يعمل من أجل لقمة العيش ••• والحياة الحرة الكريمة • المحامي ، مثلا ، في مكتبه يبغي الربح،والكاتب، وراء قلمه يبغي الربح ، وبائع المـال ، في مصرفـه ، يبغي الربح • انها شروط الحياة ومتطلباتها •••وهي تقسو يوما اثر يوم • فمن الطبيعي أن نصارع ونجاهد من أجل حياة أفضل •

ناقد ذاته ، الاستاذ عبد الساتر ، يطلب مني نقـدا لكتابه بمقاييسه هو ، وليس بمقاييسي انا (؟) ويدعوني الى « التسليم بكل أفكاره » ، « على الغمضاني » (؟!)• وبهذا يكون الاستاذ عبد الساتر قد مارس نوعا آخر من « التواضع » و « التخاشع » ، بل من « النقد الذاتي » • فلماذا ضرب الحديد باردا ، أو الضرب بـالشقيف العظيم ؟

اذا شئت صديقنا القارىء نموذجا آخر ، فها هو بين يديك . لا تخفْ على مصباح علاء الدين ! ألفُ « لبّيْك ... لبّيْك » ولا ينكسر هذا المصباح السحري الجميل .

ـ يقول الاستاذ عبد الساتر في باب « الديموقراطية السياسية ـ مأساة الحرية » :

« أنا رأيت ان الافكار القومية الاجتماعية تقدّم الحلول الاحسن والاشمل والاكمل لمشاكلنا المجتمعية . مع تسليمي بأن عقائد وأفكارا أخرى تقدّم بدورها حلولا حسنة لكنها لا تصل في حسْنها وشمولها وكمالها ، الى الدرجة التي تقدّمها النظرة القومية الاجتماعية . غير أني طالما تساءلت ، بيني وبين نفسي ، هل ان ذلك عائد الى ان الحلول القومية الاجتماعية هي فعلا الافضل والاحسن، أم ان الامر يعود الى اني اعتدت النظر الى هذه الامور وحلّلتها وعالجتها من خلال هذه النظرة التي اعتنقتها منذ حداثتي » .

ويقول أيضا :

« وهل ان الذين اعتقدوا معتقدات مختلفة اعتنقوها فعلا منذ البداية على أساس أنها الافضل ، من ضمن عملية اختيار عقلاني بين مختلف الافكار والعقائد التي وضعت أمامهم دفعة واحدة وعرضت لهم بمستوى واحد من الفهم، مما هيّأ لهم فرصة الخيار العقلاني السليم بينها ؟ أم ان

الاقدار أو الظروف أو الصدف وضعتهم غالبا في جو معيَّن أثّر في قناعتهم وفي اختيارهم العقيدة التي اعتنقوها؟وكم هو عدد الاشخاص الذين يبدّلون عقائدهم عن قناعة عقلانية وليس عن انتهازية مصلحية غالبا ما كانت محاولة ركوب التيار الاقوى !» (ص ١٨٢) .

اذا كنا سنقرأ هذا النص ، غير مسلّمين بأفكار الاستاذ « على الغمضاني » فالحرب طاحنة، والغبار لا بد أن يملأ الفضاء ، و « يسمّم » الاجواء ، ونحن ، عن ذلك، أغنياء . ولا سيما ان الحرب ،على لبنان ،أوشكت أن تدخل سنتها الحادية عشرة ، مع العلم ان الدكتور مروان فارس، رئيس المجلس الاعلى للحزب السوري القومي الاجتماعي، قد أعلن ، خلال شهر كانون الثاني (يناير) المنصرم ، قفل ملف الحرب اللبنانية ؟! (٤) .

ان أحسن العقائد والافكار لا تستطيع ، مع الاستاذ عبد الساتر ، صبرا ، لانه « قومي اجتماعي منذ حداثته » . مما يعني ان عنده المناعة ضد ما كان وما سيكون من نظريات ومعتقدات وأفكار .

---

(٤) لقد عاد السوريون القوميون عن هذا القرار فأشعلوها حربا على المتن الاعلى اثر انتفاضة الدكتور سمير جعجع ورفقائه على السيد ايلي حبيقة ورفقائه ، حتى ان الاستاذ عصام المحايري هدّد بكفيا غير مرة ؟!

هذا الجدار « المسلّح » كيف سنخرقه إذاً ؟

يمكنني القول ان الوقوف ، أمامه ، مثل القراءة في أعمال السلف الصالح ، وليس كل الابناء « بَررة » ولو قال سعادة « أنا لم آتكم بالخوارق بل بالحقائق التي هي أنتم » .

نعم ! « رحم الله امرأً عرف حدّه فوقف عنده » و « ان الله سبحانه وتعالى أرضى الناس ، كل الناس ، حتى أجنّهم ، بعقولهم ... »

ولكن الذي لم يعرف حدّه يستحق هو ايضا ، الرحمة وكذلك من لم يرض لا بعقله ... ولا بعقل جاره أو صديقه أو زعيمه أو معلّمه .

ما زال الاستاذ عبد الساتر يجلد نيقولا مكيافللي... ويعتبر « ملفه » مفتوحا أبدا .

واذ هو يحسب « الغاية تبرّر الواسطة مبدأً » مكيافيليا مرفوضا رفضا باتا ، نراه يصر على الايمان بأن الامة السورية (؟) هي « أمة هادية للناس ومعلّمة للأمم » .

كيف تعلّم أمة أخرى ؟

كل الامم « ترفض القبر مكانا لها في التاريخ » . فلماذا التشوّف من السطوح ، وقد برهنت الاحداث ان الطبقات العليا قد تسقط قبل سواها ؟

لندَعْ حرب الاعراق والاصول ما دامت كل أمة عندها الجبل الغليظ المنقاد في الارض والذي لا يُرتقى لصعوبته !

أمّا أن تقول « السوريون القوميون الاجتماعيون يعتبرون ان العروبة التي ينادون بها هي أقوى وأعمق وأصحّ من أية عروبة يقول بها سواهم لانها بُعْد حضاري عميق موحّد » فهذا أيضا نتركه مثلما القول الذي سبقه لئلا تعتب « العروبات » عليك ، وأنت أعلم ، بها ، من سواك ، الا اذا كنت تحب أن تُلدغ من جُحر واحد مرّات ومرّات (٥) .

أتعلم ، انني لا أهمل الجزء من أجل الكل ... ولا أحب « الشرنقة » أو « الفيلجة » وان في بلاد الحرير ؟

أولئك هم « العروبيون » و « السوريون » و « اللبنانيون » ... ومن لفّ لفّه هذا الفريق أو ذاك.. فانظر كيف حالكم وحالهم ! الجميع « اخوان » في الليل. وفي النهار نزاع على كل شيء : على « سوريا الكبرى »

---

(٥) أرى من الضرورة أن لا تفوتني الفرصة هنا بأن ادعو الاستاذين عبد الساتر والقبرصي وسائر القوميين الى قراءة دراسة قيّمة للدكتور شاكر مصطفى عنوانها « دخول الترك الغز (التركمان) الى الشام » المنشورة في « المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام » المذكور سابقا (من ص ٣٠٣ الى ص ٣٨٦) .

أو الهلال الخصيب ••• كما على الصحراء ،والزيت،والبحر الاحمر ، والاطلال • وعلى الدوارس والكحيل ، أو القطران الذي تُطلى به الابل ، فكأنه ، يا حماك الله،ليس من مشتقات النفط • وهم يتنازعون أيضا وأيضا ، وربما في الليل اكثر من النهار ، على الخرز الازرق ، والملائكة ، والحبال الدقيقة ، والدينصور ، وفي خاطر كل واحد منهم أن يرى صاحبه أعرى من المغزل !!

الى هنا ، والكلام على الكلام ، أو كما قيل : « قول على قول » و « نور على نور » • والصحيح أن « تنوع الآراء هو من طبيعة المجتمعات الراقية » • أنت قلتها ، وليس بيننا،لا الآن ولا غداً،ما يتطلب الرجوع الى مواقع « النقد الذاتي » و « التحليل » و « الغرور » في « أيام وقضية » ، وأنت القائل : « الناس عندنا ما زالوا، في أكثريتهم ، يغلّبون غرائزهم وعواطفهم ومصالحهم الذاتية على عقولهم » !

لعلّك نسيت انني من الناس ••• وانك لا تدّعي العصمة والكمال •

فلو صح ان « ذو العقل يشقى في النعيم بعقله » أفلا تكون « العصمة » (Infallibility) أدنى مراتبكم يا أيها القوميون ••• بل يا « أفضل الناس » ؟

لك أن تبقى على السطح القومي ، أو حيث تشاء • وانما يُستحسن لو تعلم أن معظم الذين « يغلّبون غرائزهم وعواطفهم ومصالحهم الذاتية على عقولهم » هم أيضاعندهم سطوح ،قومية وغير قومية،وهم مثلك عقائديون وملتزمون ، وإن أحدا منهم لم ير نظرة تصل في حسنها وشمولها وكمالها ، الى الدرجة التي تقدمها نظرته •

واذا اتفقت السطوح أو ابتعدت ، فان « الآثام » هي واحدة •••• و « الأثماء » بعضهم من بعض •

ليس « إثم » أخيك والذين هاجروا الى خارج البلاد، الا من « آثام » أولئك الذين على السطوح ، العالية منها والوطيئة •

أراك تعتب عليّ كثيرا ، وتحسب خاتمة مقالي الاول ، (أيام وقضية سوري قومي اجتماعي) « متجنية » ••• لانني لم أميّز بين « الاثم الكنعاني » و « الاثم اللبناني » • ان هذا ، يا صاحب العصمة ،ضرب بالشقيف العظيم أيضا ، بل نظرة من السطح ؟

كيف نعدّ الهجرة ،من الوطن ، إثما ، وهي نوع من التحدي للجوع والذبح على الهوية والقهر والتسلّط والهيمنة والاحقاد ؟

في كل وطن ، ايها المعصوم (incabable of error)

نجد فريقا،من أبنائه،قد نذر نفسه للدفاع عن سيادته وحريته وكرامته ، وفريقا يهاجر طلبا للأمن والرزق ، كذلك نجد في الوطن عينه ، من لا يحارب ولا يهاجر • والحقيقة ان أيا من هؤلاء لا يمكنه الاستغناء عن الآخر • فالاموال التي يبعث بها المهاجرون ، الى ذويهم في البلاد ، هي قوة ، بل طاقة ، يحتاج اليها المحاربون والمقيمون ، في تصدّيهم للعدو وصمودهم حتى النصر والسلام •

ألم يهاجر أنطون سعادة ، الذي « أمره شأن آخر »، كما تقول ، الى البرازيل ، في السنين العجاف ، التي سبقت « الكارثة على الحزب ••• » ؟

لماذا هاجر سعادة ؟

بل هل كان سعادة،آنذاك ، يحمل « الاثم الكنعاني » أم « الاثم اللبناني » أم « الاثمين »معا ؟

ان في هذا الجبل اللبناني الاشم رجالا التصقوا بالارض • فمنهم من قضى ومنهم من ينتظر اما الشهادة واما الحياة الحرة الكريمة •

لا أحبك « ظالما » ولا أريدك أن تبخس هؤلاء حقهم •

ولنعترف ، لاولئك الذين هاجروا ، بالفضل ، فانهم تعبوا وعانوا وركضوا وأُهينوا،لكي يمدّونا بالمال والآمال، ولولاهم لضاق العيش بالكثيرين ممن فضلوا البقاء هنا على أرض الوطن •

بقيت قضية الدكتور جورج عبد المسيح ،التي يقول فيها الاستاذ عبد الساتر ما يأتي :

« قضية جورج عبد المسيح ، صديق مصطفى جحا كما هو صديقي ، كنت أتمنى أن لا يتعرّض لها مصطفى جحا لانها قضية داخلية ليس هو على اطلاع على دقائقها وتفاصيلها وأسبابها » •

ويقول أيضا :

« القضية أصبحت من التاريخ الماضي • ارتكب عبد المسيح أخطاء وهو في موقع المسؤولية الحزبية فكان من واجب المؤسسة أن تحاسبه عليها • فلما تمادى فيها لم تجد المؤسسة بُدّاً من ابعاده عنها ، حفاظا على سلامتها ، فكان ذلك ، وهو أمر يجري في جميع المؤسسات » •

مغفورة لك خطاياك أيها التاريخ !

ومغفورة لك خطاياك أيتها الحرية !

من الذي يصدّق ان « السوريين القوميين » يقفلون التاريخ وعقيدتهم قائمة عليه ؟

عجيب أمر هؤلاء حقا ، من جهة يبحثون عن سومر وبابل و « المجتمع السوري القديم » ، ومن جهة اخرى يعتبرون جورج عبد المسيح ، وهو القومي الحي ، بيننا ، من الماضي — الماضي البعيد السحيق ؟!

من هو أقرب الى سعادة ، المؤسسة أم جورج عبد المسيح ؟

واذ ينصّب الاستاذ عبد الساتر نفسه « ديّاناً » يقول :

« التمرد على المؤسسات لم يكن السبب الوحيد وان كان الشعرة التي قصمت ظهر البعير . الاسباب يعرفها عبد المسيح والقوميون الاجتماعيون ، ولا حاجة للعودة اليها وقد كشف الحزب الكثير منها في حينه . أما ما يجب أن يطمئن اليه مصطفى جحا ، وربما أيضا من أوحى اليه التلميح بالقول بأن طرد عبد المسيح ، ربما ، لاسترضاء الاميركيين ! أو بعض أصدقائهم ! أو حسدا منه ! فقول بعيد كل البعد عن الحقيقة » .

ليطمئن هذا « الديّان » الى أن أحدا لم يُوحِ إليّ سوى كتابه « أيام وقضية » ، ففيه ما يكفيني ويغنيني من غيره . وباستطاعتك أن تضيف اليه « عبد الله قبرصي يتذكّر » و « المثقفون العرب والغرب » للدكتور هشام شرابي [٦] .

لقد كان أحد رفقاء جورج عبدالمسيح،وهو محام أيضا ، على حق ، عندما قال في تعليقه الشفهي على ما كتبناه : القبرصي وعبد الساتر وأنا عندما قال « انالحزب لم يطرد عبد المسيح ، بل ان عبد المسيح هو الذي طرد من يدعون أنفسهم سوريين قوميين اجتماعيين » و « ما أبعد هؤلاء عن سعادة ، وما أقرب جورج عبد المسيح اليه ! » .

صحيح ان « الهمّ الاكبر هو انقاذ هذا الوطن من أشداق الصهيونية » كما يقول الاستاذ عبد الساتر ، ولكن أنّى لهذا أن يتم ، وقد عثر بنا الزمان ، فرحنا نتطاحن ونتنافس في ابادة من نراه أسهَدَ رأيا وأحزم وأيقظ ؟!

١٩٨٥/٢/٢٥

(٦) دار النهار للنشر ، الطبعة الثالثة ١٩٨١ . أنظر مراجعة كل من طالب محمد وعثمان زيادة لهذا الكتاب ، وذلك في مجلة « الفكر العربي » العدد ٣٢ ، نيسان — حزيران١٩٨٣ ، من ص ٢٩٣ الى ص ٢٩٨ ومن ص ٢٩٩ الى ص ٣٠٦ .

(١٠)

الأحـــداث في المـــيزان

كـانت الحرب اللبنانيـة في شهرهـا الثالث عندما تعارفنـا • قرأت له مقالة في جريدة « العمل » أعجبتني أسلوبا ومضمونا ، فأخذتُ أبحث في دليل الهاتف للبنان عن اسمه ورقم هاتفه • ولما اهتديت الى مطلبي ، اتصلت به مهنئا ومشجعا • هو في الاشرفية ـ بيروت ، وأنا في صور ـ الجنوب • لقد بدت أفكارنا ، آنذاك ، متفقة تماما ، فكلانا يحب لبنان والامن والسلام والحرية •

لماذا الحرب ؟ لماذا الصراع الطائفي ؟ مـاذا يريـد الفلسطينيون ؟ أسئلة تطارحناها عبر الهاتف ، فاذا الاجوبة عليها متشابهة ، والآراء منسجمة ، والتطلعات متقاربـة • وتواعدنا أن نستمر في الكتابة من أجل لبنان السيد الحر المستقل •

لقاؤنا لم يكن مستحيلا ، ولا يسيرا • فـالحواجز

تتكاثر ، والخطف على الهوية يتزايد يوما إثر يوم،والاخبار تنذر بالعواصف والصواعق ، والدولة تتفكك عقدة تلـو عقدة•انتشر الحديث عن«الملثّمين»فعمّ الفزع والمحذور • وعلى رغم ذلك تواصلت لقاءاتنا ، اذ جعلت مجيئي الـى الاشرفية مرة في الاسبوع ومن دون انقطاع ، وتتـابعت مقالاتي في الصحف ، فمضيت على رأيي في الاحداث ولم أصغ الى من يردعني عنه،حتى نالني الفلسطينيون وحلفاؤهم بالشر ، مما جعل حياتي في خطر ، فكان لا بد من«الهجرة» الى « الشرقية » حيث المناخ المناسب والمكان الرحب للكلمة اللبنانية ، التي ضُيِّق عليها لا في الجنوب فحسب ، بل في كل محافظة ومدينة وقرية أيضا •

دعوة « صوت لبنان »

واذ مضى على « هجرتي » شهران أو أقل ، وفيمـا « إعـلام الخصم ينشر أجنحته ويمسخ الحقيقة ويستميل الضمائر ويستهوي القلوب والمشاعر » [1] ، دعت اذاعـة « صوت لبنان » المثقفين الى مشاركتها في حرب الكلمـة والدفاع عن الارض والعرض والكرامة ، فكان الصديق المحامي طانيوس نعيم رزق ممن لبّوا النداء ، وكان لي أنا أيضا مثل هذا الشرف ، فعقدت الاجتماعـات(• • •)

---

(١) المحامي طانيوس رزق : « ومضات واقوال » ، الطبعـة الاولى ١٩٧٧ ، ص ٨ .

واللقاءات (٠٠٠) ، في مدرسة « الراعي الصالـح » ـ الاشرفية ، بينما كانت الاذاعة لا تزال في طور الطفولة،وتمّ توزيع«الادوار»على المشتركين ،فانسحبتُ مؤثرا التأليف والكتابة في الصحف والمجلات على العمل الاذاعي الذي لا يكون حرّاً دائما ،فيحين اختار طانيوس رزق «ومضات وأقوال » ، فأخذ يُعدّها للاذاعة ، يوميا ، وبدءاً من ٢١ آذار ١٩٧٦ ، فاذا هي وحتى ٢٦ أيلول ١٩٧٦ ، « من صميم المعـركة ومـن قلب كـل مـواطن ومشاعره وآلامـه وتساؤلاته » [٢] .

لقد بلغت هذه « الومضات والاقوال » الخمسين بعد المئة ، وهي مجموعة في كتـاب صدر مـع مطلـع خريف ١٩٧٧ [٣] ، ومن عناوينه : « الشيوعية وان لا نتملامسها» (ص ٧٠) ، « العقل والعصبية » (ص ٨٩) ، « صـدف ولؤلؤ » (ص ١٠٠) ، «رغيف الشيوعية » (ص ١٤٨) ، « نواب أم طرائد؟ » (ص ١٥٠) ، « دخان الكآبـة » (ص ١٦٣) ، «طريق فلسطين» (ص ١٩٣) ،« صعبعلى الحر الركوع » (ص ٢٠٢)، «انحلال القضية الفلسطينية» (ص ٢١٦) ، « الخرز والضجيج » (ص ٢٢٧) ، « آباء

(٢) المصدر السابق .
(٣) ٤٠٥ صفحات من القياس الكبير ، مع فهرس باسماء العلم وفهرس باسماء المكان، منشورات « صوت لبنان » .

الجيوب والبطون » (ص ٢٤٠)، « عربة السماء والقمر» (ص ٢٩٠) ، « الجنوب اليتيم » (ص ٢٩٤) و« الميزان المسكين » (ص ٣٥٥) .

يغلب على « ومضات وأقوال » بعض من التسجيع والشعر والعاطفة الوطنية .. مع سخرية حتى الوجع ،فهي « مقـالات عـدة في مواضيع (مواضع أو موضوعات) متشابهة » [٤] ، الامر الذي جعل « الصّوَر (تتوالى)في الموضوع الواحد » [٥] ، وقد « ورد التسجيع في أكثر من مكان » [٦] ، كأن يقول مثلا :

« أخوضها حربا ضد الرقي والحضارة والعمران ؟ أخوضها حربا ضد القيم والمبادىء والايمان ؟ أخوضهـا حربا ضد الاطفال والشيوخ والفتيان ؟ أخوضها حربا ضد الله والانسان ؟ » [٧] .

ويقول :

« أيها الراكض في الشوارع والمتأبط الحقائب ، ايها اللاهث في السيارات والمترامي على أعتاب المكاتب ، ايهـا المتدافع الى سلالم الطائرات وأدراج المراكب » .

(٤) (٥) (٦) المصدر السابق ص ٦ .
(٧) ص ٣٣٩ ، من مقالة عنوانها : « لمن الغصن الاخضر ؟ » كتبت في ١٦–٨–١٩٧٦ .

« مهلا أيها الشارد المسكين ، أيها التائه السجين ،أيها الضائع الحزين ، عد قليلا الى نفسك وهدّىء بعضا من روعك ، وارجع الى عقلك ورشدك . عدْ الى ضميرك ووجدانك ، وافتح سجل لياليك وأيامك ، وابحث عن مآسيك وأحزانك » (٨) .

« الحق والباطل »

لكن أصحاب الحرب لم يرجعوا ، يا للاسف ، الى عقلهم ورشدهم ، ولا هم عادوا الى ضميرهم ووجدانهم . فاستمر طانيوس في حربه ــ بالكلمة طبعا ــ ضد هؤلاء ، أو بالاحرى ضد فريق دون سواه ، انما ضمن برنامج « الحق والباطل » ، من الاذاعة نفسها ، اعتبارا من ١٣ أيلول ١٩٧٦ حتى مطلع تموز ١٩٧٨ ، حيث أخذ يكتب التعليقات والردود على رجال السياسة والاحزاب والمنظمات والهيئات الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، ممن يراهم « أعداء للحقيقة والتاريخ والقرار اللبناني » . وهذه التعليقات أيضا جمعها رزق في كتاب سيصدر قريبا عنوانه: « حرب الحق والباطل » .

كنا نودّ لو تنتهي هذه الحرب فتطمئن الانفس

(٨) ص ٢٤٢ من مقالة عنوانها : « يا ابن لبنان المسافر » كتبت في ٢٣ــ٦ــ١٩٧٦ .

وتستقر الاحوال الامنية والحياتية ، ويستعيد لبنان وحدته وكيانه ، وتنتصر الكلمة على البندقية والمدفع ، الا ان هذه الآمال والاماني ذهبت مع ريح الموت الذي قضى على « الحق » ولم يقض على « الباطل » .

وصمت طانيوس رزق ، أو ان الظروف ، وقتذاك ، فرضت عليه أن يصمت . وقلّما قرأت له في الصحف ، فظننته سافر ... أو هو اعتزل مقارعة « الباطل » حتى جمعتنا المصادفة ، ذات يوم ، فعلمت منه انه يعاني « قرفا» من الحرب والسياسة ... ومن الذين تاجروا ويتاجرون بالانسان والارض والدين .

وفجأة رجع رزق الى برنامجه «الحق والباطل»، ولكن لفترة قصيرة مدّتها شهران ونصف الشهر، ابتدأت في تشرين الثاني ١٩٧٩ وانتهت في كانون الثاني ١٩٨٠ . على ان الاسلوب هو واحد لم يتغير . يأخذ من هذه الجريدة أو تلك ، ومن هذه المجلة أو غيرها ، خبرا أو تصريحا أو بيانا فيعلّق عليه ، وكان الله في عون غريمه (...) ، فالحلقة الواحدة تذاع مرتين ، أي قبل الظهر وبعده،فأنت لا تسمع الا التقريع والعنف والعتاب ، بالصوت الجهوري ،فتحسب نفسك تشهد حفلة جحيمية ، اذ ان يوم « الحق والباطل » مثل يوم القيامة . الاستاذ هو « الديّان » ، والقرّاء

(الاستاذ انطوان صليبي) يضرب أعناق « الجناة » ويقول: هل من مزيد ؟

*

هنا ، في « الشرقية » ، حساب وعقاب • وهناك، في « الغربية » ، حساب وعقاب أيضا • « قهّار » الشرقية يجلد « قهاري » الغربية ، والعكس بالعكس • فالاذاعات حوانيت بضاعتها الاعلام والكلام والاخبار ، و « من لم يمت بالسيف مات بغيره » • وكنت كلما سمعت « الحق والباطل » أقول : لن يبقى هذا البرنامج • غدا سيتدخل أصحاب الشأن (•••) ليوقفوه • غدا سيقولون للاستاذ طانيوس : « استغنينا عن خدماتك • الأجواء ما عادت مناسبة » • ولن يستطيع هو الا أن يقول : كما تريدون •

عندنا، في لبنان، الكلام على «الكبار» مباح • والقتال مباح • وهتك الكرامات مباح • والاحتكار مباح • والشتم مباح • والكذب مباح • والذبح الطائفي مباح • والتهجير مباح • ودك بيوت الناس مباح • والاستيلاء على المتاجر والمؤسسات مباح • واذا وقعت « المصالحة الوطنية » (هكذا يدعونها) أو اتجهت « النيات » اليها ، فالكلام على «الكبار» يصبح محرّما ، والنقد ـ حتى في الصحف ـ يُمنع فتنشط الرقابة على المطبوعات والمنشورات ، وتُخنق الاصوات ، التي طالما جاءت بذات الرعد والصليل ، وتُجمع الاسلحة بعد أن تكون قد صارت هي الخبز اليومي ،

ويُسرّح المقاتلون الذين كانوا « أبطالا » و «مجاهدين»، ويُطوى دفتر الشهداء والمقهورين والمهجّرين والمخطوفين، وكما يقول المثل : « داوِ الحاضر بالحاضر » • وأمّا اذا تعثرت المساعي الديبلوماسية ، الدولية والاقليمية ، واستُبعدت « المصالحة » ، رجع كل شيء الى مكانه • فالاسلحة والمقاتلون والانتقادات والتعليقات كلها جاهزة لا تحتمل اشارة واحدة • وما هي الا لحظات وتصبح المدينة مدينتين والجمهورية جمهوريتين والحكومة حكومتين والرقابة رقابتين • فلا تستغربن اذا ما غادر طانيوس رزق الاذاعة ••• أو هو عاد اليها ، وعلى قول المثل : يرى الشاهد ما لا يرى الغائب • حتى ان مديرها العام الشاعر الوزير جوزف الهاشم ، رئيس اقليم الشوف الكتائبي ، التي باتت (صوت لبنان) تُعرف باسمه أُبعد هو أيضا وتوقّفت تعليقاته الادبية السياسية ذات النكهة المميّزة؟!

بعد « حرب الحق والباطل » ـ المرحلة الثانية، توارى رزق ، ولم يخطر بباله انه سيبتعد عن مستمعيه ومحبي برنامجه مدة أربع سنوات ، فكاد يضيع هذا البرنامج في زحمة الهموم والمآسي اللبنانية التي أصبحت تفوق امكاناتنا في الصبر والصمود • و « في الخامس عشر من شباط

١٩٨٤ » (٩) ، بل « في أقسى مراحل الانهيار الذي شهدته جبهة الجبل في منطقة الشحّار الغربي وامتد الى خطوط التماس على أبواب المنطقة الشرقية التي أمطرتها المدافع والراجمات حمما ونيرانا » (١٠) ، اتصلوا به قائلين لـه : « الوضع في أسوأ لحظاته وأحرج أوقاته ، ومطلوب منك أن تعمل » (١١) .

« الاحداث في الميزان »

ماذا يجب أن يعمل المحامي طانيوس رزق غير الرد على الذين يتهمون الكتائب والرئيس والموارنة ؟

ان المنطلق الذي اعتمده لواضح وصريح . وهو « ان الوجود المسيحي في لبنان مهدد بالخطر ، ولا يجوز في أي حال من الاحوال أن تتغاضى عن هذا الخطر لدى بحث أية صيغة للمستقبل ، وإلاّ ، فكل حل يكون هدنة أو مرحلة على طريق الحكم الاسلامي الهاجم لابتلاع هذا الوطن والسيطرة عليه » (١٢) .

بلى ، ان هذا الخطر بات وشيكا . ولن يحمي لبنان مثلما اللبنانيون أنفسهم . فالذين يكيلون ، كل يوم ، للموارنة وسائر المسيحيين التهم

(٩) طانيوس رزق : « الاحداث في الميزان » (« حرب الكلمة في لبنان ») الجزء الاول ، الطبعة الاولى ١٩٨٥ ، ص ٧ ، توزيع مكتبة جبران .
(١٠) (١١) (١٢) المصدر نفسه .

والتهديدات ، لا بد أن يتصدى لهم ، وبالعيار نفسه ، المحامي طانيوس رزق أو سواه من أصحاب الاقلام والألسنة والحناجر . غير ان القضية اللبنانية ليست في البحث عن أسبوبة بين هذه الطائفة وتلك ، كما يفعل « أمراء » الكلام من خطباء المساجد ورؤساء الاحزاب «الوطنية» و « التقدمية » وشيوخ « الكتل » ، ومن يمثلهم من سياسيين وعسكريين ، من جهة ، وطانيوس رزق من جهة أخرى .

المهم ان الاستاذ رزق اقتنع بضرورة العودة الى الاذاعة ، ولقد دعا برنامجه ، هذه المرة : « الاحداث في الميزان » ، واضعا مبادىء أساسية قبل بدء الكتابة ، ومنها أن (يتوقف) عن إعداد البرنامج اذا كُلّف السيد رشيد كرامي تشكيل الحكومة » (١٣) بحيث إن (الاستاذ رزق) كان يتوقع ذلك « نظرا للمنحى الذي بلغته الاحداث ، وبنفس الوقت (يتمنى) أن يخطىء (حدسه) ، واذا به قد صحّ (فأوقف) الكتابة يوم تكليفه في السادس والعشرين من نيسان ١٩٨٤ » (١٤) ، ثم رجع عن قراره هذا بعد انتفاضة « القوات اللبنانية » في ١٢ آذار ١٩٨٥ ، التي انتُخب ، على اثرها ، السيد ايلي حبيقة رئيسا لـ «الهيئة التنفيذية للقوات اللبنانية » (١٥) ، وأُقصي الوزير هاشم عن اذاعته كما مرّ معنا .

(١٣) (١٤) رزق : « الاحداث في الميزان » ، المصدر نفسه .
(١٥) انظر « كلمة لا بد منها .. بين العاصفة والطوفان » .

ففي ستة وستين يوما كتب رزق ما يزيد على مئة وستين تعليقا، صدر منها حتى الآن، خمسة وتسعون، ضمن الجزء الاول [16]، ومن أبرز عناوينها: « أخطاء المنشقين (ص ١٨)، « المشايخ الجدد » (ص ٢٦)، « حرب الردة الفلسطينية » (ص ٤٨)، « ... الاميركيون حزانى » (ص ٥١)، « كابوس الاباطرة » (ص ٦٩)، « برّي والزمام » (ص ٨٦)، « الفلسطينيون والموحدون » (ص ٨٩)، « رسوب أميركا » (ص ٩٢)، « الخوف على « المرابطين » (ص ٩٤)، « الساعات الرملية » (ص ١٠٧)، « الوطن القومي الدرزي » (ص ١٢٤)، « كل لبنان وأنتم بخير» (ص١٣٢)، « عقيد التعقيد » [17] (ص ١٩٢)، « التحالف الدرزي المسيحي » (ص ٢٠٩)، « خطبة (المرآة) (ص ٢٢٠)، « دولة البفتاك » (ص ٢٢٩)، « وصية (كمال) جنبلاط » (ص ٢٤٥)، « الاصنام » (ص ٢٥٩)، و « رئاسة الجمهورية » (ص ٢٩١).

قد لا يختلف « الاحداث في الميزان » عن « حرب الحق والباطل »الا بقدر ما بقي من «الحق»والوطن. وان بدا لك « الميزان » مضطربا أحيانا، فلأن صاحبه يعامل

(١٦) ٣٢٢ صفحة من القياس الكبير، مع فهرس الاعلام، وفهرس الامكنة، طبعة اولى ١٩٨٥

(١٧) يقصد الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي.

خصمه بالهِواء واللواء، أي يلاينه مرة ويشادّه أخرى، كما في « التسلّط الشيعي » (ص٢٨٩)، و« عقدة التخلف » (ص ٢٤٨)، و « وصية جنبلاط » (ص ٢٤٥)، و«الولاء ... للخيرات (ص ٢٣٩)، و« التحالف الدرزي المسيحي » (ص ٢٠٩)، و «شعارات للذكرى » (ص ٢٠٣)، و «مطالب بلا ولاء» (ص ١٧٥)، وغيرها وغيرها. بينما هو مع « الفريق المسيحي » مثل الأم مع ابنتها، واياك أن تسأله عن أخطاء هذا الفريق وعيوبه، بل الويل ثم الويل لمن لم يُعط « النعمة »، كما في «الاصنام» (ص ٢٥٩)، و«دعائم الصيغة» (ص ٢٥٦)، و «الذمية الجديدة» (ص ٢٢٦)، و «عماد الجيش» (ص ٢٢٧)، و «ألوهية المسيح » (ص ١٨٦)، و «الميثاق الذي نريد » (ص ١٨٣)، و «نداء القوات» (ص ١٥٣) وموضوعات أخرى.

المشكلة في السياسيين

ان المشكلة، في الحقيقة، ليست في السياسة فحسب، بل في السياسيين، وربما في الجغرافيا أيضا. ومما لا شك فيه ان الخطر الاكبر الذي يهدد لبنان وأمنه وحريته، هو السعي، من قِبل فريق غير قليل، الى اقامة الحكم الديني التوتاليتاري. ولكن تفشيل مثل هذا الفريق ومسعاه لا يكون بالاسلوب الذي اعتمدته « الاحداث في الميزان » و « حرب الحق والباطل » فقط، وانما بالنضال من

أجل لبنان الذي هو للبنانيين ، جميع اللبنانيين،على اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم ،مع التأكيد على ان العدالةالاجتماعية والمساواة هي أهم بكثير من الحكم الديني أو الجمهوري ومن سائر أنواع الحكم .

ان كل نظام لا يحترم حقوق المواطنين ، في العلم والطبابة والعيش الحر الكريم ، يجب ازالته . فالذمية والقمع والتسلط والقهر والعبودية هي من علامات الانظمة الفاسدة والغاشمة . فلماذا الرجوع الى الوراء ؟ وليس صحيحا ان الحكم ، في لبنان ، هو حكم مسيحي ،كما يزعم «أمراء» الكلام من المسلمين والدروز والشيوعيين والقوميين والفلسطينيين .

« الاحداث في الميزان » أو ميزان الاحداث احكام بعضها عادل ، وبعضها عشوائي يفتقد الى الدقة والتروي . فالوزن ، كما يقول ابن منظور ، هو « روز الثِّقل والخفَّة » [١٨] أو « ثقل شيء بشيء مثله .. » كما يقول الليث [١٩] . ولا يكون الوزن الا الحق . فلنضعْ الميزان القِسْط ، اذا نحن أردنا أن ننقذ لبنان فعلا .

هنالك كلام كثير قيل وسيقال في لبنان والمسألة اللبنانية ، على ان « ومضات وأقوال » و « حرب الحق والباطل » و « الاحداث في الميزان » هي قليل من هذا الكثير الذي عرفنا والذي ننتظر .

١٤/٤/١٩٨٥

---

(١٨) « لسان العرب » ، المجلد الثالث عشر ص ٤٤٦

(١٩) المصدر نفسه .

الباب الثاني

المحور العربي

- ١ ـ ● سِفْر الخروج من التبعية الى الاستقلال
- ٣ ـ ● مشاريع الاستيطان اليهودي
- ٣ ـ ● البحر الاحمر والصراع العربي ـ الاسرائيلي
- ٤ ـ ● دولة المرابطين والبكاء على الاندلس
- ٥ ـ ● البحث عن فلسطين في مصر !
- ٦ ـ ● المجتمع العربي المعاصر
- ٧ ـ ● نحو سياسة سكانية عربية
- ٨ ـ ● جامعة الكويت حاضرة في الشرق وحاضرة في الغرب
- ٩ ـ ● الاشوريون والنساطرة الى أين ؟
- ١٠ ـ ● عرب واكراد وآخرون

(١)

سفر الخروج
من التبعية إلى الاستقلال

من لبنان نبكي العرب وتاريخهم وحضارتهم • ومن بلاد العرب تأتينا الابحاث والدراسات والمراثي والقصائد، بعضها يدعو الى التفاؤل والصبر والصمود، وبعضها الآخر لا يرى الدنيا الا كوابيس وأحزانا وانهيارات عصبية ونفسية وخلقية ومادية ، فنقع ، في الحيرة ، ونرتبك ، ثم نضطرب ، ليصبح الوقوف ، في المكان الواحد ، كالدوران الذي يأخذ بالرأس ، فيعلو الضغط أو ينخفض ، ويموت الزمان ، على أرضنا ، ضياعا ، ليُبْعَث ، في المقلب الآخر، شواظا وحديدا ،فاذا ما استيقظنا زرعنا الطرقات والارصفة جثثا ، وراح كل فريق منا يكرّم « أبطاله » و «شهداءه»، والغضب يشحذ الالسنة ، والاقوياء يستأكلون الضعفاء ، لتنتشر المجاعة والعبودية والذلّة •

العذاب في الارض •• أم في العقول ؟

لبنان ، هذا الباب على الجحيم ، كيف يصبح وطنا ؟

نبحث ، عن الجريمة ، في الكتب ، وننسى الجغرافيا؟

اخترعنا العقاب قبل الخطيئة ، وحرّضْنا على الرَّجْم
بالغيب ، حتى سقط المثَل : « ان بعض الظن إثم » !

نحن ، هنا ، سكان الباب ، والخلاف على الريح
والصرير والثقوب ، بل على كل تافه وسخيف وبعيد .

اليوم عرس الحرية ، وغدا لطْم وندْب . الدولاب،
على الماء ، والسفن تنهب الغنائم تاركة وراءها مَدافع
الشرق تتقيأ وتحتضر .

كان وراء المتراس(...)عندما كتب « في التبعية »[1].
موقعه مشرقي ... يطل على العرب والبحر المتوسط .
انخلع البابُ فمال ، بكامل وعيه وامكاناته ، نحو الشرق
العربي . صوته قومي ، فيه من العاصي وبعلبك وكل
البقاع . يطعن طعْنا نَبْرا . قضاياه كثيرة : من المغرب
العربي ، الى الهلال الخصيب (سوريا الكبرى) ، الى
الجزيرة العربية ، ومطلبه « الخروج من التبعية الى

(1) ١٦٨ صفحة من القياس الكبير ، مع ثبت للمراجع،معهد الانماء العربي ــ الدراسات السياسية ، الطبعة الاولى ــ ١٩٨٤ .

الاستقلال » ، على أن الفصل الاول ، الذي حمّله هذا
العنوان ، هو روح الكتاب ، وقد عقده الدكتور مروان
فارس (رئيس المجلس الاعلى للحزب السوري القومي
الاجتماعي)[2] ليبرز « الزخم الهائل في المجتمع العربي للسعي
الى الاستقلال » الذي معه « تبرز الحركة العنيفة في مواجهة
الاستعمار رفض مبدأ التبعية وسيطرته على العقل العربي»
اذ « الهزائم المتكررة لم تلغِ يوما ارادة المواجهة على
جميع الصعد ، والضربات العاتية لم تثنِ يوما عن البحث
عن طريق جديدة توصل الى الاهداف . فاستمرار الحركة
استمرار للحياة . والحياة العربية في تعثراتها ما تزال قادرة
على الخروج من هذه التعثرات » (ص ٥٧) .

ولكن المؤلف الذي تلَمَّس الحرية المغربية والسورية
والعربية ، ضمن أربعة فصول ، بالاستعراض حينا ،
وبالمقارنة أحيانا ، لم يجد بديلا من لبنان ، الذي لولاه
لأصبح الحزب السوري القومي الاجتماعي حزبا مهجريا ،
يضاف الى ذلك الشعر الجميل، الذي غنّاه ، في المغترَب ،
شعراء لبنانيون وسوريون (...) عانوا الفرقة والغربة
والوجع ، فنظموا القصائد وكتبوا الرسائل والخطابات ،

(2) بما ان مدة ولاية رئيس المجلس الاعلى للحزب السوري القومي الاجتماعي هي لسنة واحدة ، تم انتخاب الاستاذ داود باز خلفا للدكتور فارس في تموز ١٩٨٥ ، فيما أسندت للاخير عمدة الخارجية .

ليبثوا شوقهم وحنينهم الى الوطن والاهل والاصدقاء ، ومثلما انقرض ذاك الشعر كان سينقرض هذا الحزب . وعلى لبنان أجرى الدكتور مروان فارس الحساب والامر، كما لو ان العلاقات العربية ، جميعها ، هي ، في هذا البلد الصغير ومنه ، اذ يقول :

« ان الصراع الآن في منطقة الشرق العربي لا تنحصر حدوده عند حدود مقرّرة في بداية القرن . فهنالك حدود جديدة بدأت بالظهور ، وهي تخرج من إطار المصالح القديمة الى اطار المصالح الاستراتيجية الحديثة . عليها تفرض حقيقة الامتداد الجغرافي والمدى الطبيعي دون أية حقيقة أخرى . مما يثبت مرة أخرى أن الصراع معاسرائيل يطول الوجود غير آبه بالحدود . مما يعني أن لبنان لا يمكن أن يكون في ذلك متفرجا . فاذا كان لبنان قد قرر في الميثاق (١٩٤٣) ألاّ يكون معبْرا للغرب فانه ، بالنسبة لدولة مزروعة في الشرق ، لا يمكن له الا أن يكون ، في أي ميثاق جديد ، طرفا في النزاع وجزءا من فريق» (ص١٦٤).

ويتصاعد عنف كاتبنا السوري القومي ليصبح عربيا مكبّرا ومضخّما ، فيقول :

« وان الحالة اللبنانية ، اذ تشكّل ظاهرة في الشرق العربي ، تبقى النموذج الذي يُظهر مدى الخطورة في الاتباع . كما انها تمثل معطى يستحيل النظر اليه دون

الاقرار بحتمية مقاومة سياسة الالحاق والاتباع » (ص ١٦٥) .

قبل أن نتفق ، مع الدكتور فارس ، أو نختلف ، يجب أن نرى الى حكمه الاخير والنهائي على لبنان ، وقد مهّد له بالقول :

« ان الخصوصية اللبنانية ، في انفجارها ، لا تحتمل امتيازا أو استثناء في المحيط . فالنموذج الذي اسسّه الميثاق لم يستطع الصمود نتيجة انفعال لبنان بعوامل خارجية . وذلك أمر طبيعي كونه جزءا لا يتجزأ من محيطه يتأثر به ويؤثر فيه . لذلك سقطت كل المراهنات على حل المسألة اللبنانية أو على الاقل على الشروع بهذا الحل ، بمعزل عن تأثير المحيط . فالمرحلة الراهنة متسمة بطابع الاحكام التي تحاول اتفاقيات كمب ديفيد ومعاهدةواشنطن تثبيتها في العالم العربي » (ص ١٦٥) .

ويجيء حكمه كالآتي :

«ان لبنان التاريخي لا يمكن له أن يكون غير موجود. انما يكون وجوده قويا في محيطه القومي وهزيلا في انعزاله عنه . ان انعزاله يعني تمزّقه وتفتته الاجتماعي . لذلك فهو ضمان للحرية في الشرق ، ان جاهد مع الشرق من أجلها ، وله في ذلك مآثر لا تحصى » و « أن لبنان المستقل لم يخرج عن الوصاية الداخليةوالتبعةالخارجية »

اذ إن الميثاق الذي « أتى كتتويج لتسوية (...) سقط في
حدة الصراع في الداخل ومع الخارج . مما يدفع الى
الاعتقاد بأن المخرج الممكن للمأزق البنيوي الراهن انما
يتم عبر مواصلة الكفاح ضد الاعتداء الامبريالي الصهيوني
ومحاولات اخضاع لبنان وإلحاقه بدولة اسرائيل » . وكما
هو معلوم « ينشأ الاستقلال الحقيقي عن القتال من أجله .
والوحدة الحقيقية تنجم عن الصراع ضد العدو الطامع
بالأرض والحياة » .

وقال أيضا :

« وهكذا ترتسم صورة ميثاق جديد يخرج من
التمزق والحشرجة ، ميثاق يؤسس الوطن من جديد ويبني
له دولة تكفل لكل مواطن حق الوجود والحياة والتقدم
والرفاه » (ص ١٦٧/١٦٨) .

نحن مع الدكتور فارس ، في نظرته المستقبلية الى
لبنان ، ولكن الحقيقة (...) تتعدى هذا التشخيص وهذا
الحل .

ينقل الدكتور فارس ، من كتاب « تاريخ لبنان الحديث »
لمؤلفه الدكتور كمال الصليبي ، نصاً ، يسرّنا الرجوع
اليه ، نظرا لأهميته ، وسوف نشرحه ونفسّره ، على أمل أن
نكتشف ، من خلاله ، ويكتشف معنا الدكتور فارس ، ذلك

الخيط الرفيع الذي يصلنا به وبالدكتور الصليبي وغيرهما .

يقول الدكتور الصليبي :

« أسفَر التطور العام الذي طرأ على
لبنان في عهد المتصرفية عن ظهور طائفة من الفِكَر
الاجتماعية والسياسية كان لها أثر بعيد في تاريخ البلاد .
كانت هذه الفكر ، على تنوعها وتناقضها أحيانا ، تعكس
محاولات قام بها رجال الفكر اللبنانيون لفهم وضع بلادهم
الخاص وعلاقتها المميزة بما يحيط بها من بلدان الشرق
الادنى . وسعى المفكرون المسيحيون ، على الاخص ، الى
اقرار بعض المبادىء التي يقوم عليها تعاون اسلامي ـ
مسيحي يُفضي الى ضمانة سلامة المسيحيين في الولايات
السورية ، وبوجه خاص في لبنان ، والى تأمين كرامتهم في
محيط يسود فيه الاسلام . وقد تبين لهؤلاء أن فكرة
القومية التي عرفتها أوروبا ، بصبغتها العلمانية ، هي السبيل
المجدي . لكن تكييف هذه الفكرة تتلاءم مع الظروف
السائدة في لبنان لم يكن بالامر الهين » (فارس ص ١٤٨)
(الصليبي ص ١٩٥) [٣] .

بدءاً ، نلفت الى أن الدكتور فارس أهمل ، أو هو

---

(٣) لدينا الطبعة الثالثة (١٩٧٢) من كتاب الصليبي « تاريخ لبنان الحديث » الصادر عن دار النهار للنشر .

نسي ، ذكر الصفحات جميعها ، التي أخذ عنها أو اقتبس النصوص الملائمة والمناسبة لبحثه ، مما سبّب لنا بعض المتاعب ، عندما عدنا ، الى المصادر والمراجع ، المعتمدة منه، لاجل المراجعة والتحقيق ، وليس كتاب الدكتور الصليبي الا واحدا منها ، على كل حال !

نبقى مع الدكتور الصليبي حيث يقول أيضا :

« وكانت فكرة القومية قد سبق لها أن تفشّت في أنحاء من السلطنة العثمانية في النصف الاول من القرن التاسع عشر . فظهرت أول الامر في الولايات البلقانية،حين ثار الصرب واليونان ضد الحكم التركي ، مطالبين بالاستقلال . ثم اقتدت بهؤلاء شعوب البلقان الاخرى . وكانت هذه الشعوب جميعها مسيحية [٤] ، تناضل ضد حكم اسلامي . فاتخذت فكرة القومية عندها ، بطبيعة الحال ، صبغة دينية . وأحدثت الثورات المسيحية في البلقان ردّة فعل عند المسيحيين من رعايا السلطنة ، من أتراك وعرب وغيرهم . فهبوا للدفاع عن سطوة الاسلام .وقامت

(٤) يؤكد الدكتور الصليبي ذلك بالقول: « لم تشترك الشعوب البلقانية الاسلامية ، كالبشناق والارناؤوط ، في الثورات التي قامت ضد السلطنة في بلاد البلقان ، بل حافظت أشد الحفاظ على ولائها للدولة » . أنظر الهامش رقم (١) المذكور على الصفحة ١٩٥ من الكتاب نفسه.

الاضطرابات الدينية في مختلف الاقطار العثمانية ، مما زاد في نقمة الرعايا المسيحيين على الدولة » [٥] .

من الواضح أن القول الثاني يدعم الاول ويقرره .

فمن أوروبا الى الولايات البلقانية الى الشرق العربي ، والحكم القومي بين الحلم والحقيقة .

القلق هو من أبرز الدوافع الى النضال من أجل الحريات ، وبخاصة حرية الفكر والمعتقد المقترنة بحرية الوجود .

يجب أن يكون المسيحيون ، في هذا الشرق ، هم الذين تبنّوا الفكرة القومية ، وأول الذين دعوا الى فصل الدين عن الدولة . لقد خافوا على أعناقهم ، من الذبح الطائفي ، فنشروا المبادىء الانسانية ، بلغة حيّة نابضة ،وحملوا لواء الحرية والعدالة الاجتماعية ،ورجاؤهم العظيم أن يجدوا إخوانا لهم من المسلمين ، يقفون الى جانبهم ، ويشدون أزرهم ، ويردون عنهم القبضات الفولاذية والسيوف اليمانية أو المهندة .

أي فرق بين المسلم والمسيحي ؟

(٥) المصدر نفسه .

كيف نميّز بين انسان وآخر ؟

تلك كانت محنة أولئك المفكرين الذين نستوحيهم ونستلهمهم الرشاد ، بل نستصرخهم ، كلما ضاقت أعين الغلاة من المسلمين والمسيحيين ، وانتفخت صدورهم وتورمت أكبادهم ، فما أشبه اليوم بالامس ، وما أبعد الاحلام الكبيرة !!

مصادر الخوف ، على الحريات ، كثيرة ،و« الارهاب العقائدي » آخذ في التوسع ، فكيف لا تلجأ الاقليات(...) الى من يحميها ويدافع عنها ، أيا كان هذا الحامي ؟!

ليس للمستضعَفين الا العدالة ، وان لا فالتبعية والالحاق .

لماذا لا نبحث عن مقالع النزعات الطائفية والحقد والحسد والتعالي ، خارج لبنان ، قبل داخله ، وننسفها على رؤوس أصحابها وروادها وحراسها وشرطها وذوي الزُبانيات (٦) ، وجميع العاملين لاجلها ؟!

ما لم يطمئن العرب الى مصيرهم لن يطمئن لبنان ، وليس العكس ، كما يقولون .

لعل ما يبرر القول بأن انهيار لبنان بداية انهيارات العرب ، هو الشعور المرهف والحساس ، الذي يتكوّن ،

---

(٦) الزُبَانيات مفردها (زُبَانَى) ما تضرب به العقرب من طرفها .

عادة ، في أجواء يسودها الرعب والفزع ، ومثلها يملأ سماء لبنان ويغطي أرضه ، منذ أمد بعيد ، وربما ظل هكذا أبدا .

ان هذا لا يعني أن الحل غير موجود . ولكن المشكلة أكبر بكثير مما نتصور ونعتقد .

نعود الى الدكتور الصليبي حيث يقول :

« وكان المسيحيون في الولايات السورية في الوضع نفسه الذي كان فيه الارمن من حيث وجودهم في الجزء الآسيوي من السلطنة العثمانية ومن حيث صعوبة حصولهم على المساعدة العسكرية من أوروبا . زد على ذلك انهم ، بخلاف الارمن والشعوب المسيحية في البلقان ، لم يتميزوا من جيرانهم الا بالدين ، اذ لم تكن لهم لغة خاصة بهم ، بل كانوا يتكلمون اللغة العربية كغيرهم من أهل البلاد . وكان المسيحيون في الولايات السورية يعيشون مع المسلمين في المدن والأرياف ، فلم يستطيعوا المطالبة بكيان وطني مستقل ، لانه لم يكن لهم أيضا وطن خاص بهم . وحاولت الاكثرية المسيحية في جبل لبنان ، بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ ، أن تجعل من ذلك القطر وطنا قوميا مسيحيا ، بمساعدة فرنسا وغيرها من الدول الكاثوليكية ، فأثارت هذه المحاولة ردّة فعل عنيفة عند الدروز أدت ، آخر الامر ، الى مذابح ١٨٦٠ » (٧) .

---

(٦) الصليبي ، المصدر نفسه .

اذا كانت هذه هي جذور مشكلتنا ، فان وراءها تاريخا قديما قائما على الصراعات الطائفية ، يمكننا القول انه ابتدأ مع الفتوحات الاسلامية وانتشار الاسلام [٨] .

نعم ! تستطيع الآلام والمآسي والنكبات أن تصنع العبقريات والخوارق والمعجزات . غير أن الذي حدث ، على الساحة الشرقية العربية ، حتى الآن ، لا يؤكد ذلك تماما .

يقول الدكتور مروان فارس في باب « الانتزاع » من الفصل الرابع المخصص لقضية الشرق :

« لقد تعامل الاستعمار الغربي مع المشرق العربي قبل احتلاله وبعده تعاملا مشابها للتبادل السلعي ، دون أي اعتبار آخر مرتبط بالمبادىء أو الفلسفات التي حفل بها العرب ، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فلقد تم الاحتلال نتيجة لاتفاق على الاقتسام ، تماما كما يتم أي عقد لتوزيع الحصص ، بعد انقضاء العقد . وبالطبع لم يراع

(٨) لا بد من التنويه بأهمية الدراسة التي قدّمها الدكتور صالح الحمارنة (من الجامعة الاردنية ـ قسم التاريخ والآثار) الى « المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام » عنوانها : « المسيحيون في أرض الشام في أوائل الحكم العثماني » أنظر « المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام » المذكور سابقا من ص ٥٤٩ الى ص ٥٥٨ .

هذا الاقتسام ، لانه اقتسام ، أية مصالح غير تلك التي تعود للاطراف المتوافقة عليه . فالخريطة التي تم النقاش حول تجزئتها في بطرسبورغ خريطة غير ناطقة لا تاريخا ولا حضارة ولا وحدة اجتماعية » .

أضاف :

« لذلك فان توزيعها حصل بالالوان كما لو انها لم تحمل لها اسما ، كما لو انها لم تلد أبجدية أو مجذافا أو حضارة . فاستولى الانكليز على ما استطاعوا والفرنسيون على ما استطاعوا . ومنحوا لتركيا جزءا من سوريا ، وجزءا آخر من العراق اعطوه لايران والحصة الوافرة منحت للحركة الصهيونية في فلسطين . انتزعوا فلسطين من الارض التي هي جزء منها ومن الشعب التي هي له وأعطوها لغيره على أن ينتزع هذا الغير ما استطاع في سياق التاريخ » (ص ١٢٠) .

ويستمر الانقسام ، أو التقاسم ، لا بين الانكليز والفرنسيين ، وانما بين أميركا وروسيا ، مع الاعتراف بأن العصر « الكولونيالي » قد مضى ، منذ تراجعت انكلترا وفرنسا وايطاليا وغيرها الى مواضعها .

وبعد أقل من خمسة عقود ، قامت دولة اسرائيل ،

ثم وسّعت احتلالاتها ، فاذا « تركة الرجل المريض » تقع، تحت رحمة الصهيونية ، التي تعرف كيف تتسلل حتى الى أسرّتنا ، لتبعثر أمتعتنا ، وتمزق ثيابنا حتى الداخلية منها ، وهكذا أصبحنا ، والصحيح عدنا ، بنعمة ماضينا وحاضرنا ، كما كنّا : أقواما وشعوبا وأمما ، تتهافت وتتذابح ، لاجل أن نبقى متخلفين مسحوقين ولَحَقا تابعين •

مرة أخرى ، نقول بأن الحل ليس مستحيلا •

أما « اذا كان المطلوب ، في هذه العجالة ، أن نطرح الحل ، فلا بد من أن نطالب بعلمنة البلاد العربية كافة ، قبل علمنة لبنان ، وفصل الدين عن الدولة (في الاقطار العربية كافة) ، مع حفظ الاستقلال الذاتي ، الكامل ، لكل دولة من هذه الدول ، واحترام سيادتها وكيانها » [٩] ، فهل يسمع العلمانيون والديمقراطيون، من قوميين وغيرهم؟ أم ان اليأس ألقى عليهم ظلاله ، وباتوا مثل السمكة في شبكة قضت الصاعقة على أصحابها ، عندما كانوا يجرّونها الى الشاطىء الولهان ؟

لبنان هو المريض الاكبر في المنطقة ••• وليس مرضه داخليا فحسب •

---

(٩) انظر كتابنا « لبنان في ظلال البعث » الطبعة الاولى ١٩٧٨ ص ٢٩ •

ان لبنان مصاب بداء الغير ، الجيران ومن هم أبعد من الجيران • هواؤه أصبح مكثّفا بالامراض والعلل والآفات • زنّار من الهموم التاريخية يحاصره ، وجبال من العقد والازمات رست عليه ، فإما قطعْنا هذا الزنار وأنزلنا تلك الجبال ، وإما لا حول ولا ••

لقد ناقش الدكتور مروان فارس ، باختصار ، الاتجاهات والتيارات الفكرية والمسائل الثقافية العربية، التي برزت منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وحدد معالمها، وبيّن المراحل التي قطعتها ، والمتاعب التي جبهتها ، فيما ظل محافظا على خطه القومي الاجتماعي ، انما في اطاره العربي وليس في الاطار السوري ، وقارن أيضا بين أئمة الفكر القومي ، في منطقتنا ، فعيّن خمسة نماذج (من ص ٢٢ الى ص ٥٧) محللا وناقدا ومبسّطا ، اذ مر بالناصرية، والبعث (مذكّراً بزكي الارسوزي) والنظرية القومية الاجتماعية (أنطون سعادة) ، والحركة القومية العربية، معتمدا الدكتور منيف الرزاز وساطع الحصري ، والحركة الشيوعية العربية ، فرجحت ، عنده ، كفّة انطون سعادة « النموذج الثالث » الذي « يندرج موقفه الفكري في اطار من النضال والمواجهة الحادة مع الاستعمار وأدواته ، أدى به الى الاعتقال والنفي والاستشهاد • مما يجعل منه ظاهرة متميزة بين الرواد ، إن لجهة تكريس حياته للقضية التي

آمن بها أو لجهة تأسيس حزب يجاهد من أجل انتصار هذه القضية » (ص ٣٣/٣٤) •

ولئلا يعود الصراع ، بين أنصار هذه النماذج والنظريات ، حاداً مثلما كان بين رموزها ــ الرواد ، التزم الدكتور فارس التوفيقية ، حتى بدا طوباويا الى حد كبير، وتمكن من تهدئة « المتطرفين » و « الغلاة » ، من هذا الفريق أو ذاك ، بحيث تجنب التحليل المثير واللغة الحامية•

وبرع الدكتور فارس في صياغة خواتيم فصول كتابه، من أجل ازالة الشكوك والظنون ، التي طالما حطمت أعظم الآمال والاماني •

ففي نهاية الفصل الثالث : (قضية المغرب العربي)، يقول الدكتور فارس :

« ان وحشية الايطاليين في حركة استعمارهم لليبيا تمظهرت بالاساليب الرهيبة التي استخدموها لاخضاع البلاد • فلم يستثنَ سبيل لاشباع طمع الرأسماليين الايطاليين • لقد أخذت الحرب شكل المذبحة وطريقة الابادة • ذُبحت العائلات بنسائها وأطفالها وشنق الرجال• وكانت تلك هي مهمة التمدين وطريقة اشتمال « نعم التقدم » لغير المتمدنين • وعلى الرغم من كل ذلك لم

يخضع العرب ، وخاصة داخل القارة ، وبقي النضال مستمرا ومديدا » (ص ١٠٩) •

وقال في ختام الفصل الرابع : (قضية الشرق) :

« هكذا تكونت صلة الهيمنة بالتبعية • فالالحاق الذي فرضته أوروبا الذاهبة من ذاتها الى خارجها تمّ بالسلاح ليصل الى الاعتراف بالإله • الا ان الاله المحلي بقي قويا يقاوم ناسه السلاح بما امتلكت ايديهم ويصنعون لذاتهم قضية حية هي قضيتهم في المغرب كما في المشرق » (ص ١٤١) •

واذ يكتب الدكتور مروان فارس سِفْر الخروج من التبعية الى الاستقلال ، يتمسك بالتوفيقية ويجتهد في تحقيق الخواتيم المنحوتة والمنمّقة ، ويبدي أنواعا من التحاسين شتّى ، مقدّما « مبدأ ارادة الحياة على مبدأ العقل » ، فيما نجد فئات شرقية ــ عربية كثيرة تغالب الاحرار وتطاردهم وتضطهدهم وتنكّل بهم ، لتظل في نعيمها الزائف الخداع المنبثق من التبعية والالحاق •

١٩٨٥/١/٢٦

(٢)
مشاريع الاستيطان اليهودي

يقول الدكتور حسن ظاظا[1] في موضوع الشخصية الاسرائيلية : « معلوم ان الحقد هو الابن الشرعي للشعور بالاضطهاد ، والحقد اليهودي لا يشذ عن هذه القاعدة • وليس وجود عقدة الاضطهاد في الشخصية الاسرائيلية شعورا من تخييل الوهم أو نسج الخيال • فمما لا شك فيه ان اليهود ذاقوا مرارة الاضطهاد كثيرا ، وفي عصور

(١) الدكتور حسن ظاظا استاذ العلوم اللغوية بجامعة الاسكندرية (كلية الاداب) . تخرج من جامعة القاهرة والجامعة العبرية بالقدس ، وحصل على عدد من الدبلومات في الدراسات اللغوية والشرقية والتاريخية بجامعة باريس ، كما حصل على دكتوراه الدولة بالاداب من السوربون . له عديد من المؤلفات مثل : « الساميون ولغاتهم » (١٩٧١) . و « الفكر الديني الاسرائيلي » (١٩٧١) . كما ترجم كتاب « تاريخ الانبياء عند بني اسرائيل » (بيروت ١٩٦٧) فضلا عن عدد كبير من البحوث بالفرنسية والعربية في المجالات المتخصصة .

متعددة من تاريخهم • ولكن الذي يحوم حوله الشك هو كون هذا الاضطهاد مجانا وبلا جريرة من اليهود ، اذ لا تكاد توجد ظاهرة في مجتمع من المجتمعات بدون علة أو سبب ، وأحداث التاريخ لا تخبط خبط عشواء الا نادرا جدا » •

أضاف :

« واذا كانت جماعة صغيرة من الناس تجعل التمييز العنصري أساسا لفكرها منذ البداية ، ثم لا تفكر على مر العصور الا في تقوية هذا التمييز العنصري ، فهي جماعة مقضي عليها بالكراهية • فاذا كانت الى جانب ذلك قليلة العدد ، ضعيفة ، هشة ، تحولت الكراهية بسرعة الى اضطهاد • ويظل الاستعلاء العنصري يجذب الكراهية ، والكراهية تولّد الحقد ، والحقد يغري بالاضطهاد ، واذا باليهود يدورون ، والعالم على اثرهم في حلقة جهنمية مفرغة »[2] •

وتقول السيدة بديعة أمين في موضوع الدوافع العادية والجذور التاريخية للهجرة اليهودية :

(٢) مجلة « عالم الفكر » ـ الكويت ، المجلد العاشر ، العدد الرابع ١٩٨٠ (آفاق المعرفة) الشخصية الاسرائيلية : بقلم حسن ظاظا ، ص ٤٠ ـ ٤١ . وهذه الدراسة نشرت أيضا كتابا صدر عن دار القلم ـ دمشق ١٩٨٥ .

« ان الخصومات الداخلية لم تكن العوامل الوحيدة التي كانت تمزق جسد الارض الفلسطينية • لقد كانت فلسطين على الدوام هدفا للهجرات والغزو الاجنبي ابتداء من الهجرة الكنعانية التي وقعت ابان العصر البرونزي الوسيط (٢٥٠٠ ق٠ م٠ تقريبا) •فالهجرة الاسرائيلية الاولى ثم غزوة الهكسوس وحكم الهكسوس الذي استمر قرابة قرن ونصف (١٧٠٠ — ١٥٠٠ ق٠ م٠) فالغزو الاسرائيلي من مصر والذي وقع ابان القرن الثالث عشر ق٠م٠ فغزوة ما يسمى بسكان البحر أو الفلسطينيين في القرن الثاني عشر ق٠م٠ وغيرهم من سكان جزر بحر ايجه• ثم كانت هدفا للغزو الاشوري فالبابلي فالفارسي واليوناني الروماني ، ثم موضع صراع بين البطالسة والسلوقيين،حتى التاريخ الحديث حين الفتح الاسلامي ومن ثم السيطرة العثمانية وأخيرا الاستعمار البريطاني »[٣] •

فكلما ذكرنا اليهود لا بد أن نذكر فلسطين والفلسطينيين ، والعكس صحيح • « الشعب المختار » و « أرض الميعاد » عنوانان لمسألة واحدة ما انفكت تشغل العالم حتى درجة الازعاج والاضطراب •

---

(٣) بديعة امين : المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٣ ص ١٦ .ويأتي كتاب الدكتور كمال الصليبي « التوراة جاءت من الجزيرة العربية» ليدحض القول بأن اليهود غزوا فلسطين من مصر . انظر الفصل الخامس من الباب الرابع •

الافعى ذات رأسين • اليهود عقّدهم التاريخ • والفلسطينيون أيضا عقّدهم التاريخ•لكنما المسافة بين الحرب واستراحة « البطل » اختصرها القرن التاسع عشر •

تيودور هرتزل (Theodor Herzel) (١٨٦٠ — ١٩٠٤) تكلّف الحلم ••• ورأى نفسه « الملك اليهودي الذي يسير على رأس قافلة اليهود في وطنهم القومي (فلسطين) » وقال يصف حلما له في صباه : « وجدت نفسي طائرا على أجنحة الريح يطوّقني المسيح — الملك بذراعيه حيث كان يتخذ شكل رجل مُسِنّ تبدو عليه امارات العظمة والجلالة ••• وحينما التقينا بموسى التفت اليه المسيح قائلا : « من أجل هذا الصبي كنت أصلّي » • ثم التفت اليّ وقال : « اذهب واعلن لليهود بأن موعد مجيئي قد اقترب ••• » ؟!

وها قد قامت دولة اسرائيل ، وفي « الوطن القومي » بالذات ، فهل ان « المسيح المنتظر » — مسيح اليهود — قد وفى بالوعد والعهد ، ام انها لعبة صانعي القرارات الذين اليهم ترجع الامور ؟

المسيح حقيقة صدمت اليهود منذ حوالى عشرين قرنا • بعضهم آمن ، وبعضهم أنكر واستكبر •الذين آمنوا حسموا مشكلتهم وتفاهموا مع جميع أعدائهم ، وأقروا

بالاخوة بين بني البشر ، ودعـوا الى العدالـة والمساواة
واحترام الحقوق الانسانية كافة ، فيما ظل الفريق الآخر
يصارع المنطق ، بـالوهم ، مستهترا بالشعوب والامم ،
فيتآمرون على هذا ، ويتمردون على ذاك • وخادع بعضهم
بعضا ، فاستمروا في غليان سياسي وديني واجتماعي ، حتى
ضاقت بهم الدنيا ذرعا ، واذا العالم يستيقظ ذات يـوم ،
على تيتوس (Titus) (٣٩ ــ ٨١ م •) القائد الرومـاني
العظيم ، يحاصر أورشليم (القدس) ويدمّرها • وما كان
لهذا «الوجود اليهـودي الضئيل المشاكس » (٤) الا ان
يبدأ الدياسبورا ، الشتات ، كما بات معروفا • « فلأول
مرة في التاريخ الاكيد المدعّم بالوثائق ، يتفرق اليهـود
(سنة ٧٠ ميلادية) لا في عالم الساميين في الشرق الاوسط
فحسب،بل في الجانب الاوروبي من البحر الابيض المتوسط،
وحيث أمكنهم المقام في هذا العالم الغربي » (٥) •

وامتـدت مرحلـة انتقـال اليهود الثانية (الانتقال
الاول كان من الجزيرة العربيـة) ، مـن فلسطـين الى
الشتات ، حتى نهاية الربع الاول من القرن الرابع ، حيث
ظهرت محاولات يائسة كانت ترمي الى الرجوع باليهود
الى « الارض المقدسة » وبعث الدولة اليهودية •

ولكنّ تضافر الرومانيين مع المسيحيين،من سكان المنطقة،

---

(٤)و(٥) حسن ظاظا المصدر نفسه •

جعل هؤلاء اليهود«يتفرقون ويمعنون في البعد عن مراكز
الاضطهاد ، الى أبعد ما استطاعوا الوصول اليه من بـلاد
العالم ، حيث عاشوا في هذا الشتات ، تتضخم في نفوسهم
عقدة الشعور بالاضطهاد ، ويتضخم معها الحقد على أمم
العالم،التي ألقت بهم في النهاية في « الجيتو» (Ghetto) (٦)

الشرق لفظ اليهود ، والغرب قهرهم وعذّبهم •ولكي
يستعيدوا قوّتهم انطووا على أنفسهم «وراء أسوار مـن
العزلة والتزمت والتعصب الديني والعنصري ورفض الأمم
الاخرى » (٧) •

وفي « الحي اليهودي » وُلدت الشخصية الاسرائيلية
لتقلق العالم ، بل لتمزقه وتحكم سيطرتها عليه • بيـد ان
غايتها القصوى الانتقام من التاريخ كيفما كان •

قبل اسرائيل (الدولة) كان اليهود ، في الغـرب ،
«حشرات وجرادا يدمّرون » (٨) البلاد ، وينشرون الفساد،
ويثيرون الفتن والاضطرابات • وكان العرب «متخلفين »
و « برابرة » و « نَوَر » دأبهم الترحال والتطواف مـن
مكان الى مكان•فالغرب يزعجه الوجود اليهودي ،والشرق
في صراع مـع ذاتـه : اذا طُرد اليهـود من أوروبا فإلى

---

(٦)و(٧) المصدر السابق •
(٨) انظر حاشية ص ١٠١٨ من « عالم الفكر » الشخصية الاسرائيلية •

فلسطين « أرض التوراة والشريعة الاسرائيلية !! والدولة اليهودية ، اذا ما قامت تحرر الغرب من فقراء اليهود الذين باتوا يهددون مستقبله وأمنه واستقراره وحضارته .

واذن فان كل فقير يهودي هو كابوس الحضارة الغربية، بل مرضها ، بل القنبلة الموقوتة التي اذا ما انفجرت يصبح العالم رمادا أو شيئا منسيا .

هل يقعد الغرب عن حل مشكلته هذه ، والعرب في أسوأ أيامهم وعهودهم ؟

ويأتي كتاب « مشاريع الاستيطان اليهودي » (منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى)[٩] للدكتور أمين عبدالله محمود [١٠] فيؤرخ هذه المسألة

(٩) ٢٩٠ صفحة من القياس الوسط ، مع ثبت لمصادر الدراسة ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، رقم (٧٤) ربيع الثاني جمادي الاولى ١٤٠٤ هـ . ـ فبراير ، شباط ١٩٨٤ .

(١٠) الدكتور امين عبدالله محمود : من مواليد عام ١٩٤٠ في مدينة « بيت لحم » حصل على الدكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة جورجتاون واشنطن . امضى الفترة الممتدة بين عامي ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢ زميل بحث وتدريس في قسم التاريخ بجامعة جورجتان ، عمل منذ ١٩٧٣ بالجامعة الاردنية ، وشغل فيها منصب رئيس قسم التاريخ ، عام ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ . له عدة دراسات وابحاث وترجمات باللغتين العربية والانجليزية أهمها : أ ـ فكرة الدولة اليهودية =

بكافة وقائعها وأوقاتها وأسبابها .

لقد ضمّن الدكتور أمين محمود كتابه سبعة فصول متلاحمة ، حمّلها الكثير من الشواهد والادلة والبراهين ، التي يكفي تجميعها عن الحكم على اليهود والدول التي شجعتهم على « العودة » وساعدتهم في احياء الكيان الاسرائيلي .

الجديد في هذه الدراسة هو الكشف عن محاولات الاستيطان المتتالية التي تعرضت لها ليبيا ومصر والجزيرة العربية والخليج والاردن وسوريا والعراق ، ومناطق أخرى غير عربية كالارجنتين واقليم أضنه التركي وجزيرة رودس وأنجولا وموزمبيق والكونغو .

الوثائق كثيرة ... والمذكرات عديدة . بعضها يعود الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبعضها من القرن العشرين . ملوك ورؤساء وأمراء وسلاطين ومستشارون وقياديون وسفراء ووزراء ومفكرون وزعماء ورأسماليون يفضحهم كتاب « مشاريع الاستيطان اليهودي » ، فلا أحد

= والتوسع الاستعماري الغربي ب ـ المسألة اليهودية في كتابات ليوربنسكر ج ـ الاوضاع الداخلية في روسيا ، واثرها على سياستها الخارجية ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ ، د ـ الحكومة العربية في سوريا ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ ، يعمل حاليا في قسم التاريخ في جامعة الكويت .

أفضل من غيره ، ولا دولة أرحم من دولة . المهم أن لا يبقى في أي بلد من أوروبا ، غربية أو شرقية ، يهودي غير ثري ، أو كما يقول فون بليهفيه (Von Plehve) ـ وزير الداخلية الروسي المسؤول عن تنفيذ « مذابح كيشينيف » ضد اليهود عام ١٩٠٢ ـ في محادثاته مع تيودور هرتزل : « ان نجاح اليهود في اقامة دولة مستقلة لهم ، تستوعب ملايين عدة منهم لهو أمر نقبل به وندعمه.. اننا لا نريد التخلص من جميع اليهود الروس ... اننا نريد فقط التخلص من المعدمين والمضطربين »(ص ١٧٧) .

وكما في روسيا كذلك في فرنسا وبريطانيا وألمانيا وسائر الدول الاوروبية . حالة الضعف ، التي كان يعيشها اليهود هنا وهناك ،هي سيف ذو حدين . أوروبا خائفة . واليهود أيضا خائفون.فلا عجب اذا ما أعلن الكاتب اليهودي سمولينسكين (Peretz Smolenskin) (١٨٤٢ ـ ١٨٨٥) استياءه بقوله : « ... ان الشعب اليهودي أحجية عمرها أربعة آلاف عام .. تسير بين باقي الشعوب التي تنظر اليها ... نظرتها الى حيوان كبير مخيف » (ص ١١٨) .

فالاسباب التي تجعل الشعوب ، كل الشعوب،تبغض اليهود ، كثيرة ، وهي ليست دينية فحسب ، بل اقتصادية وعنصرية .

من « الجيتو » (Ghetto) الى العالم الواسع ... كيف ستكون النقلة ؟

« كانوا أمة روحية (Am Haruach) والتوراة كانت أساس دولتهم » يقول سمولنسكين (ص ١١٨) . وبما ان العالم لا يثبت على حالة واحدة ، فاليهود أيضا لا يثبتون الا على « أرض الآباء والاجداد » ـ فلسطين . و « لا يوجد مكان في العالم يمكن أن نأمل بأن يصبح ملجأ لكل التائهين والمشتتين ، من أماكن سكنهم ، عدا أرض فلسطين...حيث انهم في كل الدول تقريبا سيحاولون تطبيق قوانين غير جيدة ... ولا نستطيع العيش معها » (سمولنسكين) (ص ١٢٣) .

الطريق الى فلسطين اشترتها البورجوازية اليهودية العليا ، من العثمانيين القيمين عليها ، بواسطة سفراء بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا في البلاد العثمانية. وحسبما قال موشيه ليلينبلوم(Moshe Lilienblum) (١٨٤٣ـ ١٩١٠) يحث اليهود على اللجوء من روسيا : « ان امم اوروبا اليوم أصبحت تجيد فنون التجارة كاليهود ، لذا فهم ليسوا بحاجة الينا .. فالى أين سنهرب..»(؟) (ص ١٣٦) .

الى فلسطين طبعا .

و« من أجل تأمين الحصول على فلسطين دعا ليلينبلوم زعماء اليهود في أوروبا الغربية (السياسيين والماليين) للتوسط لدى حكومتهم للضغط على الدولة العثمانية كي تسمح لهم بالهجرة الى فلسطين ، كما دعا ليلينبلوم هؤلاء الى جمع مبلغ عشرة ملايين روبل لشراء مساحات من الارض الفلسطينية في الدولة العثمانية لتأمين استيطان جماعات من اليهود عليها » (ص ١٢٧) .

بعد الحاخام يهودا القلعي (١٧٩٨ — ١٨٧٨) والحاخام تسفي كاليشر (Zvi H. Kalicsher) (١٧٩٥— ١٨٧٤) وموزس هس (Moses Hess) (١٨١٢ — ١٨٧٥) وليو بنسكر (Leo Pinsker) (١٨٢١ — ١٨٩١) وسمولينسكين وليلينبلوم واليعيزر بن يهودا (Eliezer Ben Yehuda) (١٨٥٨ — ١٩٢٢) جاء تيودور هرتزل ، اليهودي المجري ، ليكون « المؤسس الحقيقي للصهيونية السياسية الحديثة » (ص ١٤٣) بل موسى القرن العشرين .

ومع هرتزل وُلدت العاصفة الكبرى ـ اسرائيل .

فهو حركة دائمة ، لم يعرف الهدوء ولا الاستقرار . متطلب صبور . يعرف من أين يؤكل العالم . صحافي

وحقوقي . لا يحزنه الفشل . يوزع « اخلاص » اليهود يمينا وشمالا . وعد بسمارك بهذا « الاخلاص » التوراتي قائلا له : « أضع بين أيديكم مشروعي حول تأسيس دولة يهودية في فلسطين للتصرف والبت ، اذ انكم بقبضتكم الفولاذية وارادتكم الحديدية تمكنتم من توحيد ألمانيا المجزأة ، واذا ارتأيتم واقعية مشروعي فستكون هذه الدولة من أخلص حماة مصالحكم في المنطقة » (ص ١٥٩) .

حاول هرتزل كثيرا مقابلة السلطان عبد الحميد ، الا ان الوصول اليه كان مستحيلا .

ولما لم يتمكن هرتزل من كسب ثقة الباب العالي والقيصر الالماني ، « لجأ بعد ذلك الى التركيز على بريطانيا » (ص ١٧٤) و « بدأ يتضح له أكثر فأكثر انها (بريطانيا) هي الدولة الوحيدة التي كانت تمتلك الارادة والقدرة على تنفيذ مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين » (ص ١٧٤) .

كان هرتزل يتقن فن الكلام ، ولا سيما اذا ما تحدث عن دولة عظمى يطمع في مساعدتها . فعن بريطانيا يقول : « ان بريطانيا العظيمة المتحررة سوف تستوعب عمق اهدافنا وتدرك بُعْد مطامحنا من خلال نظرتها الشمولية للعالم ، واذا ما تسنى لنا الانطلاق من انجلترا فلا شك ان مسيرة الفكرة الصهيونية ستتزايد وتتصاعد أكثر من أي وقت مضى » (ص ١٧٤) .

ويقول أيضا :

« ان الانكليز نجحوا في السيطرة على أجزاء كثيرة من العالم لانهم كانوا أول من أدرك أهمية التوسع الاستعماري عبر البحار . ولذا فان انكلترا ستتفهم حقيقة الفكرة الصهيونية بمنتهى السهولة واليسر » (ص ١٧٥) .

وفي رسالة بعث بها الى بليهفيه (Plehve) أيضا قال : « ... بالرغم من المصاعب التي واجهتني في ادارة جلسات المؤتمر ذات الجو المشحون نتيجة الاحداث المؤلمة (مذابح كيشينيف) ، الا انني نجحت في المحافظة على النظام واعادة الهدوء الى الجلسات ... ولا شك ان الفضل في ذلك يعود الى رسالتكم التي تكرمتم بارسالها في ١٢ أغسطس والتي كشفت محتوياتها لاخمد بذلك كل جدال ثار حول تلك الاحداث » (ص ١٧٩) .

أما حزن هرتزل فهو عائد الى ان الدول الاوروبية الاخرى كانت « تفتقد القدرة على تنفيذ أي مشروع استيطاني في فلسطين ، وان اقصى ما كان بامكانها أن تقدمه هو الدعم المعنوي للمطامع الصهيونية » (ص ١٧٤) .

أين كان العرب آنذاك ؟

اذا كانت المساعي الرامية لتحقيق استيطان يهودي

في فلسطين ، في عهد هرتزل ، لم تكلل بالنجاح ، فان « نشاطه المتواصل في المجال الديبلوماسي انتزع للمنظمة الصهيونية « اعترافا ضمنيا » من كثير من ملوك العالم ورؤسائه بالاضافة الى انه خلق من « المسألة اليهودية » قضية عالمية أصبحت مثار اهتمام كثير من الحكومات والدول » (ص ١٨٠) .

في تلك الايام ، لم يكن للعرب حضور سياسي ولا فكري يسمح لهم بالتصدي لهذه المشاريع ، بل كانوا ممثلين بالولاة والامراء والمشايخ والبكوات ممن لا هم لهم سوى ارضاء السلطان وحاشيته من وزراء ومستشارين وذوي نفوذ في مركز السلطنة والدوائر والاقسام .

وفي الحقيقة ان البلاد العربية قد دخلت مرحلة الانقسامات السياسية والطائفية منذ بدأ الضعف أو الوهن يدب في عصب الامبراطورية العثمانية ذات التاريخ الطويل من الشهرة والمجد والانتصارات . فقد كانت فلسطين حتى الحرب العالمية الاولى ، تعتبر جزءا من سوريا الطبيعية ولم تعرف لها كيانا مستقلا مميزا ، ولم تتشكل في وحدة ادارية واحدة ، حيث تداخلت تقسيماتها الادارية في العهد العثماني مع تقسيمات بقية أجزاء سوريا . وعليه لم يكن حتى الحرب العالمية الاولى مجال للحديث عن وطنية

فلسطينية ، خصوصا ان فلسطين لم تعرف تعددا عرقيا أو انقساما طائفيا كما هو الحال في لبنان مثلا • الا ان الفلسطينيين بدأوا يتلمسون خصوصية وضعهم مع بداية الاطماع الصهيونية الهادفة لاقتلاعهم من أرضهم ونفي هويتهم الوطنية » [11] •

ولقد كان اليهود أقوياء ، فيما كان العرب لا حول لهم ولا قوة ، الامر الذي جعل والي ليبيا العثماني رجب باشا(١٩٠٤ــ١٩٠٩) « يبدي موافقته على السماح لليهود بالتغلغل الاقتصادي والاستيطاني في ليبيا، اذ ان الاوضاع الاقتصادية في ليبيا كانت سيئة ، ورأى في النشاط الاقتصادي اليهودي وسيلة لتحسين هذه الاوضاع » (ص ٢٢٧) •

ما الفرق بين السلطان عبد الحميد والوالي رجب ؟

المال وحده هو الذي يقرر ويحسم وينفّذ • ومن قلّ ماله قلّ رجاله •

ومهما يكن ، فان وجود العثمانيين في بلاد العرب هو احتلال وحسب • ولا يُعتبر دفاعهم عن فلسطين أو

---

(١١) ابراهيم ابراش ، مجلة « المستقبل العربي » العدد (٦٤) ٦ ــ ١٩٨٤ ص ٥٤ •

ليبيا أو سوريا أو العراق أو مدين أو أي مكان خاضع لنفوذهم ، دفاعا وطنيا قوميا ، انما هو نوع من الحماية التي يؤمّنها ، عادة ، المستعمر للوطن المحتل • فمتى وجد نفسه غير قادر على القيام بهذه المهمة ، أو غير مستفيد ، باع هذا الوطن وأهله للشيطان، من دون أن يراوده الشعور بالذنب أو التقصير أو الخيانة •

تركة الرجل المريض على المشرحة • والحركة القومية العربية الوليدة « منهمكة بهمومها الخاصة ، وبصراعها مع السلطات العثمانية للحصول على ما يمكن الحصول عليه من امتيازات » [12] •

و « يظهر لنا قصور الحركة القومية (العربية) عن استيعاب المسألة الفلسطينية ، آنذاك ، في المؤتمر العربي الاول المعقود في باريس عام ١٩١٣ ، حيث تجاهل المؤتمرون الخطر الصهيوني في فلسطين بالرغم من ورود عشرات الرسائل تنبه المؤتمرين الى هذا الخطر ، فمن بين ٣٧٨ برقية تأييد وصلت للمؤتمر كان ١٣٩ من فلسطين » [13] •

---

(١٢) المصدر نفسه •

(١٣) المصدر نفسه، نقلا عن خيرية قاسمية، « مواقف عربية من التفاهم على الصهيونية ، ١٩١٣ ــ ١٩١٤ » شؤون فلسطينية العدد ٣١ (آذار مارس ١٩٨٤) ص ١٣٥ •

هـذا مع الاخذ بعين الاعتبار التفاوت في السلطة والثراء بين المؤتمر اليهودي والمؤتمر العربي . فمكانة الاول عند الدول الغربية تفوق كثيرا مكانة الثاني . فضلا عن أهمية الاثرياء اليهود الذين يموّلون المشروع الصهيوني ويكافئون جميع العاملين في سبيل ابرامه وانجازه ، ولـن ينفع الكلام عن الاثرياء العرب الذين شغلتهم أمـوالهم وأهواؤهم عن قضاياهم وعن حقوق شعوبهم المغتصبة .

هذه الزاوية لم يلقِ عليها الدكتور أمين عبد اللـه محمود (المؤلف) ضوءا ولو شحيحا . ولا هو ذكر لنـا أي وجه من وجوه المقاومة العربية ، التي تصدت ، بمـا لديها من وسائل وامكانات متواضعة ، لمشاريع الاستيطان اليهودي ، كما فاته البحث في الشخصية العربية المستهدَفة من المؤتمرات اليهودية والتحالفات ، التي فرضتها المصالح الاقتصادية المشتركة والاحقاد الدينية والعقـد النفسيـة والمعاناة الناجمة عن الخصومة والمباعدة التاريخيتين .

نريد أن نعرف عدوّنا ؟

لا بأس !

الا ان الاهم من هذا وقبل كل شيء ، أن نعرف ذاتنا بعيوبها وحسناتها ، وما هي مشكلاتها وأسرارها ، ونستطلع آمالها وأمانيها وطموحاتها ، بدون غرور وأوهام واستكبار .

فالذي لا يعرف نفسه أنّى له أن يعرف عدوّه ؟!

لعـل هذا الفراغ الذي نلحظ هو العيب الوحيد في كتاب « مشاريع الاستيطان اليهودي » .

وليتذكّر الدكتور أمين عبدالله محمود ان أجمل ما ورد على قلم نـابليون ، في رسالتـه الى وزيره للشؤون الدينية ، بورتاليس ، التي يأمره بموجبها بالدعوة الى مؤتمر يهودي للبحث في الشكاوى المرفوعة اليـه من الفرنسيين بحق اليهود ، قوله : « ان في طرد اليهود من فرنسا علامة ضعف بينما القوة في القدرة على تأديبهم » [١٤] .

فهل نحن قُصّر ضعفاء أم أقوياء نأبى الذل والهزيمة؟

١٩٨٤/٨/٣

---

(١٤) انظر حاشية ص ١١٠٨ من الشخصية الاسرائيلية ، مجلد « عالم الفكر » المصدر المذكور سابقا .
وقد روي أنه بينما كان نابليون يمر بمدينة استراسبور عائدا من حربه في أوسترليتز ، يومي ٢٢ و٢٣ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٠٦ ، تقدم اليه وفد من المواطنين بالالزاس ، وكان على رأسهم محافظ الاقليم « كليرمان » وجميع وجهاء المحافظة ، يشكون له من اليهود ، وقد ورد في بيانهم : « انهم (اليهود) يغزون كل ميادين الوساطة التجارية والتجارة ، ويخربون بيوت الفلاحين بالربا ونزع الاملاك ، ويخشى عما قريب ان يكونوا وحدهم المالكين للالزاس » .

(٣)

البحر الأحمر والصراع العربي-الإسرائيلي

البحر الاحمر ، اليوم ، اسم كبير ، يكاد ينسينا بحر الهند ، الذي هو شعبة منه ، والابيض المتوسط ، والاطلسي ، والاسود ، وجميع البحار والمحيطات .

مجده أُعيد اليه ؟
أبوابه العتيقة تستقطب العواصف والرياح ، وتتمنى لو يحدث الطوفان ، ليعود كل الى سيرته الاولى .

أيها الملوك والرؤساء ،
لماذا الجشع ؟
لماذا الحسد ؟

اذا كنتم تريدون أن يقتل بعضكم بعضا ، فاذهبوا عني ، لا أحب الدم . خطأ دُعيت (البحر الاحمر) .

أنا بحر الخير ... والحب .

أنا بحر السلام ... والعطاء .
أنا بحر الوفاق والوئام .
حضارتكم موت وتقتيل وتدمير .

وحضارتي ، أنا ، انفتاح ، من أجل صداقات نبيلة ، وكرم وسخاء ...

أنا لكم جميعا ، فردا فردا .
لا تقفوا في طريقي ...
لا تقيموا الحواجز والسدود .
لا تزرعوا ، في أعماقي ، الالغام .

حملتُكم منذ كنتم ، وأحملكم اليوم وغدا والى الابد .

الملك الاحمر [1] فارسي ضلول ، لا أطيق ذكر اسمه .
أنا لكل موضع أمرّ به .
المهم أن تتفقوا وتتفاهموا .

أنا يمني وحبشي وسعودي واريتري وصومالي وسوداني ومصري وفلسطيني وأردني . أنا الكل مثلما الواحد .

---

(١) يقول بعض المؤرخين بأن البحر الاحمر هو صيغة مختصرة عن اسمه القديم « بحر الملك الاحمر » .

عرفني الاغريق والرومان والبيزنطيون والفرس والصليبيون والمغول والعثمانيون والبرتغاليون .

وعرفني ايضا البريطانيون والفرنسيون والايطاليون.
ويعرفني ، الآن ، الروس والاميركيون والاسرائيليون .

الاولون ذهبوا كما جاؤوا .
لا تسألوا ماذا تركوا وراءهم .

لما رأوا لون وجهي بنّياً مائلا للحمرة ، خافوا أو تحيروا . تراجعوا الكلام وتجاوبوا . قال بعضهم : انها الطحالب التي تغطي مساحات كبيرة من مياه البحر . فريق آخر قال : ان التلال التي تشرف على البحر ، والرمال المرجانية والحشائش على جوانبه ، مع ما تحمله الرياح الحارة من غيوم صحراوية ، وكلها ذات لون ضارب الى الحمرة ، هي التي ألقت عليه هذا الوشاح الخمري الجميل (٢) .

---

(٢) عن النص الانكليزي :

« Authorities give various reasons for the origin of the name « Red » . The water itself is often Colored red by a type of (Algae) . Also , the surroundings hills and the Coral reefs and seaweed are a reddish Color . The hot winds often blow clowds of desert sand that settle on the surface in great reddish streaks .

انظر :
(World book , V. 1 6 P - 179)

على صدري جئنا الغرب والشرق ، ولم أغدر بأي منهما .

الغرب أكل الشرق ... فيما الثاني بقي في صراع مع نفسه .

حاولوا أن يفصّلوني بحارا وأبوابا ومضايق ، ولكن عبثا .

من باب المندب الى خليج العقبة ، الى القلزم ، والقضية واحدة : المرور للجميع ... والخطوط المائية للذين يطلبون السلام والعلم والمعرفة .

قال أبو عبدالله ياقوت الحموي :

«بحر القُلزم : وهو أيضا شعبة من بحر الهند أوّله من بلاد البربر والسودان ... وعدن ثم يمتد مغربا ، وفي أقصاه مدينة القلزم قرب مصر ، وبذلك سمّي بحر القُلزم، ويسمّى في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضع ، فعلى ساحله الجنوبي بلاد البربر والحبش ، وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب » .

أضاف :

« فالداخل اليه يكون على يساره أواخر بلاد البربر ثم الزيلع ثم الحبشة ، ومنتهاه من هذه الجهة بلاد البجاء

الذين قدّمنا ذكرهم ، وعلى يمينه عدن ثم المندب ، وهو مضيق في جبـل كـان في أرض اليمن يحول بـين البحر وامتداده في أرض اليمن ، فيقال : ان بعض الملوك القدماء قدّ ذلك الجبل بالمعاول ليدخل منه خليجا صغيرا يهلك به بعض أعدائــه ، فقدّ من ذلك الجبل نحو رمية سهم أو سهمين أو ثلاثة ثم أطلق البحر في أراضي اليمن فطفا ولم يمكن تداركه فأهلك أمما كثيرة واستولى على بلــدان لا تحصى وصار بحرا عظيما » .

وتابع (ياقوت) يقول :

« فهو يمر بساحله الشرقي على بلاد اليمن وجُـدّة والجار وينبُع ومدْين ، مدينة شعيب النبي ، عليه السلام، وايلة الى القلزم في منتهاه ، وهو الموضع الذي غرق فيـه قوم فرعون وفرعون أيضا ، وبين هذا الموضع وفسطاط مصر سبعة أيام ، ثم يدور تلقاء الجنوب الى القصير ،وهو مرسى للمراكب مقابل قوص ، بينهما خمسة أيام ، ثم يدور في شبه الدائرة والى عيذاب وأرض البجاء ثم يتصل ببلاد الحبش ، فاذا تخيّل الخليج الضارب الى البصرة والخليج الداخل الى القلزم كانت جزيرة العرب بين الخليجين يحيطان بثلاثة أرباع بلاد العرب » (٣) .

(٣) معجم البلدان ، المجلد الاول ص ٣٤٤ .

هـذا البحر كيف لا يشهد الصراعـات الاقليميـة والدولية ، وهو الذي قرّب البعيد البعيد ، ورفع أقواما كانوا أذلاء أو قديديين (٤) ، وأحيا أرضا ميتة أو محروقة، وأنقذ شعوبا مجهولة أو مغمورة ، وأغنى أمما ضعيفة الهمة أو بليدة ، وعمّر بلدانا كانت مقابر أو خرابا !

ولا عجب أيضا اذا ما تآمر عليه المتآمرون ، ونكَره الطمّاعون ، وخانه الحاقدون ، وتطاول عليه الـذين فـي نفوسهم مرض ، أولئك يكرهون أن يروا أحدا من الناس نعيم البال وقد طاب عيشه واتسع .

بل ومن الطبيعي جدا أن يُكتب في البحر الاحمر المجلّدات ، وينظم له القصائد والملاحم، ويبرز على شواطئه أروع القصص والاساطير ، مما يزيـده تألقا وجمـالا ، ويبسّطه ، ويعظّمه ، كأن يحلل أسراره ، ويعرف مقداره، ويغوص على معانيه .

واذ يطلـع علينا كتـاب « البحر الاحمر والصراع

(٤) القديديون : تباع العسكر من الصُنّاع كالحلاقين ونحوه، كأنهم لخستهم يكتسون القَديد . وقيل هو التقدد والتمزق لانهم يتفرقون في البلاد للحاجة وتتمزق ثيابهم .

العربي ـ الاسرائيلي » (التنافس بين استراتيجيتين) (٥) للدكتور عبدالله عبد المحسن السلطان (٦) ، فلكي يبرهن على ان هذا البحر سيبقى الملهم ،الذي يوحي ، الى الكتّاب والمفكرين والشعراء والادباء والفنانين ، بما فيه للروح غذاء ، وللنفس فرح ، وللعقل ما يزيده علما ومعرفة ، فما بالك اذا كان الكاتب أو الاديب أو الشاعر ممن يشكل البحر الاحمر « ضرورة استراتيجية »لأمتهم، اضافة الى أهميته العامة من الناحيتين الجيوبولوتيكية والاستراتيجية!

إنّ في هذا الكتاب ثقافة (Culture) وتمحيصا (Refinement) وسمو أدب ، والتزاما للقضية العربية ما يجعله كتابا تعليميا (Instructive) مفيدا ومهذّبا .

---

(٥) في الاصل أطروحة دكتوراه مقدمة الى هيئة التدريس والادارة في جامعة ولاية شمال كارولينا في الولايات المتحدة الاميركية للحصول على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية (علاقات دولية) (شابل هيل ، ٣١ كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٨٠ ، ٣٠٥ صفحات من القياس الكبير ، مع ملاحق وثبت للمصادر والمراجع وفهرس عام، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت .

(٦) ولد في المملكة العربية السعودية ، حصل على درجة البكالوريوس (١٩٧٠) ودرجة الماجستير (١٩٧٣) من جامعة ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الاميركية . عمل ودرّس في كلية الملك فهد الامنية بالرياض خلال الفترة (١٩٧١ ـ ١٩٨٤) ، كتب وحاضر في موضوعات الامن الوطني (القومي) والعمالة الاجنبية . يعمل حاليا في وزارة الداخلية .

يعرض المشكلات التي عرفها البحر الاحمر ، القديمة والحديثة ، بطريقة موثوق بها (Dependable) ، ويرسم لها الحلول الموضوعية (Objective) التي تتعهد الامن والاستقرار لشعوب البحر الاحمر ، وتجنّب المنطقة الصراعات الحادة ذات التأثير السيىء لا على الصعيد الاقليمي فحسب ، بل على الصعيد الدولي أيضا ، هذه الصراعات يخشى ، ان هي اشتدت وتفاقمت ، أن تفرض حربا عالمية لن يدّعي أحد ، بعدها ، الربح أو الانتصار .

يتألف كتاب « البحر الاحمر والصراع العربي ـ الاسرائيلي » من ستة فصول : الاول (من ص ٢ الى ص ٥٧) يعرّف بالبحر الاحمر جغرافياً وبوليتيكياً ، ثم يعرض تاريخ الصراع ، ويساعد على « تقدير وفهم دفع الصراعات الموجودة في المنطقة وفهم دوافعها » . الثاني (من ص ٥٩ الى ص ٩٨) يدرس خلفية العلاقات العامة العربية ـ الاسرائيلية ، ويناقش أسس الصراع العربي ـ الاسرائيلي من النواحي التاريخية ـ الدينية ، والعرقية (القومية) والقانونية ، كما يبحث هذا الفصل في أبعاد الصراع من حيث قضاياه وأطرافه ، وغايته التأكيد على قضية البحر الاحمر .

وفي الفصل الثالث (من ص ١٠١ الى ص ١٧١) يحلل

العلاقات العامة للدولتين العظميين (الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي) في منطقة الشرق الاوسط البحر الاحمر ، وتأثير تفاعلهما الاقليمي والعالمي على المنطقة • أما الفصل الرابع (من ص ١٧٥ الى ص ٢٥٧) فهو مخصص للبحث في الاستراتيجيات والسياسات العربية والاسرائيلية المتنافسة في البحر الاحمر ،بما في ذلك القرن الافريقي (The torn of Africa) ، وينظر في مشاكل انجاز الاستراتيجيات العربية والاسرائيلية وكذلك شروط المواجهة المسلّحة المحتملة بين العرب والاسرائيليين في البحر الاحمر وأوضاعها • وأُعِدّ الفصل الخامس (من ص ٢٦٣ الى ص ٢٨٤) للتحليل الكمي لصراع العلاقات العربية ــ الاسرائيلية عموما وربطه بالبحر الاحمر • بينما جُعل الفصل السادس والاخير (من ص ٢٨٥ الى ص ٣٠٧) ملخصا وردود فعل ختامية •

من الضرورة أن نذكّر بالملحق (أ) (من ص ٣٠٩ الى ص ٣١٣) حيث نجد فيه نص الاتفاق بين المملكة العربية السعودية وحكومة جمهورية السودان الديمقراطية في شأن الاستغلال المشترك للثروة الطبيعية الموجودة في قاع وتحت قاع البحر الاحمر في المنطقة المشتركة بينهما ،المبرم في الخرطوم في ١٦ ايار (مايو) ١٩٧٤ •

لقد نفذ المؤلف الدكتور عبد الله عبد المحسن السلطان الى أعماق البحر الاحمر ، كما الى حقيقة الصراع عليه ، فاذا البحث ، الذي نحن في صدد الحديث عنه ، حجة (Argument) وأيّما حجة ، ستبقى ، لا شك ، واحدة من دعائم السيادة العربية (Pillars of Arab Authority) على البحر الاحمر ، التي تبرزها وتؤكدها ملامح البحر الجغرافية وخصائصه •

يقول الدكتور عبدالله السلطان :

« ••• وقد عرّف الجغرافيون القدامى من اغريق ورومان البحر الاحمر باسمين عربيين هما بحر الحجاز ، والخليج العربي • والظاهر ان الاشارة الى هذين الاسمين جاءت من واقع النشاطات البحرية العربية التي كانت لها الغلبة وقتئذ على مياه البحر الاحمر وعلى طول شاطئيه » (ص ٢٥) •

فلكي ندرك أهمية البحر الاحمر الاستراتيجية لا بد أن نعرف موقعه ومتضمناته الجيوبوليتيكية ، ومتى تمّ لنا ذلك استطعنا تحديد هيئته وحاله وكيفيته •

يقول المؤلف :

« يتميز البحر الاحمر بموقع جيوبوليتيكي فريد

يضفي نوعا من التعقيد على العلاقات الاقليمية والدولية . فهو يقع عند نقطة التقاء قارات ثلاث : افريقيا من الغرب، وآسيا من الشرق ، وأوروبا من الشمال . واذ يحتل البحر الاحمر موقعه بين بحار الشرق والغرب ، فهو يمكن تشبيهه بأنه بمثابة جسر طوّاف يصل الشرق بالغرب ، وهو أيضا يربط البحر العربي والمحيط الهندي بالبحر الابيض المتوسط بواسطة مضيق باب المندب في الجنوب وقناة السويس في الشمال . بهذا يصبح البحر الاحمر همزة وصل استراتيجية لكثير من الطرق المائية . كذلك فالبحر الاحمر جزء من منطقة الشرق الاوسط غير المستقرة التي كانت مهد الرسالات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والاسلامية»

أضاف :

« وهو أيضا يقع في نطاق جوار آسيا الجنوبية والمحيط الهندي والقرن الافريقي والبحر الابيض المتوسط وأهم من ذلك كله انه يقع ما بين أكبر حقول النفط في الخليج العربي وأكبر مستهلكي النفط في غرب أوروبا » (ص ٣٣) .

وليس مستغربا ان «أنتجت حقول النفط في الخليج (في عام ١٩٧٦) ٢١،٤٨٩ مليون برميل (أي ٣٨ بالمئة) من نفط العالم . وفي السنة ذاتها استهلكت ، الاقطار

الصناعية الغربية ٣٣،١١٠ مليون برميل ، (أي ٥٦،٣ بالمئة) من استهلاك النفط العالمي . ومنذ عام ١٩٧٦ بدأت الاقطار الصناعية الغربية تستورد حوالى ٥٦،٩ بالمئة من حاجتها لنفط الخليج الذي يحوي ٨٥،٥ في المئة من احتياطات النفط العالمية المعروفة » (ص ٣٣/٣٤) .

على ان البحر الاحمر هو « واحد من أهم الطرق البحرية العالمية (منذ عام ١٨٦٩ ، تاريخ انشاء قناة السويس) على أساس انه يوفر لقوى اقليمية ودولية امكانات الوصول الى البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي ، والمحيط الهندي »(ص ٣٤) .

ولدى مطالعة جدول (رقم ١ — ٢) المنشور في الصفحة (٣٦)، الذي يبيّن توزيع سواحل البحر الاحمر[٧] يثبت ان البحر الاحمر « يتّسم دائما بأهمية حاسمة عند العرب » (ص ٣٩) .

ولكن ...

وعلى قول الدكتور عبدالله السلطان « كانت أقدم

(٧) في الجدول : اثيوبيا (اريتريا) ٤٢٥ ميل ، الاردن ٥ ، اسرائيل ٧ ، جيبوتي (على البحر الاحمر) ٢٥ ، السعودية ١١٢٥ ، السودان ٣٠٩ ، مصر ٨٩٨ ، اليمن الشمالي ٢٧٥ .

مملكة عربية هي مملكة معين التي ازدهرت في الجـوف باليمن (الشمالي) وشملت كثيرا ممن يعرف اليوم بجنوب بلاد العرب (١٣٠٠ ــ ٦٣٠ ق٠ م٠) ، وامتد نفوذهـا ليصل الى جنوب سوريا والى الساحل الشرقي للبحـر الاحمر حيث وضع المعينيون حاميات عسكرية لحراسـة المحطات التي تجتازها طرق التجارة في مناطق مثل مدين ومعان ٠ ثم أطيح بسملكة المعينيين على يد أهل سبأ الذين قدّر لمملكتهم ــ مملكة سبأ (٩٥٠ ــ ١١٥ ق٠ م٠) في الركن الجنوبي الغربي في شبه الجزيرة العربية ، أن تمتـد حتى السواحل الغربية والجنوبية لبلاد العرب ، بل وتنشىء تجارة مزدهرة مع الهند » (ص ٤٠) ٠

لكن الاحداث لا تجري دائما كما يرغب اصحـاب الحق ٠ وما حدث للبحر الاحمر كان فظيعا وكبيرا ٠ فمن انقلابات طبيعية الى تغيير في السياسات والمواقف ، وكلها ترمي الى رفع اليد العربية عن البحر الاحمر ، والتحريض على النزاع العسكري الهادف الى تحويل الثروات العربية عن طريقها الصحيح والمفيد ، والى صرف العرب عن قضاياهم الاساسية ولا سيما منها الاجتماعية والانسانية ٠

مع العلم ان التنمية والتكامل العربي « أمور أساسية لأي أمن عربي دائم في البحر الاحمر وفي المنطقة العربيـة

بأسرها ٠ ومن الجلي ان أمن كل بلد عربي جزء من الامن العربي الشامل ٠ كما ان الامن العربي الشامل بدوره يرتبط بشكل مباشر بأمن كل من الاقطار العربية » (ص ٣٠٠)٠

يطرح المـؤلف ، الـدكتور السلطان ، على نفسه ، السؤال : أيهما يأتي أولا ــ التنمية أو التكامل ــ؟ليجيب قائلا :

« ليس بالقضية المهمة هنا اذ انه في الامكان تحقيقهما معا ٠ بيد ان الأهم هو الاجماع العربي حول كيفية المضي نحو تحقيق كل منهما ومن ثم انجاز الاستراتيجيات المتعلقة بهما بصورة فعّالة » (ص ٣٠٠) ٠

كيف ينمّي العرب أنفسهم ما داموا غير موحّدين؟
لا أمن بدون قوة ٠ ولا قوة بدون وحدة او اتحاد٠

وعلى كل ، فان القضية الخطيرة الراهنة لا تحتمل مثل هذه المماحكة العقيمة ٠

الواقع مؤلم جدا وآخذ في الانهيار أو الكارثة ٠

نعود الى التنظير ؟

ان خـير القول ، في هذا المجال ، ما جاء على لسان السيد روبرت ماكنمارا :

« ان التنمية تعني التقـدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وهي تعني مستوى معقولا للمعيشة ، والمعقول في هذا السياق يتطلب اعادة نظر مستمرة بالتعريفات ، فما كان معقولا في مرحلة متقدمة من التنمية يصبح غير معقول في مرحلة لاحقة » .

ويقول :

« واذ يطّرد تقدم التنمية ، يتقدم الامن ، وعندمـا ينظّم مواطنو امة مواردهم البشرية والطبيعية لكي يوفروا لأنفسهم ما يتطلعون اليه في هذه الحيـاة ، وكي يتعلموا كيف يلائمون سلمياً بين المطالب المتصارعة في اطار المصلحة القومية الاكبر ، في هذه الحالة تزداد بصورة هائلة قدرة المواطنين على مقاومة الفوضى والعنف . وعلى خلاف ذلك فان الحاجة المأساوية لليائسين تجعلهم يلجأون الى العنف لتحقيق حاجاتهم الداخلية » (ص ٣١٠) [٨]

حينما يعرف العرب كيف ينمّون أنفسهم يتراجـع الخطر الذي يهدد البحر الاحمر والنفط العربيين .

---

(٨) عن :
Robert S. McNamara , The Essence of Security(New-york : Harper and Row , 1968) p.p. 150-151 .

ولكن ما دام العرب غير متفقين على استراتيجيةواحدة سيبقى البحر الاحمر « شريان الحياة البحريـة الرئيسي لاسرائيل » (ص ٢٣١) وستظل كلمة موشي دايان (عام ١٩٧١) (وزير الدفاع الاسرائيلي وقتئذ) « ان أي مكان ننشيء فيه مستوطنة نسكنها سيعني اننا لن نتخلى لا عن المستوطنة ولا عن المكان الذي أقمناها عليه » (ص ٢٤٣) بمثابة المطرقة التي ستحطم الرأس العربي والكرامةالعربية.

هل سمع العرب ؟

يقول الدكتور عبدالله عبد المحسن السلطان :

« بدأت الاستراتيجية الاسرائيلية حيال البحر الاحمر عام ١٩٤٩ بعد تأسيس الوجود الاسرائيلي في خليج العقبة وبهـدف الاتصال مـع العـالم الخارجي عن طريق البحر الاحمر » (ص ١٨١) .

أضاف :

«ولتحقيق ذلك الهدف،بدأت اسرائيل بتأسيس وجود لها على البحر الاحمر بغية استخدامه لتحقيق مصالحهـا العسكرية والاقتصادية والسياسية . وكانت الخطوةالاولى هي السيطرة على البحر الاحمر ذاته ، فبـدأت باحتـلال الاراضي العربية في الجزء الشمالي ، واحتلال الجزرالواقعة في الجزء الجنوبي من المنطقة » (ص ١٨١) .

ان الــذي يؤسف له ، فعــلا ، ويبعث على القلق والخوف،هو التفاوت الكبير بين القوات البحريةالاسرائيلية والقوات البحرية العربية في البحر الاحمر • وكما يقــول الدكتور السلطان :

«ومن العوامل الأهم التي لا بد من ايلائها الاعتبار في ما يتعلق بمستقبل التفاعل الصراعي بين العرب واسرائيل في البحر الاحمر ، عامل القدرات العسكرية التي يمتلكها الطرفان ، بالاضافة الى الاختلاف في الحجم (مــن حيث المساحة والسكان) ، فان العرب والاسرائيليين يمتلكون قدرات عسكرية مختلفة » (ص ٢٥٣) •

ويقول أيضا :

« وعلى رغم انه ليس في وسع المرء التأكد من القوة والاستعداد العسكري لكلا الطرفين بدِقّة ، الا انــه من المفروض هنا ان ميزان القوة يعمل لصالح اسرائيل على نحو ما كان عليه الحال دائما • واضافة الى المصادر الاسرائيلية الاخرى للسلاح ، فان واشنطن تعطي اسرائيــل الــدعم العسكري والاقتصادي ما لا تعطيه أي بلد آخر في العالم ــ بقيمة ملياري دولار سنويا تقريبا » (ص ٢٥٣) [٩] •

---

(٩) طبعا هذا الكلام يعود تاريخه الى عام ١٩٧٧ .

فاذا كانت اسرائيل تملك حاليا «قوةبحريةاستراتيجية في البحر الاحمر تتكون ، أساسا من زوارق حراسةمزودة بمدافع من طراز دابور وسفن ديشيف مزودة بصواريــخ غابريل أرض ــ أرض » تغطيها و « تساندها طائراتفانتوم وكفير التي تشكل الغطاء الجوي للسفن الاسرائيلية خلال مرورها في باب المندب » (ص ٢٥٤) فان القوات البحرية العربية ، هناك ، حاليا « تكاد لا تضاهي البحريةالاسرائيلية الاكثر تطورا » (ص ٢٥٤) •

والحقيقة هيان الصراعات العربية الاسرائيلية سوف تجعل البحر الاحمر بحرا للهموم والنكبات والرذائل ••• وبحرا للدموع والاحزان أيضا •

هل يفهم العرب والاسرائيليون ؟

هل يعي الارتريون والاثيوبيون والصوماليونكيف سيحافظون على مواقعهم ، وبحرهم ، ووجودهم ؟

يقــول جودا ماغنس (Judah Magnes) الرئيس السابق للجامعة العبرية في القدس :

« اذا كان لنا قضية عادلة ، فلهم (يعني عربفلسطين) أيضا قضيتهم العادلة ، واذا كان هناك من وعود قطعتلنا ،

فثمة وعود قطعت للعرب كذلك • واذا كنا نحب الارض وتربطنا بها وشائج تاريخية فهذه حال العرب أيضا » (ص ٦٨) [١٠] •

اذن ، إما السلام وإما الحرب •

صحيح ان كلا الفريقين غير راغب في السلام ، الا ان أحدا منهما لا يحب الحرب ولا هو قادر عليها •

من المؤكد ان الحروب الاقليمية هي ، في كثير من الاحيان ، سبب حروب دولية • وربما من موقع على البحر الاحمر انطلقت ،غدا ، الرصاصة الاولى التي ستعلن سقوط العالم وحضاراته •

المطلوب من العرب أن يقرأوا « البحر الاحمر والصراع العربي — الاسرائيلي » فلعلّهم واجدون فيه ما ينقذهم من ذلك الشر الرهيب ، الذي يدبّر ضد بحرهم ونفطهم وكرامتهم ، في وضح الشمس •

١٩٨٤/١١/٥

---

(١٠) كما ورد في :

George M. Haddad , « Arab Peace Efforts and the solution of the arab-Israeli Problem » in : Malcoln H. Kerr , The Elusive Peace in the Middle East (Albang , N. Y. : State University of New York press , 1975) P.239

(٤)
دولة المرابطين والبكاء على الأندلس

بين المغرب والاندلس مسافة بعيدة مديدة ، الا انها تكتظ بالأحداث السياسية والعسكرية والدينية ، العنيفة في مجملها ، ولا يزال الكتّاب ، المسلمون عموما والعرب خصوصا ، يفجّرونها أبحاثا وقصائد وروايات ، إما كمن يبكي على الاطلال ، وإما كالذي في نفسه شوق الى الماضي السعيد • ولكن أحدا منهم لم يلحظ الفرق بين الذي يقتات على السوف وبين القائل بحقيقة المجرّدات في ذاتها •

أترانا ، في الشرق ، نسينا معانياتنا مع الاستعمار وأمراء الطوائف وملوك الدويلات (•••) وما تركوه ، لنا ، من أخربة وانقسامات في الانفس والمشاعر والعقول ، ام ان العنقاء قد طارت بأدمغتنا فصرنا نطيّن عين الشمس ، ونعتدّ بما نحن فاعلون ؟!

ان الارض مثلها مثل الحق ... لا يصونها الا القوي والشريف والمخلص والامين . وهي لمن عليها فحسب . وكما هنا كما هناك وفي كل مكان . على أن الاندلس ،التي أخذها العرب (الامويون) ثم المغاربة (المرابطون) بالسيف، عادت الى أصحابها الاولين (الاسبانيين) بالسيف أيضا . وإنْ ندعو الى «استردادها» فانما ندعو الى « فتح جديد » ـ استعمار جديد ـ وهذا أمر غير معقول ، بل مرفوض مكروه ، لاسباب عديدة ، أهمها ان العصر الحالي ليس « كولونياليا » ، كما قلنا سابقا ، .. ولا العرب في موضع يسمح لهم بذلك ، وحبذا لو يلتفتون الى ما هي أهم من الاندلس .. الى فلسطين ، مثلا ، وقد باتت أم « القضايا » العربية . ويا ليتنا نسأل أنفسنا عما قاله علي بن أبي طالب : « أحببْ لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها » !!

كثيرون أولئك الذين يحرّضون على « الرجوع » الى الاندلس . وكثيرون أيضا الذين يهيّجون للبكاء على تلك الديار ، التي ليس لنا فيها سوى ما رسمته السيوف والعرّادات وحوافر الخيل . وأما الآثار الاخرى ، ذات الطابع الاسلامي ، كالمساجد والزوايا والرباطات والمعاهد والمدارس والقصور وبيوت اللهو ، فهذه ملك التاريخ ، وربما أحسن الاسبانيون استعمالها أكثر من العرب أنفسهم .

أليس الوجه الحي أفضل من الوجه الميت ؟

منذ حوالى خمس سنوات ، استوقفني كتاب «محنة العرب في الاندلس » للدكتور أسعد حومَد ، الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر (١٩٨٠) ، فصدقْتُه ، آنذاك ، النصيحة أو المحبة ، اذ قلت له :

« الشعوب التي لا تنشد السيادة والحرية والاستقلال هي الشعوب المتخلفة والمتفككة والضعيفة . هكذا كان الاندلسيون قبل الفتح الاسلامي . فلو لم يكن الاسبان ، في الجزيرة الايبيرية ، آنذاك ، على درجة فائقة من البؤس والشقاء والانحلال في الاقتصاد والسياسة الوطنية ، لما استطاع العرب اخضاعهم لسلطانهم ونفوذهم . ولا يستمر هذا الى الابد ، كما تظن ، مهما طال عليه الزمان . فكما ان للفقر والبؤس والتشرذم والفساد والقهر أسبابا وظروفا ، كذلك للوعي والنهضة أسباب وظروف أيضا » [1] .

وقلت :

« اذا جاز ، لنا ، أن نبكي على الماضي البعيد ونكتب (محنة العرب في الاندلس) ، كأننا نطالب بالعودة الى هناك ، الى فتح اسلامي جديد ، فان للانكليز حقا أيضا

(١) انظر ، كتابنا « محنة العقل في الاسلام » المذكور سابقا ، الفصل الرابع : الى الاندلس .. فتح جديد ؟ ص ٣٥٤

أن يكتبوا « محنة الانكليز » في الهند ، أو الباكستان ،أو العراق ، أو مصر ، أو غيرها . ويكتب الطليان « محنة الطليان » في ليبيا ، والفرنسيون « محنة الفرنسيين » في الجزائر ، والفرس « محنة البرامكة » في بغداد،والصليبيون «محنة الصليبيين » في القدس والشام وطرابلس ، فضلا عن الاميركان والسوفيات والالمان والبلجيكيين والبرتغاليين، اذ ذاك نكون أطلقنا رصاصة على عجلة الزمن وعطّلنا مجيء المستقبل الذي يُراني الكواكب في اجتلاب النظر اليه » (٢) .

واليوم ، يستوقفني كتاب « دولة المرابطين » (في المغرب والاندلس) (عهد يوسف بن تاشفين) (٣) ، للدكتور سعدون عباس نصرالله ، فما أقربه من الاول ،وان بدا لا يحمل منه شيئا ، ولا يشير اليه ، في شكل أو آخر ـ لعلّه لم يطّلع عليه ـ وانما هو النحو الواحد (..) والاسلوب الواحد ، وليس الدكتور نصرالله إلا سَويلَ الدكتور حوْمد في هذا الامر . كلاهما يبكي العرب والمسلمين .. والاندلس .. مثلما بكاهم ، من قبل ، ابن أبي زرع ، صاحب « روض القرطاس » ، والبكري ، في كتابه

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٤ .
(٣) ١٧٩ صفحة من القياس الكبير ، دار النهضة العربية بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .

« المغرب » ، وابن خلّكان في « وفيات الأعيان » ،وابن خلدون في« العبر» ،والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة،في « المرابطون تاريخهم السياسي » ، ومحمد عبد الله عنان، مؤلف « دولة الاسلام في الاندلس » وغيرهم وغيرهم . ولن يكون الدكتور نصر الله آخر الباكين بكل تأكيد .

يقول المؤلف في المقدمة :

« الاندلس الفردوس الذي دخلناه بالايمان وخرجنا منه بعد أن تناولنا أكثر من تفاحة له قدسية في النفوس قلما يرقى اليها قطر من الاقطار التي دخلها العرب المسلمون فاتحين . فالعربي الذي انطلق من قلب الصحراء قاده ايمانه بعظمة الشهادة الى قلب أوروبا . وبعد حين من الدهر انقلب المدّ العربي جزْرا كاد يلقي بالمسلمين على شطآن الاندلس غرباء . لكن تيارا قيّض الله رياحه من الصحراء أنقذهم وأعاد اليهم عزتهم أكثر من أربعة قرون مفجرا الطاقات الجديدة وانطلقت مع أول صيحة استغاثة انبعثت ، ذلك هو الأمير التقي وليد الصحراء وزعيم العالم الاسلامي ـ في وقت عزّ فيه الزعيم والقائد ـ يوسف بن تاشفين بطل الفتح الثاني وصانع معركة الزلاّقة » (ص ٥) ، في ٢٣ تشرين الاول ١٠٨٦ م، حيث هزم ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة .

واذ يصل ، بنا ، الدكتور نصر الله ، الى الفصل الخامس : « ضم الاندلس الى الدولة المرابطية » يقول :

« في عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م. عبر الامير يوسف البحر الى الاندلس ـ للمرة الثالثة ـ برسم الجهاد ، وعبوره هذه المرة دون طلب استغاثة أو نجدة ، كما حدث في الجوازين السابقين ، وسار توا الى طليطلة مجتاحا أراضي قشتالة ، وكان يرغب في استرجاع المدينة ليشفي جرح الاندلس الدامي فيزداد تعلق الاندلسيين به . وعاث المرابطون في أحواز طليطلة وخربوا ودمروا واحرقوا ثم ضربوا الحصار حول المدينة الضائعة وفيها ألفونس، ولكن الامير يوسف تراجع أمام أسوارها المنيعة وارتدّ نحو الجنوب ، كل ذلك لم يتقدم أحد من الاندلسيين لمساعدته ضد عدوهم اللدود » (ص ١١٧) .

على أن المؤلف ، وهو شيعي بعلبكي ، معجب بالأمير يوسف بن تاشفين أيما اعجاب ، برغم حقد هذا « الفاتح» على الشيعة البجليين (ص ٣٩) [٤] .. وعلى الفاطميين ،

---

(٤) يقول المؤلف : « ان نجم يوسف قد تألق في معركة الواحات ٤٤٨ هـ ١٠٥٦ م التي خاضها قائدا لمقدمة جيش المرابطين المهاجم ، وبعد فتح مدينة سلجاسة عينه الامير ابو بكر واليا عليها فاظهر مهارة ادارية في تنظيمها . ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار الى تارودنت قاعدة بلاد السويس وفتحها ، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين ـ نسبة الى مؤسسها علي بن عبدالله البجلي ـ وقتل المرابطون أولئك الشيعة وتحول من بقي منهم على قيد الحياة الى السنة » (ص ٣٨ ـ ٣٩) .

اذ كان الامير والمرابطون يميلون « الى الاتجاه نحو الخلافة العباسية السنّية ... وينظرون اليها نظرة أسمى من الخلافة الفاطمية لانها أقرب الى مذهبهم (السنّي المالكي) وبالتالي لبعدها عنهم » (ص ١٥٦) . فلا عجب، إذن ، إن ظهرت ،في أيامنا هذه ، تحالفات عربية واسلامية متجاوزة الجغرافيا العربية والأقاليم :مثل التحالف السوري ـ الليبي ـ الايراني ، والتحالف العراقي ـ الاردني ـ المصري ، الذي تغذيه المملكة العربية السعودية وسائر دول الخليج العربي .

ولقد ترجم الدكتور نصرالله اعجابه بأمير المرابطين، في كلمات مفعمة بالعاطفة « الاسلامية اللامذهبية » حيث قال :

« ان ابن الصحراء الجافة استطاع بفضل ايمانه واستلهام مبادىء الاسلام أن يتفوق على تنظيمات وخطط وجيوش أوروبا النصرانية ، وصنع يوسف «نصر الزلاّقة» بحنكته وخبرته ورباطة جأشه فكانت « يرموكاً » جديدة زعزعت جيوش الفرنجة ، وغدا اسمها مقترنا باسم صانعها وكأن الزلاّقة هي يوسف بن تاشفين لا تتعداه الى آلاف الجنود المجاهدين تحت رايته » (ص ١٥١) .

أضاف :

« وأثبت مرة أخرى أن الصحراء لا تصدّر الأجلاف من البدو بل تنبت على حبات رمالها اللاهبة ومضات من الافكار والنظم تنهل من منابع الفقه الاسلامي الذي نفح فيه يوسف روح الحياة وأخرجه الى حقول التطبيق العملي بعد أن غاب عن مسرح الحكم إثر انتهاء خلافة الراشدين» (ص ١٥١).

ولكن يوسف ـ الفاتح هو كغيره ممن امتد نفوذهم الى خارج بلادهم .. فكم من الابرياء ، مسلمين ونصارى ويهودا ، قد أبادهم يوسف بن تاشفين وجنوده ، باسم الجهاد في سبيل الله والاسلام ! وكم من الممتلكات العامرة أحرق المرابطون المغربيون أو دمّروا أو نهبوا أو احتلوا، باسم الحق والايمان ! وكم من الاعراض سُفحت أو هُتكت تحت أقدام المرابطين « التاشفينيين » باسم« الحق الإلهي » المُنزَل ، و « العدالة الاسلامية » و « الحكمة الربانية » ، و « العِلْم » ، و « الحلْم » ! فالفتح واحد، من أي جهة أتى ، والفاتحون بعضهم من بعض ، مسلمين كانوا أم صليبيين أم يهودا أم شيوعيين أم أمبرياليين . وأينما وقع الفتح حلّ الظلم والقتل والذبح والقمع والتهجير والتدمير ، وكل ذلك على حساب الانسان والانسانية .

وبما أن موقفي من كتاب «دولةالمرابطين» هو عينُه

موقفي من « محنة العرب في الاندلس » ، فانني لا أرى، هنا ، حاجة الى أكثر من التأكيد ، على ضرورة احترام حرية الشعوب ...وحقها في الاستقلال والسيادة . وأما الكلام، على المنهجية والشكل،فيجب أن يكون لطيفا عادلا،وبخاصة ان الدكتور نصرالله قد بذل جهدا غير قليل ، عبر ستة فصول سبقها تمهيد ومقدمة ، وجميعها يغلب عليها الاختصار المتشدد .

لقد ألقى الدكتور سعدون نصرالله أضواء سريعة على « الملثمين » ، قبل يوسف بن تاشفين ، فشمل حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، كما تحدّث عن نشأة الامير يوسف وتدرجه في المسؤولية بدءا من قيادة الجيش المرابطي الى النيابة على المغرب وفتحه فاس وطنجة والشرق وسبتة . وأفرد فصلا ، هو الثاني،للاندلس قبل معركة الزلاّقة ، وفصلا للمعركة نفسها ، من دون أن ينسى الامراء الاندلسيين الذين رفضوا الاستجابة له، ولا سيما المعتمد (محمد بن عبّاد) ـ ثالث سلاطين بني عبّاد في أشبيلية وآخرهم (٤٣١ ــ ٤٨٨ ه / ١٠٤٠ ــ ١٠٩٥ م) والمتوكل ابن الافطس (من أسرة بربرية في بطليوس ـ الاندلس) ، الذي ذهب في بعثة الى الامير يوسف،موفدا من المعتمد ، معه عبدالله بن بلقين الصنهاجي، صاحب غرناطة . فيما خصص الفصل الرابع للبحث في

عوامل ضم الاندلس الى الدولة المرابطية ،وقد جعلها ثلاثة وهي : حملة حصن لييط ، وانهيـار المجتمع الانـدلسي، وشهوة الفتح التي أثارها ، في المغاربة ، غنى الاندلسيين. يتلوه الفصل الخامس ، الذي سبق ذكره ، ثم السادس والاخير ، وموضوعه : الدولـة المرابطيـة في عهد الامير يوسف بن تاشفين ، حيث يمر لِماماً على علاقات الامير يوسف الخارجية مع الخلافتين :الفاطمية والعباسية ،ومع بني حمّاد وبني هـُون وأمراء الاندلس ، كذلك على لقب الامير (أمير المسلمين وناصر الدين) ونائبه وولاتهوقضاته ووزرائه وكتبته وجيشه وأسطوله ، وعلى أعمالهالعمرانية، وبخاصة بناء مراكش ، ومعاملته لأهل الذمة المستعربين واليهود ، اذ هو « أجبر النصارى الذين كانوا في المناطق الاسلامية على اعتناق الاسلام ، ونفى قسما منهم الـى المغرب ليكونوا تحت المراقبة » (ص ١٧٧) ، بينما فرض «الضرائب الباهظة على اليهود » (ص ١٧٧) فكانت لـه عونا على سد النفقات الكثيرة .

فهل ان في هذا التاريخ ما يُنزِل بنا حزنـا عظيمـا كلمـا طالعناه ؟ أم انه الشعور بضرورة التفجـّع وقـد أدركتْنا سهامه منذ قرون ؟!

١٩٨٥/٤/٢١

(٥)
البَحث عن فلسطين في مصر

حينما كنت أقرأ « مصر وفلسطين » (الطبعة الثانية، منقحة) (١) للدكتورة عواطف عبد الرحمن (٢) ، تملكّني

---

(١) ٣٩٠ صفحة من القياس الوسط ، منشورات « عـالم المعرفة » ، الكويت يونيو (حزيران) ١٩٨٥ ، وكان قد صدر في طبعته الاولى ، عن المؤسسة نفسها في فبراير (شباط) ١٩٨٠ ، رقمه ــ في سلسلة الكتب التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ــ الكويت ــ (٢٦) .

(٢) د. عواطف عبد الرحمن : من مواليد مصر تخرجت من كلية الاداب (قسم الصحافة) جامعة القاهرة عام ١٩٦٥ ، وحصلتعلى الماجستيرفي موضوع« صحافة الثورة الجزائرية» عام ١٩٦٨ ، ثم الدكتوراه في الاعلام عام ١٩٧٥ .

من مؤلفاتها : « اكتشاف افريقيا » (مع آخرين) . « اسرائيل وافريقيا » ، « الصحافة العربية في الجزائر » ، « وسائل الاعلام في افريقيا »،«دور وسائل الاعلامالافريقية» « قضايا التبعية الاعلامية والثقافية » .

وعملت الدكتورة عبد الرحمن محررة دبلوماسية بجريدة « الاهرام » ومجلة « الاهرام الاقتصادي» ومجلة «السياسة الدولية » لمدة عشر سنين ، وتعمل حاليا استاذة مساعـدة للصحافة في كلية الاعلام في جامعة القاهرة .

شعور غريب مؤلم ومثير ، لم أستطع تحديده تماما ، لكنه، على ما يبدو ، من النوع الذي يسود ، عادة ، التائـه في الصحارى والغـابات . على ان خـلاصة الخلاصة (ص ٣٦٩) (٣) هي التي أنقذتني فردّتني الى مكاني ، والتعب بادٍ عليّ : عيناي فيهما من رمال الصحراء ،وشَعْري تغيَّر لونه ، وثيابي ما عادت ثيابي ، فهذه قدّدها العرَق واللهب، بينما سيناء ظلت كما هي ، والنيل الذي يؤتى ولا يـأتي ، ما جاد عليّ بقطرة ولو واحدة !

لا أعرف أهي مشيئة الدكتورة عواطف أم ان الطبيعة لا تقاوَم كما لا تسمـع ولا تـرى ؟ وقلت : لماذا «مصر وفلسطين» ؟ ؟ ليت المؤلفة تبسَّطت وتركت «الاحتشام الاكـاديمي والاعـلامي ، فجعلت اسم الكتـاب « مصر الفلسطينية » أو « فلسطين تبحث عن مصر » ، ذلك لأن الكاتبة جعلت من مصر وسيلة ومن فلسطين غاية ، فـاذا شردت الاولى أو انحرفت ، فالثانية ثابتة ومقدسة ،وليست الوسائل ، دائما ، في مستوى الغايات ، مما يعنـي ان السبيل يقصر أو يطول ، ويعلو أو ينخفض ، وينحني أو يعتدل ، فيما النهاية واحـدة ، والوصول ينبغي لـه أن يطفىء حرارة السعادة ، ويهدىء الاعصاب الهائجة،ويبرّد القلوب الجياشة .

(٣) وردت الخلاصة الاولى في ص ٣٥٤ والثانية في ص ٣٦٩ والخاتمة في ص ٣٧٩ .

أين مصر من فلسطين ؟

الجواب ، في الحقيقة ، هو في ملفـات الاحداث التي تتكرر ، أو تعيد نفسها ، بلغة القائلين ان التاريخ ينتهي ليبدأ من جديد . وليس التعنت والتصلب والمكابرة الا الـى خسارة ، في الكثير من الاحيان ، وما تحت العقل أفضل بكثير من ذلك الذي فوقه .

واذ تقول الدكتورة عواطف عبد الرحمن في مقدمة الطبعة الاولى (١٩٧٩) : « فقد أثبت البحث (الكتاب) وجـود اهتمام مصري متعـدد ومتنوع الاتجاهات ازاء القضية الفلسطينية كما أثبت تحسس الرأي العام المصري المبكر للخطر الصهيوني . وأكـد حقيقة أخرى قـد لا تكـون جـديدة تمامـا وهي ان مصر كانت احد المراكز الرئيسية للدعاية الصهيونية خلال فترة مـا بين الحربـين وأثناء الحرب العالمية الثانية ، وانها كانت ـ حتى قبـل نشوب النزاع المسلّح في ١٩٤٨ ـ ساحة رئيسية للمعركة بين العرب والصهيونية » (ص ٢٤) ، فكأنها مصممة على وضع موازنة ، أو شبه موازنة ، بين « حقيقتين » تغالبان مصر ، منذ الحرب العالمية الاولى ، فلما تغلبت احداهمـا (الحقيقة القومية ـ الاسلامية) على الاخرى (الحقيقـة القومية ـ المصرية) وقعت البلاد تحت عجز اقتصـادي

ونفساني رهيب سبّبه انكسار عسكري دراماتيكي (١٩٦٧) ، دعاه « الناصريون » و « العروبيون » و « الاسلاميون » فصلا من فصول « لعبة الامم » ووجها من وجوه المؤامرة « على مصر والعرب والاسلام » ؟!

مصر بين ٣ تيارات

يتنازع مصر ثلاثة تيارات قوية : الاول الاسلام ، الثاني العروبة ، والثالث التاريخية او الفرعونية • وكلما اتفق الاسلام والعروبة على التاريخية المصرية ، يختل « التوازن» المطلوب ، فتميل الدولة ، التي في عهدها يحصل مثل هذا الخلل ، الى الحرب ، بقصد التوسع والتحرير ، مع أي كان (رحم الله محمد علي باشا وولده ابرهيم وجمال عبدالناصر) لتشغل المشاعر الاصيلة والحساسة عن اهم القضايا (الاصلاح الزراعي مثلا) وعن الوعد (The Promise) الجميل الذي يسوق الجماهير الى مليكها او رئيسها مثلما يقاد القطيع الى الكلأ او الماء •

وفي الحرب تنبري الاقلام للدفاع عن مصر المحاربة ، ويستمر بعضها في الدفاع عن مصر المهزومة ثم عن مصر النائمة أو « الخاملة » فتتراكم الاراء والاقوال والنظريات لتصبح عبئا ثقيلا على مصر ، الحقيقة المثلثة ، فاذا ما برز المنقذ أو المخلّص عابه واتهمه قومه والمسلمون

والعرب، فيغدو مطاردا ومنبوذا مكروها الى ان يتم مصرعه وحينئذ تأخذ البلاد زوبعة جديدة ، فيتحول الحلم كابوسا والامل قلقا ، والرجاء سرابا ، والدم رعبا •

من هنا، ننظر الى مسؤولية الصحافة، كل صحافة، في الحرب كما في السلم • على ان الحرب هي قضية حتى تضع اوزارها ، والسلام قضية اذا ما افتقدناه • وبين القضيتين كما بين صحافة الحرب وصحافة السلم •

قبل ان نستعجل الحكم على هذا الفريق او ذاك، وعلى هذه الصحيفة او تلك ، لا بد ان نعترف جميعا بأن مصر « التي تربط بين القارات (آسيا وافريقيا واوربا)فتصل بين اثنتين منها برا ، وبين الثالثة بحرا ، قد ارتبط تفكيرها القومي (بهذه القارات) فاخذت عن آسيا القرآن وما يفرضه على المسلمين من اخوّة تفوق الاخوّة القومية ، واخذت عن اوروبا القومية بمعناها الاقليمي الضيق(نظرية حوض البحر المتوسط) و (اخذت) عن افريقيا تراثها الفرعوني الغابر في مجال التاريخ وتراثها النيلي المعاصر في مجال الجغرافيا على قول الدكتور انيس الصايغ [٤] •

(٤) عن الدكتور انيس الصايغ : « الفكرة العربية في مصر » ـ بيروت ١٩٥٧ ص ٨٧ ـ عبد الرحمن ص ٨٤ .
ومن الحق أن نذكّر بدراسة للاستاذ أحمد صادق سعد عنوانها « حول النظرة الاشتراكية لمصر محمد علي »، ضمها العدد ٣٢ من مجلة «الفكر العربي التي تصدرها =

ان الصراع، في مصر، هو ، اذن، صراع آسيو ـ افريقو ـ روبي ، وليس في الامكان أن تتوقع النصر ـ على الاقل من اليوم وحتى نهاية القرن الحالي ـ لواحدة من هذه القارات ما دامت آسيا وافريقيا تؤلفان الجزء الاكبر من العالم الثالث . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان أوروبا هي في وضع لا يسمح لها بأن تتقدم ـ نحو الشرق ـ ولو خطوة واحدة ، كما ان تأثيرها على مصر وغيرها من الدول الآسيوية والافريقية تراجع مذ قامت دولة اسرائيل (١٩٤٨) التي نقلت النفوذ الاميركي الى ديار العرب والمسلمين على ظهر اوروبا نفسها .

لذلك ، فان البحث عن فلسطين في مصر هو شاق وصعب وقد يتعثر أو يزل اذا ما كان من أجـل تغليب مصر على مصر ، وبمعنى اوضح اذا كان لطرد آسيا او افريقيا او أوروبا ، من بلاد النيل . فلا يجوز، بأي حال ، تخوين تلك الصحف التي تمسكت بمصريتها ، كما لا يصح ان نغض البصر عن اخطاء صحف اخضعت مصر لنظريات ومسلّمات دينية او قومية ، فالهبت العواطف والغرائز والعنصريات،

= «مؤسسة الانماء العربي للعلوم الانسانية» في بيروت، وهذا العـدد مخصص لموضوع « الاستشراق : التاريخ والمنهـج والصورة » (٢) نيسان ـ حزيران ١٩٨٣ ، السنة الخامسة اذ في هذه الدراسة ما يساعد على تكوين فكرة صحيحة عن واقع مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي خلال عهـد محمد علي ، الذي يعتبر عهد التغيير بالنسبة الى مصر .

حتى احترقت مصر وضاعت منها اجزاء عزيزة عليها ما كان يجب ان تضيع .

« الاحرار الدستوريون »

لنتوقف عند حزب « الاحرار الدستوريين » الذي تأسس «في اكتوبر ١٩٢٢ على اساس قومي مصري استمرارا لحزب الامة » (ص ١١٧) ، فان له من القضية الفلسطينية ـ قبل انشاء دولة اسرائيل ـ موقفا عقلانيا يفترض ان يكون هو موقف بقية الاحزاب المصرية لو ان السيادة هناك كانت للعقل دون سواه .

عن هذا الحزب تقول المؤلفة :

« يلاحظ اقتصار مبادىء الحزب على القضية المصرية طوال العشرينات والثلاثينات رغم ان بعض اعضائه البارزين قد تحولوا الى الاهتمام بالقضايا العربية وخصوصا القضية الفلسطينية وابرزهم محمد علي علّوبة وعبدالله عنـّـان ومحمود عزمي » .

أضافت :

« ونتيجـة للتطـورات السيـاسية التي طرأت على العالم العربي في الثلاثينات وأدت الى طرح بعض القضايا العربية بالحاح على مسرح السياسة المصرية مثل قضيـة البراق ١٩٢٩ وثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦ ، من هنا جاء اهتمام الاحرار الدستوريين بالقضية الفلسطينية كجزء من

القضايا المطروحة في تلك المرحلة التاريخية ولكن لم يبد من مواقفهم سواء عندما كانوا في الحكم او خارجه أي تعاطف واقتناع بحقوق عرب فلسطين، بل على العكس تماما كانت صحيفتهم السياسية تروج للدعوة الى التفاهم بين العرب واليهود ، وترى ان حل المشكلة الفلسطينية يكمن في تحقيق هذا التفاهم من أجل اقامة الوطن المشترك» (ص١١٧/١١٨)

ولكن الدعوة الى التفاهم العربي ــ اليهودي لا تعني الكره لعرب فلسطين والتنكر لحقوقهم ، بل هي دعوة الى السلام والامن والتعايش والحوار . فها هو عبدالله عنان يكتب في جريدة « السياسة » الاسبوعية ، الناطقة بلسان الحزب ، اثر خلاف وقع في القدس عام ١٩٢٩ بين بعض اليهود وبعض العرب ، فيقول : « ان في وسع العرب ان يغنموا اكثر بالاتحاد والجهاد السلمي المستمر وان يحاولوا في المستقبل دون اراقة الدماء... وعلى اليهودية اذا ارادت السلام ان تقنع الامم العربية بانها لا تفهم فكرة الوطن القومي الا في معنى متواضع وفي دائرة محدودة .. وانها لا ترمي الا الى ان تقيم في وئام وتفاهم مع اصحاب البلاد رمزا فقط لليهودية وملاذا وملجأ ليس غير لتراثها وتقاليدها» (ص ١١٨) .

فماذا فعل المصريون والعرب ؟

ما هو خطأ الاستاذ عبدالله عنان آنذاك ؟ على صخرتي

العروبة والاسلام تحطمت هذه الدعوة العقلانية . وعلى صخرتي العروبة والاسلام لعب المصريون بالسياسة كما يلعب البهلوان على الحبال ؟!

أين القدس ؟

أين حيفا وعكا ؟

أين غزة ؟

هذه اسئلة ربما باتت عتيقة ، فلا داعي لان نتعب رؤوسنا بحثا عن الجواب .

السؤال اليوم :

ــ أين الجولان ؟

ــ أين الجنوب اللبناني ؟

الا قلنا ان ما جرى للعرب هو ما قد كتبه العرب على انفسهم ؟

ترى جريدة « البلاغ » ــ لسان حال حزب الوفد ــ في عددها الصادر يوم ٢/١١/١٩٢٦ « ان الصهيونية من الناحيتين السياسية والاقتصادية مشروع قائم على الظلم والباطل وان فكرة الوطن القومي لليهود تفوق ظلما وشناعة فكرة الاستعمار نفسها ، لان الدولة الاستعمارية التي تستولي بالقوة على بلاد ليست لها معتبرة نفسها غريبة عن تلك البلاد مهما بلغت سطوتها ومهما نكلت بالشعب الذي تستعمره ، اما الصهيونية فانها تذهب الى ابعد من ذلك

فتحاول ان تفعل في فلسطين ما لا تفعله الدول في مستعمراتها» •
(ص ١٠٩) •

هذه الرؤية القومية ـ الاسلامية للقضية الفلسطينية، بصرف النظر عن الخطأ والصواب، والرؤية القومية العربية، والرؤية «الإخوانية» (الاسلامية) ، وهي رؤى تغطي دنيا العرب ، أي جيل عربي صنعت ؟ وأي انتصار عربي حققت ؟

نعود الى حزب « الاحرار الدستوريين » والى صحيفة «السياسة» بشخص رئيس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل الذي « كان يرى ان حل المشكلة الفلسطينية لا يكون (الا من العرب واليهود ولا ينتظر من الدولة الانكليزية او عصبة الامم ان تتوسط لهذا التفاهم (العربي ـ اليهودي) لانه يلوي عليها مقاعدها الاستعمارية ») (ص ١١٨) (السياسة العدد ٢٤/٦/١٩٣٠) ، لنعود الى العقل ، بل الى ما تبقى من العقل ، اذا كنا نرغب في دراسة علمية وموضوعية •

اما ان تعتبر صحيفة « اسرائيل » المصرية كلمة الدكتور هيكل « خير ما كُتب حتى الان (١٩٣٠) باللغة العربية بأسلوب بريء من الهوى ، وروح الاخلاص والصراحة في مشكلة فلسطين » (ص ١١٨) فلانها حقيقة ثابتة ، ويا ليت العرب ادركوا اهميتها وعملوا لها مخلصين •

ماذا قدم العنف الفلسطيني الذي صار عمره حتى الان اكثر من ستين عاما، سوى انه وسع مناطق النفوذ الاسرائيلي

وزاد العرب والمسلمين تفككا وبؤسا وحزنا ؟

قالت صحيفة « الاخوان المسلمون » (العدد ٥/١١/١٩٣٥) : « لو سار المسلمون كما سرنا الى ارض فلسطين ورأوا اسراب الرجال والنساء ، ونظروا كتائب اليهود المنظمة وجيوش الصهيونية الظالمة التي تفد على فلسطين من كل بقاع الارض ، ثم نظروا هم كيف يتجمعون عند الحرم ويقفون عند البراق الشريف فينفخ احدهم في البوق خلافا لكل عرق ونظام فيجيبه جمهور اليهود (في العام المقبل يا اسرائيل) لو نظر المسلمون الى ذلك وفهموا ما يرمي اليه اليهود من ورائه ، لتجافت جنوبهم عن المضاجع وسارعوا لانقاذ الحرَم قبل أن يأتي الوقت الذي يريدون فيه الصلاة ولا يستطيعون » (ص ١٢٧ ـ ١٢٨) •

وتقول الدكتورة عبد الرحمن عن موقف جريدة « السياسة » الذي هو موقف « الاحرار الدستوريين » : «ورغم التصور الصحيح للصراع الذي كانت تطرحه السياسة آنذاك فانها كانت تطرح حلولا غير وطنية (؟!) • ودليل ذلك موقفها من الحركة الوطنية الفلسطينية ، فهي توجه نقدا مرا لقيادة الحركة الوطنية وترى انها لا تتوافر فيها شروط الزعامة وانها تضم خليطا من العناصر المفككة المتناقضة وتفتقر الى برنامج وطني واضح ، علاوة على انها تتخذ قرارات متطرفة ثم تتراجع عنها » (ص١٢١) •

وتحمل المؤلفة على المعارضة الفلسطينية (النشاشيبية)

فتعتبرها « اكثر مهادنة » للانكليز من « المجلسيين »(عائلة الحسيني ـ المفتي امين الحسيني ـ وانصارها) ، وتلقي عليها مسؤولية « استنزاف الحركة الوطنية وتوجيهها الى معارك جانبية مما ساعد على تعميق العصبية العائلية ، كما ادى الى اقحام الدين كعامل اساسي في الصراع »(ص٩٧)٠ ثم نراها تعود لتقول ، وربما على غير انتباه منها : « ولم يكن التكوين الفكري والسياسي للقيادة الوطنية الفلسطينية آنذاك يسمح لها بفهم الاعيب الاستعمار البريطاني علـى حقيقتها » (ص ٩٧) ، الامر الذي يجعلنا نستغرب موقفها من « الاحرار الدستوريين » وصحيفتهم ، ومن جميـع الذين قالوا بضرورة التفاهم العربي ـ اليهودي ٠

ان كلمة « الوطنية » مع هكذا احزاب ومنظمـات وهيئات وصحف ، ومع هكذا كتبة ، صارت على كل شفة ولسان ، فصار « الديـانون » أكثـر مـن « الخونة » و « العملاء » ، بل أكثر من الرمل والحصى ؟!

« الاحرار الدستوريون » كانوا في الضوء يرون الامور كما هي ٠ بينما « الاخوان المسلمون » و « الوفديون » كانوا في العتمة ٠ ومن أسف أن يغلب الظلام النور ليخفي الوعي والمصداقية والبرهان !

وجاءت مبادرة المغفور له الرئيس انور السادات(نوفمبر ١٩٧٧) فاحرقت الاعصاب العربية ، وزعزعت مفاهـيم ومسلّمات ، فاذا السلام « اخطر » من الحرب ، والواقع

اعظم من التصور ، والراهن اصدق من المطلوب ، فكتب أنيس منصور في « الاهرام » (١٦ نوفمبر ١٩٧٨) قائلا : «ان عذرنا الوحيد هو ان هذه المبادرةخطوة ليس لها نظير في التاريخ ، ولذلك فقد أخذتنا معها وبهرجتنا وأربكتنا ـ لقد اكتسحتنا المبادرة واطاحت باحلامنا ورؤوسنا ثم جاءت الاصداء من العالم كله فأخذنا الناس معنا وطرنا بهم الـى السماء » (عند عبد الرحمن ص ٣٧٤) ٠

ولا نغالي ، اذا نحن قلنا ان الشرق ، بما فيه اسرائيل، يعاني اليوم الصدمة الساداتية التي ارادت ان تنقل الناس جميعا من العتمة الى النور ومن الخوف الى الطمأنينة ومن الخراب الـى القصـور ومـن المقـابر الى الحياة بأحلى مظاهرها ٠ ولمصر الحق ـ كل الحق ـ في ان تطالب بالسلام العادل والتعايش بين الطوائف والاديان ، ما دامت حقيقتها المثلثة ، مثلما قلنا ، هي ان مصر لآسيا كما لافريقيا واوربا٠

ولكن هذه الخطوة الرائدة في اتجاه السلام الشرق ـ الاوسطي ـ تحتاج الى معاضدة من سوريا وحلفائها،والى مناخات غير موبوءة بالعنف والارهاب والمذهبيات [٥] ٠ كما تحتاج الى عقلانية اسرائيلية ومصداقيةأميركيةوعالمية٠

---

(٥) ان استثمار حـادث الجندي المصري سليمان خاطر ، الذي قتل،في أواخر عام ١٩٨٥ ، ٧ من السيّاح الاسرائيليين، يؤكد خوفنا على مصر والمشروع الساداتي للسلام ، وليس احراق القاهرة في الاسبوع الاخير من شباط ١٩٨٦، الا من=

وبدون هذه الشروط ستبقى مجرد خطوة .. بل مجرد حلم في ليلة صيف .

واذ لا أدعي استيعاب «مصر وفلسطين» (الكتاب) استيعابا «جيدا» أي «قوميا عربيا ـ اسلاميا» فانني اعلن ان الابواب الاربعة التي تصل القارىء بعالم هذا الكتاب ، وهي : «الواقع المصري وقضية فلسطين» و «الصحافة المصرية وقضايا العشرينات والثلاثينات على الساحة الفلسطينية» و «الرأي العام المصري وفلسطين في الاربعينات» و «ثورة يوليو والقضية الفلسطينية» ، انما هي ابواب ذات شقوق فتحتها الكاتبة الدكتورة عواطف عبد الرحمن على التيارات الفكرية والسياسية التي عرفتها مصر ، خلال أكثر من ثلاثة أرباع هذا القرن ، غير آبهة للهواء الآسيو ـ افريقو ـ روبي الشديد ، الذي ظل يضرب هذه الابواب جميعها ، بعضها ببعض ، حتى تركها وراءه كحطام البَيْض .

١٤/١١/١٩٨٥

= الاعمال المذهبية التي تهدد المنطقة كلها. ولقد قال السيد ابراهيم سعدة في «أخبار اليوم» (١٩٨٥/١٢/٢٨) : «ما اسهلنا في خلق الابطال ، ما أسرعنا في صنع تماثيل صماء نتوهم انها تنطق الحكَم والمواعظ ... ما أبسطنا في تطويع الاكاذيب ... حتى لو أدى ذلك الى ضرب الشرعية والقانون وسمعة بلادنا بعرض الحائط» .. وكما في مصر كذلك في لبنان والعراق وسوريا وليبيا وايران وسائر بلدان العالم الثالث .

(٦)
المجتمع العربي المعاصر

قد لا يكون ، في هذا الوقت بالذات ، من المسموح لي ، منهجيا ، بأن أبدأ قراءتي لكتاب «المجتمع العربي المعاصر» (بحث استطلاعي اجتماعي)[1] للدكتور حليم بركات[2]، بالثناء عليه ومدحه والتأكيد على أهميته ، وضرورة درسه ومناقشته ، الا اذا كنا نتوخى ـ فعلا ـ مجتمعا عربيا يملك الارادة والهدف والخطة ، لا مجتمعا متفككا ومتغربا وعاجزا عن مواجهة تحديات العصر .

واني، وأنا أفعل ذلك، لسعيد جدا، خصوصا ان الجرأة

---

(١) ٥١٦ صفحة من القياس الكبير ، مع ثبت للمراجع ـ العربية والاجنبية ـ والاعلام ، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت

(٢) الدكتور حليم بركات : روائي وعالم اجتماع واستاذ في جامعة جورجتاون ، واشنطن، دي سي . ولد في الكفرون ، سوريا ، عام ١٩٣٣ ونشأ في بيروت .

الادبية والعلمية التي ترافق البحث ، من أول الكتاب والى آخره، تفرض علينا أن نقابلها بجرأة مثلها، وعلينا أن نعترف ــ سلفا ــ بالجهد الذي بذله المؤلف، في التجميع والتحليل والنقد والمقارنة ، وباخلاصه الواضح الشديد للانسان العربي ، بصرف النظر عن مكان وجوده ولونه وثقافته وطبقته . ونعترف له أيضا بأنه قد استوعى مشكلة المجتمع العربي ، حتى انه تمكن من وصف الواقع (العربي) وتفسيره ، كما استطاع الوصول الى الحل المطلوب (الضروري) الذي كأنه الجسر فوق الفجوات الكائنة بين الواقع والحلم .

لقد قرأت هذا الكتاب فلا تعبت ولا تضجرت ، بل ان الرحلة معه ، أو من خلاله، الى المجتمع العربي ، كانت رائعة ومفيدة ، فالى المغرب كما الى المشرق ، والى البداوة كما الى الحضارة، يتحرك كل شيء في مكانه ، أو من مكانه واليه، بين الثابت والمتحول ، والقديم والجديد ، والسلفي والتوفيقي، والليبرالي والاشتراكي، والقومي والتقدمي.

الاسماء باتت معروفة، والامكنة محفوظة. فمن لا تجده هنا، فهو حتما هناك ، أو هنالك ، أو في أي مكان آخر : في صفحة ، في نصف صفحة ، في ربع صفحة ، في جملة ، في سطر، في الحاشية، والكتاب ، على كل، هو « قاموس » ، أو شبه موسوعة تتسع أو تضيق حسب مكانة هذه الشخصية أو تلك . واياك أن تغضب ، ان كنت عالما أو شاعرا أو

أديبا أو ناقدا ، اذا لم تجد لاسمك ذكرا ، فأنت ، والحالة هذه ، إما مؤجل الى حين وإما غير مرغوب فيك . ومهما اختلفت الاسباب ، فعليك أن تصبر وتصابر ، فان هذا الشرق لهو أرض الصابرين والمنسيين .

ويجوز القول بأن الدكتور حليم بركات هو «سندباد» هذا المجتمع (العربي) ، وعنده معرفة خاصة بواقعه تصلح لان تكون مرجعا علميا شاملا للراغبين في المعرفة والتغيير .

على ان المعرفة سبيل الى التغيير ، او هي قوة لا غنى عنها للمجتمع الذي ينشد التوازن والعدالة والاستقرار . ولكي نطلب الاحسن والافضل والاكمل ، لا بد أن نعرف ما هو ذلك القائم أو الراهن الذي نسعى الى الانقلاب عليه وتحويله ، وليس كل انقلاب هو بمستوى طموحات المجتمع وآماله وأمانيه .

قال عُروة بن حزام[٣] :

---

(٣) عُروة بن حزام بن مهاجر الضني ، من بني عذرة (... نحو ٣٠هـ / نحو ٦٥٠م) شاعر ، من متيَّمي العرب ، كان يحب ابنة عم له اسمها « عفراء » نشأ معها في بيت واحد ، لان أباه خلفه صغيرا ، فكفله عمه . ولما كبر خطبها عُروة ، فطلبت أمها مهرا لا قدرة له عليه ، فرحل الى عم له باليمن، وعاد ، فاذا هي قد زوجت بأموي من أهل البلقاء (بالشام) فلحق بها ، فأكرمه زوجها ، فأقام اياما عندها وانصرف ، فضنى حبا ، ومات قبل بلوغ حيه . ودفن في وادي القرى (قرب المدينة) له « ديوان شعر ــ ط » صغير .

«فقلتُ لعرّاف اليمامة : داوني ،
فانّك ، إنْ أبرأتني ، لطبيبُ»(٤)

عُروة (الشاعـر) مـريض ، يسأل (العـرّاف) دواء • فهـل يكتشف (الطبيـب) سر مـرض هـذا الشـاعـر المطـرود أو المغـدور ؟ الحب الـذي اغتاله الاموي البلقائي و«عفراء» (ابنة عم الشاعر) ووالدها وأمها ، هو سبب مرض عُروة وموته •

ماذا يفعل العرّاف اذاً ؟

ربما أشار على سائله بالصبر ، أو الهجرة ، أو البحث عن حب جديد،و«عفراء» جديدة • ولكن كيف وأين ؟

ومما لا شك فيه ان العرّاف حمّل الشاعر «حجابا» و « وصايا » و « تعاويذ » ••• ويا ليته انتفع بها •

لقد قضى عُروة الشاعر المطعون قلبه برماح الاهـل والاقارب ، شهيداً بين البلقاء (من أرض الشام) وحي بني عذرة ، ودفن في وادي القرى •

وكما عروة بن حزام كذلك المجتمع العربي •فلا تسأل عن العرّافـين والحجّابـين ، فهؤلاء يصعب ضبطهم أو احصاؤهم ولو صدقوا •

---

(٤) لسان العرب ، المجلد التاسع ، باب (عرف) ص ٢٣٧ .

وبما ان الدكتور بركات هو روائي،نراه،في « المجتمع العربي المعـاصر» ، يـدق أبواب العرّافين ، من أجانب ومشارقة ومغاربة ، الاحياء منهم والاموات ، كما لو انه يبحث عن أشخاص لرواية اجتماعية جديدة ، صمم على أن يكتبها بماء العقل ، فاذا هو يغمس ريشته بماء القلب ، ما جعل بحثه نابضا أبدا ، ومتعدد الالوان ، كأنه ضرْب من نسيج الديباج أو الحرير •

يرى الـدكتور حليم بركـات ، وهو عالم اجتماع، ان المجتمع العربي المعاصر يتصف بأنه «مجتمع متكامل ، متنوع ، انتقالي ، متخلّف ، مغترب ، شخصاني في علاقاته الاجتماعية،تعبيري في توجيهه » (ص ١٤)ويرى أيضا أن الحاجة الى دراسة تتناول «المجتمع العربي ككل وليس كمجرد مجموعـة من الكيانات المستقلة بخلاف عدد كبير من الدراسات (خصوصا الغربيـة) التي تتقيـد بالاوضـاع السياسية الراهنـة اكثر مما تستوحي الواقع الاجتماعي» (ص ١٤) •

هذه الدراسة هي للمجتمع – كل المجتمع • أي للمرأة والرجـل والقبيلـة ، كما للامير (الحاكم) والقـاضي والشعب • ولن ننسى طبعا أصحاب الصنعة أو الحرفة أو الادب • وللهويـة العربيـة عنـد الـدكتـور بركات اهميـة لا تقـل عـن سواهـا مـن مزايـا المجتمع

العربي . فلذلك تناولها « في حالة تداخل ومواجهة بدلا من معالجتها منفردة» (ص ٣٣) ، مما يدل على أنه (بركات) لا يحب أن يستفرد هذه الهوية أو غيرها، وانما يهمه أن يكون «شموليا» بل «متنوعا» و«متكاملا» .

فمن البداوة أو البداية (تربية المواشي والرعي والترحال تلاؤما مع البيئة الصحراوية) (ص ٦٦) الى الفلاحة (حياة القرية) (ص ٧٨) الى الحضارة (المدينة ـ مركز الحكم أو النفوذ والقوة ، ومركز التجارة العالمية والمحلية ، ومركز التعليم، ومركز العبادة، ومركز الادارات والفنون والحِرف والصناعات والترفيه والخدمات العامة وغيرها) (ص ٩٠) . والمهمة ـ القضية هي « الاندماج الاجتماعي» (ص ١٢٠) صعبة جدا ، ان لم نقل مستحيلة.

ان الاندماج الاجتماعي هو مسألة خطيرة . ومن الطبيعي أن لا تلقى هذه المسألة لدى الجماعات المسيطرة بعصبياتها قبولا أو استحسانا .

هل تنفع النظريات والمناظرات ؟

يقول الدكتور حليم بركات :

« ... وفي رأيي أن هناك خمسة عناصر أساسية تشكل تدريجيا قناعات راسخة في صلب الايديولوجية العربية التقدمية في ما يتعلق بمهمة الاندماج الاجتماعي وهي القول

بالتنوع المنسجم ، والتحليل الطبقي ، والاشتراكية ، والعلمنة ، وتجاوز حالة الاغتراب ، وترسيخ الديمقراطية التي يمكن اعتبارها عنصرا سادسا أو اطارا عاما تندرج فيه مختلف هذه القناعات» (ص ١٢٠) .

كلمات رنانة وجميلة وساحرة تأخذ الالباب . فمن لا يكون شديد العين لن يخرج من الظلمة . وأخطاء أدعياء هذا الاندماج دائما مغفورة مشكورة .

«ان الحركة الوطنية العربية التقدمية (بكل فروعها) مطالبة بمزيد من اعادة النظر ببعض المفاهيم وتحديدها من جديد على ضوء مهمة الاندماج الاجتماعي» (ص ١٢٠) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يجب أن يُفهم «ان الاندماج الاجتماعي في سبيل ترسيخ الهوية العربية لا يعني الغاء التنوع في الانتماءات الخاصة » . « ولقد نمت الحركة الوطنية العربية التقدمية باتجاه مطالبة نفسها قبل غيرها بتوضيح مفهومها للاندماج الاجتماعي والوحدة السياسية والاسس التي يجب أن تقوم عليها والغايات التي يزداد الوعي بها ان الاندماج الاجتماعي والوحدة السياسية لا يعنيان الغاء التنوع في المجتمع العربي (و) ان الوحدة العربية لا تعني أن يصبح المجتمع ذا بُعد واحد ، ولا تعني ان تفرض ثقافة الاكثرية على الاقلية أو العكس . فالتنوع

ـ في ظل وحدة يتم فيها التفاهم حـول الاسس التي لا ينهض المجتمع بـدونها ـ مصدر غنى واغنـاء للجميع » و« ليست الثقافة العربية ثقافة عنصرية أو فئوية، بل هي تآلف حضارات متنوعة تداخلت وتفاعلت وتغيرت عبر التاريخ» (ص ١٢١) ٠

حكاية قديمة ٠ قديمة جدا ٠ ولطالما سمعنا بها وقرأنا مثلها ٠ فمن لا يؤمن بذلك فهو من المغضوب عليهم والضالين ٠

من عرّاف اليمامة ـ صاحب عُروة بن حزام ـ الى جميع عرّافي المجتمع العربي ، والكلمـة اما مأثورة واما مسحورة ٠ وليس من فائدة ترجى الا تلك التي على الورق فحسب ٠

عالم من الالوان ، منها الفاجر والصارخ والهـادىء والمستقر والباهت والمحيّر والادكن والميت ، كيف نجعله واحدا موحدا ؟

أهي ضريبة ثقافية أم حكاية ابريق الزيت ؟

المؤلف نفسه يقول :

«من ناحية أخرى ، لا يجوز أن يعني القول بالمحافظة على التنوع الابقاء على هذه الفسيفسائية الهزيلة القائمـة على عصبيات متنافرة مما يعطل الامكانيات العربية ويجعل المجتمع العربي مجتمعا مقسوما على ذاته متناحرا منصرفا

الى خلافاته الجزئية الثانويـة ٠ لا بد من رؤية تجاوزية ترتكز الى وعي جديد وتهدف الى اقامة علاقات جديدة» (ص ١٢١) ٠

ولكن النفق طويل ومظلم ٠ على بابه يجلس العرّافون ٠٠ وكل يدّعي العِلم بما كان وبما سيكون ٠

من أين نبدأ ؟
من الاقتصاد ؟
من السياسة ؟
من الدين ؟
من الثقافة ؟

أربـاب الاقتصـاد هـم ، بشكـل أو آخـر ، أربـاب السياسـة والـدين والثقـافـة ٠ هل تترك مراحل الانتداب والنكبة والاكتشاف والمواجهة الذاتية ، لتتوقف عند مرحلة المقاومة التي بدأت « حين بدأ يتكون لدى بعض الفلسطينيين احساس مبهم بفشل الانظمة العربية» (ص ٣١٢) ؟

الواقع هو أن المؤلف قد عيَّن أسباب فشل اليسار العربي فقال :

«ان الانهزامات المتلاحقـة وحصار بيروت من قبـل اسرائيـل صيف ١٩٨٢ دون استجابـة للتحدي من قبل العرب ، أنظمة وحركات شعبية ، والتفت العربي العام ،

كل ذلك أوصل المجتمع العربي الى حقبة من أحلك حقبات تطـوره التاريخي • من هنا هذا اليأس العـام السابـق والتساؤل المرير :لماذا تدهور اليسار العربي؟»(ص٣١٣) •

أضاف :

«بالامكان وصف المجتمع العربي بأنه مجتمع حكومي اكثر مما هو مدني ، فقد خسر الشعب حقوقه الديمقراطية والاجتماعية والفكرية • ألغت الانظمة الاحزاب والتنظيمات والحركات الشعبية ، ومنعت الشعب من المشاركة في صنع مصيره ، وسلبته حرية التعبير والبحث والنقاش • أصبح الانسان ملك الدولة ، فهي التي تسيطر عليه ولا يسيطر عليها • يتصرف الحاكم (وهو على الاغلب فرد عسكري أو شيخ مالك) وكأن المجتمع امتدادا (كذا) (والصحيح : امتداد) لذاتـه المتضخمة • مقـابل ذلك يتعرض الشعب للسحق لا يحميه دستور أو قانون، حتى أصبحت السياسة لعبة لا معايير لها غير معايير البطش» (ص ٣١٣) •

محنة اليسار العربي في مجتمعه ؟ أم محنـة المجتمع العربي في يساره ؟

وما دمنا في الحديث عن اليسار العربي، نذكّر الدكتور حليم بركات بباحث عربي هو الدكتور طارق ي•اسماعيل، استاذ العلوم السياسية في جامعـة كالجاري (Calgary)

بولاية البرتيا (Albertia) في كنـدا ومؤلف أو جـامع للعديد من الكتب عن الشرق الاوسط ، لنذكّره بكتاب له عنوانه في الانكليزية (The Arab Left) عرّبه الاستاذ محمود فلاحة تحت عنوان «اليسار العربي»[٥]، من دون أن نخفي تقديرنا لهذا الباحث (طارق اسماعيل) الذي يجب الا ينساه باحث اجتماعي مثل الدكتور حليم بركات • وعلى كل فان المنسيين ، في هذا الشرق ، هم كثيرون ، وما عليهم سوى أن يصبروا ويصابروا ، مثلما قلنا •

نعود الى « بيان » (كلام) الدكتور بركات ، عـن اليسار العربي ، ولولا المسحة التشاؤمية الغالبة لقلنا انـه أخطر « البيانات » الادبية على الاطلاق •

اذا قلنـا ان عالِم الاجتماع السوري الدكتور حليم بركات تشاءم فمعنى القول ـ عربيا ـ تطيّر ، وهو ضد تيمّن وتفاءل •

ومهما يكن ، فالعرب قالوا : « وفي فلان طيرة وطيرورة أي خفة وطيش »[٦] •

---

(٥) ٢٣٦ صفحة من القياس الكبير. صدر عن دار النبراس، دمشق ـ بيروت ، بدون تاريخ . كان لنا مداخلة حوله في جريدة «العمل» ـ بيروت الثلاثاء ١١ ت٢ ١٩٨٠ .

(٦) لسان العرب ، المجلد الرابع ، باب (طير) ص ٥١٠ .

وقال الكميْت :

«وحلمك عزّ ، اذا ما حلمت
وطيرتُك الصابُ والحنظلُ»[7]

ان الانظمة العربيــة في واد ، والشعب (الشعوب) في واد آخر .

أما الاحزاب ، في المجتمع العربي ، فمغلوبة أبدا . في الجزائر ، في تونس ، في مراكش ، في ليبيا ، في مصر ، في السودان ، في لبنان ، في سوريا ، في العراق ، وفي كل الخليـج العربي ، الاحزاب تضرب الحديد باردا . وأمراء الاحــزاب (منهــم أمــراء الطوائف عندنا في لبنــان) دونكيشوتيون، ينظرون الى سيف أبي ذر الغفاري الخشبي فيستهويهم، ويرددون معه: «عجبت ممن لا يجد القوتَ في بيته كيف لا يخرج على الناس (...) شاهرا سيفه » .

الى أين الخروج بالسيف ؟
على الناس أم على بعض الناس ؟

صاحب علي بن ابي طالب صاحب أمراء اليسار العربي . والثورة مثلها مثل جائع أبي ذر الذي أكل أولاده وكـل

(٧) المصدر نفسه .

الجائعين . بل الثورة تأكل أولادها لتأكل نفسها . هكذا في ايران، وهكذا في لبنان .

من المغرب الى المشرق ، والساحة حمراء . أما الدم فعربي كما بات معلوما .

أيها الفلاحون ،

لا تزرعوا القمح أو القطــن أو الشعير ، بل ازرعوا « الورد الاحمر » .

الارض ، منذ قرن أو أكثر بقليل ، كانت للسلطان . هو الحق و « الحق الالهي » . اليوم ، هي لكم ، وأنتم للدولة .

فما الذي تغيَّر يا ترى ؟

يقول الدكتور حليم بركات :

«يمكننا وصف النظام الاقتصادي العربي العام المعاصر (وهو الذي يهمنا بالدرجة الاولى) بأنه نظام تتعايش فيه مختلف أشكال الانتاج ، فهو شبه اقطاعي وشبه رأسمالي وشبه برجوازي يجمع بين ما قبل الرأسمالية والرأسمالية، وبين الاكتفاء الذاتي النسبي والاندماج التبعي بالنظام الاقتصادي العالمي ، وبين الملكية الخاصة وملكية الدولة والعائلات الحاكمة، وبين انماط الانتاج التقليدية والحديثة . ليس النظام السائد ، اذاً ، نظامـا اقطاعيا أو رأسماليا أو اشتراكيا . انه نظام متعدد الانظمة مركّب انتقالي يجمع

بين الاقطاع العام والاقطـاع الخاص والرأسمال العـام والرأسمال الخاص» (ص ١٣٣) •

بمعنى أوضح ، هو نظام الأنظمة ، بل نظام المجتمع العربي الذي هو مجتمع «المجتمعات»•وانشئنا الاختصار فهو نظام مجتمع « المجتمعات » الـ « مرتبط بـالسوق العالميـة » والـ « خاضع للشركات المتعددة الجنسية » (ص ١٣٣) •

وينقل الدكتور بركات عن السيد عبدالحميدابراهيمي، صاحب «أبعـاد الاندماج الاقتصادي العربي واحتمالات المستقبل » [٨] قولته هذه :

«ان البلدان العربية التي تحتاج الى تمويل لا تستطيع الحصول على القروض من البلدان العربية ذات الدخول العالية الا عن طريق نيويورك ، ولندن وبواسطة الشركات المتعددة الجنسية » (ص ١٣٣) •

اذاً لماذا الوحدة ؟

من لم يدار « المشط » ينتف لحيته ••• ويصبح معزولا وثرثارا لا خير فيه ••

لذلك سنترك الاقتصاد والسياسة الى الثقافةوالادب•

يقول الدكتور بركات :

(٨) صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٠.

و « الثقافة السائدة هي الثقافة التي ترتكز على القيم القدرية والسلفية والعمودية وعلى قيم الاتباع والشكل والانغلاق والعار والاحسان • أما الثقافة المضادة فتقوم على القيم المستقبليـة والاختيارية والابداعية والانفتاحية والافقية ، وقيم العدالة والانفتاح والشعور بالذنب والنقد الذاتي والمواجهة • وتوازن الثقافة المضادة ما عدا ذلك بين قيم العقـل والقلب ، والمضمون والشكـل ، والجمعيـة والفردية ، والاصالة والحداثة » (ص ٣٥٨) •

ويزداد الكلام خطورة حيث يقول :

«ويتوسط هذا الصراع الحـاد بين الثقافة السائدة والثقافـة المضادة ثقافات فرعية ليبرالية تطلق على نفسها ألقابا عدة، ولكنها في صميمها وعلى الاغلب ثقافة اصلاحية جزئية لا بد لها في الحل الاخير من أن تقف الى جانب هذه أو تلك» (ص ٣٥٨) •

ربما لن تقف الليبرالية مع الثقافة المضادة • وأنّى لها أن تفعل هذا وخصوصا في بلادنا ، ما دامت القيم التقليدية « هي الغالبة في الثقافة العربية » (ص٣٥٨) •

وعلى طريقـة «جبّر الله مصيبته» يعلن الدكتـور بركات :

«لكن هذه الغلبة ليست هي التي تحدد هوية العرب

الثقافية . ان ما يحدد هويـة العرب الثقافية خصوصا في هذه المرحلـة الانتقالية هو الصراع بين اتجاهات قيميـة متناقضة . مثل هذا الوضع قائم أيضا في الحياة الابداعية وفي النقاش الفكري» (ص ٣٥٨) .

ان هذه دعوة أخرى الى الاندماج الاجتماعي ... فليسمع المثقفون « المخالفون » والمنسيون والمؤجَّلون .

لا تخافوا من الفقر أو الجوع أو الموت ! فلكم في الجوع حياة .. وفي الفقر حياة .. وفي الموت حياة ؟!

ليس الدكتور حليم بركات وحده الذي يدافـع عن تهافت الحركة الوطنية التقدمية العربية . بل كل أعضاء هذه الحركة (من المغرب الى المشرق وبالعكس) يقولون بما قاله الدكتور بركات.فهنالك ، مثلا ، لا حصرا،الاستاذ سمير سعد القائل في مجلة «الطريق» :

«ان مهمة القوى الثورية المنظمـة والواعيـة لتعبئـة الجماهير المدعوة تاريخيا لاجراء هذا التحويل النوعي ، ومهمة تكوينها لتصبح أداة تغيير منسجمة، هي أصلا مهمة صعبة.فهي جماهير تتوزع بحكم التطور الماضي على تركيبات طبقية وفكرية مشتتة،وتتعرض حتى ضمن الطبقة الواحدة لضغوطات طائفية وعقائدية . كما تتوزع ، من جهة ثانية ، على أساس أحزاب سياسية وتيارات فكرية متعددة . بينما

لا تنطلق الحرب الايديولوجية الامبريالية ، بالمقابل ، من مواقعها المباشرة دائما ، ولا تظهر بوجهها الصريح»[٩] .

ماذا نقول اكثر من «عللوها فأحسنوا التعليلا» ؟

الحقيقة هي ان التقدميين الثوريين العرب لن يتنازلوا عن هذا البؤس ، لئلا يتنازلوا عن « الفكر الثوري»!

افلاس في التطبيق ... ونجاح في التنظير .

تلك هي مأساة جماهيرنا « الغفورة » المؤمنة .

نحن ، هنا ، كما في كل مكان ، ندعو الـى التخلي عن الافكار والمشاريع الوحدوية. بل ندعو الى الموضوعية والعقلانية في التنفيذ كما في التنظير .

أمَّا وأن نبقى فوق ، كما الآلهة ، فننسى أو نتناسى كل من يخالفنا الرأي والمعتقد ، ثم ننظر الى تحت ، من الثقب الواحد ، فهذا برهان قاطع على اننا لسنا في مكاننا تماما ، بل دون ذلك بكثير .

ولئلا يفوتنا التذكير بأقسام الكتاب ، نشير الى أن الدكتور بركات قد أنشأ «مجتمعه العربي المعاصر» في أربعة أقسام :

ـ القسم الاول : مسألة الهوية العربية والاندماج

---

(٩) مجلة الطريق عدد خاص ٣/٢ حزيران (يوليو) ١٩٨٤ ص ١١٩ .

الاجتماعي (من ص ١٣ الى ص ١٢٠) • يتضمن أربعة فصول هي :

١ ـ مقدمة لدراسة المجتمع العربي (من ص ١٣ الى ص ٢٩) •

٢ ـ الهوية العربية بين التنوع والتجانس (من ص ٣٣ الى ص ٦٠) •

٣ ـ انماط المعيشة : البداوة ، الفلاحة ، الحضارة (من ص ٦٣ الى ص ١٢٠) •

ـ القسم الثاني : البنى والمؤسسات الاجتماعية (من ص ١٣١ الى ص ٣١٧) يتضمن أربعة فصول أيضا هي :
١ ـ الطبقات الاجتماعية (من ص ١٣١ الى ص ١٦٤)
٢ ـ العائلة والقرابة : نواة التنظيم الاجتماعي (من ص ١٧١ الى ص ٢٢٣)٣ ـ الحياة الدينية : السلوك والمواقف (من ص ٢٢٥ الى ص ٢٦٦) ٤ ـ الصراع السياسي في الاطار الاجتماعي (من ص ٢٧٥ الى ص ٣١٧) •

ـ القسم الثالث : الثقافة العربية •

فيه : ١ ـ القيم الاجتماعية : مصادرها واتجاهاتها (من ص ٣٢١ الى ص ٣٥٧) ٢ ـ الثقافة الابداعية : الاتجاهات الادبية وعلاقاتها بالواقع الاجتماعي (من ص ٣٥٩ الى ص ٣٩٦) ٣ ـ الاتجاهات الفكرية المعاصرة (من ص ٣٩٧ الى ص ٤٤٠) •

ـ القسم الرابع : استشراف المستقبل : قضايا الاغتراب والتنمية والثورة (من ص ٤٤٧ الى ص ٤٦٤)• ويتألف من فصل واحد موضوعه : تجاوز حالة الاغتراب : التنمية والثورة •

هل أنشأ المؤلف مجتمعا عربيا مثاليا حقا ؟

يقول الدكتور بركات :

«ان المضامين تتخذ أشكال ذاتها ، فاذا كانت الرؤية تقليدية تكون الاشكال تقليدية ، واذا كانت الرؤية ثورية تكون الاشكال ثورية أيضا ، أو هكذا يتوقع أن يكون» (ص ٣٨٦) •

قلنا ان الدكتور حليم بركات هو مفكر تغييري،غايته مثلى بل طوباوية • فهل أسلوبه مثل غايته ؟

ليس في أسلوب الدكتور بركات سوى ما يدعي الاقتراح أو الرأي ، اذ الغاية هي منه وله • بيد ان الغاية التي لا تتحقق تسقط مع مرور الزمن • والتغييري ، اليوم ، قد يصبح اصلاحيا غدا ، أو سلفيا ، أو توفيقيا ، وهذا امر يؤسف له حقا • على ان الواقع أهم من الخيال ، والاستمرار مع الالم أسوأ من الموت ، ولو كان مناخا للابداع •

في رحلة مع « الثقافة الابداعية : الاتجاهات الادبية

وعلاقتها بالواقع الاجتماعي» مرّ الدكتور بركات على عدد كبير من الادباء والشعراء العرب ، المقيمين والمغتربين ، الاحياء والاموات ، المشارقة والمغاربة ، فأخذ من هذا أو ذاك ، ما يلائم مجتمعه ــ الحلم الموعود . أخذ من ادونيس وزوجته خالدة سعيد . أخذ من محمد يوسف نجم ونزار سليم ومنى السعودي وعبد الكريم الخطيبي ومحمد سجلماسي وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وعباس محمود العقاد وجبرا ابراهيم جبرا وعبد الرحمن الشرقاوي وجبران خليل جبران وليلى بعلبكي ويوسف ادريس والطيب صالح وحليم بركات (المؤلف) وغسان كنفاني واميل حبيبي وحنا مينه وألبرت حوراني ومحمد عبده (الإمام) والكواكبي (عبد الرحمن) ورشيد رضا والافغاني (جمال الدين) وطه حسين وعلي عبد الرازق وقسطنطين زريق ومالك بن نبي وابن خلدون وصادق جلال العظم وهشام شرابي وطيّب تيزيني . وأخذ أيضا من عبد الله العروي ومحمود أمين العالم وحسين مروة وميخائيل نعيمة ورئيف خوري وامين الريحاني ومحمود درويش وبدر شاكر السيّاب وغيرهم وغيرهم ...

طبعا هو لم يأخذ من الكل . فلربما تعب من الطواف ونبْش القبور ودق الابواب ، أو هو تضايق من رائحة بخور العرّافين ، وأزعجته مناظر البؤساء العرب الذين

جاؤوا من كل مكان . واذ خاف هذا العالم الاجتماعي أن يمتد به الزمان معهم ، أقفل « مجتمعه » وعلّق على بابه هذا البيان (التقرير) :

« توصّلنا بعد استعراض مختلف جوانب الحياة في المجتمع العربي المعاصر ، الى أن النهضة التي كافحنا في سبيلها منذ مطلع القرن التاسع عشر اقتضت ولا تزال تقتضي ، تحقيق خمس غايات أساسية هي :

أ ــ القضاء على التبعية والتخلف .

ب ــ الغاء الطبقية .

ج ــ انجاز الوحدة العربية .

د ــ التخلص من الاغتراب .

هـ ــ تحقيق الحرية والعدالة» (ص ٥٤٨/٤٦٠) .

فمن شاء أن يدخل في هذا المجتمع (البركاتي) فليبع كل ما عنده ويتبع الدكتور حليم بركات ولو الى واشنطن .

١٩٨٤/٧/٣٠

(٧)
نحو سياسة سكانية عربية

في العالم العربي اليوم تكاد «ضجة» العلمـاء (٠٠٠) تغطي على ضجة القوم وجلبتهم وصياحهم • فالذين عليهم أن يسمعـوا ويميزوا بين الصراخ والصراخ ، كأنهم من طبقـة واحدة (٠٠٠) ، يجمع بينهم الخـوف والشعـور بالعظمة والحقد على الذين سبقوهم ، والكراهية لمن لا يحدث عن مآثرهم ومكرماتهم وانجازاتهم• ومهما تباعدوا أو تنافروا أو تخاصموا أو تلاسنوا فهم متفقون ، بشكل أو آخر، على الارض والناس، كما على الخطوط السياسية الحمر ، الموضوعـة من قبـل ، والتي قـد توضع بسبب الاحداث أو النزاعـات ، التي لا بد أن تفرضها الظروف الاقليمية والدوليـة ، ما دامت المواقع والمواقف لزجـة ومتحركـة ، تملك النظريات والحجج والبراهين ، وليس على العامة الا أن تقتنع بما قسم لها ، والا فالحكم لمن بيده الامر ، وهو معروف ، على كل حال : فاما النفي عن البلاد ، وإما السجن ، حيث القهر والتعذيب،وان لم يكن هذا أو

ذاك ، فهنالك الموت ، الذي لا مفر منه ، و «كل نفس بما كسبت رهينة» •

ففي مجلـة «المستقبل العربي» (العدد (٦٧) ـ ٩/ ١٩٨٤)[1] دراستان لا يمكننـا الا أن نتوقف عندهما ، مؤيدين أو معارضين ، مطمئنين أو مرتابين :

ـ الاولى للدكتور نادر فرجاني[2]، عنوانها «السكان والتنمية في الوطـن العربي» (من ص ٧٣ الى ص ٩١) ، وهي «صياغة مختصرة ومطوّرة ، باللغة العربية ، لورقة قدمت الى : المؤتمر الاقليمي للسكان في الوطن العربي ، عمان ، ٢٥ـ٢٩ آذار (مارس) ١٩٨٤ ، تحت عنوان :

« (Population and Developement in the Arab East »)

ـ الثانية للدكتور محمد أزهر سعيد السمّاك[3] ، وموضوعها : «الـوزن الجيوبولتيكي للانماط الرئيسية للتركيب السكاني في الوطـن العربي» (دراسة في منهج تحليل القوة) (من ص ٩٢ الى ص ١١٥) •

---

(١) يصدرها مركز دراسات الوحـدة العربية ـ بيروت ، ص.ب ١١٣/٦٠٠١ .

(٢) خبير في قضايا القوى البشرية ، وباحث غير متفرغ في مركز دراسات الوحدة العربية ، صدر له كتابان عن المركز هما : «هدر الامكانية» و «الهجرة الى النفط» .

(٣) استاذ الجغرافيا في جامعة الموصل ـ العراق .

ونقرأ أيضا، في مجلة «العربي» (العدد ٣١٢ ــ نوفمبر ١٩٨٤) «الغذاء .. قنبلة هذا الزمان !» (من ص ٢٠ الى ص ٢٣) ، وهي مقالة من الدكتور عبد الله عبد الدايم ، تبحث عن ملامح المسألة السكانية في البلاد العربية ، وفيها نظرة سريعة وخاطفة الى ملامح هـذه المسألة على الصعيد العالمي الارحب .

يتفق الدكاترة : فرجاني والسمّاك وعبد الدايم ، على ان العالم الثالث يعاني سوءا في التغذية والتوزيع السكاني، مرده غياب التنمية والفكر التنموي، فمن الواجب، والحالة هذه ، وضع سياسة سكانيـة متكاملة فعالة ، تستند الى تصور تنموي متكامل للقضايا السكانية العربية جميعها .

كان هذا على صعيد العموميات.أما عن خصوصيات كل من الدراستين والمقالة، ففي استطاعتنا القول انها متجانسة بعضها ينسجم مع بعض، حتى ان التفاصيل والمعلومات ، ولا سيما الاحصاءات منها ، التي زخرت بها دراستا فرجاني والسمّاك ، بصرف النظر عن الاختلاف في المنهجين والمضامين العلمية ، تبدو لكأنها جُمعت ونُظمت لتؤلف بحثا واحدا ، ما يعني ان مقالة عبد الدايم ، الذي لم يشأ أن يمعن «في تفصيلات الحديث عن الواقع والمستقبل السكاني في البلاد العربية»[٤]، هي البحث المرتجى المتشدد في الاختصار .

(٤) العربي ص ٢١

يقول الدكتور عبد الله عبد الدايم :

«تكاثر الحديث عن المسألة السكانية في العالم ، بل غدا الى حد بعيد مكرورا معادا . ومع ذلك يظل هذا الحديث جديدا أبدا قديما أبدا . ذلك ان الوعاء السكاني هو في نهاية الامر الهيكل العظمي للبنية العالمية الشاملة ، في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والسياسية وسواها» .

أضاف :

«لا شك ان البلاد العربية معنية كسواها ، بل اكثر من سواها بهذا الشأن ، سواء من زاوية أبعادها الشاملة أو أبعادها العربية الخاصة »[٥] .

من الثابت حضاريا ان الانسان هو أثمن من الغذاء والكساء والتربية والمسكن والماء، وأهم من المؤسسات على اختلاف أنواعها وغاياتها . فعندما نقول بتنمية العالم الثالث فانما نقول بانقاذ الانسان (الثالث) الجنوبي ، الذي قضت السياسة العالمية والاقليمية أن يظل متخلّفا عن الانسان (المتمدن) الشمالي، بينما الحق يتمثل في العدل والمساواة بين الناس جميعا ، اذ لا فرق بين انسان وآخر ، ولا فضل لابيض على أسود ، وأما الهوة التي بين البلدان النامية والبلدان المتقدمة فليست الا ما حفره الجشع والطمع وحب

(٥) المصدر السابق .

الاستغلال والسيطرة في جسد الانسانية الطاهر المطهّر .

ويقول الدكتور السمّاك :

«يلعب السكان دورا مزدوجا في جملة الحياةالاقتصادية والعسكرية في أي اقليم سياسي ، ذلك انهم المنتجون وهم المستهلكون في آن واحد . وهم المدافعون عن سيادة حدود ذلك الاقليم»[٦] .

واذ يعرض الدكتور السمّاك، بوضوح، لقوة الخريطة السكانية العربية (ص ١٠٦/١٠٧) يلحظ «بعض المؤشرات ذات السمة الخدمية ، التي تظهر نقاطا سلبية أخرى تعاني منها (تعانيها) الخريطة القومية ككل. فما زال ثلثا السكان العرب يحيون في ظلام ، فهم محرومون من أبسط مقومات الحياة المعاصرة وهي التيار الكهربائي ، ونحو ثلثهم لا يشرب الماء الصالح للشرب» .

أضاف :

« وما زالت الرعاية الصحية متدنية . وبالرجوع الى البيانات المتاحة نجد ان طبيبا واحدا لكل (١٩) الف نسمة في اليمن ، ونحو (١٠) آلاف في السودان ، مقابل طبيب لكل (٦٣٩) شخصا في بريطانيا وأقل من ذلك في الاتحاد السوفياتي» .

ويقول أيضا :

(٦) المستقبل العربي ص ١٠٦

«والابعد من ذلك فان ما يستهلكه الفرد من الطاقة بالكغم ما زال محدودا جدا في الوطن العربي مقارنا بما يستهلكه نظراؤه في الدول النامية والدول المتقدمة على السواء . فمعدل ما يستهلكه الفرد اليمني من الطاقة بلغ عام ١٩٧٩ نحو (٧٣) كغم من مدافىء الفحم فقط ، و(٧٨) كغم في الصومال و(١٤١) كغم في السودان، و(٦٩٤) كغم في العراق ، مقابل (٨٠٧) كغم للفرد في تركيا ، و (١٢١٤) كغم للفرد الواحد في ايران ، و (٣٦٤٣) كغم للفرد في اسرائيل ، و (٥٦٣٧) كغم للفرد الواحد في المملكة المتحدة (United Kingdom) و (١٢٣٥٠) كغم للفرد (الواحد) في الولايات المتحدة الاميركية » [٧] .

لماذا ؟

هل لان روسيا أو اميركا أو بريطانيا أو اسرائيل أغنى من البلاد العربية ؟ أم لان السياسة السكانية ، في أي من تلك البلدان ، هي أرقى من السياسة السكانية العربية ؟

اذا كانت المأساة أن يعرف العرب حقيقة واقعهم في هذا المجال ، فان المأساة الاكبر والاعظم أن تبقى الاقطار العربية متأخرة هكذا عن الركب الحضاري العالمي .

يقول الدكتور فرجاني :

(٧) المستقبل العربي ص ١٠٧/١٠٨

«ان التحـدي التاريخي الذي يواجه بلدان العالـم الثالث ليس مجرد تحسين وضعها في اطار البنى الحالية • فهذا لا يمكن أن يؤدي الا الى تخفيف هامشي للبؤس ، ولكن مع توثيق علاقات في تحقيق مستقبل أفضل جذريا للجماهير في العالم الثالث هو النضال من أجل احـداث تغيير هيكلي في البنيــة الاجتماعية ــ الاقتصادية لهـذه البلـدان بهدف تلبية الاحتياجـات الاساسية لكل الناس كأولوية أولى ، ووضع الاساس لتحقيـق مستويات رفاه أعلى باطراد» •

ويقول أيضا :

« ويتطلب تحقيق هذا الهدف اقامة قدرة تكنولوجيـة وانتاجية ذاتية ، وان تكون التنمية في المقام الاول تنمية للبشر تقوم على المشاركة الفاعلة وتؤكد الهوية الحضارية المستقلة والاعتماد على الذات • هذه العملية التاريخيـة تعني نضالا سياسيا مكثفا في الداخل ومع الخارج ، على حد سواء • وهذا ما نسميه تنمية » [٨] •

من الواضح ا نالفرق بين العالم الثالث والعالم المتقدم يقاس بعنصر الزمن فحسب • فالذي خاض « النضـال السياسي المكثف في الداخل ومع الخارج » ، قبل سواه ، لا بد ان يبتعد ، كثيرا او قليلا ، عن ذاك الذي ما زال

(٨) المستقبل العربي ص ٧٦

يعالج الاوهام بالاوهام ، ويفسر الجديد بالقديم •

ماذا ينتظر العالم الثالث ؟

يقول الدكتور السماك :

« ان على الاقطار العربية النفطية وغيرهـا أن تغتنم الحقبة النفطية التي تحيا في ظلها ، لا سيما وان بوادر نهاية الاحلام الذهبية النفطية قد اقتربت بعدما شهد هذا العام ، ولاول مرة ، فجوة في حجم المعروض من النفط عن الطلب الفعلي الواقعي الذي لا يفسر سوى بتدني الاسعار ، ان لم يكن اكثر من ذلك • خاصة بعدما بدأت عوامل التصدع تظهر في جسم منظمة اوبيك ، كما كشف عن ذلك اخيرا (١٩٨٢) كل من مؤتمري جنيف وفيينا » [٩]

العلماء العرب ما فتئوا يدقون ناقوس الخطر•••ولكن عبثا •

النظريات في واد ، والتنفيذ في واد آخر •

هل يعرف أصحاب عهد النفط ان « اجمالي سكـان الوطن العربي سوف يبلغ (عام ٢٠٠٠) بحدود (٢٦٧) مليون نسمة مقابل قرابة (١٥٩) مليون نسمة كما هـي الحال عليه عام ١٩٨٠ » ؟

(٩) المستقبل العربي ص ١٠٦/١٠٧

عن التوقعـات المستقبلية ، أو الخريطة السكانيـة العربية المنتظرة ، يتحدث الدكتور السماك فيقول :

« وسوف تستمر الزيادة السكانية بمعدلاتها الحالية (ان محصلة نمو الوطن العربي السكاني هي بمعدل قدره ٥،٤ مليـون نسمة سنويا) وتزيد في بعض أقطـاره حتى نهاية الثلث الاول من القرن القادم (بالمتوسط ٢٠٣٠) الى أن يبلغ حجم سكانه الحجم المفترض لجموده ، أو ما يُعبَّر عنه بالحجم النظري الثابت • وعندها سوف يبلغ اجمالي عدد سكان الوطن العربي نحو (٥٨٠) مليون نسمةعلى انه ينبغي أن نشير الى ان النسبة المحددة آنفا هي ذلـك الحد الذي يفترض عنده أن يصل معدل التكاثر الىواحد، فيحين ستكون نهاية العقود القلائل القادمة حداً أعلى لثبات السكان،أو السنة التي يكون فيها ثبات السكان » (١٠) •

العرب ، بعد نصف قرن ، ماذا يهيىء لهـم عـرب اليوم ؟

أكثر من نصف مليار فم ومعدة يجب أن نبعد عنهـا الجوع الذي هو رأس الامراض كافة •

اذا أردنـا أن نبحث عن الحل فهو ، لا شك ، فـي الاقتصاد والسياسة معا •على أن الاقتصاد القوي يحتاج الى سياسة قوية عادلة ، والعكس بالعكس •

(١٠) المستقبل العربي ص ١١٢/١١٣

يقول عبد الدايم :

« ولنـذكر عابرين ان مسألة الامن الغذائي ليست مسألة اقتصادية فحسب ، وليست مسألة معدة جائعةوأفواه نهمة فقط ، بل هي فوق هذا ، وقبل هذا ، مسألة سياسية خطيرة • فسلاح الغذاء غدا اليوم في العالم كله سلاحـا أقوى وأمضى من السلاح الذري تستخدمه الدول انفاذا لسياساتها • وحسبنا أن ننظر بامعان الى السياسة التـي يمارسها بلد كالولايات المتحدة (حتى الاتحاد السوفياتي) في ميدان تصدير القمح » (١١) •

الارض هي القوة الاولى بعد الانسان • فيها النفط والقمح والحديد والفحم وسائر المعادن • وفيهـا أيضـا الماء والغذاء للانسان كما للحيوان كما للنبات •

ان أجمل الاحلام أن يرى الانسان نفسه سعيـدا ••• على الارض •

ولكي يصبح هذا الحلم واقعـا أو حقيقة يجب أن نطوّر العلاقة التي بين الارض والانسان • وليست الارض مصدر شقاء كما يدّعي البعض •

الارض — كل أرض ، قابلة للاستصلاح والتحديث و « التدجين » (Domesticating) • وبمقدور الانسان ان يجعل الصحراء طوع يديه (In his power) ويحولهـا واحة خصيبة خضراء •

(١١) العربي ص ٢١

من هنا نبدأ !

مع الانسان والارض ننطلق !..

تعالوا لنسأل عن الانسان الجنوبي (الثالث) والارض الجنوبية (الثالثة) !

أين نحن من أرضنا ؟

لماذا الشمال شبعان والجنوب جائع ؟

الزنود السمر من الذي منعها أن تكسر قشرة الارض؟ السياسة ؟

غيبة هذه السياسة التي لا تفكر ولا تخطط .

وغيبة أكثر فأكثر اذ تعلم أن « متوسط دخل الفرد ـ حاليا ـ في البلدان المتقدمة الغنية يفوق مائتين وعشرين مرة متوسط هذا الدخل في البلدان الفقيرة »[١٢] وتسكت عن هذه الجريسة النكراء .

كل يوم يُذبح فقراء الجنوب (العالم الثالث) ، ولا من يسأل أو يستنكر .

الشمال (المتمدن) دعا الى « معركة الحد من نمو السكان » في هذا العالم ؟!

رفع شعاره : « تنظيم الاسرة » وادّعى الغيرة والحرص على حرية « الثالثين » ومستقبلهم ؟!

ولكن الازمة بقيت تراوح مكانها ...

(١٢) د. عبد الدايم : العربي ص ٢٠

كأني بالشمال لا يريد أن يفهم ان النمو السكاني المرتفع « لا يمثل مشكلة في كل المجتمعات »[١٣] مهما تقاربت « جغرافياً وسياسيا وعقائديا » .

نعود ثانية الى الارقام .. والى التوقعات المستقبلية. يقول الدكتور السمّاك :

« ولعلّ من نافلة القول أن نشير الى عدد سكان الاقطار العربية المواجهة لفلسطين المحتلة حاليا يبلغ (٥٦) مليون نسمة (كل من سوريا والاردن ومصر) مقابل أربعة ملايين نسمة فقط في اسرائيل . وبحلول عام (٢٠٠٠) سوف يربو عدد سكان سوريا والاردن عن (٢٢) مليون نسمة مقابل (٥) ملايين نسمة في اسرائيل . علما بأن عدد سكان مصر ولبنان سوف يصل الى (٦٤) مليون نسمة وحدهما. وان الحجم النظري الثابت للسكان سوف يكون(٧) ملايين نسمة في اسرائيل فقط مقابل (١٥٦) مليون نسمة للاقطار الاربعة العربية : سوريا ولبنان والاردن ومصر . أي نحو أكثر من (٢٢) مرة حجم عدد السكان المغتصبين لفلسطين المحتلة »[١٤] .

أين هو العيب اذاً ؟

العيب في السياسة . في السياسة وحدها .

(١٣) الدكتور فرجاني : المستقبل العربي ص ٧٦
(١٤) د. السماك : المصدر نفسه ص ١١٣

صحيح ان العرب المواجهين لفلسطين المحتلةهم أكثر عددا وعدّة من يهود اسرائيل ، الا ان العربي يا لـلاسف مهزوم في العديد من مفاصل الحياة اليومية والعامة •

العرب مزّقتهم الاحزاب والمذاهب والفتن والاحقاد التاريخية والاحداث المتواصلة والدول التي تعاقبت على احتلال بلادهم واستعمارها ، بينما اسرائيل «تخطط وتنفذ وتضرب ضربة رجل واحد » (١٥) بلا هوادة وربما بـلا رحمة •

فلا بحر العرب للعرب ، ولا فضاؤهم هو فضاؤهم ، ولا نفطهم هو نفطهم ، ولا أرضهم هي أرضهم • حتى ان الاسلحة التي لديهم ، بخاصة الثقيلة والمتطورة ، ليست لهم ، وهم الذين يقتل بعضهم بعضا اذ ليس أسهل على العربي من قتل أخيه العربي •

يكفينا أن نذكّر بالحرب اللبنانية التي دخلت عامها الحادي عشر ،على رغم الوعود العربية والدولية التي لا تحصى •

من الذي دمّر هذا البلد (العربي) الصغير ؟

من الذي شرّد اللبنانيين وهجّرهم واغتصب احلامهم ؟

نحن لا ننكر ان اسرائيل وُجدت لتخرب الهيكـل العربي وتهدمه على رؤوسنا ، فهل يعرف العرب أن اسرائيل « وُجدت لتبقى » ؟!

(١٥) د. السماك : المستقبل العربي ص ١١٠.

من المسؤول ؟

في الحقيقة ، تقع المسؤولية ، أولا وأخيرا ، علـى السياسـة العربية ـ السياسة اللبنانية جزء منها ـ التي تسمح لاسرائيل بان تفتك بنا وتتجبر وتهتك حريتنا وأمننا •

لقد بات معلوما لدى الجميع ان اسرائيل التي «تبلغ قواتها البرية /٤٠٠/ ألف مقاتل ، أي نحو (٣٥،٠٢) بالمائة من اجمالي القوات البرية العربية ، والتي تمتلك حوالى نصف حجم تشكيلات القوات الخاصة العربية ، وربـع (مجموع) اجمالي عدد الدبابات في الوطن العربي ،ونصف ناقلات جنوده ، و (٢٤،٧) في المئة من عدد الطائرات العربية المقاتلة » (١٦) هي أقوى من مصر ، وأقوى من سوريـا ، وأقوى من الاردن ، وأقوى من لبنان ، بل هي أقوى من العرب جميعا ،حتى يتّحدوا ويتحرروا من عقدهم ورواسبهم وارتباطاتهم مع هذا أو ذاك •

ومما جاء في دراسة السماك أيضا :

« لقد دأبت اسرائيل ، بحكم الحيّز الضيق (٢١ ألف كلم٢) على أن تنقل حربها باستمرار خارج الحدود السياسية لتجنّب المستوطنين الصهاينة مغبة نتائج الحرب ودمارها ، وتتخذ من الاراضي العربية المواجهة مسرحـا

(١٦) د. السماك : المستقبل العربي ص ١١١

لعملياتها تقودها في النهاية الى إحداث تغييرات جغرافيـة بشرية سريعة وتدْخلها ضمن كيانها المغتصب » [١٧].

تلك هي حالة العرب ـ باعتراف الدكاترة فرجاني والسماك وعبد الدايم وغيرهم من الباحثين والاساتذة ـ منذ أول حرب اسرائيلية ـ عربية والى احتلال الجنوب اللبناني ، واجتياح بيروت والجبل (عام ١٩٨٢) ، وترى الارض العربية تقضمها اسرائيل شبرا بعد شبر ، فيما العرب كأنهم زهدوا بالدنيا وارتضوا منها بالدون ؟!

لكي تتغلب «ضجة» العلماء العرب على ضجة القوم وجلبتهم ، مطلوب من القياديين العرب ومعاونيهم ومستشاريهم ، أن يقرأوا ويقرأوا حتى يعرفوا كيف يرسمون لانفسهم الطريق الى الاستقلال الحقيقي والوحدة والحرية . اذ ذاك يضمنون للاجيال العربية الآتية مستقبلا حرا كريما لا يعرف الذل والجوع .

١٩٨٥/٣/١٧

(١٧) المصدر نفسه .

(٨)

جامعة الكويت حاضرة في الشرق وحاضرة في الغرب

في العدد الثالث عشر (المجلد الرابع ـ شتاء ١٩٨٤) من « المجلة العربية للعلوم الانسانية » [١] ، ابحاث

(١) ٣٠٠ صفحة من القياس الكبير ، تصدر عن جامعة الكويت، رئيس التحرير : الدكتور عبد الله العتيبي، مديرة التحرير : السيدة آمال بدر الغربللي ، سكرتير التحرير : محمود بركات .

لها مجلس ادارة يتألف من الدكاترة : عبد الله يوسف الغنيم (الرئيس) ، سليمان الشطي ، طارق فخر الدين ، عبد المالك الشحيمي ، فهد ثاقب الثاقب ، خليفة الوقيان ، شفيقة بستكي ، عبد الله العتيبي ، فاطمة العبد الرزاق ، محمد عثمان النجاتي .

وتتكون هيئة تحرير المجلة من الدكاترة : سليمان الشطي ، طارق عبد الله فخر الدين ، عبد الله العتيبي ، عبد المالك التميمي ، فاطمة العبد الرزاق ، محمد عثمان نجاتي ، ومحمد رجا الدريني (محرر القسم الانجليزي) .

هي مجلة فصلية محكمة ، تعنى بالميادين الآتية : اللغويات النظرية والتطبيقية ـ الآداب المقارنة ـ الدراسات =

ودراسات تستحق الدرس والمراجعة والتنويه ، وهي ، مجتمعة ، بمثابة وسام على صدر جامعة الكويت •

أبواب المجلة أبواب الجامعة • الدخول اليها صعب وهيّن في آن معا • وفي الحالتين ، لا بد أن يسبقه الاحترام وحب المعرفة والمقدرة على المثابرة والمداومة • فالمجلة — على العموم — كما الجامعة ، للباحث والطالب والاستاذ والقارىء والمثقف والكاتب ، وكل يأخذ أو يعطي بمقدار •

على ان العلاقة بين الاخذ والعطاء أولها الكلمة وآخرها الكلمة • ومن لا رأي له لن ينفع أو يضر •

الجامعة ، كل جامعة ، هي صاحبة رأي ، لانها قوية ومتمكنة • وتناضل من أجل رأيها ، بل تتعب وتشقى حتى تؤمّن له السيادة والاحترام • والجامعة صناعتها انسانية تفبرك الرجال والنساء ، وتوجه الحاكم والمحكوم ، فكأنها للشعب كما القلب ، وللرئيس كما العقل •

= الفلسفية — الدراسات النفسية —الدراسات الجغرافية المتصلة بالعلوم الانسانية — الدراسات التاريخية—الدراسات الجغرافية — الدراسات التربوية — الدراسات حول الفنون (الموسيقى — التراث الشعبي — المسرح — الفنون التشكيلية — النحت .. الخ) — الدراسات الآثارية (الآركيولوجية) . وتقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر : البحوث والدراسات — ومراجعات الكتب—التقارير العلمية — المناقشاتالفكرية .

تخطىء الجامعة وتصيب • لكنما الثابت انها جامعة فحسب : قدماها في التاريخ ورأسها في الازمنة الآتية •

وعلى كلٍّ ، فان أهل الخطأ هم أهل الصواب ، والعكس بالعكس ، ولولا هذا الاعتبار « المقدس » لما كانت جامعة ولا كان جامعيون •

الصراع في الجامعة وعليها ومنها •

والجامعة التي لا تصارع هي إما باردة ، وإما انها ذات قلب محطّم •

من المؤكد أن جامعة الكويت ليست من هذا الفريق أو ذاك ، بل هي جامعة بكل ما للكلمة من معنى • قوية لم تهرم ولم تضعف • حاضرة في الشرق وحاضرة في الغرب • طموحها أن تقف على قدم المساواة مع أعرق الجامعات وأكبرها وأشهرها •

وهي أيضا رسالة الكويت الى العرب والعالم •

فلكي نعرف مستقبل الكويت يجب أن ننظر الى وجهها — الجامعة •

ألا كرّم الله وجه الكويت وأطلق يديها بالخير •

أما الكويت ، اليوم ، فالحديث عنها يحلو ويطيب •

انها لؤلؤة الصحراء وكتابها المبين •

من هنـاك ، تأتينا « العربي » و « عـالم الفكر » و « الكويت » ، والكتاب الشهري الذي يصدر عن «عالم المعرفة » و « مجلة العلوم الاجتماعية » و « المجلة العربية للعلوم الانسانية » و « البيان » و « الثقافة العالمية » .

الكويت ، جنـة الصحراء ، فيها من كل الثمرات ، وتتحدى القحط واحتباس المطر .

أنا خائف على الكويت من الايدي القذرة، ومن الحاسدين والحاقدين، بل من زبانية «ملوك» الارهاب و « أمرائه » .

أراني ابتعدت عن الموضوع .

ولكن هـذا من وحي « المجلة العربيـة للعلـوم الانسانية » التي نحن في صدد الحديث عنها .

قبل الدخول الى « المجلة العربية للعلوم الانسانية » لا بد من المرور بكلمة رئيس التحرير ، الدكتور عبدالله العتيبي ، وفيها يعلن ان المجلة أتمّت (مع صدور هـذا العدد) ثلاث سنوات من عمرها ، وبدأت عامها الرابع » (ص ٥) .

تتألف « المجلة العربية للعلوم الانسانية » من خمسة أركان ثابتة هي : « الابحاث » (بعضها منشور بالعربية ، وبعضها الآخر بالانكليزية) و « المناقشات » و«مراجعات وعرض الكتب » و « مراجعة مخطوط » و « التقارير ».

أضف الى القسم العربي « ملخصات الابحاث المنشورة بالانكليزيـة » فيما ضم القسم الانجليزي « ملخصات الابحاث المنشورة بالعربية » .

بعد كلمـة رئيس التحرير ، بحث مـن الدكتـور عبد الحميد السيد[٢] عنوانه «نزع الخافض عامل نحوي مطرد للنصب » (من ص ٩ الى ص ٢٠) ، غايته اعتبار نزع الخافض (أو الجارّ) « عاملا للنصب ، مثله في ذلك مثل العمل المعنوي الذي رفع الفاعل والفعل المضارع وغيرهما يزيل هذا لتكلف ولعسر » ، وهـو ، في مجمله ، شيّق وبسيط ، لا يبعث على الملل ، وانما يفتح بابا«لنظرة مدققة في العوامل النحوية ، أمام من يؤمن بها أو يقـول بأثرها في الإعراب » ، كما يؤكد ان اللغة العربية تتسـع لاحدث النظريات في علم النحو وغيره ، وتحتمل التطوير والتحديث ، لكونها قوية وأصيلة وذات كيان مرن وعظيم.

البحث الثاني من الدكتور محمد ضيف الله البطاينة[٣] وموضوعـه « قَتَلـة عثمان بن عفان بين علـي بـن أبي طالب ومعارضيه » (من ص ٢٣ الى ص ٤٠) «يتناول الحالة بعد مقتل الخليفة الثالث (عثمان) ممثّلة في البيعة لعلي بن أبي طالب بالخلافة ، والموقف من قضية مقتل

(٢) أستاذ النحو بقسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الكويت.
(٣) أستاذ مشارك في دائرة العلوم الانسانية في جامعة اليرموك — الاردن .

عثمان وقتلته ، والآثار التي ترتبت على ذلك »•

هل كان لعلي بن أبي طالب ضلع في هذه المؤامرة ؟
هل كان علي يعلم من هم قتلة عثمان ؟

من حق الدكتور البطاينة أن يثير هذا الموضوع ، بالذات ، وتماما كما جاء في بحثه المذكور • ومن حقه أيضا أن يتهم عليّا وغيره ، فالمسألة ، بالتالي ، أصبحت أهم من حب الباحث لعثمان أو لعلي ، وأهم أيضا من أي ارتباط عاطفي غير قائم على العقل والمنطق • وما يمكننا قوله ، الآن ، هو ان مقتل عثمان خطّط له أكثر من واحد ، فالمستفيدون كثيرون ، والمتضررون كثيرون أيضا •

من قتل عثمان بن عفان ؟

الذين كرهوا عثمانا هم قتلته ، بشكل أو آخر • وعثمان ، نفسه ، ساهم في قتل عثمان •

ليس صحيحا أن محمدا ، بن أبي بكر ، بريء ، كما يدّعي البعض ، ولا هو وحده القاتل •

من علي بن أبي طالب الى عائشة الى معاوية الى طلحة الى الزبير الى محمد بن أبي بكر (حليف علي) ، والكل مسؤول عن دم هذا الخليفة الثري ، الذي كانت مواقفه ، في معظمها ، متطرفة وعنيدة وانفعالية •

ان عليّاً ، الذي لم يتخذ « عقوبة ما بحق قتلة عثمان »على قول الدكتور البطاينة،قُتل هو أيضا،ولم يستطع العقلاء أن يُبعدوا السكين عن عنق الاسلام • معنى ذلك ان القضية هي أبعد من مقتل عثمان••وأبعد من مقتل علي•

واذ أكتفي ، هنا ، بهذه التساؤلات والملاحظات حول بحث الدكتور البطاينة ، فلأنني خصصت لهذا الموضوع فصلا مستقلا عنوانه : لماذا قُتل عثمان بن عفان [٤] •

البحث الثالث ، من الدكتور صلاح الدين سيد البحيري [٥] دعاه« نص هام عن أحوال دار الطراز المصرية في أوائل عصر الدولة الايوبية » (من ص ٤٣ الى ص ٥٣) وهو عبارة عن دراسة فصل صغير من كتاب « المنهاج في علم خراج مصر » للقاضي أبي الحسن بن علي بن القاضي عثمان بن يوسف بن منبه القرشي المخزومي ، الذي سبق للاستاذ كلود كاهين (Cl. Cahen) ، أستاذ التاريخ الاسلامي في السوربون ـ باريس، أن اهتم بدراسة فصول منه •

في دراسة البحيري نلحظ مقدرة الكاتب على البحث والتنقيب والتحقيق والتدقيق ، ولا يسعنا الا أن نذكر

(٤) أنظر الفصل الاول من الباب الثالث المحور الاسلامي .
(٥) استاذ مساعد في كلية الآثار الاسلامية ـ جامعة القاهرة.

بها شاكرين له هذا الجهد العلمي ، الذي لا يقوى عليه الا المخلصون . ونلحظ أيضا ، من خلال النص المخزومي ، الذي ذيّل به البحيري بحثه كله ، دقة في المعلومات عن نسج خيوط الذهب في المنسوجات التي كانت تُصنع في دار الطراز المصرية ، آنذاك ، تشجعنا على القول بأن القاضي المخزومي كأنه صاحب صنعة ، والا فان هذا النص هو إما لأحد الطرازين ممن عرفهم أبو الحسن ، أو لاحد العرفاء ممن كانوا يرسمون الزخارف والمناظر المراد رقمها بخيوط الذهب على الاقمشة ، ويشددون الرقابة على التنفيذ منعا لحصول الغش والخيانة .

وأياً كان رأينا ، فان القاضي المخزومي قد ترك أثرا بالغ القيمة ، لا غنى عنه لكل باحث يرغب في درس عصر الدولة الايوبية، في مصر، وكذلك دراسة الدكتور البحيري، التي تُعتبر ، بحق ، مدخلا الى هذا الاثر المخزومي الفريد من نوعه .

إن ما قلناه عن البحيري ، المحقق ، نقوله أيضا عن الدكتور عزمي طه السيد أحمد [٦] الذي له بحث في غاية الاهمية أُعِدّ لحصر جميع المعلومات الممكنة حول تاريخ

(٦) مدرّس الفلسفة الاسلامية في جامعة الامارات العربية المتحدة .

كتاب أرسطو « السماء والعالم عند العرب » .

ففي هذا البحث معلومات جديدة لم يأتنا بها أحد من أصحاب كتب التاريخ والفهارس ، مثل ابن النديم والقفطي [٧] وابن أبي أصيبعة ، حتى ولا الدكتور عبد الرحمن بدوي ، في نشرته للنسخة الوحيدة الباقية من ترجمات الكتاب العربية ، برغم ما بذله (الاستاذ بدوي) من جهد ، عندما قام بجمع شتات هذه المعلومات ، كما يقول الدكتور عزمي أحمد نفسه .

وحسبي أن الدكتور عزمي قد حقق عمله على أكمل وجه .

ويشمل ركن الابحاث أيضا : «الاسس النفسية للتعليم في الجماعات الصغيرة » (من ص ٧٩ الى ص ٩٣) للدكتورة نادية محمود الشريف [٨] التي ما زلت أحتفظ لها بالتقدير والاعجاب منذ اطلاعي على بحثها القيّم جدا «الاساليب المعرفية

(٧) القفطي هو : علي بن يوسف ، ابو الحسن جمال الدين (توفي ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) وزير ، مؤرخ ، اديب ، شارك في علوم العربية في الرياضيات والنحو والهندسة . نشأ في القاهرة . رحل الى حلب ووليّ الوزارة للملك العزيز . كان له مكتبة شهيرة أوصى بها للناصر . توفي بحلب . له «الاصلاح لما وقع من الخلل في كتاب الصحاح » في اللغة ، « الكلام على الجامع الصحيح» ، «اخبار العلماء بأخبار الحكماء» ، «الدر الثمين» .

(٨) مدرّسة بقسم علم النفس التربوي ، كلية التربية ـ جامعة الكويت .

وعلاقتها بمفهوم التمايز النفسي » المنشور في مجلة « عالم الفكر » (ابريل ١٩٨٣) ، وقد زاد تقديري لها بحثها الجديد هذا ، الذي أدعو الجامعات العربية كافة الى قراءته ودرسه ومناقشته ، فهو ، في رأيي ، ثورة على المفاهيم السائدة التي ما فتئت تحول دون تحقيق الهدف التعليمي المنشود •

بعد بحث الدكتورة شريف نقرأ « خطة مقترحة لتقويم تقارير الابحاث المنشورة وغير المنشورة في العلوم السلوكية » (من ص ٩٥ الى ص ١٠٨) للدكتور صلاح الدين محمود علام [٩] ، وهي دراسة تعيّن مجموعة من المحكّات التي يمكن الاسترشاد بها في وضع تقدير كمي وتقدير نوعي للمكوّنات الرئيسية للبحوث ، في المجالات المختلفة للعلوم السلوكية، كما تساعد الباحثين على تقويم بحوثهم تقويما ذاتيا بما يتفق وطبيعة هذه البحوث ، وتساعدهم أيضا على الاطلاع على بحوث غيرهم بطريقة فاحصة ناقدة •

أما البحث الاخير فهو « مقارنة بين طريقة الاستقصاء وطريقة الالقاء في تدريس الجغرافيا للدكتور جودت أحمد سعادة [١٠] ، بل دراسة ميدانية

(٩) مدرّس القياس والتقويم والاحصاء النفسي التربوي ـ قسم علم النفس ـ جامعة الكويت .

(١٠) مدرّس بدائرة التربية ـ جامعة اليرموك ـ الاردن .

تجيب بالارقام والوقائع والبيانات الاحصائية على السؤالين التاليين :

١ ـ ما أثر كل من طريقتي الالقاء والاستقصاء على تحصيل طلاب الصف الاول الثانوي في مادة الجغرافيا في الاردن ؟

٢ ـ هل هناك فرق في الاحتفاظ بمادة الجغرافيا التي يتعلمها الطلاب بطريقتي الالقاء والاستقصاء ؟

ولما كانت رغبتنا أن نلقي بعض الاضواء على أركان « المجلة العربية للعلوم الانسانية » ، سننصرف عن مناقشة ما تقدم من أبحاث بشكل موسع ، لنكمل رحلتنا مع هذه المجلة ، فان فيها كل شيء جميل ومفيد •

لقد استأثر الدكتور يوسف الاسدي [١١] بركن « المناقشات » (من ص ١٤١ الى ص ١٥٨) فملأه ببحث أدبي جمع النقد الى العرض والتحليل ، عنوانه « الاسطورة في تحليل باخمان » ، الذي تناول بالتحليل ، في مجلة « الادب الالماني » عددها الصادر في ١٩ حزيران ١٩٨٣ ، أربعة شعراء هم : يوسف الخال وخليل حاوي (لبنان) ، وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي (العراق) •

لقد تفوّق ـ نقولها بدون انحياز ـ الدكتور

(١١) من مديرية الاعلام ـ وزارة التربية ـ بغداد .

الاسدي على باخمان ، اذ جاء بآراء قيّمة وجليلة حددت مفهوم الواقع،ولا سيما العربي،والاسطورة، والشعر الحر في الادب العربي الحديث ، فبرز الفرق بين وجهتي النظر الاوروبية والعربية ، وهكذا استطاع الاسدي أن يضع كلا من الشعراء الاربعة في مكانه تماما .

نشارك الاسدي القول « يحسن الشعراء حين ينفون الاسطورة التي لا يؤمنون بها من شعرهم ، هذا ان كانوا يستهدفون تصور الواقع بجدية ـ والا فانهم ينساقون الى ذلك الخطر الذي حذّر منه القرآن الكريم حين قال : « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وفي «مراجعات وعرض الكتب » قرأت الدكتورة شفيقة بستكي[١٢] كتاب « ما هي الابيستمولوجيا ؟» [١٣] (Epistomology) للدكتور محمد وقيدي ، وقرأ الدكتور عمر كمال توفيق [١٤] كتاب « الدراسات العربية والاسلامية في أوروبا » [١٥] للدكتور ميشال جحا ، ثم قرأ

(١٢) من قسم الفلسفة ـ جامعة الكويت .
(١٣) صدر عن دار الحداثة ـ بيروت .
(١٤) من قسم التاريخ ـ جامعة الكويت .
(١٥) صدر عن معهد الانماء العربي ـ بيروت ١٩٨٢ .

الدكتور يحيى أحمد [١٦] كتاب « النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي» [١٧] للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، كذلك قرأ الدكتور أحمد البرصان [١٨] كتاب « المعجم التاريخي للصحراء الغربية » لمؤلفه « توني هودجز » ، وقرأ الدكتور محمد يوسف علوان [١٩] كتاب « القانون الدولي وقضية فلسطين » [٢٠] للديبلوماسي المخضرم الدكتور سيف الوادي الرمحي .

وراجع الدكتور محمد عيسى صالحية [٢١] مخطوط « انتهاز الفرص في الصيد والقنص » [٢٢] لمؤلفه حمزة بن عبد الله الناشري [٢٣] ، فأضاف الى الكتاب حسنًا وجمالا

(١٦) من قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت .
(١٧) منشورات مطبعة المدينة ـ القاهرة ١٩٨٣ .
(١٨) من جامعة جنوب كاليفورنيا .
(١٩) من كلية الحقوق ـ جامعة الكويت .
(٢٠) منشورات شركة كاظمة للنشر والتوزيع ـ الكويت ١٩٨٣
(٢١) من قسم التاريخ ـ جامعة الكويت .
(٢٢) نشرته المكتبة الظاهرية في دمشق .
(٢٣) الناشري ، هو حمزة بن عبدالله بن محمد بن علي بن ابي بكر الناشري ، فقيه ، محدّث ، فرضي (يعنى بعلم المواريث) ، جمع بين العلوم العقلية والنقلية . وُلد بنخل وادي زبيد باليمن سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٣٠ م ونشأ وتوفي بزبيد سنة ٩٢٦ هـ ـ ١٥٢٠ م ودرس على علماء العصر أمثال الطبيب الناشري ومحمد بن حميش ومحمد الدين الفيروز ابادي والسيوطي والسخاوي ، وألّف العديد من الكتب منها : «البستان الزاهر في طبقات علماء آل ناشر» و «سالفة العذار في الشعر المذموم والمختار» ، و «الفية في غريب القرآن» ، و « مجموع حمزة »، من فتاوى علماء اليمن، وله كتاب في =

الا اننا لم نعثر في هذه المراجعة على اسم محقق كتاب حمزة الناشري ؟!

وتختم « المجلة العربية للعلوم الانسانية » قسمها العربي بتقريرَي° الدكتورين : داود حلمي السيد [٢٤] عن « مؤتمر المعجمة » الذي عُقد في جامعة اكستر ــ بريطانيا من ٩ــ١٢/٩/١٩٨٣ ، ومحمد رجب النجار [٢٥] عن « ندوة التراث العربي والمسرح » التي أقيمت في الكويت، من ١١ ــ ١٤ /٢/١٩٨٤ .

يبقى أن نشير الى أخطاء لغوية وأخرى مطبعيةوقعت في بعض المقالات والابحاث ، ولا سيما في الصفحات ٦٦ ــ ٦٧ ــ ٦٩ و ٧٠ من بحث الدكتور عزمي طه السيد أحمد، مثل : « وهذا يعني ان له شرح أصغر » (الصحيح :شرحا) « يرى الاستاذ بدي » (الصحيح : بدوي) ، «ان لسبنقليوس شرح يوناني للكتاب السماء والعالم » (الصحيح : شرحا يونانيا) ، « لأن في مثل هذا الحل

= النبات سماه « حدائق الرياض » وكتاب « حلب الزبون في مدح البنون» و «انتهاز الفرص» وقد الفه للسلطان المظفر عامر بن عبد الوهاب ، سلطان الدولة العامرية (الظاهرية) في اليمن والتي اتخذت من كل من زبيد والمقرانة عاصمتين للدولة .

(٢٤) من قسم اللغة الانكليزية ــ جامعة الكويت .

(٢٥) من قسم اللغة الانكليزية ــ جامعة الكويت .

تعسف كبير » (الصحيح : تعسفا كبيرا) . وفي بحث الدكتورة نادية محمود شريف هنالك : « كما ان لها تأثير» (ص ٨٤) (الصحيح : تأثيرا) ، « وهنالك أعمالا » (ص ٨٤) (الصحيح : هنالك أعمال) .

كذلك في بحث الدكتور جودت أحمد سعادة (ص ١١٩) : « وقد تم الاتفاق على ان لهذه الوحدة هدف تعليمي عام واحد » (الصحيح : هدفا تعليميا عاما واحدا)، وفي ملخص بحث الدكتور محمد الذوادي ، المنشور بالانكليزية « يصبح ابن خلدون عالم نفس بالغ أصيل » (ص ١٣٥) (الصحيح : بالغا أصيلا) ، وفي ملخص بحث الدكتور سبندلر (Spindler) المنشور بالانكليزية أيضا: « الا ان المسرحية تحتاج لتحليل » (ص ١٣٦)(الصحيح: الى تحليل) .

ومما لا شك فيه هو ان جامعة الكويت التي آمنت بضرورة الصراع على العلوم الانسانية ، ستحقق للكويت وكل الخليج العربي مستقبلا حافلا بالمجد والعطاء .

١٥/١١/١٩٨٤

(٩)

الآشوريّون والنساطرة إلى أين؟

جاء في كتاب « الآشوريون » (١) لمؤلفه عزيز برخو عزيز ما يلي :

« وقبل وصول (الملك الآشوري) سنحاريب (ابن سرجون الثاني) (٧٥٠ — ٦٨١ ق٠ م٠) بعث حزقيا (اليه) قائلا له : (لقد أخطأت ، ارجع عني ومهما جعلتَ عليّ حملته)،فطلب منه الملك الآشوري كمية كبيرة من الذهب والفضة فقدم له حزقيا الذهب والفضة الموجودة في خزائن القصر بيد أن كمية الذهب التي أرسلها حزقيا الى سنحاريب لم تناسب ما طلبه الملك الآشوري • فبعث هذا بجيشه تحت قيادة ربشاقي وترتان ورساريس الى أورشليم • ويذكر سنحاريب في رسالة له دُوِّنت على مسلّة سداسية تدعى (مسلة تايلور) نسبة الى مكتشفها وهي الآن في المتحف

(١) ٢٠٣ صفحات من القياس الوسط ،السويد/ستوكهولم ١٩٨٥الى خاتمةووثائق وصور وفهرست بالمصادر والمراجع.

البريطاني ، يقول فيها : (لقد أصبحت على أبواب عقرون فذبحت حكامها وأمراءها الذين نقضوا العهد ، وعلّقتُ جثثهم الميتة على أعمدة تحيط بالمدينة ، وأهل المدينة الذين قاموا بأعمال شريرة وارتكبوا الجرائم فقد اعتبرتهم في عداد المجرمين ، أما الذين لم يقوموا بأعمال كهذه ولم يرتكبوا الجرائم فقد عفوت عنهم) » •

ويتابع سنحاريب (Sennacherib) قائلا :

« ثم حاصرت حزقيا ملك يهوذا الذي أبى الاذعان لعبوديتي • ثم استوليت على ست وأربعين من مدنه وحصونه القوية ، وعلى عدد لا يحصى من القرى الصغيرة المحيطة بها • لقد سيطرت على تلك المدن بالكباش وبآلات الهجوم وبالجنود المشاة • وحفرت الانفاق والتجاويف في الاسوار • وقبضت على مئتي الف وخمسين شخصا بينهم الكبير والصغير والشباب والشيوخ والرجال والنساء وغنمت عددا لا يحصى من الخيول والبغال والحمير والجمال والثيران والخراف ، أخذتها كلها غنائم وأسلابا، ثم سجنت الملك نفسه في مدينته الملكية أورشليم • وجعلته كالطير السجين في القفص ووضعت عليه الاستحكامات وانتقمت من كل من حاول الخروج من المدينة مباشرة وأعطيت المدن التي استوليت عليها الى متنتي ملك أشدد، والى يال ملك عقرون والى ميلي بعل ملك غزة • لقد خذلت

حزقيا بجلال سلطاني ، وتخلى عنه خيرة المحاربين الـذين اختارهم للدفاع عن أورشليم » [٢]

واستمر الآشوريون يغالبون الامم والشعوب مـن اجل التوسع وحماية أملاكهم و « مستعمراتهم » ، حتى سقطوا سياسيا وزال ملكهم ، ليبدأوا صراعا جديـدا مع الشرق والغرب ، وفي اعتقادهم أنهم عائدون على عربـات تسابق البرق .

فمن السياسة الى الدين ، ومن الحرب الى التبشير ، على أن السيف هو السيف ، والكتاب هو الكتاب ، ولكل منهما مكانته عندهم ، فانْ بدا لك انهم كالحجر « الاعمى » ، فلأنهم نساطرة وليست العلة فيهم وحدهم ، بل في أولئك « البنائين » الـذين سرّهـم أن يبقى نسطـور الحجر المرفوض [٣] ، حسبما أراد كيرلس الاسكندري « مهندس » مجمع أفسس والحكم التالي :

« بما أن نسطوريوس الجاحد أضاف الى تجاوزاته السابقـة اجابة منكرة الدعوة ولم يستقبـل الاساقفـة

(٢) الآشوريون : عزيز برخو عزيز ص ٣٤ .
(٣) د. فرح الفرزلي: النساطرة في التاريخ (رسالة ماجستير ، مخطوط . الفصل الثاني : « نسطور الحجر الذي رفضـه البناؤون » ص ٢٨ . نرجو من الدكتور الفرزلي أن يرجـع الى رسالته هذه مع بعض التفصيل والتوسيع ، ثم الـى العمل على نشرها . نظرا لأهميتها والفائدة المرجوة منها .

القديسين الذين أوفدناهم اليه رأينـا أننا ملزمون بـأن نفحص تعاليمه الكفرية وقد تبيّن لنا انه اعتقد بتعـاليم مخالفة للتقوى ونشرها كتابة في رسائله ومقالاته وخطبه التي ألقاها في هـذه المدينة وقـدمت الشهادات بشأنهـا فاضطررنا بحسب القوانين وحسب رسالة زميلنـا فـي الخدمة وأبينا الجزيل القداسة كلستين (قلستينيس الاول ٤٢٢ ــ ٤٣٢ م) أسقف (بابا) روما أن نصدر بـدموع غزيرة هذا الحكم المحزن ضده أعني أن ربنا يسوع المسيح الذي جدف عليه يحكم بواسطة هذا المجمـع المقـدس بوجوب تجريد نسطور من الكرامة الاسقفية ومن كـل شركة كهنوتية » [٤] .

يبدو أن الاضطهاد لا يحصد الا اضطهادا مثلـه أو أشدّ ، والحرْم يُردّ عليه بحرم كذلك ، وبحر الحياة مدّ وجزْر ، فعبثا نبني على رمل ، أو في حضن بركان ، أو في العاصفة . وبين الامبراطور البيزنطي تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ــ ٤٥٠ م) وبين « الجالس على السدّة المرقسية (المصرية) يومذاك دعامة الارثوذكسية القديس كيرلس

(٤) فرزلي : ص ٦١ عن حنا كساب : مجموعة الشرع او القوانين الكنسية المسيحية الجامعة ، بيروت ، منشورات النور ١٩٧٥ ص ٣٢٢

(٤١٢ — ٤٤٤ م) » [٥] ضاع نسطوريوس ، في حين أن المؤامرة كانت أكبر من اللاعبين بها ، اذ جرفت الجميع فبتنا لا نعرف أيّهم البنّاؤن وأيّهم الهدّامون . ولقد تبعثرت الحجارة جميعها ، لتصبح القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية وأورشليم بقايا من بقاياهم ، لا نسمع لها سوى البكاء والانين العميقين .

يقول البطريرك يعقوب الثالث :

«هنالك في مدينة جرمانيقي (مرعش) الجاثمة على أذيال طورس ، وُلد نسطور الناسك السرياني المشهور سنة ٣٧٨ م وترعرع على مبادىء الفضيلة وفي نفسه ميل الى السيرة النسكية وطموح الى رتبة كنسية عليا . ولما شبّ انضوى الى خدمة يسوع في دير على باب انطاكية يدعى دير أوبريبيوس ، كان قد أسسه الناسكان المشهوران ديودورس (بعدئذ أسقف طرسوس) وكارتيريوس ، وجعلاه مباءة لطلاب العلم والنسك ، يعلّم الاول العلوم والثاني سيرة الكمال . ولم يكن نسطور أول من انضوى تحت لوائه بل سبقه الى ذلك كثيرون منهم (يوحنا) الذهبي

(٥) سويريوس (البطريرك) يعقوب توما (الثالث) : تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ، طبعة ١٩٧٥ ، الجزء الثاني ص ٣٨ .

الفم علاّمة أنطاكية الفذ وبطريرك القسطنطينية، وتاودورس المفسّر اسقف المصيصة » .

أضاف :

« ووجد نسطور في هذا الدير ضالته المنشودة . فقد كان تاودورس الآنف الذكر يلقي فيه يومذاك محاضراته القيّمة ، فتتلمذ له مع يوحنا بطريرك انطاكية وتاودوريطس أسقف قورس وروفينس الآكيلي وبرصوم أسقف نصيبين وغيرهم (...) . فغاص (نسطور) في بحره الزاخر وجمع من حمأته ودرّه ، وتعمّق بالفلسفة والعلوم الدينية وأحرز الثقافة العالية ، وزيّن نفسه بالسيرة النسكية الحميدة . ثم أقيم قسّا على انطاكية حيث فتح كنوز مواهبه وقرع الاسماع بخطبه الرنانة وشنّف الآذان بصوته الرخيم ، وأظهر سيرة فاضلة وصدرا رحبا ، حتى رنّ في الاصقاع صيت نسكه وفضائله وفصاحته وطلاقة لسانه ورخامة صوته » [٦] .

ولكن أمرا ما كان ينتظر هذه الشخصية المسيحية الرائعة والمدهشة . ذلك أن حدثا سياسيا ـ دينيا قلب الارض وما عليها : بيزنطية دخلت في القلق ، والاسكندرية تتفنن في المجاملة ، وفي تشويه صورة الاسقف القديس نسطوريوس .

(٦) المصدر السابق .

واذ يكمل البطريرك يعقوب الثالث الكلام على نسطور ناسك انطاكية السريانية فيقول :

« وفي كانون الاول سنة ٤٢٧ م توفي سيسينيوس بطريرك القسطنطينية فانتخب القيصر تاودوسيوس الثاني للكرسي الشاغر هذا الخطيب المصقع (نسطور) الشهير اجابة الى طلبات الاكليروس القسطنطيني العديدة. فتوجه الى القسطنطينية يصحبه رفيقه القس انسطاس الانطاكي. وفي ١٠ نيسان ٤٢٨ رُسم بطريركا للقسطنطينية » .

ويقول أيضا :

« غير أن ذلك الناسك الوديع لم يلبث طويلا على سيرته الحميدة بل داخله روح الكبرياء . وفي خطابه الشهير الذي لفظه في بيعة القسطنطينية الكبرى بعد رسامته أسقفا بمديدة قال لتاودوسيوس : (أعطني أيها القيصر الارض مطهَّرة من الهراطقة وأنا بدوري أعطيك السماء . ساعدْني في استئصال الهراطقة وأنا أضمن لك النصر على الفرس) . ثم شتَّت اجتماعات الآريوسيين وأحرق معبدهم وقاوم النوباطيين والمقدونيين ، ولم يسهل الا البيلاجيين» [٧] .

من يعطي من ؟

صاحب الارض استغل « صاحب السماء »، فتطاحنت

(٧) المصدر السابق .

الانفعالات القيصرية والبطريركية على حساب العقل والحرية .

ان ايا منهما لم ينظر الى الشعب المتألم والفتن المدمرة.

ماذا أعطت السياسة للكنيسة ، وماذا أعطت الكنيسة للسياسة ؟

والصوت الهادر الآتي من مصر هل جاء لينقذ الكنيسة والدولة ، أم ليسحب الكرسي من تحت نسطوريوس « الخطير » ؟

« أصحاب السماء » في صراع على الكراسي،والفرس يتفرجون على الهيكل تضربه الزوابع !

الخطيب المصري كيرلس هز أفسس وانطاكية وسائر المشرق اذ قال :

« ما اجمل الكلام وما أفعمه نعمة ، لان مجمع الاباء القديسين ايضا ظافر . فقد كنت كئيبا جدا بسبب تجديف نسطور البغيض » [٨] .

بهذه الكلمات بدأ كيرلس خطبته النارية،فشعل البلاد وحرك القلوب ، وهيج النفوس ، بل كاد ينطق الصخور الصماء غضبا على نسطوريوس وكرها له ؟!

قال كيرلس :

« يا رفقاء الانبياء وجلساء الرسل ووكلاء الكنائس

(٨) المصدر السابق ص ٤٤ .

المقدسة المنتقمين من تجديف نسطور الدنس » [٩] ، الذي « يقتدي بالدولة الفارسية محاولا ان يظلم الوحيد ابن الله لهلاك وتجديف نفوس كثيرة » [١٠] ، والذي « عندما رأى مؤازرة الولاة له تغطرس وهو يتكل عليهم • واذ ظن انه يخيفنا بهذا أثار التجديف بالاكثر • فهلموا الان لنقول بالبكاء والدموع كالعادة (الاتكال على الرب خير من الاتكال على السلطان) فهذا الملعون والغريب عن الرجاء بربنا يسوع المسيح ، اذ أفرغ كنزه [١١] أثار ضدنا رؤساء الجيش والولاة وجميع الحكام مع وصيفات الملكات (يعني الملكة اوذوكية زوجة الامبراطور ، وشقيقته الاميرة بلخاريا) حتى الخدم والطهاة » [١٢] •

واستطرد كيرلس يخاطب المجتمعين قائلا :

« ايه ايها المعلمون الصالحون ،

« ان المسيح الذي اعلنه الانبياء والرسل الها لنا : يدعوه (نسطور) الان انسانا ! ووالدة الاله: يسميها والدة الانسان ولا يخجل ! فلا يقولن لي أحد بعد هذا ما أقسى وقاحة

---

(٩) من خطبة كيرلس ، كما في كتاب البطريرك يعقوب الثالث.
(١٠) المصدر نفسه .
(١١) هنا يعقب البطريرك يعقوب الثالث فيقول : « يشير الى الذهب الذي قدمه نسطور رشوة للحكام والولاة لمناصرته، كما سبق وصرح في خطابه قائلا انه سيحارب كيرلس بالذهب» حاشية رقم (١) ص ٤٧ .
(١٢) من خطبة كيرلس . المصدر نفسه .

اليهود الدنسين • ان اولئك الظالمين قد تطاولوا آنذاك على المسيح ، غير ان يهود اليوم (٤٣١ م•) قد منحهم هذا المجدف (نسطور) دالة عند الله بقوله لهم : انكم صلبتم انسانا وليس الها • ان هذا الشقي لما تأمل الضلالة الوثنية والذبائح غير الشرعية المقدمة للحجارة الصامتة ، وداء آريوس العضال ، وتجديف ماني الوقح وفساد تعليم سابيليوس وفورفوريوس وفوطيوس ومرقيون ولمافنطيوس واونوميوس وجميع الهراطقة : نطق بالتجديف الوخيم • الويل لي فقد بزّ شرهم هذا جميعهم ! » [١٣] •

في هذه « الاجواء الملحمية » لم ينفع رد نسطوريوس، وربما لم يلق اصغاء ، اذ الحكم جاهز ، والموقعون في اضطراب نفسي وعصبي رهيب • وكما قال نسطوريوس نفسه « المجمع كله كان كيرلس » [١٤] ، كذلك كانت الامور تنهار بسرعة فائقة ، حيث بيزنطية تعاني التفسخ والاحلام المزعجة •

الم يستعجل كيرلس المجمع والحكم ؟

ان أخطر ما في خطبة كيرلس هذه انه نسي الجغرافيا والتاريخ معا •

ففي المنطقة الواقعة « على تقاطع حدود تركيا وايران

---

(١٣) المصدر نفسه .
(١٤) يعقوب الثالث : ص ٥٢ .

وروسيا[١٥] • فجرّ كيرلس « قنبلته » ،فتصدعت المسيحية وانسحب نسطوريوس ، فيما ظن « المنتصرون » ان القسطنطينية قد استقرت والى الابد ؟!

والحقيقة هي أن هذا الصراع لم يكن في سبيل الكنيسة والمسيح تماما، بل هو صراع على الحرير الأشوري والقمح المصري[١٦] ، وعلى الممرات الطبيعية • وان شئنا التفصيل فهو صراع الاسكندرية وانطاكية ، والاسكندرية والقسطنطينية،وروما القديمة وروما الجديدة[١٧]، وكل هذه الحروب والصراعات ان دلت على شيء فانما تدل على أن المناطق الحدودية قلما تعرف الامن والطمأنينة والسلام والهدوء • وما كان في الامس بين الفرس والرومان صار بين العرب والفرس ، والعرب والرومان ، ثم بين تركيا وروسيا ، وتركيا واوروبا ، والعرب وتركيا • وها هو اليوم بين أميركا والاتحاد السوفياتي ، وبين العراق وايران في جزء منه غير قليل •

---

(١٥) الأشوريون : عزيز برخو عزيز ص ١٥١ •

(١٦) انظر النساطرة في التاريخ : فرزلي ص ١٣٥ •

(١٧) أولى الرومان ومن بعدهم خلفاؤهم البيزنطيون اهتماما خاصا بسوريا ، وقد دُشنت القسطنطينية كعاصمة جديدة للامبراطورية البيزنطية في العام ٣٠٣ على عهد الامبراطور قسطنطين ، وسميت أول الامر بـ « روما الجديدة ».انظر « تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام » لمحمد علي نصر الله، دار الحداثة ـ بيروت طبعة اولى ١٩٨٢ ص ١٩ وحاشية رقم (٩٠) عن (Beneis)وأسد رستم •

أين كنائس هذه الارض وأديارها ؟
أين مسيحيو الحدود وخطوط التماس ؟
بل أين كنيسة افسس ومجتمعها وشعبها ؟

نعود الى « الاشوريون » ـ الكتاب ، حيث يؤكد المؤلف عزيز برخو عزيز أن النساطرة وكل الآشوريين قد ورثوا المعانيات عصرا بعد عصر ، وجيلا إثر جيل ، فيروي قصة انسحابهم في خريف عام ١٩١٥ م• من منطقة اليائيلا الى أورمية ، فيقول :

« كان الطريق بين اليائيلا وسهل أورمية قد سُدّ في وجههم اذ ان القوات (الكردية) (التي يساعدها الجيش التركي) المحاصرة لهم كانت تعسكر في جبهة الشرق ، لذا كان عليهم أن يتخذوا جهة الغرب طريقا لهم نحو أورمية فانقسم الآشوريون الى مجموعتين (مجموعة ديز) و (مجموعة تال) وكانت المجموعة الاخيرة بزعامة مار بنيامين (البطريرك) نفسه ، أما المجموعة الاولى فقد كانت بزعامة مالك اسماعيل » •

أضاف :

وكان على الآشوريين أن يعبروا الزاب على جسور متداعية قريبا من الفتحات الجانبية في وديان (الديز والتال) وفي الجانب الاقصى من جولاميرك ، وكان عليهم أن يسيروا

يوما كاملا لكي يصلوا الى ألباق التي لا تبعد كثيرا عن باشقلا ثم عليهم عبور الممر الذي يفضي بهم الى سهل سالامس » .

وقال أيضا :

« وقد اقترن انسحاب مجموعة (التال) بواقعة عاطفية جدا اذ ان السير أدّى بالمجموعة الى قمة جبل عال قريب من جولاميرك وكان يشرف من بعيد على قودشانس مقر البطريرك ، وعندما وقف البطريرك مار بنيامين بقلب محطم ليلقي آخر نظرة على قودشانس أفرجت شفتاه عن آهة وقال متحسرا : (متى يا رب سيتاح لي أن أشرب من عين قودشانس) فسمع ثلاثة شبان هذه الكلمات فأخذوا معهم جرّة وانفصلوا سرّاً عن مجموعتهم ودون علم أحد اقتحموا صفوف المهاجمين وبعد برهة عادوا بشربة ماء للبطريرك من عين قودشانس » (١٨) .

ومن أسف أن هذا البطريرك المجاهد قد اغتيل في كونهي شهر ، يوم ٤ مارت (آذار) ١٩١٨ ، على يد الزعيم الكردي ، اسماعيل آغا سمكو ، وفي مقره ، حيث جاءه البطريرك ومعه العقيد الروسي كونداتيتيف ، وأربعة ضباط روسيين آخرين ، مفاوضا ومسالما (١٩) .

(١٨) الأشوريون : ص ١٧٥ .
(١٩) المصدر نفسه ص ١٨١ / ١٨٢ .

أين البطريرك الشهيد بنيامين من الملك سنحاريب ؟

بل أين الآشوريون اليوم من أولئك الذين أسسوا مدينة آشور (Assur) ــ شرقاط الحالية ــ على الضفة اليمنى من نهر الدجلة (٢٠) ؟

منذ العهد الآشوري الاول (القديم) (٤٠٠٠ / ٣٠٠٠ ــ ١٥٩٥ ق.م) وهذا الشعب يصدّ هجمات الجيوش المعادية ، فحارب الحثيين والميتانيين والقبائل الجبلية من السميريين والسكيثيين والعيلاميين (٢١) ، وكان له ملوك جبابرة دوّخوا المشرق من أقصاه الى أقصاه . وكان كلما اتسعت رقعة الآشوريين تفاقمت مشكلاتهم وكثرت همومهم ، حتى تقلبت عليهم القبائل والفرق والدول والاحزاب ، الامر الذي جعلهم يمارسون القمع والارهاب والتنكيل والتعذيب ، على كل من أظهر عصيانا أو تمردا أو استنكارا أو تململا أو احتجاجا . وما سنحاريب الا واحد من سلسلة أولئك الملوك الآشوريين الذين كان دأبهم القتال العنيف والاجتياح العسكري والانتشار السريع ، أو كما يقول عزيز برخو عزيز :

« كانت الدولة الميتانية تجاور بلاد آشور من جهة الغرب . وكانت آشور خاضعة لها . ولكن عندما بدأ

(٢٠) (٢١) المصدر نفسه ص ١٦

الحثيون يتدخلون في شؤون بلاد الميتانيين ، انتهز الملك الآشوري آشور أوبالط (Assur-Abilit) الاول (١٣٦٥ ـ ١٣٣٠ ق٠م٠) الفرصة فحارب الميتانيين في عهد ملكهم أرتاتاما الثاني (١٣٦٦ ـ ١٣٥٩ ق٠م٠)واستطاع أن يخلص البلاد من نفوذهم ٠ وفي عهد هذا الملك أرسلت بعثة آشورية الى الفرعون المصري امينوفس الرابع ، لكن بورنابورياش (Burnaburiash) ملك الكاشيين في بابل (١٣٧٥ ـ ١٣٤٧ق٠م٠) أخذ يشكو ويتظلم من الفرعون بحجة أن الآشوريين أتباعه وليس لهم الحق في مفاوضة فرعون مصر مباشرة » (٢٢) ٠

بعد ذلك « قام آشور ـ أوبالط بترميم سور عاصمته وأعاد بناء هيكل نينوى ، كما حارب بلاد شوبرباتو الواقعة (في) (الشمال) الشرقي من مملكته ، وزاد في رقعة المملكة ٠ وبدأت قوة الآشوريين تزداد في عهد هذا الملك حتى شعر الكاشيون (Kassites) بخطرهم ، فأخذ بورنابورياش يتقرب الى الملك الآشوري وتزوج من ابنته حتى (يأمن) جانبهم » (٢٣) ٠

واذ توفي الملك الكاشي بورنابورياش « خلفه ابنه

---

(٢٢) (٢٣) المصدر نفسه ص ١٨

كارا ـ انداش الثاني الذي في عهده نشبت ثورة في بابل أودت بحياته كما كادت تطوح (تطيح) بالعرش ٠ (فملك) على بابل رجل اسمه نازيبوغاش ، فانتهز آشور ـ أوبالط الفرصة وقاد جيشا نحو بابل واحتلها وقتل نازيبوغاش وردّ التاج الى حفيده الاصغر كلزو ـ صخرو أي كوريكلزو الصغير » (٢٤) ٠

معلوم أن الآشوريين سقطوا سياسيا وزال ملكهم ، الا ان تمسكهم بحريتهم ظل يتزايد برغم الانكسارات المحزنة التي شهدوها ، مما سبب لهم الانقسامات والتشرذم والنقص في العدد والمال ، حتى ان بعضهم انصهر وذاب في هذا المجتمع أو ذاك ، تحت ضغط سياسي واقتصادي لا يقاوَم ٠ وبفضل ايمان من بقي على عقيدته وآشوريته ، بحقه في البقاء حرا كريما ، « عاد الآشوريون النساطرة الى فتح واحتلال نفس المناطق (التي أُخذت منهم) وأضافوا اليها بلاد الهند وسيلان وسومطرة والصين وبلاد التتر ، ولكن بطريقة أخرى مختلفة ومغايرة للطريقة التي سلكها الآشوريون الوثنيون الاوائل » (٢٥) ٠

وكما قلنا ، اختلفت الوسائل الآشورية هذه المرة « فبدلا (من) أن يتشبهوا بالاسلاف ويفتتحوا تلك البلدان

---

(٢٤) (٢٥) المصدر نفسه ص ١٨

بقوة السلاح أخذوا يفتحونها بقوة العلم والادب والاخلاق والدين وكان سلاحهم هذا أشدّ فتكا وأوسع انتشارا من ذلك » [٢٦] .

واستطاع النساطرة التعايش مع الدولة الاموية ثم الدولة العباسية ، فكان بينهم وبين هذه وتلك انسجام تام، واحترام كبير . وظلوا هكذا حتى تدخل الاتراك والفرس والاكراد والجركس والمغاربة والصليبيون ، وحينئذ قضت الفتن والحروب الداخلية والاقليمية والدولية على المعالم النسطورية العظيمة كما قضت على السياسة الحكيمة ووحدة الشعوب .

واذ يكتب المفكر الآشوري الدكتور بيره سرمس « من نحن ...؟ » [٢٧] نسأل نحن : ماذا يريد الآشوريون والنساطرة ؟ بل الاشوريون والنساطرة الى أين ؟

كلما أتيت الصديق الكبير المطران الآشوري السيد نرساي دي باز ، في مقره الاسقفي الكائن في منطقة الفنار — شرق بيروت ، يطيب لي فتح الملف الآشوري — العربي، الذي هو جزء من الملف الآشوري المشرقي ، لان فيه

---

(٢٦) المصدر السابق .
(٢٧) طبع باللغة الأشورية سنة ١٩٥٦ ، ترجمه الى العربية آدم د. صومة نشر اتحاد الطلاب الآشوريين في لبنان طبعة ١٩٧٨ .

سيرة طيبة لشعب عظيم آمن بالحرية وناضل من أجلها ، فسيء به الظن ، فظُلم وقُهر واضطُهد ولوحِق واغتصِبت حقوقه ، حتى بات يحمل كنيسته على ظهره متنقلا بها من مكان الى آخر ، لا تعنتًا ولا تصلبًا ،فلطالما سأل كنائس الشرق والغرب الوحدة والوفاق والرحمة والحب ، بل عن معرفة وايمان وثقة واحترام لتاريخ كنيستهم والآباء الاجلاء [٢٨] .

وإنْ شئنا أن نختصر الآشوري النسطوري ، فهو : حرية وكنيسة شرقية وشتات وذُهْن وحنين الى الوطن الأم — نينوى .

٩/١٢/١٩٨٥

---

(٢٨) لا بد ان نشير الى دراسة بقلم « ريتشارد سودرن » عنوانها « الاسلام في اوروبا في العصور الوسطى » (حقبة التعقل والامل ١١٠٠ — ١٣٠٠م) ، ترجمها الدكتور رضوان السيد ، فنشرت في مجلة « الفكر العربي » — بيروت ، العدد ٣٢ (حزيران ١٩٨٣) ففي هذه الدراسة يذكر الكاتب « سودرن » أن مناظرة تاريخية ضخمة بين أهل الاديان نظمها ، في قراقورم المنغولية في أيار ١٢٥٤م ، المغولي الخان الاكبر ، وشارك فيها آباء نساطرة مثّلوا المسيحية الشرقية، كما اشترك الراهب فلهلم فون روبرك،عن المسيحية اللاتينية، واشترك أيضا رهبان بوذيون وعلماء مسلمون ... ومما قيل عن النساطرة في تقرير رفعه الراهب الفرنسيسكاني روبرك : « فهم أناس طيبون لا يعرفون طرق النقاش اللاهوتي المعقّد ولا بد من الاخذ بيدهم » (ص ٣١) وهذا الرأي لا يخلو من الجدة ، نظرا لواقع النساطرة المأساوي (؟)

(١٠)
عرَب وأكراد وآخرون

لا أدري لماذا هربت مني الكلمات ، بعد ما طويتُ الصفحة الاخيرة من كتاب « عرب وأكراد » (رؤية عربية .. للقضية الكردية)[١] ، لمؤلفه المقدَّم السوري«المتقاعد» منذر الموصلي [٢] .

---

(١) ٥٨٦ صفحة من القياس الكبير ، مع فهرست الاعلام وفهرست المراجع ، قدم له الدكتور جمال الاتاسي ،الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨١ ، دار الغصون ـ بيروت .

(٢)كاتب عربي سوري ، ضابط سابق ويحمل اجازة في الحقوق من جامعة دمشق ، شغف بالكتابة والصحافة منذ سنوات الدراسة الجامعية ، فكان سكرتيرا لتحرير جريدة « الاشتراكية » فرئيسا لتحرير جريدة « ألف باء» الصباحية و « النضال » المحتجبتين . وحرر في مجلة « البعث » الاسبوعية المحتجبة ، عمل في صفوف « حركة البعث العربي الاشتراكي » التاريخية منذ أيام الدراسة ، شغل مناصب ادارية وأمنية في أنحاء سورية ، وعندما عيِّن ضابطا في بقاع حدودية من محافظتي الحسكة وحلب فانه احتك بالوضع الكردي وهو ما جذبه للاهتمام بالاكراد فوضع هذا الكتاب. بعد حركة ٨ آذار عُهد اليه ترتيب أوضاع الشرطة السورية=

ولكن أسئلة كثيرة زاحمتني وضايقتني ، منها :

ـ هـل هـو التعبُ الناشىء عن الرحلة الطويلة والشاقة الى بلاد المياه والاحواض النهرية ، اقليم الجبال كما سماها العرب ؟

ـ أم الرعب الذي تبعثه خريطة أوجاع الاقليات ؟

ثم حاصرتني الظنون والشكوك من كل جانب ، فأصبحت لا أعرف هل أنا في لبنان أم في كوردستان ؟

عرب وأكراد وآخرون (...) والنهاية كما البداية: الحرب من أجل الحرب .

لمن « عرب وأكراد » ؟

الذين يقرأون (...) نصفهُم في القبر ، ونصفهم في السجن !

شرقنا يعوم في الزيت ... « وكبَّارنا » يلعبون بالنار !

= لتتكيف مع الوضع الجديد . ثم أصبح مشرفا على ادارة مكتب الحاكم العربي ، فمديرا عاما للانباء ومديرا للمكتب الصحفي في قصر الرئاسة فمستشار الرئيس لشؤون الاعلام ومديرا لمكتب الرئيس . ثم عاد ليشغل بعض المناصب الامنية والادارية في المحافظات قبل أن « يصرف » من الخدمة قبل أكثر من عشر سنوات .

بعد عشرة أبواب شرقية مسحورة ، فتحها المؤلف على تلك البلاد وأهلها ، كيف لا يحتلّك الصداع والحزن والقلق ؟!

أين نحن وهم ؟

أين الآخرون ؟

وبقيتُ أعالج أسئلتي بالصمت و« فلفشة» الصفحات، فأوشكت أن أغلق الكتاب يائسا مكتئبا ، حتى رأيتني أقف ، عند « الاهداء » ، متأملا في البياض الواسع ، والكلمات التالية :

« الى ابنتي « مروة » على أمل أن تنشأ مُحبّة لأمتها العربية متفانية مؤمنة ومُحبّة لجميع الشعوب » .

وطالت وقفتي أمام هذه « الدعوة » مستقرئا ومستنبطا ، فهي تشبه دعوتي لزوجتي واولادي ، في كتابي « رسالتي الى المسيحيين » [٣] ، حيث أرجو لهم «أن يعرفوا المسيحية كما عرفتها ويحبوا المسيحيين كما أحببتهم»، وبعد المقارنة والمطابقة أدركت أنني هنا ، في بيروت ، لا في السليمانية [٤] ولا في اربيل [٥] حتى ولا في خانقين [٦] .

(٣) طبعة ١٩٨٥ .

(٤) السليمانية : مدينة في العراق (الكردستان العراقي) قاعدة محافظة ومركز قضاء السليمانية . دعيت بالسليمانية نسبة الى سليمان باشا الكبير والي بغداد. اتخذتها الامارة =

نعم ،

يجب أن يحب بعضنا بعضا ، أكرادا كنا أو عربا أو فرْسا أو « أرمن » أو يهودا أو شركسا ، أو تركمانا .

ولكن هل الجغرافيا تسمح بذلك ؟ وهل الاديان و « الايديولوجيات » تتركنا نتفاهم ونتعايش ؟

يقول المقدّم الموصلي :

« يمكن أن يوصف المجتمع الكردي الكوردستاني، بأنه ليس مجتمعا موحدا بالمعنى الدقيق للكلمة ، بسبب المواقع الجغرافية والمعوقات السياسية والقبلية التي كانت تحول دائما دون توحده واندماجه بالكامل » (ص٣٧٥) .

=البابانية (الكردية) مركزا لها في القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي . معظم سكانها من الاكراد . مركز لزراعة التبغ . ومحافظة السليمانية لها ستة أقضية : السليمانية ، حلبجة ، شهربازار ، بشدر ، رانية، بنجوين.

(٥) إربيل : مدينة في العراق (الكردستان العراقي). قاعدة محافظة اربيل ومركز القضاء . هي « إربل » القديمة ورد ذكرها في الكتابات السومرية في القرن الثالث ق.م. عرفت باسم (اربابلو) في العهد الآشوري ، بالقرب منها انتصر الاسكندر الكبير على داريوس الفارسي في موقعة كوكميلة . تجارة حبوب وغلال . ومحافظة اربيل محافظة عراقية (كردية) لها خمسة أقضية : اربيل ، مخمور ، كويسنجق، راوندز ، شقلاوة .

(٦) خانقين : مركز قضاء خانقين (محافظة ديالى) الكردية العراقية .

وكما الاكراد كذلك الآشوريون والأرمن والسريان والشراكسة وغيرهم مـن الشعوب التي تسكن المنـاطق والحدود ذات الاقتصاد التبعي والمجزأ • على أن هـذا لا يلغي القول بأن المجتمع الكردي ، أو سواه ممن ذكرنا ، انما هو « مجتمع واحد لم تستطع جميع الموانع أن تحد من تجانسه في العميق من عاداته وتقاليده ومعتقداته ، ولا أن تطال الروابط الاساسية التي تبقيه متماسكا ومتعاطفا. وهي روابط قومية وطنية تراثية وروحية في أساسها المتين» (ص ٣٧٥) •

فاذا كانت الجغرافيا تثير الاهواء والاطماع ، فـان الاديان و « الايديولوجيات » تقرر المواقف والتحالفات ، وتحرض على المنازعات بمختلف الوسائل والمناهج ،وليس من شيء ثابت سوى أن الحق ، كل الحق ، هو للقـوي فحسب ، الامر الذي جعل كوردستان « لا تشكّل كيانا اقتصاديا واحدا » (ص ٥٤٥) ، بل ان « اقتصادها مرتبط باقتصاديات بلاد أخرى تندمج معها سياسيا » (ص ٥٤٥) وهي تحديدا : العراق وايران والاتحاد السوفياتي وتركيا وسوريا • وحبذا لو كان عنوان الكتاب : « عرب وأكراد وآخرون » ، ما دام (الكتاب) ، في مجمله ، هـو للكرد والعـرب والفرس والترك والافغان ، وللروس والارمـن واليهود والانجليز والاميركان •

ففي معظم الابواب تجاوز المؤلف المقدّم العـرب والاكراد ،إما تقريعا وتهديدا ، وإما ثناء وتأييدا ، اذ يقول، مثلا ، في الباب الثالث (تاريخ الاكراد ••• التاريخ القديم والوسيط والحديث) ما يلي :

« احتـل الاكراد في العهـد الحميدي (السلطـان عبد الحميد الثاني) وهو عهد الظلم ـ كما أسموه ـ حيزا كبيرا من اهتمام هذا السلطان الطاغيـة ، ومن الاعيبـه السياسية ومؤامراته الدولية (كانوا يطلقون عليه السلطان الاحمر) فقد اعتمد على بعض الاكراد فيمن اعتمد عليهم مـن أبناء الاقليات العنصرية في دولته ، وآثرهم بثقتـه واستخدمهم في تحقيق أغراضه البعيدة » (ص ١٩٤) •

ويقول في الباب الرابع (الايديولوجيات الدينية) :

«••• استطرادا نقول بأن الاكراد لا يمكن أن يأتلفوا مع اليهـود الذين يدينون بعقيدة عدوانية ضد الشعوب وضد الاسلام ، وتتناقض تماما مع الصفات الاصلية التي عـُرف الاكراد بها عبر التاريخ ، ولا يمكن أن يقبلوا بدولة يهودية صهيونية خاصة تمتد تطلعاتها الى جوار بـلادهم وعبر بـلاد اخوانهم العرب والمسلمين وعلى حساب مـا يؤمنون به من قيم ومن مثاليات » (ص ٢٥٣) •

وفي الباب الخامس (اللغة الكردية ••• والحيـاة

الفكرية الثقافية ، الادبية والفنية والإعلام)يقول الموصلي:

« يعترف الاكراد ، وبخاصة قادة الفكر منهم ، بأن الحكومة العراقية وضعت اللبنة الاولى في جعل اللغة الكردية لغة التعليم الرسمية في كوردستان الجنوبي (كوردستان العراق) وفي تنشئة جيل كردي متعلم يحسن القراءة والكتابة بلغة الاجداد » (ص ٣٧٧) ، و « أما في كوردستان تركيا وايران فانه لم يكن مسموحا لا التكلم بالكردية ولا الكتابة بها (•••) وما تزال هذه الاجراءات القمعية سائدة هناك حتى يومنا هذا ، وليس في الافق ما يشير الى أية تعديلات رغم التبدلات السياسية العميقة التي حدثت في ايران على الاقل » (ص ٣٥٦/٣٥٧) •

ويقول أيضا في الباب العاشر (الحياة الاقتصادية في كوردستان) الآتي :

« وفي مراجعة بسيطة يتضح لنا بأن (كذا) [٧] عائدات الوطن العربي لو استمرت في طريقها الوطني القومي الصحيح أي لو كان العكس لقطعنا مراحل هامة في عملية بناء الاقتصاد العربي ، والقضاء على معظم أسباب التخلف

---

(٧) يكثر المؤلف من استعمال حرف الباء قبل (انّ) بدون سبب بل خطأ ! وهناك أخطاء لغوية كثيرة نرجو منه تصحيحها في الطبعة الثانية .

والركود الاقتصادي ولفاضت امكاناتنا على اخواننا وجيراننا ليكونوا معنا في خندق واحد وفي مصير واحد وفي مقدمتهم الاكراد • لقد دخل الاستعمار بيننا وبينهم فأضعفنا وأضعفهم واستنزفنا واستنزفهم » •

أضاف :

« •• كما ان مستقبل كوردستان وبناء قوميتها وتحررها ونموها الاقتصادي لن يتم من خلال تسلّق الجبال وحمل السلاح واعاقة تطور البلاد كما كان يحدث على مدى نصف قرن مضى وبأمرة قيادات عشائرية كانت تعطي للامبريالية فرصا جديدة لاستنزاف الامة العربية والاكراد معا • ان المدافع والاسلحة الاخرى التي كانت تغدقها واشنطن وشاه ايران على بعض القيادات الكردية العتيقة لم تكن يوما لدعم الحركة الكردية بل لتدمير العراق وقدرات العراق الاقتصادية بما في ذلك كوردستان الذي هو في نفس الوقت جزء من الوطن العراقي ، فمنذ متى كان شاه ايران وحكام ايران على مدى التاريخ يعطفون على الاكراد ؟ » (ص ٥٢٤ / ٥٢٥) •

ويرفض الموصلي ، وهو البعثي العربي الاشتراكي « الاصيل » ، أن يسمع أو يقرأ أي انتقاد عربي أو غير عربي للاتحاد السوفياتي والشيوعية ، فهو تعرّض للمغفور

له الملك فيصل (آل سعود) رداً على مقابلة جرت بينه وبين محمد حسنين هيكل في أوائل حزيران ـ يونيو ١٩٧١ في الاسكندرية [٨] ، ويلوم الاستاذ أحمد محمد جمال، فيعتبر مقاله (شُغلنا بلبنان وفلسطين عن قضايا أخرى للمسلمين) [٩]، في جريدة «الشرق الاوسط» [١٠]، « مُدانا من عنوانه مباشرة » (ص ٥٣٨) . كما يحمل على جريدة « الشرق الاوسط » نفسها ، فيرى أنها « ما تأسست أصلا الا لتكون منبرا لهذه الدعوات المشبوهة التي تصب في

---

(٨) يقول محمد حسنين هيكل عن مقابلة جرت بينه وبين الملك فيصل السعودي في أوائل حزيران (يونيو) ١٩٧١ ما يلي :

« وهكذا ذهبت في الساعة السابعة الى فندق فلسطين (في الاسكندرية) والى موعدي مع الملك فيصل . وكان الملك بالغ الود في حديثه . ولم نفتح صفحة الماضي وراح يحدثني عن زيارته لواشنطن . وطال الحديث وبدأ الملك يطرح نظرياته عن العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ، واضعا في واقع الامر وصحيحه نفس الشيء . وقال لي الملك انه شرح نظريته للرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون ، وكان الملك بين أشياء أخرى يعتقد أن (ليونيد بريجنيف) يهودي لان اسمه الاول ليونيد وهو يظن انه مشتق من اسم « ليون » وهو أيضا في رأيه اسم يهودي » (عن « خريف الغضب » ـ « عرب وأكراد » ص ٥٣٢) .

(٩) يقصد الاستاذ احمد محمد جمال المسلمين في اريتريا وتايلند والفلبين واثيوبيا والصومال وأفغانستان ، و « كل افغانستان مسلمون يعانون من الغزو الروسي المسلح بالاسلحة الحديثة القتالة » على حد قوله .

(١٠) العدد رقم ١٩٧٠ تاريخ ١٩٨٤/٤/٢٠ .

أقنية الامبريالية الاميركية ومصالحها في العالم » (ص ٥٣٩)، وهي « تكاد تكون الجريدة الوحيدة في الوطن العربي والعالم التي تخصص زاوية يومية الحديث عن جهاد المجاهدين الافغان ، الذين « ما جاهدوا » وما حملوا السلاح الا بتحريض امريكي ، ولا نقول سعودي وباكستاني ، ليس ضد الاتحاد السوفياتي بل ضد نظام الحكم الجديد في كابول وهو نظام شيوعي معلن على الملأ » (ص ٥٣٩) .

ويستهجن المقدَّم الموصلي الحديث عن المقاومة الافغانية فيقول :

« ما لنا ولأفغانستان ـ نحن العرب ـ سواء حكمها الشيوعيون أم غيرهم ولماذا نزجّ قدراتنا في معامع القوى الدولية بينما نحتاج الى جهد مخلص من أجل خدمة القضية العربية وتشعباتها وخاصة المسألة الفلسطينية » (ص ٥٤٠).

أيضا مجلة « المجلة » وهي شقيقة «الشرق الاوسط»، نالت من الموصلي « حظها » بما لا يقل عن «حظ» أختها ، وقد قال فيها :

« وماذا أيضا ؟ تطلع علينا من الجانب الآخر مجلة « المجلة » وهي أخت « الشرق الاوسط » وتنتمي لنفس

الأبوين . تطلع علينا في عددها رقم ٢٢١ وتاريخ ٥ مايو (ايار) ١٩٨٤ أي بعد أسبوعين فقط من صدور العدد اياه من جريدة « الشرق الاوسط » بعنوان عريض من الصفحة الاولى جاء فيه : (ألكسندر هيغ لـ « المجلة »: الشيوعية والتطرف الديني يهددان العرب أكثر من اسرائيل) » .

ويتابع الموصلي قائلا :

« من كل الحديث الطويل العريض الذي أجرته المجلة مع وزير خارجية امريكا السابق اختارت فقط هذا الجزء لتجعل منه أحد العناوين الرئيسية المختارة من صفحة الغلاف ، فتجعله بذلك منشورا يصافح أنظار القارىء العابر سعيا وراء ترسيخ هذه الافكار المسمومة التي تعتبر امتدادا صريحا لآراء وأفكار سعودية قديمة » (ص٥٤٠).

ويقتبس المؤلف المقدّم عن جريدة « العربي الاشتراكي » [11] ، الناطقة باسم « حركة الاشتراكيين العرب » بسوريا ، تعليقا على تصريح أدلى به الامير فيصل آل سعود ، وزير الخارجية السعودية لمجلة « المستقبل » [12] الصادرة في باريس ، حول الاتحاد السوفياتي وعلاقته بالعرب ، ومما جاء في التعليق :

---

(١١) العدد كانون الاول ١٩٨٤ .
(١٢) العدد ٤٠٦ تاريخ كانون الاول ١٩٨٤ .

« في آخر تصريح له أشاد وزير خارجية المملكة العربية السعودية صاحب السمو الملكي الامير سعود الفيصل بالاتحاد السوفياتي ودوره في القضية الفلسطينية. لكنه لم ينس على ما يبدو أن يجعل من اشادته بهذه الدولة العظمى الصديقة وسيلة للطعن بها في نفس الوقت بشكل أو بآخر ، لأن الطعن المباشر بالاتحاد السوفياتي صديق العرب وحليفهم من قِبل أي مسؤول عربي لم يعد بالامر الهيّن أو المقبول في الوطن العربي على الاطلاق » (ص ٥٤١/٥٤٢) .

عرب وأكراد وآخرون في قبضة بعثي عربي اشتراكي « أصولي » !!

من يخلّص من ؟

اذا عزّ « المنقذون » ، فهنالك ميشيل عفلق، وعبدالله الاحمر (خطفته اسرائيل عندما كان في طائرة ليبية الى دمشق وكان معه رياض رعد وعمر حرب اللبنانيان) وعصام المحايري ، السوري القومي الاجتماعي ، ومحمود أمين العالم الشيوعي المصري ، وكثيرون غيرهم ، على أن لا ننسى ، طبعا ، خالد بكداش الشيوعي الكردي .

والحقيقة هي ان العراق له أكراده ، وايران لها

أكرادها أيضا . كذلك الاتحاد السوفياتي وتركيا وسوريا ولبنان واوروبا والولايات المتحدة الاميركية .

أي كردي نريد ؟ بل أي كردستان نريد ؟

الكردي « التقدمي » في خطر ، والكردي «الرجعي» في خطر أيضا . وكما هو معروف فان منطق الحرب ليس مثله منطق السلم ، وحليف العراق ليس حليفا لسوريا ، ولا هو حليف لايران ، بل عدوهما المباشر اللدود .

من أين نبدأ ؟

العراق له سياسته ، وايران لها سياستها كذلك.وما صنعته الحروب القديمة والحديثة بينهما لا يصلحه الاسلام ولا القانون الدولي.ولقد قالت دمشق « كلمتها الفصل»، فمالت الى ايران تاركة الاردن والعراق ولكن الى حين . تلك هي سياسة سوريا اليوم ، وأما غدا فربّك أعلم،وهو « علاّم الغيوب » حسبما يقولون .

لا أعتقد ان المؤلف المقدّم نسي لعبة الدول ، وهو الذي نجح في عرضه ومناقشته لمشكلات الاكراد المعقّدة والغامضة ، ولا سيما منها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية ، وكأنه كردي من السليمانية أو

أورمية (١٣) أو «جزيرة عمر » (١٤) .

والحقيقة أيضا هي ان احدا لا يشك في صدق مشاعر المقدّم الموصلي تجاه الكرد وقضيتهم ، بل يجب أن نكبر فهمه للتاريخ الكردستاني وحاضره المأساويين . غير ان القول بأن الشعبين العربي والكردي « كانا يوما كتلة واحدة في مواجهة مصائر واحدة على مدى تاريخهما الاسلامي المشترك » (ص ١٠) لا يغيّر واقعا ، ولا هو يلغي ما أفسدته المصالح والضرورات : المعلومة والمجهولة، المادية الطبيعية والروحية الالهية . فلو عاد ، الآن ، صلاح الدين الايوبي ، لن تستقبله لا القاهرة ولا الشام ولا عمان ولا بغداد . فكيف بايران وتركيا واسرائيل !! والاصح هو ان كلا من القادة العرب والمسلمين يدعي انه صلاح الدين ، بيد أن في ايران عجوزا يحسب نفسه وكيل «الامام المنتظر» الذي « سيملأ الدنيا عدلا وسلاما ، بعد أن امتلأت ظلما وجورا » !!

---

(١٣) اورمية أو رضائية : مدينة في شمال غرب ايران على بحيرة رضائية . ورد ذكرها في كتابنا « الخميني يغتال زرادشت » .

(١٤) جزيرة عمر أو جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل ، يُعتقد أن أول من بناها (عمّرها) الحسن بن عمر بن خطّاب التغلبي ، وكانت له امرأة بالجزيرة . وذكر نوابه سنة ٢٥٠هـ وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة شبه هلال .

واذ يعتمد المقدّم الموصلي الحلول الراهنة التي يقدمها الحكم العراقي لتسوية المسألة الكردية ، ويطرحها مشروعا عربيا ـ كرديا كاملا متكاملا يرد عليه الدكتور جمال الاتاسي ، الذي طلّق منهج « البعث » منذ زمن طويل ، في مقدمته للكتاب فيقول :

« ليت ان الامور كانت كذلك ، ولكن ليعذرني إن قلت بأن عواطفنا الشخصية الطيبة ليس لها من دور فاعل في اللعبة السياسية الكبرى التي تُطبّق علينا وتجري من حولنا ،وإن الاشكالية قائمة وهي تطالبنا جميعا بالوضوح، وضوح الافكار ووضوح المواقف والمقاصد » .

ويقول أيضا متسائلا :

« ما أظن ان قناعات مؤلف هذا الكتاب أو منظوراته للقضية التي يعرضها يمكن أن تتوقف بهذه القضية أو ان توقف حركة تاريخها عند هذه النقطة الراهنة ، والحلول الجارية وكأنها محط الرحال ، من غير تدارك لدروس الماضي ومن غير تحديد لمنظور مستقبلي لها . فهل ان التعقيدات السياسية الكثيرة التي تحيط بها وبنا في المرحلة التاريخية الراهنة التي تمر بها الصراعات الدائرة في المنطقة ولعبة التوازنات الاقليمية والدولية ولعبة المصالح الكبيرة المتزاحمة ، أصبحت تسد الطريق أمام الآمال القومية

الكردية أو تبقيها معلّقة ، كما جمّدت وعلّقت الكثير من طموحاتنا العربية الوحدوية وطعنت أو فوّتت علينا العديد من فرص تحقيقها .. أم هل هي تجعل الخوض في هذه المسألة ضربا من المخاطرة الذهنية أو بالاحرى السياسية، والتي لا تضمن عواقبها ؟ » (ص ٢١/٢٢) .

قد لا يختلف رأينا كثيرا عن رأي الدكتور الاتاسي، ولكن الجرأة الادبية التي أظهرها المقدّم الموصلي ،بحيث نشر مقدمة الدكتور الاتاسي الجريئة أيضا حبا وكرامة ، تفيد أن الموصلي هو واحد من الذين يحترمون آراء الآخرين وأفكارهم ، ويؤمنون بالحوار الديموقراطي والمناقشة الموضوعية والنقد أو التخطئة .

وعلى كل ، فان « الوطن العربي هو (فعلا) الوعاء الكبير الذي ينضح منه الاكراد (كذا) (والصحيح ينضحُ الاكرادَ) قوة الدعم المادية والروحية في هذا العالم الموحش المعادي من حولهم ، كما يستمدون منه المساندة والخبرة في مجالات التطوير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والتقني » (ص ٢١٩) وهذا مما لا نجد له مثيلا لا في ايران ولا في تركيا ولا في أي مكان آخر .

ولربما تحقق حلم المقدّم الموصلي اذا ما تحققت الوحدة العربية التي ينشدها هو والاتاسي ولو بأسلوبين

مختلفين ، وعندئذ يبقى السؤال الكبير : هـل الاكـراد يرضيهم الطرح العربي والحل العربي؟أم ان الحكم والحالة هذه سيكون لمصالح الآخرين وسياساتهم التي لن تقـرر الا الموقف السلبي المتطرف ؟ اللهم الا اذا استطـاع العرب أن يتحدوا .

الاكراد مع الكل وضد الكل . ولكنهم ما كانوا ولا مرة مع أنفسهم .

قد يكـون السبب غيـاب « القيادات الشعبيـة (الكردية) الواعية » كما يرى المؤلف (ص ٢١٩) ،وانما القضية هي أبعد من ذلك بكثير ، وستبقى كذلك ما بقي المجتمع الكردي « يتميز بنظامه العشائري وروحه القبلية» على قول المستشرق السوفياتي باسيل نيكيتين [١٥] .

ومن أسف أن يكون الاكراد في لبنان مثلما هم في أي مكان آخر ، مأزومين ومضلَّلين .

ففي الصراع الجنبلاطي ــ الشيعي (أمـل) وقف الاكراد الى جانب الفريق الدرزي ، كما ناصبوا الشرعيـة العداء ، وساهموا في تخريب البلاد وتدميرها .فهل فعلوا

(١٥) من كتاب « الاكراد » (المترجم مجهول) دار الروائع ـ بيروت ، أنظر « عرب واكراد » ص ٤٠٧ .

ذلك لانهم يريدون « الجنسية اللبنانيـة » [١٦] ؟ أم لأن العائلة الجنبلاطية تتحدر من أصل كردي باعتراف المغفور له كمال جنبلاط في « هذه وصيتي » [١٧] ؟ أم لأن الاكراد «يكرهون الشيعة والمسيحيين» أم لهذه الاسباب جميعها؟

ويحيّرك المقدّم الموصلي وهو يبحث في « الوَضع القبلي العشائري وأهم وأبرز القبائل في كوردستان »(من ص ٤٢٩ الى ص ٤٣١) بحيث يبدو تارة مـع الحاجـة الكردية الى الحياة القبلية والعشائرية ، وتارة أخرى مـع زوالها والقضاء عليهـا . ويحيّرك أيضا وأيضـا وهـو يستعرض الوضع القبلي الكردي ،في كل من العراق وايران والاتحاد السوفياتي وتركيـا وسوريـا ، بطريقة زئبقيـة رجراجة ، فيجعلـك تحتفظ بسؤالك : هل هو مع الحياة القبلية أم ضدها ؟ حتى آخر الكتاب ، على أنك غير واجد الجواب الكافي والصريح !

(١٦) يقـول المحامي فـؤاد شبقلو : « ان اعطـاء الجنسية اللبنانية للاكراد يجب أن يتمحور حول : الغاء النظام الطائفي وتعديل بعض النصوص والعمل على انشاء اتحادات نقابية للعمال والطلاب الاكراد لتعزيز الروابط القومية والخروج من سياسة الانفراد وايجاد تحالفات مـع الاتحادات النقابيـة اللبنانية » (أنظر « عرب وأكراد » ص ٤٨٢) .

(١٧) أنظر الباب الثامن : الاكراد والتجمعات الكرديـة في المهاجر ، الفصل الثالث : التجمعات الكردية في لبنان من ص ٤٧٥ الى ص ٤٨٥ .

ومهما كثرت الملاحظات والانتقادات ، فلن تصرفنا عن مدْح وتعظيم المقدّم منذر الموصلي للجهد الكبير الذي بذله باخلاص فائق على طريق العرب والاكراد فحسب • ولعلّ كتابه النفيس هذا هو أجود وأفضل ما كُتب في الاكراد حتى الآن •

١٩٨٦/٢/٨

الباب الثالث
المحور الإسلامي

(١)

لماذا قُتِل عثمان بن عفّان؟

لا شك ان مقتل عثمان بـن عفان عام ٣٥ للهجرة هو « اول حدث يواجهه المسلمون بعد وفاة الرسول ويفتح باب الشر بينهم ويدفع جماعتهم الى التفرق والانقسام»[١] ويستدعي ، على رغم مرور الزمن ، الدرس والتحقيق حتى اتخاذ الموقف وتحديده ، أيا كان هذا الموقف ، بشرط ان تكون المعرفة والجرأة والموضوعية هي الادوات التي ينبغي لنا استعمالها ، اذ يكفينا اننا افنينا الف سنة ونيفا ، في صراع مقيت رخيص ، بضاعته العواطف الملونة والميول الزئبقية والروايات المتضاربة والآراء المتحجرة ، وما رافقها من أحقاد وضغائن وكوارث ونكبات ، تعدت الشكل الى

---

(١) د. محمد ضيف الله البطاينة : قتلة عثمان بن عفان بين علي بن ابي طالب ومعارضيه، «المجلة العربية للعلوم الانسانية» المذكورة سابقا ، انظر الفصل السابع من الباب الثاني .

الجوهر ، والواقع الى الحلم ، والمؤقت الى الثابت ، واليوم الى الغد .

لكي نعرف من قَتَل عثمان لا بد أن نعرف لماذا قُتل عثمان . فمن أدرك السبب ادرك الهدف ، وكما الماء لا يُتَوصّل اليه الا بحبل أو واسطة ، كذلك الاحداث والفتن والحروب ، فان الكتابة ، عنها أو فيها ، تحتاج الى الاحاطة بظروفها وأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وبعناصرها المادية والبشرية ، مما يفترض الركض ولو على الاشواك أو بين الالغام ، وراء شخصياتها المستفيدة منها والمتضررة. ذلك لان مجد الباحث او الكاتب أو المؤرخ يؤخذ ولا يعطى ، ودائما يكون مقرونا بالجهاد الحسن ، أي جهاد العقل ، الذي لا يقدر عليه الا المتخَبون من الدارسين .

ولكي نعرف لماذا قُتِل « ذو النورين » (عثمان) ، يجب ان نبيّن من هم اصدقاؤه وحلفاؤه ومحازبوه ، وعندئذ يتم الكشف عن اعدائه وخصومه ومعارضيه ، فالحاكم ، أي حاكم ، يُعرف لا من منهجه فقط ، بل من مسالك الذين رفعوه على صاحبه في الحكم او المجلس ، والذين يستعملهم على البلاد والعباد ، واما الرافضون ، والكارهون فأمرهم من نوع آخر ، وقد تتغير الازمان

والاحوال ، فيصبح الذي حجب ، ذات يوم الثقة وكره الولاء له ، ناصرا ومعينا ، والذي حارب، بالامس واستمات من أجله ، حاسدا وربما قاتلا ايضا . معنى القول ان ليس هنالك ثوابت ، خارج المصلحة ، ولا سيما على صعيد العلاقات السياسية والاقتصادية، فلا عداوة دائمة ولا صداقة دائمة ، بل مصلحة ، ومصلحة فقط ، وهذه يجب أن تظل في منأى عن الاخطار والاشرار ، على ان الذين يحفظون مصالحهم ويحمون عروشهم وامتيازاتهم وأملاكهم ، لهم حق وعليهم واجبات ، فاذا هم أمَروا يجب أن يطاعوا ، واذا سئلوا فمن الضروري أن يسمعوا ويستجيبوا ، وكل حاكم يتهاون بحقه ، أو بحق الناس ، أو بالاثنين معا ، حصدته الريح ، ولو هو لفّ قصره بألف حزام أمني ، وحرسته الجيوش المسلحة الكثيفة .

قلنا في الفصل السابع من الباب الثاني :

« الذين كرهوا عثمانا هم قتلته ، بشكل أو آخر ، وعثمان ، نفسه ، ساهم في قتل عثمان » [٢] .

---

(٢) المصدر نفسه .

ويذكر المسعودي عن المنقوي أنه قال : سئل بعض شيوخ بني أمية ومخلصيها عقيب زوال الملك عنهم الى بني العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : « ... ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمنا عنها » مروج الذهب : ج ٣ ص٢٤١، تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام ، محمد علي نصرالله، حاشية (٦٦) ص ١٩٣

وقلنا :

« ليس صحيحا أن محمد ، بن أبي بكر ، بريء ، كما يدعي البعض ، ولا هو وحده القاتل .

« من علي بن أبي طالب الى عائشة الى معاوية الى طلحة الى الزبير الى محمد بن أبي بكر (حليف علي) » والكل مسؤول عن دم هذا الخليفة الثري ، الذي كانت مواقفه ، في معظمها ، متطرفة وعنيدة وانفعالية » (٣) .

ولكنما الخليفة الثري « ذو النّورَين » قُتِل ، والخليفة « الفاروق » قُتِل ، والخليفة ، الامام علي، قُتِل، وليس القاتل واحدا ، ولئن الغاية هي واحدة .

وبما أن « القضية أبعد من مقتل عثمان .. وأبعد من مقتل علي » (٤) ، فهي أبعد من مقتل ذي الدِّرّة واللسان الجارح ، عمر بن الخطاب .

لماذا قُتل هؤلاء الخلفاء ؟

سؤال آخر يراودنا ، في هذه المناسبة ، فأرجو من « المحمديين » أن يوسعوا صدورهم ويصبروا ويتأملوا :
هل مات محمد (النبي) غير شهيد أم ان « تدبيرا ما » قد نُفِّذ فيه ، و « نجح » المخططون حيث « أقنعوا » الذين أخذتهم الدهشة عندما سمعوا بالنبأ العظيم ، بأنه « قضاء وقدر » ؟

---

(٣) (٤) الفصل السابع من الباب الثاني .

جاء في السيرة النبوية لابن هشام :

« فلما اطمأن رسول الله (ص) (أي بعد فتح خيبر) أهدت له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مصلِيّة (٥) ، وقد سألت أي عضوٍ من الشاة أحب الى رسول الله (ص) ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله (ص) ، تناول الذراع ،فلاك منها مضغة ، فلم يسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور ، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله (ص) ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله (ص) فلفظها ، ثم قال : ان هذا العظم يخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغْت من قومي ما لم يخف عليك،فقلت: ان كان ملِكا استرحت منه ، وان كان نبيا فسيُخْبَر . فتجاوز عنها رسول الله (ص) ومات بشر من أكلته التي أكل » (٦) .

وتابع ابن هشام قائلا :

« قال ابن اسحاق : وحدّثني مروان بن عثمان بن أبي سعيد بن المعلّى ، قال : كان رسول الله (ص) وقد

---

(٥) مصلية : مسمومة .
(٦) السيرة النبوية ، لابن هشام ، قدم لها وعلق وضبطها طه عبد الرؤوف سعد ، مطبعة دار الجيل ، بيروت ١٩٧٥ الجزء الثالث ص ٢١٨ .

قال في مرضه الذي مات فيه : ودخلت ام بشر بنت البراء بن معرور : يا أم بشر ، ان هذا الاوان وجدت فيه انقطاع أبْهَري [٧] من الاكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر . قال: فان كان المسلمون ليرون ان رسول الله (ص) مات شهيدا مع ما اكرمه الله به من النبوة » [٨] .

من الواضح ، اذا صحت الرواية ، أن الحارثية المصممة على قتل النبي قد أحسنت التخلص ، اذ قالت : « اذا كان ملكا استرحتُ منه ، وان كان نبيا سيخبر » ولكن المسألة أهم بكثير من ان تعرف هذه المرأة ما اذا كان محمد نبيا أو ملكا . واي شيء يهمها ، وهي التي في نفسها حقد على محمد وحزن على قومها الذين بدّدهم واستولى على ممتلكاتهم ، سوى أن تقتله لتنتقم منه ؟

حادثة أخرى تذكرها السيرة النبوية ،وهي أيضا تطرح سؤالا حول وفاة النبي :

« قال ابن اسحاق : ولما أعرس رسول الله (ص) بصفية بخيبر أو ببعض الطريق ، وكانت التي جمّلتها لرسول الله (ص) ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك . فبات بها رسول الله (ص) في قبة له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بني النجّار متوشحا

(٧) الابهر : عرق من عرقين يخرجان من القلب ومنهما تتشعب الشرايين كلها .

(٨) السيرة النبوية نفسها .

سيفه ، يحرس رسول الله (ص) ، ويطيف بالقبة ، حتى أصبح رسول الله (ص) ، فلما رأى مكانه ، قال : ما لك يا أبا أيوب ؟ قال : يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ،وكانت امرأة قد قتلتَ أباها وزوجها وقومها،وكانت حديثة عهد بكفر،فخفتها عليك.فزعموا ان رسول الله(ص) قال : اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني » [٩] .

اذن ، القتل أو الاغتيال كان يهدد الاسلام وكبار المسلمين ، منذ النبي ، ولا غرابة ان يكون موت النبي قد تم انتقاما لهذا القوم أو ذاك ، أو حقدا من هذه المرأة أو تلك ، أو بتوجيه اما من زعيم خائف على زعامته واما من طامع في الملك .

عندما توفي النبي قام عمر بن الخطاب ، فقال :

« ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله (ص) قد توفي ، وان رسول الله (ص) ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد أن قيل قد مات ، ووالله ليرجعن رسول الله (ص) كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا ان رسول الله (ص) مات » [١٠] .

(٩) المصدر نفسه . وللاطلاع على سياسة (الرسول) تجاه الاراضي المفتوحة يراجع كتاب « تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام » (من ص ٥٠ الى ص ٥٨) .

(١٠) السيرة النبوية الجزء الرابع ص ٢٢٤

وفيما عمر يكلم الناس ، اقبل أبو بكر ، فدخل على الرسول في بيت عائشة ، فوجده مسجًّى في ناحية ،فكشف عن وجهه وقبّله ، ثم قال : بابي انت وامي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا » (١١) .

وخرج أبو بكر بينما عمر يكلم الناس ، فقال له :على رسْلِك يا عمر ، انصتْ ، فأبى الاّ أن يتكلم ، فلما رآه لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمعوه أقبلوا عليه تاركين عمر . وقال أبو بكر :

« أيها الناس ، انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت » .

وتلا (أبو بكر) هذه الآية : « وما محمد الا رسول قد خلَت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم،ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا،وسيجزي الله الشاكرين » .

قال ابن اسحاق : « فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ . وأخذها الناس عن أبي بكر فانما هي في أفواههم » .

وقال أبو هريرة : « قال عمر : والله ما هو الاّ أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت (دهشت) حتى وقعت الى

(١١) المصدر نفسه .

الارض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله (ص) قد مات » (١٢) .

فلو نحن طالعْنا هذا الشريط المتحرك ، وقبله قصة الشاة المصلية ، وتصريح أبي أيوب خالد بن زيد ، الذي حرس النبي في ليلة عرسه بصفية ، ثم تقدّمنا نحو عمر ثم نحو علي ، نقرأ مصرعيهما ، فان جديدا لن يطرأ على نظرتنا الى محنة عثمان ، وان تشابكت عوامل هذا الانقلاب الذي نقل الملك من بني هاشم الى بني أمية ، وكما يقول شيخ علماء الاسكندرية ، المغفور له ، الاستاذ محمد الصادق عرجون : « تنوعت عوامل هذا الانقلاب العاصف بحسب زمنها وطبيعتها فكان منها القديم الذي يصعد الى جاهلية الآباء والاجداد ، ومنها الحديث الذي هيأته الدوافع القائمة بين الاقران والانداد ، ومنها ما كان في طبيعته منتزَعا من حوافز البيئة ، ومسوقا بسوط العصبية الموروثة ، ومنها ما كان مصبوغا بصبغة الدين والحمية له والغيرة عليه» (١٣) .

من قتل عثمان ؟ سؤال قد لا ينفع مثلما :لماذا قتِل عثمان ؟

وعلى كل ، « وُلد عثمان بن عفان بمكة في السنة السادسة من عام الفيل ، في أسرة كانت أقوى أسر قريش

(١٢) المصدر السابق .
(١٣) محمد صادق عرجون : الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان ، الدار القومية للطباعة والنشر ،بدون تاريخ ص١٤–١٥

عصبية وجاها وثروة وعددا ومكانة • وأبوه عفّان هو ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ، وقصيّ باني مكة من حول الكعبة وحرمها ، ومؤسس مجد قريش الذي قال فيه شاعرهم :

أبــوكم قصيّ كــان يــدعى مجمّعا
بــه جمّــع الله القبائل من فِـهر » (١٤)

و « كان عثمان ــ كسائر شباب أسرته ــ مشتغلا بالتجارة » (١٥) ، وله صلات مع أبي بكر ، أحد « أعيان تجار مكــة » (١٦) الامر الذي جعــل محمدا وأبــا بكر يفكران في ادخاله في الاسلام ، أو كما يحدثنا عثمان نفسه فيقول :

« كان لي مجلس من ابي بكر ، فأتيته فأصبته فــي مجلسه ، ولا أحد عنده فرآني متفكرا ، فسألني عــن أمري ــ وكان رجلا رقيقا ــ فأخبرته بما سمعته من خالتي، فقال لي : ويحك يا عثمان ، والله انك لرجل حازم ، مــا يخفى عليك الحق من الباطل • هذه الاوثان التي يعبدهــا قومك أليست حجارة صمّاً لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع ؟ فقلت : نعم • فوالله ما كان أسرع من أن مــرّ

(١٤) محب الدين الخطيب : ذو النورين عثمان بن عفان ، المطبعة السلفية ــ بمصر ، الطبعة الاولى ، ١٣٩٤هـ ص٥ .
(١٥) (١٦) المصدر نفسه ص ٧

رسول الله (ص) ومعه علي بن أبي طالب ، يحمل ثــوبا لرسول الله (ص) ، فقعد ، ثم أقبل عليّ فقال : يا عثمان ، أجب الى الله جنّته ، فاني رسول الله اليك والى جميــع خلقه • قال عثمان : فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت ، وشهدت أن لا اله الا الله ، وان محمدا عبــده ورسوله • ثم ما لبث أن تزوجت رقية » (١٧) (بنت خديجة الاولى ــ زوجة محمد الاولى) •

لقد أسلم عثمان •• فتفاعل مع الاسلام كما فعــل فيــه ، وزادت ثروته ، فاشترى من يهودي بئرا « كــان يحتاج المسلمون الى تناول الماء منها ، فلا يمكّنهم اليهودي من ماء هذه البئر » (١٨) ، بعشرين ألف درهم ، وجعلهــا « مباحة للمسلمين في كل يوم يستقون منها مجانا وبــلا أي حرج » (١٩) •• واذ « ضاق المسجد النبوي بالمصلين ، قال رسول الله (ص) : من يزيد في مسجدنا ، فــاشترى عثمان رضوان الله عليه موضع خمس سوارى من الارض، فزاد في سعة المسجد ما يوسع على المسلمين » (٢٠) •

ولما كانت غزوة تبوك ، أو غزوة العُسْرة ، « أنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد اعظم من نفقته ، فقد بلغ مــا جهزه عثمان بنفسه لجيش العسرة تسعماية وخمسين

(١٧) المصدر نفسه عن « الاصابة » لابن حجر ، عن كتاب « شرف المصطفى » لابن سعد النيسابوري .
(١٨) (١٩) (٢٠) الخطيب : المصدر نفسه ص ١١ــ١٢ــ١٣

بعيرا وأتم الالف بخمسين فرسا ، ثم زاد ذلك حتى بلـغ الف بعير وسبعين سيفا » (٢١) .

وفي صحيح البخاري : « قال النبي (ص) : من يحفر بئر رومة فله الجنة ، فحفرها عثمان . وقـال : من جهَّز العسرة فله الجنة ، فجهزه عثمان » (٢٢) .

وكان من الطبيعي أن يتكاثر أنصار عثمان ومحبـوه وكذلك حساده والمبغضون له . ثري في الدنيا ومكرَّم في الآخرة . فلا الفقراء يمكنهم النظر اليه ، ولا الاغنياء، مهما قدَّموا وبذلوا ، بمقدورهم أن يباروه ويفاخروه . وأنَّى لمحمد (النبي) أن يفضّل أحدا على عثمان صاحب الخصال والمناقب والمكارم ، والزمن هو ضيِّق وعسير ؟

شيوخ مكة ينافس بعضهم بعضا في التقرّب من النبي ، فيما الاخير كالتاجر الناجح يدقق في كل كلمة، يقولها هذا أو ذاك ، ويختبر النيات ، ويمتحن الاصحاب ويجرّبهم، لكي يطمئن ، فهو قلق على الرسالـة ، وربما على بعض مـن الصحابة خصوصا الذين جاؤوا من مكان بعيد ،وقد نبذتهم قبائلهم ومدنهم ، فبـاتوا لا قوة لهم الا الايمـان المطلق والمثالي بالوحدة الاسلاميـة اللاغية للعصبيات القـومية والحزبيات الضيقة والكتل السياسية .

(٢١) المصدر السابق .

(٢٢) صحيح البخاري (Arabic-English) دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م ، المجلد الخامس ص ٣١ .

وما أن توفي (النبي) حتى انفجر البركان ، واحترق الضعفاء أو ماتوا ، وابتدأ الصراع على الملك بين الاقوياء، فكثرت الـدسائس والاغتيـالات والمـؤامرات ، وسادت الانقسامات والانشقاقات ، واستمر الوضع هكذا ،فبرزت الشيع والاحزاب ، وأصبح الاسلام اسلامات ، والمسلمون طبقات ودرجات ، بعضهم لا يرحم بعضا ، والجميـع في ارتباك شديد واضطراب رهيب .

عن نشوء المذاهب والفِرق كتب المرحـوم محمـد الصادق عرجون يقول :

« وكانت هذه المرحلة معقّدة ملتوية لانها ــ وهي لا تزال تزخر بأعلام الصحابة وتلاميذ النبي (ص) الـذين ربَّاهم بأدبه العالي وهـذَّبهم بروحه السامي ، وصقـل نفوسهم بنور الهداية ــ كانت مباءة لبدء ظهـور الفـرق والمذاهب التي مزقت وحدة المسلمين ، وبددت شملهـم ، وجعلت القرآن بينهم عضين ، تلجأ اليه كل فرقة وفي يدها سلاح التأويل ولو أدى الى التحريف ، لتجعل منه سنـدا لمذهبها وحجة على منتحلها ولو كان أشبه في سخفه بأساطير الاولين وأدخل في الوهم الى أعمق الاباطيل » (٢٣) .

أما المسؤولية الكبرى فهي ، في رأي العرجون، واقعة على حدثاء العهد بالاسلام ، اذ يقول فيهم :

(٢٣) محمد الصادق عرجون : المصدر نفسه ص ٢٠.

(٢٤) المصدر نفسه .

« وقد دخلت الى أرواق الحياة الاسلامية في هـذه المرحلة شخصيات لم تستضيء ساحات قلوبها بأنوار النبوة، ولم تستكمل حضانتها الاسلامية في ظل اليقين ، وزاحمت بمناكبها أصحاب رسول الله (ص) حتى أقصتهم عن مكانهم، وباعدتهم من أسرهم ، وقبضت على كثير من مرافق الحياة في الامة ، وقضت في كثير من قضاياها ، وتقدمت وتـأخر أهل السبْق في الاسلام ، فكان لهذه الشخصيات الدخيلة أثـر عظيم في هذا التحول الذي اتجـه اليـه التـاريخ الاسلامي » (٣٤) .

من هؤلاء ، كما يقول العرجون ، عبدالله بن سبـأ اليهودي المعروف بابن السويداء ، الذي « دعا الناس الى التشيُّع لعلي قائلا انه وصي رسول الله (ص) وخليفتـه على أمته من بعده » (٣٥) ، والخوارج الذين تمتد جذورهم الى عهد النبي ، بل الى ذلك الذي قال لمحمد « لم أرك عدَلْتَ » ، وكان ذلك يوم وصلت الى محمد (النبي) ذهبية ـ بعثها علي بن أبي طالب من اليمن ـ في اديم مدبوغ ، فقسَّمها بين أربعة نفر : عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة وإما عـامر بـن

---

(٣٥) المصدر السابق .

الطفيل » (٣٦) ومنهم أيضا أبو ذر الغفاري الذي نادى بما يشبه « الاشتراكية المالية » (٣٧) ، « فكان أثفية من الاثافي التي ارتفع عليها مرجل الفتنة العثمانية » (٣٨) .

ان مثل هذه الحركات الاسلامية المتمردة ما كان لها أن تنتشر وتصادف القبول والاستحسان ، لولا ان المجتمع الاسلامي لم يكن محكوما بالمنازعات ، منها القديمة التي تصعد « الى جاهلية الآباء والاجداد » ، والحديثـة التي هيَّأتها « الدوافع القائمة بين الاقران والانداد » ، فضلا عن « حوافز البيئة » العربية وأغلبها موروث . فـالذين عارضوا أبا بكر وخالفوا عمر ، هم مخطئون بمقدار مـا أخطأ كل من أبي بكر وعمر ، كذلك ابن سبأ وعلي ، وأبو ذر وعثمان ، ومعاوية والحسن ، ويزيد والحسين،وغيرهم وغيرهم من رجال الفتن والحروب العربية والاسلامية ،منذ ذلك العصر والى يومنا هذا .

من قتـل من ؟

الكل قتل الكل ، في حرب لا نهاية لها ، اختلف على تسميتها المؤرخون والباحثون ، بينما اسمها واحد وهدفها

---

(٢٦) انظر كتابنا « محنة العقل في الاسلام » طبعة ثانيـة ١٩٨٢ ، الفصل الثالث (الاسلام ولد ممزقا) ص ٣١ ، وحاشية (*) عن صحيح الاما مالبخاري ، باب المؤلفـة قلوبهم ، وعن آخرين .
(٢٧) (٢٨) عرجون : المصدر نفسه .

واحد: انها «الحرب على السلطة» • أبطالها لا تحصيهم الارقام ولا البيانات ، فمنهم من يطلب السلطة لنفسه ، ومنهم من يطلبها لحليفه ، وآخرون يؤثرون الموت على التنازل عنها أو تسليمها الى غيرهم ، ومثلهم حلفاؤهم وأنصارهم وشركاؤهم في الحكم •

لقد ظل عمر يضرب بالدرّة الى أن جاء من طعنه بالخنجر، فيتّمت الدرة من أبيها • واستمر علي في تقريع الخصوم والتشوّف من سطح بيت أبي طالب حتى قتله خارجي فقير • وتمسك عثمان بعرش الاسلام وأبى أن يخلع نفسه من الخلافة ، فاقتحم الخارجون بيته فلم يلن ولم يستسلم، بل اختار «الشهادة»،فمات وهو ثابت على رأيه : «ما كنت لاخلع سربالا سربلنيه الله ، فتكون سنّة بعدي ، كلما كره القوم إمامهم خلعوه » •

وتتذكر ، هنا ، الحسين بن علي يوم رفض البيعة ليزيد بن معاوية ، كما رفض المصالحة والمهادنة قائلا: «شاء الله أن يراني قتيلا » (؟) ، واستدرج الدولة الاموية الى كربلاء،ليكتب بدمه عهدا الى الشيعة أن يكونوا كربلائيين، فإما الحكم وإما الفناء !!

وأخذت المعارضة على عثمان أنه حابى أقاربه وولّى رجالات من بني أميّة الادارة والقيادة ، فضيّقت عليه

وحاصرته حصارا شديدا ، اذ حالت بينه وبين بئر رومة التي اشتراها بماله ، فشرب الماء المالح من بئر في داره ، ومنعته من الصلاة في المسجد الذي زاد فيه ووسّعه ، ولما قُتِل « واراه أهل الحق والخير بالخفاء والستر » (٢٩)، وهو الذي جهّز جيش العُسْرة بما لديه من الابل والخيل وأنفق ما شاء له أن ينفق ؟!

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في « منهاج السنّة » :

« واذا كان عثمان قد ولّى أقاربه لكفاءتهم وتفوقهم، فان عليّاً ولّى أقاربه من قِبل أبيه وأمه كعبد الله بن عباس،وعبيد الله بن عباس ، وحكَم بن عباس ، وثمامة بن عباس ، وولّى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي ربّاه في حجره وتزوّج أمه بعد وفاة الصديق الاعظم » •

أضاف :

« والذين ينكرون ما ينكرون من ذلك على عثمان في ولاية أقاربه من بني أمية فان عليّاً كان في ذلك ابلغ من عثمان ، واذا دعي لعلي العصمة مما يقطع عنه ألسنة

---

(٢٩) عرجون : المصدر نفسه .

الطاعنين ، فان ما يُدعى لعثمان من الاجتهاد والذي يقطع ألسنة الطاعنين أقرب الى المعقول والمنقول » [٣٠] .

عندمـا يكون الحاكم مقتولا ، والمعارض مقتـولا أيضا ، فلماذا السؤال : من قتل هذا أو ذاك ؟

الكل قتل الكل ..

وللتاريخ ثلاثة أعين : واحدة للحب ، وأخرى للبغض ، والثالثة مجرّدة من كل هوى ، وهذه لا ينظر بهـا الا القليلون .

١٩٨٥/٩/٢٧

(٣٠) الخطيب: المصدر نفسه ص ١٣ . ويمكن مراجعة الفصل الثاني من كتاب « تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام » المذكور سابقا ، وبخاصة من ص ١٠٣ الى ص ١٢٣ حيث يتكلم المؤلف محمد علي نصرالله عن الاقطاع زمن الخلفاء الراشدين .

(٢)
الإسـلام وحقوق الإنسان

بين « ثوابت الـدين » و « المتغيرات الدنيويـة » يسافر بك الدكتور محمد عمارة [١] ، عبر كتاب له جديد عنوانه « الاسلام وحقوق الانسان » (ضرورات ... لا حقوق) [٢] ، ثم يعيدك ، الى مكانك الاول ، تماما مثلما انطلقت واياه ، كما لو ان « الرحلة » قد أُعدّت في الليل وانتهت في الليل ، اذ هو يعتقد انك ممن يقولون معه بأن

(١) د. محمد عمارة : من مواليد مصر في ١٩٣١ ، تخرج في كلية دار العلوم ، ومنها نال اجازتي الماجستير والدكتوراه قدم للمكتبة العربية اكثر من ستين كتابا ، بين تأليف ودراسة وتحقيق منها : « فجر اليقظة العربية » ، « العروبة في العصر الحديث » ، « الامة العربية وقضية التوحيد » ، « اسرائيل هل هي سامية ؟ » « الخلافة ، ونشأة الاحزاب الاسلامية » « العرب والتحدي » ، « دراسة وتحقيق الاعمال الكاملة للافغاني ومحمد عبده وعلي مبارك والطنطاوي وقاسم امين والكواكبي » .

(٢) ١٤٢ صفحة من القياس الوسط ، مع وثائق من ص ١٤٥ الى ص ٢١٣ ، الى ثبت للمصادر والمراجع ، منشورات « عالم المعرفة » ـ الكويت ، رقم ٨٩ ، شعبان ١٣٤٥ هـ ـ مايـو (ايار) ١٩٨٥ م .

«طريق الله (في الاسلام) : العقل •• ومناط التكليف فيه: العقل •• والحكم في نصوصه ومأثوراته : العقل •• ووجيه « معجزة ـ عقلية » (؟) ، لا تدهش العقل ، وانما ترعى وتشحذ وتنمي ما له من قدرات وملكات •• » ، وان الاسلام قد « حدّد ، في حسم ووضوح ، ان العلم هو سبب الايمان وسبيل التصديق بالدين » (ص ٧٦) •

ليس المهم أن تطول هذه « الرحلة » أو تقصر ، فرفيقك (المؤلف) « مسلم مثالي » همه الوحيد ، بل الاوحد ، الفصل بين « الخطأ في الدين ـ الخطيئة الدينية» والخطأ السياسي ، فاذا كان الاول « يستوجب إثماً دينياً لمن وقع منه » فان الثاني مجاله « الرأي والسياسة ، وهو مما تجوز ، بل تجب فيه المعارضة » (ص ١٠٢/١٠٣) •

ففي « الاسلام وحقوق الانسان » يعيّن لك الدكتور عمارة ست « ضرورات واجبة » هي : الحرية والشورى والعدل والعلم والاشتغال بالشؤون العامة والمعارضة ، وقبل أن يتركك للوثائق ، التي استعارها من الدستور : (الصحيفة ـ الكتاب) ، والرسول (في خطبة حجة الوداع)، وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز وزيد بن علي وأبي حمزة الشاري[٣]،

---

(٣) ابو حمزة الشاري (المختار بن عوف بن سليمان بن مالك) (ت ١٣٠هـ ـ ٧٤٨ م) ولد في البصرة . من ابطال الخوارج وخطبائهم وثوارهم ضد مروان بن محمد (٧٢ـ١٣٢ هـ =

و « وثيقة الحقوق »[٤] و« الامة مصدر السلطان»[٥]، يطلعك (المؤلف) على « المعارضة المنظّمة » و « شبهات علماء السوء » ، وبعد كل ما تقدم يأخذ بك الى الحائط المسدود لتقرأ : « ان ديناً لم يكرّم الانسان كما كرّمه دين الاسلام » ، و « ان شريعة من الشرائع الدينية أو الوضعية لم ترفع « حقوق » الانسان الى مرتبة(الضرورات الشرعية الواجبة)كما صنعت ذلك شريعة الاسلام»(ص١٤٣)

عند ذلك « الحائط الإلهي » تجد نفسك إما جاهلا وإما غريبا ، اذ تقرأ ـ يجب أن تقرأ ـ « فعلى الذين يعون هذه الحقيقة أن يناضلوا ، بكل السبل والوسائل الاسلامية (؟) ، لرفع عار الاستبداد وقيوده عن « واقع » المسلمين ••• ولتنقية « الفكر » الاسلامي من التشوهات التي زرعها فيه نفر من « علماء السوء » وفقهاء السلاطين ، الذين احترفوا التبرير لمظالم المستبدين ، وباعوا آخرتهم الباقية بفتات من دنياهم الفانية عندما دعوا المستضعفين والمظلومين الى الاستكانة ـ التي سموها : صبرا ـ على ما تعافه نفوس الاحرار » (ص ١٤٢) •

= ٦٩٢ ـ ٧٥٠ م) آخر الخلفاء الامويين ، اذ دعا الى مبايعة عبدالله طالب الحق في حضرموت . حارب الدعوة العباسية. قتل بأمر من مروان الثاني .

(٤) (٥) « وثيقة الحقوق » و « الامة مصدر السلطان » من الوثائق التي مثلت الفكر الذي دخلت به مصر عصر يقظتها الحديث ، وذلك عام ١٢٢٠هـ ـ ١٨٠٥م .

اني أعترف بأن الدكتور عمارة قد زادني خوفا وقلقا ، لا على نفسي فحسب ، بل على كل أولئك الذين لا يرون رأيه ولا ينظرون بعينيه أو بعقله ، ولكنني تفطنت للامر، فقلت : هي رحلة مع كتاب ليس فيه جديد ، بل قديم موروث أو مقتبس ، ولطالما قرأنا مثله ، في الكتب التراثية، أو سمعنا من خطباء ملأوا الدنيا بكاء وعويلا كلما وقفوا ليقرّعوا من غلبوا في الغزو أو الاجتياح أو الانتهاب .

جاهلية ؟

هل صحيح ان العصر السابق على الاسلام هو عصر « جاهلية » و « بداوة » ؟

مشكلتنا ليست مع الدكتور عمارة دون غيره.. مشكلتنا هي مع الغزالي والحسن البصري والذين من قبلهما ومن بعدهما . واذ يقول الغزالي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) : « لقد طلبنا العلم لغير الله ، فأبى الا أن يكون لله » ، يقول ، أو قال البصري (من ٢١ ــ ١١٠ هـ / ٦٤٢ــ٧٢٨م) من قبله : « لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده .. فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله ما عنده » (خرّجهما عمارة ص ٧٧) .

متى كان العلم لقهر الانسان؟

كل « الضرورات الواجبة » التي استنبطها الدكتور عمارة واستخرجها هي من الانسان والى الانسان .. من

العالِم العارف الى المحتاج المتلقي .. من المتمكن المرتفع الى الضعيف المنحط عن درجة الفصيح .. وكل أمة لديها من يعطي ، ولديها من يشرّع ويفلسف ويهندس ويدبّر ويخلق ويبتدع ، ما دامت الامة في مسعاها الى التكامل ، وهذا يجعلنا ننظر الى أعمال الامم والشعوب ، لا من المنطقة الفوقية ، بل من الواقع ، مهما يكن هذا الواقع، باعتبار ان العدم لا يأخذ ولا يعطي ، وان الارتقاء بالافكار والنظريات والشرائع والدساتير والاحكام حركة انسانية لا تتوقف ، ولها أسس تمتد بعيدا في الازمنة ،كما تتفاوت في الفضل بسبب التباين الذي بين عصر وآخر .

واذ يحاول الدكتور عمارة القبض على « مثاليته » الاسلامية ، فانما يفعل ذلك ليبرّىء « العقيدة »(الاسلام) ويخطّىء المعتقدين ــ المسلمين ، وهذا ما نلحظه منذ أول الكتاب والى آخره .

يقول الدكتور عمارة :

« واضح لمن يستقرىء تاريخنا ان المسلمين لم يختلفوا في « الدين » ، ولم تنشأ فرقة من الفرق الاسلامية الرئيسية بسبب خلاف حول عقيدة من عقائد الدين ولا أصل من أصوله وانما كانت السياسة وفلسفة نظام الحكم، ومنصب الخلافة ، واختلاف المناهج في سياسة الامة هي أسباب الخلاف ، الذي أقام الفِرق ، وأنشأ الاحزاب ،

وأشعل الحروب والصراعات على امتداد التاريخ الاسلامي واختلاف أقاليم المسلمين » (ص ٨٨) .

أتراه نسي ان « اختلاف المناهج » هو بعض من اختلاف الاهداف ؟

عندما لا تتفق السبل كيف ستتفق الغاية وتتحقق ؟

ان أكثر ما يثير الاستغراب أن يقول المؤلف « ففي الدين : عصمة ، ووحي ، ويقين ، ووضع إلهي ، لا مجال معه للشورى أو الرأي أو المعارضة والاعتراض .. أما في الدنيا والسياسة وعمران المجتمع ونظامه ، فان الحاكم ، بالغاً ما بلغ ، لا عصمة له » (ص ١٠٥) بيد ان العصمة تحدّ من طموحات الشعوب ، و « الوحي » يعطّل الطاقة على الخلق ، واليقين يشل الفكر ، والوضع الإلهي يقهر الوضع الانساني .

وهكذا ، يحمل الدكتور عمارة على « أمراء » الجماعات الاسلامية الجديدة ، ممن يرددون ويذيعون « المأثورات النبوية الشريفة » التي « تحكم بالجاهلية على من فارق الجماعة ، وعلى من مات وليس في عنقه بيعة للامام » (ص ٩١) فيأخذ (المؤلف) « حديثا » نبويا رواه عبد الله بن عمر فيجتهد في تفسيره لكي يخلص « الحديث » ويجرّم « الامراء » ؟!

يقول الدكتور عمارة :

« ... انه صحيح ، وحق ، وصدق ان رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم ، قد قال ـ فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « من خلع يداً من طاعة ، لقي الله يوم القيامة لا حجة له . ومن مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة الجاهلية » (رواه مسلم) .

أضاف عمارة :

« لكن الامر الذي يغفله ـ أو يتغافل عنه ـ هؤلاء « الامراء » ان هذه « البيعة» ، التي يتحدث عنها الحديث النبوي الشريف كانت بيعة الذين آمنوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي دعاهم الى الايمان ... فهي البيعة له بالنبوة ، وموضوعها : التوحيد والاسلام .. انها البيعة التي خرجوا بها من الجاهلية الى الاسلام .. ومن ثم فان خلعها والخروج من طاعتها ، هي ـ بالقطع ـ عودة الى الجاهلية مرة أخرى .. فهي لم تكن بيعة من « الرعية السياسية » لمحمد برئاسة الدولة لان هذه الرئاسة قد جاءت تبعاً .. » .

وقال أيضا :

« فبيعة الرسول هذه وحدها ، دون أية بيعة أخرى لأي خليفة أو حاكم أو أمير ، هي التي توصف بـأنها هي « الاسلام » ، وهي التديّن بالدين الاسلامي .. انها في الحقيقة : بيعة الله سبحانه وتعالى ، التي قال عنها لنبيّه :

(ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) كما قال أيضا :
(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظا) •• وليست كذلك بيعة أمراء السياسة والولاة والرؤساء في دولة الاسلام » (ص ٩١/٩٢) •

ماذا ندعو هذا التفسير ؟

انه لا شك « حسْن تخلّص » •• ولكن ممن ؟

الذين خلفوا النبي أحبوه وأحبهم ، على ما يقول المؤرخون والدكتور عمارة،و«النبي أحب الله، والله أحبّه»، فلماذا لا تكون «البيعة» للامام •• مثل « البيعة »للنبي؟

هيهات !

ينقل المؤلف وقائع لقاء سريع بين الخليفة عمر بن الخطاب وسعد بن عبادة (١٤ هـ / ٦٣٥ م) « زعيم الخزرج ، والمتحدث باسم الانصار ، وأحد النقباء الاثني عشر الذين بايعوا الرسول على تأسيس الدولة العربية الاسلامية الاولى » (ص ٨٨) ولم يبايع (سعد) لا أبا بكر ولا عمر ، و « لقد حدث والتقيا في المدينة ، وكان سعد راكبا فرساً ، وعمر يركب بعيرا ، فدار بينهما حوار عنيف بدأه عمر :

ــ هيهات يا سعد !

ــ هيهات يا عمر !•• والله ما جاورني أحد هو أبغض اليّ من جوارك !

ــ ان من كره جوار رجل انتقل عنه !••

ــ إني لأرجو أن أخلّيها لك الى جوار من هو أحبّ إليّ جوارا منك ومن أصحابك ! » (ص ٩٠) •

ويعلّق عمارة فيقول :

« فلم يغضب منه الخليفة عمر بن الخطاب ، ولم يُكرهه على البيعة له •• وتركه ورأيه حتى انتقل الى جوار ربه ! » •

وقال أيضا :

« هنا •• نحن أمام صحابي جليل ، عاش دون أن يبايع الصدّيق بالخلافة •• ومات وليس في عنقه بيعة للخليفة الفاروق » (ص ٩٠) •

ماذا كان ينتظر المؤلف من عمر ؟

ألَمْ يَكْفِ ابن الخطاب انه حال بين سعد وبين الخلافة ؟

« ولقد مالت الأوس ــ من الانصار ــ الى رأي المهاجرين الاولين ، وتبعت عمر بن الخطاب في البيعة لأبي بكر الصدّيق خليفة على المسلمين ••• وجرف التيار الخزرج ، فبايعوا ، إلاّ سعد بن عبادة » (ص ٨٩) •

لو ان«الفاروق»ضرب عنقهذا الزعيم الخزرجي لكان قتله مرة واحدة ، وانما عزله وأبقاه حيّاً ليقتله كل يوم •

« اني لأرجو أن أخليها لك عاجلا » قالها سعد •••

اذ كان يدرك أي كارثة قد سبّبها له عمر وأبو بكر وسائر «المهاجرين الأولين» .

« وفي السقيفة [6] ، واجه أبو بكر الانصار ،وعرض الرأي القائل : ان «المهاجرين الاولين» هم الأحقّ والأجدر بمنصب الخلافة ، فهم أسبق الى الاسلام ، وأقرب الى نبيّه ، وهم قُرَشيون ، وأقدر لمكان قريش – ومكانتها في العرب – أن تجتمع عليهم وترضى برئاستهم قبائل العرب ، فتستمر وحدة العرب في دولة الاسلام » (ص ٨٩) .

أليس هذا ، بالنسبة الى ابن عبادة ، أقوى من السيف ؟؟

في عهد (النبي) كان الباب على العقيدة والسياسة واحدا .. فلما جاءت البيعة صار أبوابا ونوافذ وثقوبا .. ولكن أحدا لم يدخل من الباب الواسع .

على الارض عقيدة أم سياسة ؟

يقول الدكتور عمارة :

وهكذا ثبت ، مرة أخرى ، ان الخلاف في الرأي ،

---

(٦) السقيفة : كل بناء سقفت به صفة او شبهها من يكون بارزا ، الزم هذا الاسم لتفرقة ما بين الاشياء . والسقف : السماء .

والسقيفة : الصُفَّة ، ومنها سقيفة بني ساعدة .وفي حديث اجتماع المهاجرين والانصار في سقيفة بني ساعدة . (لسان العرب م ٩ حتى ١٥٥) .

والمعارضة في السياسة ، ورفض البيعة للخليفة والامتناع عن انتخاب الامير واختياره ، لا تقدح في العقيدةالدينية، ولا تقلّل من ولاء الفرقاء – المختلفين للوطن الجامع لهم جميعا !.. وكان ذلك شاهدا على مشروعية المعارضة السياسية في النهج السياسي للاسلام والمسلمين » (ص ٩٤) .

نجامل العقيدة ولا نجامل الرأي ؟!

لقد غيّب الدكتور عمارة الاقتصاد فباتت العقيدة خجولا ، والسياسة باهتة .

قريش هي « العمود الفقاري » للأمة ، قال الاقتصاد .. وقالت السياسة الاقتصادية .

هل استطاعت « العقيدة » أن تعارض أو ترفض ؟

أنّى للعقيدة أن تقول « لا » للمهاجرين الاولين – الضيوف – «وقد قال أبو بكر الصدّيق : » ان العرب لا تدين الا لهذا الحيّ من قريش » أي الحي الذي تكوّن في المدينة من مهاجرة قريش » (ص ١٠٨ / ١٠٩) .

« حيّ الضيوف » سيطر على « المدينة » ..فسيطرت السياسة على العقيدة ، والتجارة على الأخلاق .

لقد رفع الدكتور عمارة العصمة عن « السياسة » ، وتجاهل الاقتصاد والانفعال النفسي العنيف ، فيما بقيت العقيدة كأنها الضبابة التي غشيتنا وما تمالكنا أن تنافسنا في القبض عليها ولكن عبثا !

١٩٨٥/٦/٢١

(٣)
مفاهيم قرآنية

يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله [١] في مقدمة كتابه « مفاهيم قرآنية » [٢] :

«... والمنهج الذي سرت عليه اني قمت أولا باختيار نوعين من المفاهيم : نوع يميل الى السياسة ، ونوع يميل

---

(١) من مواليد مصر . تخرج في كلية الاداب ـ جامعة القاهرة وحصل على درجتي الماجستير والدكتوراه ، شغل وظائف التدريس في كلية الاداب ، ومعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية . عمل وكيلا لوزارة الثقافة المصرية ، ثم أحيل على التقاعد . تخصص في الدراسات القرآنية وله مؤلفات عديدة منها : ١ ـ الفن القصصي في القرآن الكريم ، ٢ ـ القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ، ٣ ـ القرآن والدولة ٤ ـ القرآن والثورة الثقافية ، ٥ ـ هكذا يبنى الاسلام ، ٦ ـ محمد والقوى المضادة ، ٧ ـ الاسس القرآنية للتقدم .

(٢) ٢١٦ صفحة من القياس الوسط مع خاتمة ، عالم المعرفة الكويت (٧٩) شوال ١٤٠٤ هـ (يوليو) (تموز) ١٩٨٤ .

الى الاجتماع .

« وكان الدافع لهذا الاختيار اني رأيت بعض الناس يعمدون الى القرآن الكريم ليتخذوا من آياته السند لهم فيما يعملون في ميدان السياسة أو ميدان الاجتماع .

« وكنت أرى أنهم لا يتقون الله فيما يفعلون ، فلم يكن الهدف من عملهم هو ممارسة الحياة على أساس من القرآن ، بقدر ما كان التماس السند فيما يرغبون فيه من عمل ، من القرآن الكريم ، ظنا منهم أن هذا الصنيع يكسب عملهم القوة التي ينفذ بها الى قلوب الناس » .

أضاف :

« وكان هذا هو الدافع لي الى الاختيار ، فاخترت بعض المفاهيم التي قد تبيّن لهؤلاء الناس مدى بُعدهم عن الحقيقة القرآنية .

« انه من هنا جاء اختياري للمفاهيم القرآنية التي أرد بها على السياسيين الدينيين ، والتي أوضح بها المفاهيم اللازمة لممارسة الحياة في المجتمع » (ص ٧/٨) .

معنى هذا أن الدكتور خلف الله هو مع القرآن ضد نفسه وعقله أولا ، وضد كل من ليس « قرآنيا » ثانيا . فما أضعفه ، اذن ، وقد تنازل عن « عقله » و « انسانيته » ،

وخرج على « الدارسين الذين (يزجّون) بالقرآن الكريم في ميدان الاهواء والرغبات الشخصية » (ص٩) بسيف لا يليق بـ « المحارب الكبير » ولا يتفق مع « المناسبة » !

قد يبادر القارىء أو المؤلف ، وربما الاثنان معا ، الى القول : ولكن المعركة يشارك فيها مئات من «الدكاترة»، من العرب والمسلمين ، والجميع « قرآنيون » ، لا يبغون « غير دين الله » ، وهم يؤمنون بأن « الحلال ما أحلّه الله » و « الحرام ما حرّمه الله » و « ما سكت عنه فهو عفو » وغفران .

أجل !

ولكن المعارك لا تقرر النصر فيها «العددية» فحسب.

ماذا في شرقنا السعيد ؟

هل الله في خطر ؟ أم الانسان أوشك أن يموت ؟

لعل هذا السؤال أزعج الدكتور خلف الله ، فيما نحن لا نرمي الى ذلك ، بل شئنا أن نبدأ معه من هنا، وهو القائل :

« والجدل والحوار انما يتوجهان في الحقيقة الى العقل البشري ، الامر الذي ندرك معه الى أي حد كان القرآن الكريم يعتمد على العقل في تكوين الايمان . ومن

هنا جعل القرآن الكريم الكفر آفة عقلية . والكفرة كالأنعام أو أضل . إنهم شر الدواب » (ص ١٥٦) .

لماذا ؟!

لانهم لم « يؤمنوا » ؟

نحن نعرف أن القرآن يقول : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون » (٣) ولكن أليس هذا القول سياسيا فحسب ، باعتبار السياسة هي القضايا الكبرى للمجتمع المكي ـ المديني ، التجاري ـ الزراعي ، في ذلك الحين ..؟!

انه حدث ولا شك ، فلنتأمله صابرين !

قبل نحو أربعة عشر قرنا سمعت مكة التجارية محمدا (النبي) يرتل :

« ولو اننا نزّلنا اليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (٤) .

وسمعت المدينة الزراعية أيضا « ضيفها » يردد :

---

(٣) البقرة (مدنية) ١٧١ .
(٤) الانعام (مكية) ١١١ .

« ألم تعلم ان الله له ملك السماوات والارض يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير »[٥].

ماذا قالت مكة ؟

ماذا قالت المدينة ؟

السيف هو الذي قال « الكلمة الاخيرة » .

هل الدكتور خلف الله مع مكة أم مع المدينة ؟

ألا يرى معي الى حق الانسان ، كل انسان ، في معالجة المذاهب والعقائد والنظريات والمفاهيم بدون خوف من ملك أو نبي أو زعيم أو حاكم أو جلاد ؟

اني أخشى أن يكون « السيف » هو العنصر المقرِّر الوحيد الأوحد .

وعلى كل ، فان السياسة هي التي فرضت هذه العداوة الحادة الدائمة بين النبي والكفرة، وهي التي ما زالت تؤكد على ان الكفرة هم «شر الدواب» (؟) غير أن هؤلاء هم أصحاب عقل لا يدالس ولا يساوم ولا يسهل انقياده ولا يخون .

اذا كنا نريد تفسيرا بنّاءً مفيدا ، فلا بد ان نضع كل نص (آية) في اطاره التاريخي ، والا فلا حوار ولا من يحاور .

---

(٥) المائدة (مدنية) ٤٠ .

وأما أن يقول صاحب « تفسير المنار »[٦] عند تفسيره للآية (٧١) من سورة (البقرة) المذكورة أعلاه :

« وصَفهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم ، كصفة الراعي للبهائم السائحة ، ينعق ويصيح بها في سَوْقها الى المرعى، ودعوتها الى الماء ، وزجْرها عن الحمى ، فتجيب دعوته وتنزجر بزجره بما ألفَتْ من نعاقه بالتكرار . شبه حالهم بحال الغنم مع الراعي ، يدعوها فتقبل ، ويزجرها فتنزجر، وهي لا تعقل مما يقول شيئا ، ولا تفهم له معنى . وانما تسمع أصواتا تقبل لبعضها وتدبر للآخر بالتعويد ولا تعقل سببا للاقبال ولا للادبار . الكافر كالحيوان ،يرضى بألاّ يكون له فهم ولا علم ، بل يقوده غيره ويصرفه كيف يشاء »[٧] ، فكتابة غير ابداعية ولا ذات جمال ، بل مجترّة أو مركّبة ، كونها خالية من الافكار والتطلعات الجديدة المعاصرة ، التي نحتاج اليها جميعا !!

لنبقَ مع « تفسير المنار » ولا بأس ، اذ هو يقول أيضا :

« الآية صريحة في أن التقليد بلا عقل ولا هداية ، هو شأن الكافرين . وليس القصد من الايمان أن يذلّل

---

(٦) هو الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥) : ولد في القلمون (لبنان) . من علماء الدين الاسلامي ، مؤسس مجلة « المنار » في القاهرة وتلميذ الشيخ محمد عبده .

(٧) خرجه الدكتور خلف الله ص ١٥٧ .

الانسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقي عليه ، وتتزكى نفسه ، بالعلم بالله والعرفان في دينـه . فيعمل الخير لانه يفقه الخير النافع المرْضي لله . ويتـرك الشر لانه يفهم سوء عاقبته ، ودرجة مضرّته ، في دينـه ودنياه .. ولذا وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل ،بأنهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون » (٨) .

اليد اليسرى ؟

الواضح أن الشيخ محمد رشيد رضا يحسب الكافر « عدوّاً للخير » و « عدوّاً للعلم » !! وكما الشيخ كذلك الدكتور خلف الله وكثيرون سواه .

ولكن الكافر، أصلاً، لا يقلد أحداً، ولا هو يفوض من أمره الا الى العلم والقانون والحاكم العادل. والكافر يفكر ويبحث ويحقق ويحلّل ، أو كما يقول أحد فلاسفة التنوير ج . ليسنغ (٩) :

« لـو ان الله أمسك بالحقيقة كلها في يده اليمنى ، والبحث الدائب عن الحقيقة في اليد اليسرى كي أقع دائما في الاخطاء وقال لي : أيهما تختار ؟ فانني بكل تـواضع

(٨) المصدر السابق .

(٩) Lessing, Gothold Ephraim (1729 - 1781) Critic & dram.

اختار اليد اليسرى قائلا : أبي ، هَبْ لي هذا ،فالحقيقة المطلقة لك وحدك » (١٠) .

والواضـح كذلـك أن رضا وخلف الله وسائـر « القرآنيين » ، الأقدمين والمحدثين ، قد اختاروا « الحقيقة كلها » ، فاستقرّوا « آمنين مطمئنين » ، ولو سألناهم: أي حقيقة هذه ؟ لردّوا بصوت واحد :

« ان في خلق السماوات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع النـاس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحب المسخّر بين السماء والارض ، لآيات لقوم يعقلون » (١١) .

ويذهب « القرآنيون » في تفسير هذه الآية فيقولون وبصوت واحد أيضا :

« ان أهل النار ــ بنص كتاب الله ــ هم الاغنيـاء

(١٠) G. Lessing : Lessing Theological Writings , P. 41 , Stanfer University Press California 1967 .
خرجه الدكتور حسن حنفي ، في دراسة له عنوانها : متى تموت الفلسفة ومتى تحيا ؟ مجلة « عالم الفكر » ــ الكويت ، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث ــ ١٩٨٤ ص ٢١٥

(١١) البقرة ١٦٤ .

الجاهلون الغافلون ـ الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الامور ، ولا يستعملون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ومعرفة آيات الله الكونية والتنزيلية وهما سبب كمال الايمان ، والباعث النفسي على كمال الاسلام ... ان القرآن يحتم على المسلمين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وارتقاء الامم » (١٢) .

فكل من ليس مسلما فهو « جاهل » و « غافل » مهما يكن « غنيا » ! وكل من ليس « قرآنيا » فهو لا يعلم ولا يفقه ، ولو أحاط بثقافات العالم ، من أصلها الاول والى اليوم ؟!

لله كتابان (؟)

ويقول الشيخ رشيد رضا أيضا :

« العلوم الطبيعية هي الكاشفة عن أسرار الكون ، وعن سنن الله في خلقه ، وهي بهذا تُعتبر مكملة للقرآن الكريم من حيث العقيدة الدينية » (١٣) .

أضاف :

« ان لله كتابين : كتابا مخلوقا وهو الكون ، وكتابا مُنزلا وهو القرآن ـ ولا يغني أحدهما عن الآخر . ان

(١٢) تفسير « المنار » ، خرجه خلف الله ص ١٤٦ـ١٤٧ .
(١٣) ص ١٤٧ .

القرآن يحثّنا على النظر في الكون لنصل الى الوقوف على الحقائق العلمية والسنن الكونية . وان النظر في الكون ينتهي بنا الى الحقائق العلمية التي تثري فهمنا للآيات القرآنية . ان ما وصلنا اليه اليوم من حقائق علمية في الميادين المختلفة للحياة ، قد زاد من وعينا بقدرة الله وعلمه وحكمته وبديع نظامه ، واتقانه لكل شيء خلقه . وانه من هنا تكون العلوم الطبيعية والمعارف البشرية ، داخلة في دراسة مفاهيم القرآن » (١٤) .

اذا كان الامر كذلك ، فماذا نقول في العلوم السابقة على القرآن ؟ وماذا نقول في العلوم التي جاءتنا من علماء لم يطّلعوا على القرآن ، وبخاصة الكفرة منهم ؟

أرجو من الدكتور خلف الله أن يتذكر كم هو قديم الصراع بين المثالية والواقعية ، واذ ذاك سيدرك بنفسه ان « في تراثنا القديم كان يمكن للفلسفة أن تزدهر في تاريخ الفِرق دون تكفير بعضها للبعض ، وتكفير الفرقة الناجية ، فرقة أهل السنّة والحديث كل الفِرق الاخرى ، فتاريخ الامة هو تاريخ فكرها دون ادانة وحكم بالمروق» (١٥) .

على ان الاسلام والقرآن هما من هذا التاريخ المنحوت

(١٤) المصدر السابق .
(١٥) د. حسن حنفي : المصدر نفسه ص ٢٤٧ .

أو المصنوع لا من «الوضع الإلهي» حسبما يعتقد خلف الله وزملاؤه .

مما لا شك فيه ان المؤلف يسعى الى تأمين سعادة الانسان ، عبر الدين (الاسلام) ، لايمانه بأن « الدين الصحيح هو من عند الله، ليس غير » (ص١٧٨) . ولكن القول بأن الدين من عند الله انما هو تسليم بموت الانسان والفلسفة ؟!

ماذا يبقى من الاسلام والقرآن بل من التاريخ لو بموت الانسان ؟

يدعو الدكتور خلف الله كذلك الى الاعتراف بأن « الحقيقة العلمية » انما هي « الحقيقة الدينية التي أساسها الوحي » (ص ١٤٥) و« لا يستنبطها أولو الامر بعقولهم البشرية» (ص١٠٩)، اذ ان «العقل البشري عاجز تماما عن أن يكون له أي عمل في ميدان العقيدة (الحقيقة الإلهية) من حيث ان هذا الميدان من الغيب الذي لا يعلمه الا الله » (ص ١٠٩) ؟!

فالناس من هذه « الحقيقة » فريقان : « فريق هو الذي اهتدى بالرسول » و « فريق ظل كما كان ، وهو الذي حقت عليه الضلالة » (ص ٩٠) ؟!

ان الواقع ، الذي لا يسر الدكتور خلف الله، ربما، هو أن لا وجود لحقيقة مجرّدة ، بل « توجد حاجات ومطالب وأهداف وبواعث وأوضاع اجتماعية محددة في عصور وأمكنة معيّنة » [١٦] والاسلام ، كما غيره من الاديان والمذاهب والمعتقدات ، هو إما حاجة وإما مطلب أو هدف أو باعث . بينما الانسان هو الذي يحتاج ويطلب ويهدف ويعمل ويبحث ، وينفعل ويتفاعل ، فيفرح أو يحزن، ويسعد أو يشقى ، وهو يتجاوز هذه الحاجة أو تلك وهذا المطلب أو ذاك ، كما يفيد أهدافه وأدواته ، لانه شمولي « لا تحدده الفردية ولا الاجتماعية ولا التاريخية» [١٧] .

وعلى الرغم من هذا وذاك، يصنّف الدكتور خلف الله، حسب المنهج القرآني، التبعية الى أربع، وهي : ١ ـ تبعية الانسان لأخيه الانسان . ٢ ـ تبعية الانسان للشيطان . ٣ ـ تبعية الانسان للهوى الشخصي أو المنفعة الذاتية أو الهوى الديني . ٤ ـ التبعية لله . ويرفض خلف الله ما يرفضه القرآن ، ويؤيد ما يؤيده القرآن ، اذ يطلق ثلاث لاءات ونَعَماً واحدة : لا للانسان يعبد انسانا ، ولا للشيطان

---

(١٦) د. حسن حنفي عالم المفكر ص ٢١٤ .
(١٧) المصدر نفسه .

يغوي الانسان ليوقعه في المهالك ، ولا لممارسة الحياة على أساس من الهوى • بل نعم للتبعية لله « التي يقرّها القرآن الكريم ، من حيث انها التي ترتفع بمستوى الانسان في الانسان (؟) وتجعله غير مسؤول عن تبعة أعماله الا أمام الله ، أو أمام شريعة الله الثابتة » و « ليس في هذه التبعية إلا سيد واحد هو الله سبحانه وتعالى ، وما عداه فهم العبيد الذين يتساوون في العبودية عنده ، من حيث انه الذي خلقهم وانه الذي ملكهم بمقتضى هذا الخلق لهم » (ص ١٢٩) •

كيف تكون التبعية لله بدون التبعية لوكلائه وممثليه؟

أليس لله « خلفاء » و « سفراء » و « مبعوثون » و « حافظون » و « جنود » و « محازبون » ؟

« قل : هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين » [١٨] •

ان هذا يفترض الواسطة •• بل التبعية بالواسطة • فالذين اتبعوا (النبي) هم مرغمون على اتباع الله ، وبالعكس ، ومن عصى أو أنكر فهو من « شر الدواب » !

---

(١٨) يوسف ١٠٨ •

لنعلم ان الانسانية تأبى العبودية ، بكل أنواعها ، وترفض التابعية لأي كان (•••) ، ومن يرغّب أو يحرّض على التنازل عن هذه السيادة الطبيعية الكاملة المتكاملة ، يضرّ بانسانيته ، كما يضر بانسانية غيره •

لن نناقش الدكتور خلف الله كل ما جاء في « مفاهيم قرآنية » ، واذا نحن نكتفي بهذا الحد ، فلأن الكتاب تتحكم فيه المسلّمات والثوابت ، من الغلاف الى الغلاف ، وهي واحدة على كل ، ولئن تعددت الموضوعات وتوسّع المؤلف في التعليل والتفسير والتحليل • وان أفضل ما في هذا الكتاب « المفاهيم اللغوية » ، فاليها وفّق الدكتور خلف الله أيما توفيق •

يبقى علينا أن نذكّر بأن « مفاهيم قرآنية » يتألف من قسمين يضم الاول : النبوة والملك (من ص ١٣ الى ص ٢٨) الشريعة والحكم (من ص ٢٩ الى ص ٤٤) البيعة والخلافة (من ص ٤٥ الى ص ٦٩) الامة والقوم (من ص ٧٠ الى ص ٩٣) الشورى وولاية الأمر (من ص ٩٤ الى ص ١٢٠) السيادة والتبعية (من ص ١٢١ الى ص ١٣٦) • ويضم الثاني : العلم والمعرفة (من ص ١٣٩ الى ص ١٥٤) الجدل والحوار (من ص ١٥٥ الى ص ١٦٧) الحق والباطل (من ص ١٦٨ الى ص ١٧٧) الحلال والحرام (من ص

١٧٨ الى ص ١٩٠) المسؤولية والجزاء (من ص ١٩١ الى ص ١٩٧) العدل والظلم (من ص ١٩٨ الى ص ٢٠٨) الامانة والخيانة (من ص ٢٠٩ الى ص ٢١٦) .

ولا يسعنا الا أن نلفت الى قرب الشبه بين «قرآنية» الدكتور محمد أحمد خلف الله و «قرآنية» كل من الدكاترة والاساتذة : محمد عمارة [19] وأحمد كمال أبو المجد [20] وفهمي هويدي [21] . وهؤلاء كما كثيرون غيرهم من الخائفين على « سفينة الاسلام من الغرق » [22] ؟!

١٩٨٥/٧/٢٧

---

(١٩) انظر الفصل السابق ، الاسلام وحقوق الانسان .

(٢٠) في كتابه : « حوار لا مواجهة » ، كتاب العربي ـ الكويت العدد السابع ١٥ نيسان ١٩٨٥ .

(٢١) في كتابه « القرآن والسلطان » ، دار الشروق طبعة أولى ١٩٨١ ، انظر تعليقنا عليه في كتابنا « محنة العقل في الاسلام » الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص ٧٢ ـ ٧٤ .

(٢٢) كتابنا « محنة العقل في الاسلام » نفسه ص ٧٢ .

(٤)
أخبار عمر وعبد الله بن عمر

كتاب « أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر » [1] للاستاذين علي وناجي الطنطاوي، هو ، فعلا، لاخبار عمر (بن الخطاب) في ثلاثين سنة من عمره ، او قل النصف الثاني من حياته ، على مدى اربعماية وعشرين صفحة .. من الاستاذ علي ، تلاها فصل (من ص ٤٢١ الى صفحة ٤٦٤) عن عبدالله بن عمر ، كتبه شقيق علي ، الاستاذ ناجي .. ولا تحسبن انك واجد فيه دراسة او بحثا او تحليلا .. فللمؤلف (علي) كتاب « عمر بن الخطاب » (جزءان) ـ لم اطلع عليه بعد ـ يفترض ان يكون كما وعد في مقدمة « أخبار عمر واخبار عبدالله بن عمر » حيث يقول :

---

(١) ٤٦٤ صفحة من القياس الكبير ، مجلد ، مع ثبت للاعلام والقبائل والاماكن والمصادر ، المكتب الاسلامي ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ ـ بيروت .

« ... وسأتبعه ان شاء الله بكتاب آخر ، فيه دراسة لنواحي عظمة عمر ، وبحث في كل واحدة منها ، فيكمل كل من الكتابين الاخر ، ويجمعان القديم والحديث (يقصد الكتاب الذي في صدد قراءته .. وهو اصلا كتاب كبير في سيرة عمر ، ألفه الشقيقان قبل نصف قرن .. رجعا اليه بالتعديل والتصحيح) ، فمن شاء الخبر وجد الخبر ، ومن اراد البحث والتعليق وجد ما اراد » (ص ٦) .

فاذا صح الافتراض .. يكون كتابا « اخبار عمر بن الخطاب واخبار عبدالله بن عمر » و « عمر بن الخطاب » (جزءان) بمثابة « الموسوعة العمرية » .. وهذا ما ارجوه لهما ، كما اني لا أظن الا خيرا ونجاحا . فالمؤلف : لا شك وسيع الاطلاع ، ولا سيما على التاريخ الاسلامي ، عارف بلغته ، ومتمكن ، فضلا عن اخلاصه لعقيدته .. ورجالها .. وللغة .. وآدابها .. ولامته (الاسلامية) وقضاياها .. وهمومها .. وله في التأليف مجد وذخر باقيان ما بقي التأليف والبحث والنقد والدرس والتحليل (٢) .

حدثني الشيخ شفيق يموت (رئيس اتحاد الجمعيات

(٢) له اربعة وعشرون مؤلفا ، منها : « بشار بن برد » و« من التاريخ الاسلامي » و « أبو بكر الصديق » و« صور وخواطر » و « دمشق » و « في سبيل الاصلاح » و « هتاف المجد » ، و « صور من الشرق » .

الخيرية الاسلامية) قال : « في الثلاثينات كنا : في مدرسة الشريعة .. هنا ببيروت ، فجاءنا الاستاذ علي الطنطاوي محاضرا . كان الموضوع « بشار بن برد » ، وشاءت المصادفة ان يأتي ليستمع للطنطاوي .. الوزير المصري (محمد العشماوي) — وزير المعارف آنذاك — حيث كان في زيارة للبنان — فأعجب الوزير بما سمع .. اذ بقي واقفا ، متكئا على عصاه ، لساعتين ونصف الساعة ، يصغي للمحاضر وهو يرتجل سيرة بشار بن برد ، وكثيرا من شعره .. فيحلل .. ويفسر .. ويعلق .. ويعارض .. ويوازن .. هكذا ارتجالا من دون ارتجاج ولا تأتأة .. ما حمل الوزير العشماوي ، يومذاك ، على القول : لا أعرف من العرب محاضرا له ذاكرة مثل ذاكرة الاستاذ الطنطاوي .. أو طلاقة لسان مع الفصاحة والمنطق العذب ، كما عند المحاضر الجليل ، فهو ، كما يبدو عالم بالتاريخ الاسلامي والادب العربي ، ولغوي وناقد ، ومحلل ومحقق » .

الى أن يتسنى لي الحصول على الكتاب الثاني « عمر بن الخطاب » سوف لن أعالج « أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر » .. اذ لا مجال في نظري ، للمناقشة والمعالجة ، ما دام المؤلف (المؤلفان) لم يتعد مهمة التوثيق .. الى مهمة الناقد والدارس . وماذا اناقشه (اناقشهما) وهو لم يأتنا ، ولا في صفحة واحدة من كتابه (كتابهما) ، بنص من عنده

(عندهما) ، أو رأي ، فكأنما الخبر ، عندما ثبتت لـه
(لهما)صحته، وأكثر الاخبار صحيحة كما ظهر ، «منزل»،
لا يحتمل سوى التصديق أو القبول والتسليم ؟!

ان الاستاذ الطنطاوي هو من أكبر سلفيي عصرنا . ولذلك يرى
كما يرى ابن حزم (علي بن أحمد) (٩٩٤ — ١٠٦٣) « ان
تقدم بعض الصحابة على بعض في الفضل انما هو لقربهم من
رسول الله في تولي الخلافة : ان ابا بكر افضل من عمر ،
وعمر أفضل من عثمان »[3] ويقول بما يقوله ابن حزم: بفضل
عثمان على علي .. اذ كان عثمان أقرأ (أكثر قراءة للقرآن) ؟
(اشارة الاستفهام من د. عمر فروخ) ، وكان علي
أكثر فتيا (في الاحكام) و (أكثر) رواية (للحديث)
ولعلي ايضا خط قوي في القراءة ، ولعثمان ايضا خط قوي
في الفتيا والرواية . ولعلي مقامات عظيمة في الجهاد بنفسه،
ولعثمان مثل ذلك بحاله .. ثم كانت لعثمان فتوحات في
الاسلام عظيمة لم تكن لعلي .. والذي صح من فضائل
علي فهو قول النبي (ص) : « أنت مني بمنزلة هارون من
موسى ، الا انه لا نبي بعدي »[4] .

ولربما ذهب الاستاذ الطنطاوي باكباره عمر بن الخطاب

(٣) انظر « ابن حزم الكبير » تأليف د. عمر فروخ ــ دار لبنان للطباعة والنشر ، طبعة اولى ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠ ص ١٠٩ .
(٤) المصدر السابق .

واعجابه به الى ما هو أبعد من المفاضلة بين خليفة وخليفة..
وبين عظيم وآخر . فلست أدري ماذا هو قائل في أبي بكر
الصديق، الذي هو «أفضل من عمر» حسبما يرى الظاهريون
ولا سيما زعيمهم وشيخهم ابن حزم نفسه ، بعد ما قاله في
عمر !

يقول الاستاذ الطنطاوي :

« أنا كلما ازددت اطلاعا على أخبار عمر ، زاد اكباري
إياه واعجابي به، ولقد قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين
وغير المسلمين ، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره ، ومن
هو عظيم ببيانه ، ومن هو عظيم بخلقه ، ومن هو عظيم
بآثاره » (ص ٥) .

ويقول :

« ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها ،فكان :
عظيم الفكر ، والاثر ، والخلق والبيان » (ص ٥) .

الى ان يقول :

« فاذا أحصيت عظماء الفقهاء والعلماء ، الفيت عمر في
الطليعة ، فلو لم يكن له الا فقهه لكان به عظيما .

وان عددت الخطباء والبلغاء ، فكان اسم عمر من اوائل
الاسماء .

وان ذكرت عباقرة المشرعين ، أو نوابغ القواد العسكريين ، او كبار الاداريين الناجحين ، وجدت عمر اماما في كل جماعة ، وعظيما في كل طائفة .

وان استقريت العظماء الذين بنوا دولا، وتركوا في الارض اثرا ، لم تكد تجد فيهم أجل من عمر .

وهو فوق ذلك عظيم في أخلاقه ، عظيم في نفسه» (ص ٥) .

للاستاذ الطنطاوي ، كما لغيره ، الحق في ان يقول بما يشاء ويرغب ، وان لا يقول بما لا يشاء ولا يرغب . انما الحكم ، هكذا ، على الاطلاق ، لا يجوز الاخذ به .. الا بمعقولية ، ما دامت الدنيا تحبل وتنجب . فالعظمة ، التي لا يمكن حصرها في زمان او مكان ، كيف نحصرها في شخص دون سواه ، أيا يكن هذا الشخص (العبقري) ، والدنيا مثلما قلنا ما زالت في خير وعافية وفي صحة تامة ، ولديها المقدرة على الاستمرار في الاخذ والعطاء !

ليست العظمة ثوبا نفصله ، على القياس : نلبسه ونغسله ، ثم نلبسه ونغسله ، حتى يرث ويهترىء . وانما العظمة امتداد للعظمة ذاتها . فاذا كان عمر ، أو سواه أعظم ممن قبله ، بشكل أو آخر ، فهذا لا يعني بالضرورة

انه أعظم ممن بعده . فهنالك امتداد في الزمن والناس .. قائم على الامل والرجاء والارادة .. كما هو قائم على الضرورة ايضا . وان عمر ، نفسه ، ليبعث على اليقين بأن كل عصر يجب أن يأتي بعمر ، وكل أمة من الامم ،شرقية كانت أم غربية ، لها مثل عمر ، على أن يكون هذا «العمر» تعبيرا عن حاجات امته وضروراتها .. ومتطلبات عصره ، لا عن حاجات غيرها من الامم ، وعن حاضره ، وما يحمل من اثقال ومتاعب وموجبات ، لا عن ماض طوي ، فما بقي منه سوى معاظم واجبة المراعاة او حقوق مستعظمة .

نستلهم عمر بن الخطاب الرشاد والحكمة والعدل والشجاعة .. لا من أجل عمر ، بل من أجلنا نحن وحسب.

يقول عمر :

لا يلهك الناس عن نفسك ، فان الامر يصير اليك دونهم ولا تقطع النهار فانه محفوظ عليك ما عملت ، واذا اسأت فاحسن ، فاني لم ار شيئا اشد طلبا ولا اسرع دركا من حسنة حديثة لذنب قديم » (ص ٢٧٣) .

أجل !

انه لمن الروائع حقا .. هذا القول .

ولكن عمرا ، الذي يحذر من التلهي بالناس ، كيف نجعله محل الناس جميعا ؟

أمر عمر يصير الى عمر •• وأمرك انت يصير اليك دون عمر أو غيره •

هو قالها • وكأني به يحث على الجهاد والسعي في سبيل تكوين الشخصية الفذة المدركة العظيمة •
وكون عمر لم يقل بتذويب الفرد ومحو شخصيته ومعالمه ، فلنسأل ، اذن : ماذا عن النصف الاول من عمره، الذي قضاه في الجاهلية ، وكيف نتجاوزه ؟

لا !

نحن نرى ان عمر في الجاهلية ، وان لم يكن مثل عمر في الاسلام هو أساس لعمر كله • فالثاني من الاول ، والاول من مكة وشبه الجزيرة العربية • صحيح ان الثاني بدأ حياته مذ قال « أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » (ص ٩) • ولكن الصحيح أيضا ان الاول كان « موكلا بالسفارة لقريش ، فكانوا اذا وقعت حرب بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرا ، للمفاوضة عنهم ، وان نافرهم منافر ، او فاخرهم مفاخر ، رضوا به منافرا ومفاخرا » (ص٩) •

فلو لم يكن عمر في الجاهلية على هذا المستوى لما كان عمر الذي تفاعل بالاسلام وفعل فيه ، سواء كانت حروب قريش كثيرة أم نادرة •
لا اوافق الاستاذ الطنطاوي في وصفه عمر (الاول) بأنه « كان رجلا عاديا كملايين الناس الذين يعيشون ويموتون

فلا يحس احد بحياتهم ، ولا يأسى لموتهم ، فصار عمر بن الخطاب العبقري الذي اتعب سرد مناقبه ومزاياه المؤرخين» (ص ١١) وهنالك من يقول ان النبي قال : « اللهم أعز الاسلام بأحب هذين الرجلين اليك : بأبي جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب» (ص ١٧) • فحيث صمد أبو جهل وأبو لهب تراجع عمر لينضم الى الحزب الجديد •

مثله مثل ملايين الناس ؟!

أين منه الملايين ؟

عمر ، في جاهليته ، اذن ، هو عمر الذي كان يتمناه النبي ويستميله اليه ، بل يخاف من بأسه وبطشه •

عمر ، هذا ، معدن أصيل ، ورجل غير عادي ، من اول حياته الى آخرها • صقله الاسلام فأضفى عليه ما أضفى •

« من أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه فانما اظهر نفاقا على نفاق» (ص٢٧١) و« ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته أو أخفته أو حبسته أن يقر على نفسه» (ص١٨٥) و « أيها الناس ! اتقوا الله في انفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم فقد ابتليت بكم وابتليتم بي ، فما أدري السخطة علي دونكم أو عليكم دوني ، أو قد عمتني وعمتكم فهلموا فلندع الله يصلح قلوبنا وان يرحمنا وان يرفع عنا المحل » (ص ١١٦) •

كلمات من عمر • من عمر الاول وعمر الثاني • جذور عميقة تمتد الى بعيد بعيد •• وانسان عمر يمتد الى بعيد بعيد •

قلت : لن اناقش الاستاذ الطنطاوي في كتابه « اخبار عمر واخبار عبدالله بن عمر » ما دمت في انتظار الكتاب الثاني « عمر بن الخطاب » •

الكتاب الاول عرفناه غنيا بأخباره ، موفقا بتبويبه وتقسيمه ، ناجحا في توثيقه وتحريه عن المستند الصحيح والمرجع الثقة ، وبارزا ، من حيث الامانة ، في ثبت المصادر والمراجع ، التي جال عليها الاستاذ الجليل ، حتى استخرج من بطونها كنوزا ستبقى شاهدا على ان عمر كان، في الجاهلية ، مشروعا لعبقري ، وفي الاسلام مشروعا لدولة عظيمة ، ومشروعا لحاكم متميز ، ومشروعا لمملكة الحق ، في مجتمع متعدد الطواغيت والقبائل •

والحقيقة هي أن اسلام عمر قد رجّح كفة محمد (النبي) ، فلولاه لهلك محمد والاسلام وأبو بكر وسائر الشركاء المؤسسين ، كما سيؤكد ذلك الكتاب الثاني ، اذا ما أبصر النور ، وكان المؤلف في وضع صحي ممتاز •

١٩٨٣/١١/١٩

(٥)

نظريّات التعلّم
بين الثقافة الغربيّة والثقافة الإسلاميّة

اذا كان الغرب، منذ بداية القرن الحالي ، يملك « تصورا متكاملا لنظريات التعلم الرئيسية » [١] ، فان العرب امتلكوا مثل هذا التصور قبل اكثر من ثمانية قرون ، وقد لمعوا في هذا المجال ، وحققوا نجاحا كبيرا ، بل هم تفوقوا آنذاك على غيرهم من الامم والشعوب ، باعتراف كل مؤرخ موضوعي وعالم مخلص وباحث أمين •

من المؤكد ان هناك اختلافا كبيرا بين المناهج العربية ، التعليمية والتثقيفية ، والمناهج الغربية ، ما دام التعلم ، اذا

(١) د. علي حسن حجاج ، من مقدمته لكتاب « نظريات التعلم ــ دراسة مقارنة » تحرير : جورج . ام غازدا وريمون جي كورسيني ومشاركة مجموعة من الكتاب الاخرين ، عربه الدكتور حجاج نفسه ، مراجعة : د. عطية محمود هنا ، منشورات « عالم المعرفة » الكويت رقم (٧٠) ص ٥ .

اردنا ان نعرّفه تعريفا بسيطا ، هو « تعديل للسلوك من خلال الخبرة » (٢) ، التي هي العلم بحقيقة الامور وكنهها، وليست قضايا العالم واموره مثل بعضها البعض ، ولئن تم التوصل الى قواسم مشتركة وسمات متماثلة،انسانيةومادية تجاوزت بعض الحدود والعقبات ، التي كرستها الحروب والمذاهب والفوارق الطبقية والسياسات الهادفة الى الاحتلال والتسلط والاحتكار •

والاختلاف ايضا قائم بين علماء الغرب انفسهم ، ولعله اشد واعنف من ذاك الذي بين العلماء العرب ، المتقدمين والمحدثين • فلو استعرضنا أهم النظريات التي ظهرت ، في اوروبا واميركا ، حتى الان ، فهنالك : الارتباط لثورندايك والاشراط الكلاسيكي لبافلوف، والاقتران لجاثري، والدافع لهيل ، والاجراء لسكنر ، والطبيعة التطورية الاساسية (الغريزية والتطورية) التي قال أسسها داروين ، وفيشر ، وويتمان وكريج ، ولويد مورجان ، وآخرون، والجشطلتية والبنائية (التطورية) لبياجيه،والرياضة لاستس،والذاكرة ومعالجة المعلومات لدوندرز وابينجهاوس ، كرائدين لها ، والتعلم بالملاحظة لباندورا ، والتعلم الاجتماعي لروتز •

جميع هذه النظريات يتناولها ج• غازدا (G. Gazda) و ر• كورسيني (R. Corsini) في كتابهما (Theories of

(٢) نظريات التعلم ، المصدر نفسه ص ١٥ •

Learning - Comparative Study) بينما اقتصرت الترجمة العربية (نظريات التعلم دراسة مقارنة) (٣)« بناء على مشورة الاستاذ الدكتور فؤاد زكريا — مستشار السلسلة (عالم المعرفة) ، على خمس نظريات (منها) ، تمثل أهم نظريات التعلم التي كان لها النصيب الاوفر من التأثير على ميدان سيكولوجية التعلم » (٤)وهي: الارتباط والاشراط والاجرائية والجشطلتية والبنائية •

لست ادري ماذا ستقول ، غدا ، الاجيال الغربية الاتية عندما تطالع اعمال هؤلاء الاساتذة العباقرة ، الذين شغلهم هذان السؤالان : « كيف تتعلم ؟ » و «لماذا نتعلم ؟ » •

ولكن الواجب والعلم يفرضان على المشتغلين في العلوم والفنون والاداب ، الغربية وغيرها ، ان يبدوا وفاء لهذه الانجازات الحضارية واهتماما بها ، ايا كان المستقبل ، وان لم يفعلوا ذلك ، فانما خطأ يقترفون ، وهذا ما لا نتمناه على كل حال •

يقول عالم النفس الاميركي جون واطسون (J. Watson) (١٨٧٨—١٩٥٨) : « لو وضع تحت تصرفي اثنا عشر طفلا رضيعا يتمتعون بصحة جيدة وبنية سليمة وطلب مني ان اعلمهم بالطريقة التي اعتقد انها المثلى للتعلّم فانني قادر على تعليم أي من هؤلاء الاطفال بطريقتي هذه بحيث يصبح

(٣) انظر حاشية (١) اعلاه .
(٤) د. حجاج، المصدر نفسه .

مختصا في المجال الذي أختاره له كأن يكون طبيبا او محاميا أو فنانا أو رجل اعمال بغض النظر عن مواهبه او اهتماماته أو ميوله او قدرته او مهنة ابائه واجداده والجنس الذي ينتمي اليه » (٥) .

هذه الكلمة هل ستبقى مثل حلم او افتراض لا يتحقق؟ الذين خالفوا واطسون كثيرون .. وربما اكثر من الذين يرون رأيه .

المهم ان واطسون مخلص لعمله، كما هو مخلص للانسان والانسانية. فهو يريد للناس، جميع الناس، أن يتعلموا، ولكنه لا يطيق ان يفرض، على الطالب، التخصص، في هذه المادة، او تلك، من دون توجيه مسبق وتهيئة وتحضير

العالم يركض .. ويركض .. ولا احد يعرف الى أين! مذ بزغ القرن الحالي، وهو يحمل بذور مشكلة كبرى ومعقدة، ويوما فيوما تقترب الانسانية من الخطر، والتعلم يزداد غموضا. فالعلم صار علوما .. والعلوم انبثقت منها علوم أخرى. ولربما قتل هذا التكاثر الرغبة في التعلم.

في كل يوم مفاجأة او صدمة، او حدث كبير، تستهدف حسن السلوك (Good behaviour) واداب المعاشرة

(٥) نظريات التعلم، نفسه ص ٢٦ .

(Etiquette) والعالم منها فريقان : واحد خائف وقلق، والآخر مريض بحب التفوق، وكل منهما يجهل صاحبه، ويحقد عليه، ويحسده، ويريبه، ويختله، ويحاربه.

الخائف يهرب الى التراث. والمريض بالتفوق يعشق البعيد ... البعيد.

لن ندعي وجود فريق ثالث. فالانتماء (Membership) او الانتساب (Affiliation) الغى، منذ امد بعيد، الفراغ .. والاستقلالية، وقضى على الحياد. أين الحياد؟ أين هم الحياديون؟ انت اما ان تكون تراثيا .. واما فوقيا جذورك لا هي في الارض ولا في السماء. هذا الكلام دعا اليه كتاب « تعليم المتعلم طريق التعلم » (٦) تأليف برهان الاسلام الزرنوجي، الذي مضى على وفاته ما يزيد عن سبعة قرون، حققه الدكتور مروان قباني (٧) وعلق عليه وعرّف بالمؤلف والكتاب، فكان دقيقا في عمله، امينا على المصادر والمراجع التي اعتمدها، غير مفرط في القول، واحسن ما

(٦) ١٤٠ صفحة من القياس الكبير، الى فهرس الاحاديث وفهرس الاعلام وفهرس الاماكن وفهرس الكتب وفهرس مراجع الدراسة، والتحقيق، منشورات المكتب الاسلامي، لصاحبه الشيخ زهير الشاويش، الذي قدم المخطوطات وراجع التحقيق، الطبعة الاولى ١٩٨١ .

(٧) دكتوراه في الفلسفة الاسلامية ـ المانيا الغربية، اجازة في الشريعة الاسلامية ـ جامعة الازهر، استاذ الاسلاميات في معهد الدراسات الاسلامية المسيحية، الجامعة اليسوعية.

فيه انه لم يحمّل الزرنوجي ما لا يطيق ، كما لم يتعسف الامر ، بل اظهر كل تدبر وروية .

لماذا الرجوع الى الزرنوجي ؟

عن هذا السؤال يجيب الدكتور مروان قباني فيقول:

« اما قضية العودة الى الاصول والتمسك بمناهجه (يقصد مناهج القديم) فهو أمر شديد الحساسية ويتطلب دقة في السلوك الفكري ، فما حدث سابقا في تلك الفترة (التي عاش فيها الزرنوجي) (نبه ذكره حوالى عام ٦٢٠هـ ١٢١٣ م) وان يكن معبرا عن ايجابية في ضرورة الاعتماد على الجذور الحضارية الاصيلة ، الا انها كانت في ذات الوقت اثرا لردة فعل . وبرأينا ان ردة الفعل قلما تنتهج الطريق السوي الموصل للهدف . ولهذا فان العودة الى الاصول ادت ببعض المسلمين وقتها الى التقوقع الفكري وبالذات الى التقوقع التعليمي،وذلك بحصر التربية والتعليم في ثوابت ثقافية لم تستطع الخروج منها طيلة قرون » (ص ٢٩) .

على ان الزرنوجي « ابن عصره وبيئته بافكاره وعلومه ومعتقداته ، وهو ايضا ككل مثقف وكاتب او مشارك في ثقافة عصره يتأثر بواقع بيئته السياسي والاجتماعي والعلمي والحضاري ليقدم بعد ذلك نتاجا يؤثر في واقعه ، على اختلاف في درجة التأثير والتغيير » (ص ٢٥) .

يظهر ان الدكتور قباني تراثي مستنير وواقعي وفهيم. علاقته مع التراث جديرة بالدرس والتحليل . يستدعي القديم ليأخذ منه كل شيء « حي » ، ويكره أن يذهب الى التاريخ وهو منهزم أو مقهور . واذ يرى الى ما كتبه التربويون المسلمون وهم كثيرون فيقول: « انما هو تعبير خاص لنظرية الاسلام التربوية الاساسية ، تلاقوا في عمومياتها وتباينت أفكارهم في تفصيلاتها ، وهذا الامر طبيعي جدا فان الزمن يطوى ويطرأ على المجتمعات تطور وتغير فتختلف بالتالي في دقائق مناهج حياتها » (ص ١٥) ويقرر ان « أية دراسة لما كتبه العلماء المسلمون في التربية والتعليم يجب أن تراعي ، في النظر الى مؤلفاتهم ، ما ورد بها من أصول تلتزم بفكر الاسلام التربوي ولا ترتبط أحيانا مع فروع تعليمية تخضع لمفهوم العصر المتغيّر . وبذلك يقترب البحث الى درجة الدقة العلمية المطلوبة في معالجة كل قضية » (ص ١٥) .

بهذه الطريقة قرأ الدكتور قباني كتاب الزرنوجي ـ التركستاني الاصل ، والاسلامي ثقافة ودينا ـ وحقّقه ودرسه ، وكان موفّقا أيما توفيق ، حسبما قدّمنا سابقا .

ماذا عند الزرنوجي ؟

من المستحسن أن نعرض أولا ، ولو بشكل مقتضب، لفصول الكتاب ، وهي ثلاثة عشر ، يكثر فيها التجميع ويقل التأليف ، وتبحث في ماهية العلم ،والفقه ، وفضله ، وفي النية — في حال التعلّم — واختيار العلم والاستاذ والشريك والثبات . وفي تعظيم العلم وأهله ، والجد ، والمواظبة ، والهمة ، وبداية السَّبْق وقدْره وترتيبه ، والتوكل . وتبحث في وقت التحصيل ،والشفقة والنصيحة، والاستفادة واقتباس الادب ، كما في الورع — في حالة التعلّم — وفي ما يورث الحفظ ، وما يورث النسيان ،الى الفصل الاخير الذي ينبّه الى ما يجلب الرزق ، وما يمنع، وما يزيد في العمر ، وما ينقص .

يستند الزرنوجي الى بعض الآيات القرآنية و« الحديث الشريف » والامثال ... والى أخبار الفقهاء والمحدّثين — ولا سيما الاحناف منهم — وهو على مذهب الامام أبي حنيفة ، ويستعير من الشعراء ما يوافقه ويخدم رأيه وفكرته .

يعتقد الزرنوجي ان « أفضل العلم هو علم الحال » (ص ٥٩) ومن حصّله وعمل به حفظ حاله « من الضياع والفساد » .

على ان علم الحال هو « علم أصول الدين وعلم

الفقه » و « المراد من الحال ههنا : الامر العارض للانسان من الكفر والايمان والصلاة والزكاة والصوم وغيرها من الاحوال ، لا الحال المقابل للمستقبل من الصحة والمرض والسفر والحضر » (ص ٥٩ أنظر حاشية ٢ و ٣) .

ويقدم الزرنوجي برهانا على قوله ... فينقل عن محمد بن الحسن (الشيباني) [٨] ، رحمة الله عليه ، انه سئل : لما (كذا) لا تصنّف كتابا في الزهد ؟ فقال : « قد صنّفت كتابا في البيوع ، يعني : الزاهد من يحترز عن الشبهات والمكروهات في التجارات » ويكمل الزرنوجي فيقول : « وكذلك في سائر المعاملات والحِرَف ، وكل من اشتغل في شيء منها يُفترض عليه علم التحرز عن الحرام فيه .

---

(٨) هو محمد بن الحسن بن فرقد ، أبو عبدالله (١٣١ — ١٨٩ هـ ٧٤٨ — ٨٠٤ م) : امام بالفقه والاصول ، وهو الذي نشر علم ابي حنيفة . اصله من قرية حرستة،في غوطةدمشق وولد بواسط . ونشأ بالكوفة ، فسمع من ابي حنيفة وغلب عليه مذهبه وعرف به وانتقل الى بغداد ، فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله،ولما خرج الرشيد الى خراسان صحبه فمات في الري ، قال الشافعي (الامام) : « لو شاء ان اقول نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن ، لقلت ، لفصاحته » ونعته الخطيب البغدادي بامام أهل الراي ، له كتب كثيرة في الفقه والاصول ، واشهرها « الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » (انظر « الاعلام » — الزركلي ج ٦ ص ٨٠) .

وانظر أيضا « التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن الشيباني في ارساء دعائمه» بقلم د. سهيل زكار ، مجلة دراسات عربية — العدد الثاني رمضان ١٤٠٠هـ / حزيران ١٩٨٠ م . من ص ١٠٣ الى ص ١١٦

كذلك يفترض عليه علم أحوال القلب من التوكل والانابة والخشية والرضى ، فانه واقع في جميع الاحوال».

أضاف :

« وشرف العلم لا يخفى على أحد اذ هو المختص بالانسانية لان جميع الخصال سوى العلم ، يشترك فيها الانسان وسائر الحيوانات : كالشجاعة والجراءة والقوة والجودة والشفقة وغيرها سوى العلم » (ص ٦٠ / ٦١).

ويعتبر الزرنوجي علم النجوم (بمعنى التنجيم والسحر والشعوذة) « بمنزلة المرض» (ص ٦٣) « فتعلّمه حرام ، لانه يضر ولا ينفع » ، و « الهرب عن (كذا) قضاء الله تعالى وقدره غير ممكن » (ص ٦٣) .

غير انه يسمح للمسلم بأن يتعلم من النجوم (ما سمي علم الفلك) « قدر ما يعرف به القبلة ، وأوقات الصلاة فيجوز ذلك وأما تعلّم علم الطب فيجوز ،لانه سبب من الاسباب فيجوز تعلّمه كسائر الاسباب » (ص ٦٤).

لم ينسَ الزرنوجي الامام الشافعي ـ صاحب المذهب المشهور ـ وقد ذكره في غير مكان ، وهو القائل :

« العلم علمان : علم الفقه للاديان ،وعلم الطب للابدان، وما وراء ذلك بُلْغَةُ مجلس » أي ما يتبلغ به من

العيش ، ولا فضل فيه ، كما زاد الازهري ، وليس «الشيء الذي لا قيمة له » حسبما جاء في شرح الدكتور قباني .

والى جانب الآيات والاحاديث وأخبار الفقهاء والائمة ، هنالك طُرَف ، كل واحدة منها بمناسبة اللمة المناسبة في الوقت المناسب ، تضفي على الكتاب رونقا وجمالا ، وترغّب في قراءته ، مثل « وحكي ان الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه الى الاصمعي [٩] ليعلّمه العلم والادب فرآه يوما يتوضأ ويغسل رجله ، وابن الخليفة يصب الماء على رجله ، فعاتب (الاصمعي في ذلك)بقوله: انما بعثته اليك لتعلّمه وتؤدبه فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء باحدى يديه ، ويغسل بالأخرى رجلك ؟ » (ص ٨٢) و « رأى أبو حنيفة رحمه الله تعالى كاتبا يقرمط في الكتابة فقال : (لا تقرمط خطك ، إنْ عشتَ تندم وانْ مُتّ تُشتم) يعني اذا شِختَ وضعُف بصرك ندمت على ذلك» (ص ٨٤) .

---

(٩) هو ابو سعيد عبد الملك (ابن قُريب)(٧٤٠ ؟ ٨٢٨ ؟) وبعضهم يقول (توفي عام ٢١٦ هـ ـ ٨٣١ م) : من مشاهير لغويي العرب ، تعلم في البصرة على الخليل وابي عمرو بن العلاء وأخذ عن خلف الاحمر . عليه تعلم أبو الفضل الرياسي وابو عبيد السجستاني . حفظ لغة البدو . عهد اليه هارون الرشيد بتعليم الامين . له : «كتاب خلق الانسان» و«كتاب الخيل » و « كتاب الابل » و « كتاب الاضداد » والمجموعة الشعرية « الاصمعيات » (انظر اعلام المورد ص ٥٠) .

من الواضح ان الزرنوجي بالغ في بعض التوصيات والاوامر ، ولكن احترامه الفائق للتعلّم والعلماء وحبه لطلاب علمه يغفران له مثل هذه الهفوة ...

وعلى هذا لا بد لطالب العلم « من المذاكرة، والمناظرة، والمطارحة ، فينبغي أن يكون كل منها بالانصاف والتأني والتأمل ، ويتحرز عن الشغب (والغضب) ، فان المناظرة والمذاكرة مشاورة ، والمشاورة انما تكون لاستخراج الصواب وذلك انما يحصل بالتأمل والتأني والانصاف ولا يحصل بالغضب والشغب » (ص ١٠٣) .

وطالب العلم ... هو طالب أعلى المرتبات ... بل طالب الشرف الكبير .. والرزق .. والنعمة .. والسعادة، فلا غنى له عن « التوكل في طلب العلم ولا يهتم لامر الرزق ولا يشغل قلبه بذلك » (ص ١١٣) .

هنا أيضا ، يستعين الزرنوجي بمثله الاعلى الاستاذ الامام أبي حنيفة ، « الذي روى عن عبدالله بن الحارث الزبيدي [١٠] صاحب الرسول (ص) : (من تفقه في دين الله كفى همّه الله تعالى ورزقه من حيث لا يحتسب) (وله قول آخر : (الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها) » (انظر

(١٠) هو عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي .

ص ٦٥) ويقول أيضا « فان من اشتغل قلبه بأمر الرزق من القوت والكسوة قلّ ما يتفرغ لتحصيل مكارم الاخلاق ومعالي الامور » (ص ١١٣) .

عفوك أبا حنيفة !

ايها الاستاذ المثالي والامام الحجة

يا من كنت لتلامذتك الاب والمعلم والصديق والمنفق، ان الشروط قاسية .. والامتحان صعب .. وما أبعد يومنا عن أمسنا !

وقال الزرنوجي :

« ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع فلهذا اختاروا الغربة » (ص ١١٤) .

الغربة ليست الاغتراب . كانوا يأتون الى بغداد أو البصرة أو الكوفة أو الشام أو القاهرة ، ليتعلّموا اللغة العربية..وليسمعوا الاحاديث والاخبار والتفسير..والفقه والشريعة . كانوا يشدّون الاحزمة .. ويمارسون القهر على أنفسهم .. ويقنعون بالقليل القليل .. لاجل العلم والمعرفة . أعطوا بسخاء . تركوا كل شيء ومضوا بصمت. لم يندموا . لم يطلقوا النار على معارضيهم . لم يكرهوا أحدا . لم يكذبوا . آمنوا بالحوار .. وردّوا على كل مسألة من دون أن يجازفوا في الكلام أو الرأي . ثاروا على

الظالمين من الخلفاء والـولاة والامراء ، فمنهم أيضا من هـُجرِّ وأُبعد عن أرضه وبيتـه وأهله ، لأن العقيـدة ، عندهم ، أغلى من الروح ، والتعلّم رسالة •

« قيل : عليك أن تشتغل بمصالح نفسك لا بقهـر عدوك ، فاذا أقمت مصالح نفسك تضمن ذلك قهر عدوك• اياك والمعاداة فانها تفضحك وتضيع أوقاتـك ، وعليـك بالتحمّل (ولا) سيما من السفهاء » (ص ١٢٠) •

هكذا كانوا ينظرون الى أنفسهم • فلا غرهم المال•• ولا خدعتهم الشهرة •• ولا زاحموا غيرهم في النفـوذ والرزق •• ولا تملقوا السلطان •

وكانوا يعرفون ماذا يجب أن يأكلوا ويشربوا ،وعلى قول الزرنوجي : « والسواك وشرب العسل وأكل الكندر (اللبان) مع السكّر وأكل احدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق يورث الحفظ ويشفي من كثير من الامراض والاسقام ، وكل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ، وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان » (ص ١٣٢) •

كانت مهمتهم أن يحفظوا الكلام الطيب والمأثور •• ويبتعدوا عن كل ما يـورث النسيان ، أي عن « المعاصي وكثرة الذنوب والهموم والاحزان في أمور الدنيا ، وكثرة الاشتغال والعلائق » (ص ١٣٢) و « همـوم الـدنيا

لا تخلو عن الظلمة في القلب ، وهموم الآخرة لا تخلو عن النور في القلب ، ويظهر اثره في الصلاة ، فهمّ الـدنيا يمنعه من الخيرات ، وهمّ الآخرة يحمله عليه ، والاشتغال بالصلاة على الخشوع وتحصيل العلم ينفي الهمّ والحزن» (ص ١٣٢/١٣٣) •

بعد هذا العرض السريع لكتاب الزرنوجي ـ لـم يُعرف انه ألّف غيره (١١) ـ نستطيع القول بأن مـؤلفه أعطانا « تصوّره لطريق التعلم » (ص ٣١ ـ المقدمـة) فبعضه طوته الايام •• وبعضه الآخر ، ومعه بعض أعمال

---

(١١) يقول الدكتور مروان قباني « ... ان هذا الكتـاب (تعليم المتعلم هو طريق التعلم) هو المصنف الوحيد الذي كتبه الزرنوجي ولم يكن له نتاج علمي آخر» (ص ٢٣المقدمة).
اما عن نسبه فيقول الدكتور قباني نفسه : « لقد اغفلت كتب التاريخ والطبقات والتراجم ذكر هذا الرجل الذي اعطى نتاجا من اهم واوضح واوجز ما كتب في الفكر التربـوي والتعليمي الاسلامي في عصره،حتى اسمه لم نملك ان نتعرف اليه فقد اشتهر بلقبه وهو : برهان الاسلام او برهان الدين، على اختلاف في المراجع ، وذلك على عادة العلماء والمشاهير في تلك العصور التلقب بهذه الالقاب الدينية التي يرجى منها اظهار صاحبها بمظهر المتدين والمؤثر بالدين» (ص ١٨المقدمة)
اضاف : « الزرنوجي نسبته الى بلده « زرنوج » وهي، كما يقول القرشي صاحب « الجواهر المضنية » ، من بلاد الترك . اما ياقوت الحموي فقال عنها في مجمعه : (بـلد مشهور بما وراء النهر بعد خوجند من أعمـال تركستان) وهو « حنفي متعصب لمذهبه » (ص ١٩ ـ المقدمة) .

التربويين الاسلاميين الذين منهم الغزالي والخطيب البغدادي وابن عبد البر القرطبي والماوردي وابن تيمية ، لا يزال مستمرا .. وربما بقي ما بقي التعلم .

ومهما قيل في نظريات التعلم الحديثة ، ولا سيما الغربية منها، فان في بعض القديم ما هو أساس لكل جديد. والخطأ ، كل الخطأ ، الاعتقاد بأن الافكار تولد عبثا ، أو هي تأتي بدون سبب وليس لها غاية . وكما في الشرق كذلك في الغرب .

١٩٨٤/١١/١٢

(٦)
هل تصالح الشيعة ابن تيمية؟

اذا كان « الرد الوافر » (على من زعم : بأن من سمى ابن تيمية « شيخ الاسلام » كافر) [١] للحافظ محمد بن العلاء البخاري [٢] ، انتصارا على أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي الشافعي [٣] ، ودحضا لـ« افتراءاته» و« أضاليله»،

(١) ٢٨٧ صفحة من القياس الوسط ، « المكتب الاسلامي » طبعة اولى ١٤٠٠هـ.١٩٨٠م حققه صاحب المكتب الاسلامي للنشر الشيخ زهير الشاويش .
(٢) ولد في دمشق في اوائل المحرم عام (٧٧٧ هـ) ونشأ بها وتفقه ، واتقن العلوم ، واغترف من المعارف فنبه ذكره، وعلا شأنه . وكان اماما علامة ، ومؤرخا ثقة ، حافظا ، بل حافظ دمشق ومحدثها ، اشاد بذكره وعلمه فحول علماء عصره ، ومن تبعهم . ولي مشيخة دار الحديث « الاشرفية » عام (٨٣٧هـ) وارتحل الى بعلبك، وحلب ، والمدينة المنورة، (انظر ترجمته في « الرد الوافر » ص ١٩ـ٢٠ .
(٣) هو محمد بن محمد العجمي ، ولد بايران عام ٧٧٠هـ ونشأ في بخارى ، ورحل الى الهند ، ثم مكة المكرمة ومصر حيث استوطنها سنة ٨٣٢هـ، واتصل بحكامها، وكان شديد =

فان « منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري » [٤] للدكتور محمد حسني الزين الشيعي ـ البعلبكي [٥] ، هو أوسع الابواب التي فُتحت ـ حتى الآن ـ على الشيخ ابن تيمية ، ناصر السنَّة ، وحامي الكتاب ، ورافض المنطق اليوناني بجملته .

قرأت « منطق ابن تيمية » ـ أول مرة ـ في صيف ١٩٨٣ ، فبدا لي مؤلفه ـ آنذاك ـ كأنه « مريد » « مسحور » بشيخه ، أو كأنه أحدَث انقلابا بذاته على

= الالتصاق بهم ، ثم انتقل الى دمشق ، فأقام فيها الى أن مات عام ٨٤١ هـ ودفن في المزة .

تشدد في طعنه بالامامين الجليلين محيي الدين النووي ، وتقي الدين بن تيمية ، ومما قاله عن الامام النووي : لا يجوز النظر في كتبه ! وانه رجل ظاهري ! واما كلامه بابن تيمية ـ موضوع « الرد الوافر » ـ فهو : من زعم ان ابن تيمية شيخ الاسلام فهو كافر . (الرد الوافر ٢١ـ٢٣) .

(٤) ٣٧٠ صفحة من القياس الوسط ، « المكتب الاسلامي » طبعة اولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م بيروت .

(٥) ولد في بعلبك ١٩٣٩ ، حصل على شهادة الاجازة « ليسانس » عام ١٩٦٩ في جامعة بيروت العربية ، ثم على شهادة « الماجستير » عام ١٩٧١ في الجامعة اللبنانية ـ كلية الاداب ، ونال شهادة « الدكتوراه » (فئة اولى) (دكتوراه دولة) عام ١٩٧٨ في جامعة القديس يوسف ـ كلية الاداب بتقدير « شرف اول » وذلك عن أطروحة « منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري » ، توفي في النصف الاول من ايار ١٩٨٠ ، اثر مرض مباغت ، رثاه الشيخ زهير الشاويش في كلمة رقيقة مؤثرة نشرت في أكثر من مجلة وجريدة لبنانية وسعودية .

ذاته ، بحيث تنازل ، عما ورثه عن الآباء والاجداد ، للريح ، دونما خوف أو جزع ، ليسلِّم بـ « التيمية » قاهرة « الإمامية » و « القدرية » وسائر الفِرَق والبِدَع الاسلامية والفلسفات . وراودتني رغبة في مراجعته والتعليق عليه ، الا ان ظروفا عامة وخاصة حالت دون ذلك ، فتأجل الكلام الى موعد آخر ، وما كنت أظنه سيمتد الى يومنا هذا ، وكما يقول المثل : ليس المتعلق كالمتألِّق ، أي ان الذي يكتفي بالقليل من الشيء هو غير الذي يتخيَّر ما يعجبه ، أراني أعود اليه ، بل الى ابن تيمية وتلميذه الهارب من « الصف الآخر » ، وعلى وجهه بسْمة الموت تنازع الكَدَرِ من العيش .

والحقيقة هي ان كتاب « ابن تيمية وجهوده في التفسير » [٦] ـ الصادر حديثا ـ لمؤلفه الاستاذ ابراهيم خليل بركة ، هو الذي ذكّرني بـ « منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري » ، وان لم أكن قد نسيته اذ « الجديد » كالغدير و « القديم » كالبحر ، ولا بد لمن يريد السفرَ في عالم ابن تيمية من أن يركب الموج المتلاطم وليس الغدير الساكن مهما يكن ماؤه كثيرا .

---

(٦) ١٨٦ صفحة من القياس الوسط : « المكتب الاسلامي » طبعة اولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م رسالة « ماجستير » الى جامعة الازهر .

على أن نظرة سريعة الى « الرد الوافر » ، الذي جمع فيه مؤلفه أسماء عدد كبير ممن لقب ابن تيمية « شيخ الاسلام » من الذين عاصروا الشيخ أو جاؤوا بعده، وترجم لكل واحد منهم ترجمة شملت فضائله ومؤلفاته ، وشيئا من سيرته ، وقد بلغ عددهم سبعة وثمانين شيخا ، فضلا عمن ذكر من اخوانهم ، وشيوخهم ، وآبائهم ، ومن تلقوا عنهم ، قد تحرمنا متعة القناعة بما كُتب وسيُكتب في شيخ الاسلام ابن تيمية ، الا اذا كان الباحث أو الدارس مساويا للمرحوم الدكتور محمد حسني الزين . ولربما تطورت، غدا ، مطالبنا ، فيصبح « منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري» دونها ، اذا ما سُمح بقراءة « منهاج السنّة » (في نقض كلام الشيعة والقدَرية) [7] و « الرد على المنطقيين »[8] و« صريح المعقول لصحيح المنقول » [9] ، و « منطق ابن

---

(٧) (٨) (٩) جميعها تأليف ابن تيمية . مع الاشارة الى ان « صريح المعقول لصحيح المنقول » (هامش « منهاج السنة ») قد طبع باسم « درء تعارف العقل والنقل » باحد عشر مجلدا، بتحقيق الدكتور رشاد رفيق سالم : في مصر حيث تولت نشره دار الكتب ــ الهيئة العامة المصرية للكتاب ــ دار الكنوز الادبية ١٩٨٤ ، أي بعد وفاة الدكتور الزين ؟ ولكن الزين اطلع على الجزء الاول منه فقط ، الذي كان قد صدر عام ١٣٩١ هـ ــ ١٩٨١ م . وسبب البعد بين الجزء الاول وبقية اجزاء الكتاب هو ان المحقق (الدكتور رشاد سالم) قد سجن في عهد عبد الناصر ، مما جعل متابعة التحقيق والنشر امرا عسيرا ، ولما افرج عنه عاد الى مهمته حتى تمكن من القيام بها على اتم وجه ممكن .

تيمية » نفسه ، في مناخ غير ذي سوء .

ويختم المرحوم الدكتور الزين رسالته قائلا : « وفي النهاية نذكر ان ابن تيمية لم يكن الرجل الذي يتبع غيره دون دراية وهدى ، وبغير بيِّنة أو دليل ولو كان من يتبعه على مذهبه .

« ولم يكن متعصبا لرأي يجرد عليه لانه يوافق مذهبه ، فله آراء واجتهادات في مسائل (...) قد توافق مختلف المذاهب ، الا مذهبه الحنبلي ، ومع هذا قال فيها وأبدى رأيه ووافق عليها ، بعد أن رأى انها أصلح في أمور العامة من الناس وأيسر في معاملتهم » و « انصافا للرجل، نقول انه كان حراً في تفكيره ، جريئا في دعوته للحق، ولا يهمه الا الحق ، وعلى هذا أجمع مؤرخوه ، وبذلك تنطق رسائله وكتبه وفتاويه ، كما تنطق به حياته ، وما لقي من سجن وبلاء بسبب هذه الجرأة . اذ انتقل الى جوار ربه وهو سجين بقلعة دمشق عام ٧٢٨ هـ » (ص ٣٧٠) .

فباسم هذه الحرية نطالب باخلاء سبيل الكتّاب « السجناء » ومناقشتهم والرد عليهم ، ومعالجة آرائهم وأفكارهم ، لئلا تبقى صراعاتنا ذبحا وتقتيلا وقمعا وارهابا وتدميرا . فنحن ، ومنذ أمد بعيد ، بحاجة الى « تعرية » أدبية ، و « تعرية » فكرية ، و « تعرية » ثقافية ،

و « تعرية » علمية ، و « تعرية » دينية ،و « تعرية»فلسفية، واذا لم نبادر ، سريعا ، الى هذه « التعريات » فان بعضنا سيبيد بعضا ، وحينئذ لن تنفع لا الشرائع ولا القـوانين ، ولن ينقذنا لا الايمان ولا الالحـاد ، فالكل الى الجحيم الموعود ، والى الهزيمة المنتظَرة •

ابن تيمية سُجن مرات ومات في سجنه ، ثم كُرّس « شيخا للاسلام » ؟!

ما أكثر الذين قُهروا أو اضطهدوا أو قُتلوا لاجـل أفكار بثّوها في الناس !

حِجـاب الموت وحده الذي يغطي « العـورات » ويستر «العيوب» ؟

ماذا وراء الموت ؟

الذي كان « كافرا » صـار «شيخا» والذي كـان « تقياً » « صوفياً » أصبح « ملحدا » ، فيما الموت واحد مهما تعدّد وكلاؤه واختلفت أدواته •

التكفير ردا على سؤال

في «منهاج السنّة» ــ الذي تجنب الدكتور الزين ، على ما يبدو ، البحث في موضوعاته ــ يقول ابن تيمية :

« ••• ثم قالوا والامام لُطْف لأن الناس اذا كان لهم إمامهم يأمرهم بالواجب وينهاهم عن الخبيث كانوا أقرب الى فعل المأمور وترك المحظور فيجب أن يكون لهم إمـام ولا بد أن يكون معصومـا لانه اذا لم يكن معصوما لم يحصل به المقصود ولم تُدّعَ العصمة لاحد بعد النبي (ص) الا لعلي (ابن أبي طالب) فتعيَّن أن يكون هو اياه للاجماع على انتفاء ما سواه »•

أضاف :

«وبسطت له العبارة في هذه المعاني ثم قالوا وعليّ نصّ على الحسن والحسن على الحسين الى أن انتهت النوبة الى المنتظَر محمـد بن الحسن صاحب السرداب الغائب فاعترف ان هذا تقرير مذهبهم على غاية الكمال • قلت له: فأنا وأنت طالبان للعلم والحق والهدى وهم يقولون : من لم يؤمن بالمنتظر فهو كافر فهذا المنتظر هل رأيته أو رأيت من رآه أو سمعت بخبره أو تعرف شيئا من كلامه الذي قاله هو أو ما أمر به أو ما نهى عنه مأخوذا عنه كما يؤخذ من الائمة ؟ قال : لا • قلت : فأي فائدة في ايماننا هذا وأي لطْف يحصل لنا بهذا ؟ ثم كيف يجوز أن يكلفنا اللـه تعالى طاعة شخص ونحن لا نعلم ما يأمرنا به ولا ينهانا عنه

ولا طريق لنا الى معرفة ذلك بوجه من الوجوه » [١٠] .

شيخ الاسلام يردّ على « الإماميين » بالسؤال ...
و « الاماميون » يردون عليه بالتكفير ؟! حتى انهم منعوا كتبه كافة من الدخول الى مناطق نفوذهم ، واذا ما عثر أحدهم على أي منها أحرقه ودعا على الشيخ وسبّه كما يسب الكافرين والشياطين . وفي « المقلب الآخر » قلّما تجد أثرا للشيعة والقدريين والمنطقيين ، عملا بأحكام ملوك ورؤساء وأمراء وقضاة حكّام ، يعتقدون ان هذه الاجراءات والتدابير انما يفعلونها ارضاءً لابن تيمية وتنفيذا لتعاليمه وأوامره وفتاويه .

الى هنا ، يقضي القول أن نقف مع ابن تيمية ، أما وانْ طالت الرحلة معه ، فان نزاعا حادّاً سيقع بيننا وبين الشيخ لا محالة ، وربما أدى الى « خصومة » أبدية أبى (الشيخ) الا أن يفرضها علينا كما على سوانا ممن يُغلّبون العقل المطلق على العقل المعتقَل .

---

(١٠) ابن تيمية : منهاج السنة (في نقض كلام الشيعة والقدرية) (وبهامشه الكتاب المسمى بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول — الذي تبين انه لا يتجاوز ثلث الكتاب المحقق من الدكتور رشاد سالم) — المطبعة الكبرى الاميرية — في بولاق مصر المحمية سنة ١٣٢١ هـ (بالقسم الادبي) . ج ١ ص ٢٤

مات نوح وتحطمت سفينته

يقول الدكتور محمد حسني الزين :

« وفي رأي ابن تيمية : ان الادلة العقلية التي يعارضون بها الكتاب والسنّة مبنية على أقوال مشبهة مجملة ، وتحتمل معاني متعددة ، كما تحمل في طياتها من الاشتباه لفظا ومعنى،ما يترك للبعض تناولها لحقّ وباطل»، « فما فيها من الحق يقبل ما فيها من الباطل ، وذلك لاجل الاشتباه لفظا ومعنى ما يترك للبعض تناولها لحقّ وباطل»، الانبياء ، وهكذا ضلّت الامم السابقة ، ونشأت البِدع» .

وتابع يقول :

« واذ نوجز موقف الشيخ من العقل والشرع نقول : انه أمر الناس بالاعتصام بجعل الشرع : الكتاب والسنّة النبوية الشريفة . وهذا واجب مطلق . وكل من دعا الى شيء من الدين بلا أصل من كتاب الله وسنّة رسوله ،فقد دعا الى بدعة وضلالة . ويشبّه الشريعة بسفينة نوح فمن قصّر عنها فاتته فرص النجاة، ويقول : (الشريعة مثل سفينة نوح عليه السلام ، من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق)» (ص ٢١٥) .

ولكن الذين ركبوا « سفينة نوح » ألقوا أسئلتهم

ولم يأتهم الجواب عنها ، فظلّ الحيوان حيوانا ، وظلّت المرأة امرأة ، والرجل رجلا ، والطير طيرا • السفينةأخّرت الموت (غرقا) ، لبعض الوقت ، ولكنها لم تمنع عنهم الموت أبدا • وكما السفينة وسيلة كذلك الشريعة وسيلة مثلها • كلاهما لأجل الانسان • ويستطيع الذي من أجله السفينة والشريعة أن يغيّر أياً منهما ، كأن يحوّلها أو يبدّل بها غيرها ، وليس شرطا أن يكون هذا التغيير أو التحويل الى الاحسن ، وان كانت الغاية هي الوصول الى الارتقاء والكمال •

ماذا نفعل بالشريعة ؟

ماذا نفعل بسفينة نوح ؟

لقد مات نوح وتحطمت سفينته •

في ذاكرتنا نبي وسفينة ، ونبي وشريعة • الذاكرة أوسع ، والحاضر الى الأمام • الاسطورة رمز ليس الا • والنبي أيضا رمز ليس الا • فلماذا نحاصر انسانيتنا وعقلنا بقيود لا ندرك شكلها ولا لونها ؟

لما سئل الامام مالك (٩٣ – ١٧٩ هـ ٧١٢ – ٧٩٥م) عن الآية القرآنية القائلة : « الرحمن على العرش استوى» كيف استوى ؟ قال : « ان الاستواء معلوم • والكيف

مجهول • والايمان به واجب • والسؤال عنه بدعة»[١١]•

وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله : « على الرسول البلاغ وعلينا الايمان » [١٢] •

لماذا السؤال بدعة ؟ بل لماذا السؤال ممنوع ؟

ان العقل ، الذي لا يسأل ولا يتساءل ، حدوده معروفة ، ومساحته ، مهما اتسعت ، تطوّقها خطوط حمر ومناطق محرّمة • ولكي نعرف « المعذّبين » من«السعداء» يلزمنا فقط الوقوف عند هذه الخطوط وبازاء هذهالمناطق• بيد ان الخوف من السؤال قد أنشأ دوائر وكيانات ومحطات غير متوقّعة ، فتكاثرت الخطوط الحمر ، وازداد عدد المناطق المحرّمة ، حتى ان شيخ الاسلام نفسه وُضع في دائرة ضيّقة بعيدة عن كيانه ، لاجل تحجيمه والقضاء على اجتهاداته وطموحاته ، ولا عجب اذا ما اتّهم بالكفر والجحود •

حارب ابن تيمية المتكلمين بسلاح الامام احمد بن حنبل القائل : « انهم (المتكلمون) أهل بدع،وهممختلفون

(١١) انظر « منطق ابن تيمية » ص ٢٢٤ ، عن ابن تيمية : الموافقة ج١ – ص ١٦٨ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٢٢٦ ، عن ابن تيمية : مجموعة الرسائل ، ج١ ، ص ١٩٦ .

في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مفارقة الكتاب ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهّال الناس بما يلبّسون عليهم »[١٣] .

ان الكتاب (القرآن) ، اذن ، هو الخط الاحمر الوحيد ، والسنّة النبوية هي المنطقة المحرّمة الوحيدة . فلا حاجة الى التأويل ولا الى السؤال . الكتاب كما هو . والسنّة كما هي . على ان التأويل عند ابن تيمية هو نوعان « أحدهما مرفوض لانه يحيد عن جادة العقيدة ، ويوصل بصاحبه الى الالحاد والكفر . والثاني مقبول وهو ما من شأن العقيدة وتوضيح المعاني السامية للآيات المشتبهة » (ص ٢٨٥/٢٨٦) .

صراع مع الشيعة

وحارب الشيخ الشيعة أيضا ، فحاربته الشيعة ببعض من سلاحه ، فلم يغلب أحدهما الآخر . ومما يدعو الى

(١٣) المصدر نفسه ص ٢٧٨–٢٧٩ ، عن ابن تيمية : الموافقة ج ١ ، ص ٢٣ .
ويدعونا الواجب العلمي هنا الى التأكيد على ضرورة مطالعة كتاب « الاتجاه العقلي في التفسير » (دراسة في قضايا المجاز في القرآن عند المعتزلة) للدكتور نصر حامد أبو زيد ، الصادر عن دار التنوير – بيروت طبعة ١٩٨٢ ، كونه (الكتاب) يدرس العلاقة بين الخطاب الالهي (؟) والخطاب الانساني في أطار الفكر الاسلامي ، ولا سيما الفكر الاعتزالي ، من خلال مفاهيم لغوية – فكرية ، للتمثيل والتشبيه والمجازوالتأويل.

القلق استمرار الحرب بين الشيعة و «التيمية» ، وكما هو واضح فان هذين الفريقين لن يتصالحا ما دامت الحدود « مخترقة » وما بقي الخط الاحمر الذي بينهما قانيا شديد الحمرة .

يقول ابن تيمية في منهاجه :

« ومنهم (يقصد أصحاب البدع في الاسلام) صنف يزعمون ان الله وكّل الامور وفوّضها الى محمد (ص) وأنه أقدره على خلق الدنيا فخلقها ودبّرها ، وانه لم يخلق من ذلك شيئا ويقول ذلك كثير منهم في علي ويزعمون الأئمة ينسخون الشرائع وتهبط عليهم الملائكة وتظهر عليهم أعلام المعجزات ويوحى اليهم ومنهم من يسلّم على السحاب ويقول اذا مرّت سحابة ان عليا فيها »[١٤] .

ويقول أيضا :

« فان أهل العلم متفقون على ان (...) المقالات الغالية في وصف الرب بالعيوب والنقائص المتضمنة تشبيه الخالق بالمخلوق في صفات النقص وتشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية هي أكثر ما يكون في الشيعة باتفاق الناس فلا يوجد في طوائف الامة (الاسلامية) أشنع في الحلول والتمثيل والتعطيل مما يوجد فيهم »[١٥] .

(١٤) ابن تيمية : منهاج السنة ج١ ، ص ٢٤٠ .
(١٥) المصدر نفسه .

من الثابت ان ابن تيمية يجاهد في سبيل محمد(النبي)
وإله محمد . بينما « الإماميون » يجاهدون في سبيل
الأئمة ومحمد ، وهذا ما جعلهم (الإماميين) أحزابا
وفرقا مثلما هم أئمتهم الذين شغلتهم السياسة والحروب
من أجل « الحكم الإلهي » الذي ادّعاه كل لنفسه . ان
هذا قد أدركه المرحوم الدكتور محمد حسني الزين بالعقل
الاسلامي المؤمن بخط أحمر واحد ومنطقة محرّمة واحدة،
فمال الى « شيخ الاسلام » وعكف على دراسته ، فلما
فهمه وعرف منهجه وغايته بادر الى وضع كتابه النفيس
هذا : « منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري » جاعلا له
أربعة أبواب تطل على حياة الشيخ ومؤلفاته وعصره،وعلى
نقده الحدّ والقضايا والقياس ، ثم على قياس التمثيل
والشمول واكتساب المعرفة بالحس ، وأيضا على العقل
عند الشيخ كما على منهجه في الاستدلال والعلوم الدينية
ولا سيما منها الفقه والتفسير . وكأني بالدكتور محمد
حسني الزين قد خرج من « الصف الإمامي » الى «الصف
التيمي » السلفي ، ليعود على الشيعة برسالة لا اعتقد ان
أحدا سبقه الى مثلها ، وعسى أن يقرأ الشيعة « منطق ابن
تيمية ومنهجه الفكري » ، الذي سيظل محتفظا بالشكر
العميق والامتنان لكل من الدكتور الأب فريد جبر ،
المشرف على الاطروحة ، « منذ كانت فكرة هائمة الى أن
انتهت عملا واقعيا متناسقا » ، والشيخ زهير الشاويش

– صاحب « المكتب الاسلامي للنشر » – الذي (أمدّه)
« بعدد وفير من كتب ابن تيمية المطبوعة في مكتبه وغير
مكتبه ، و (أطلعه) على المخطوطات المعدّة للطبع عن شيخ
الاسلام ، ووضع (بتصرفه) مكتبته النفيسة و (أفاده)
بتوجيهاته العلمية القيّمة » (ص ٤) ، فان في هذا الكتاب
ما يدعو الى مصالحة اسلامية تستطيع ، اذا تحققت ، الغاء
« الحواجز الداخلية » و « المحطات » و « الكيانات »
الصغيرة المفككة التي أقامتها السياسة والفلسفة والجدلية
والحتمية والاقتصادية المادية ، ضمن دائرة الشرع
والنصوص .

فهل تصالح الشيعة ابن تيمية ؟

١٩٨٥/١١/٢٤

(٧)
الإمامة بين الطّوسي والحلّي والقوشجي

يقول الاسماعيلي الدكتور مصطفى غالب :

« الإسماعيلية قصيدة فلسفية تتطور مع الزمن ، وتتكيّف معه . أو بلغةٍ أصح ،هي انطلاق الفكر الوثّاب في هذا العالم اللامتناهي ، أو وثوب الروح نحو مثلها الاعلى . فهي والحالة هذه بحر من العلوم ، وقبَس مضيء من النور ،وشعاع مشع ينير ظلام عالم الكون والفساد»[١] .

---

(١) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية منذ اقدم العصور حتى عصرنا الحاضر . دمشق ١٩٥٣ ، مع الرسالة التي بعث بها الامام آغا خان الثالث الى المؤلف بتاريخ ٣/ ٥/ ١٩٥٣ . وهذا النص ذكره الدكتور عادل العوا في «معنى التاريخ في الفكر الاسماعيلي » ، دراسة نشرت في كتاب « المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام »المذكور سابقا ص١٨٣/ ١٨٤

يذكر ان الدكتور غالب توفي عام ١٩٨٠ ، وهو باحث ومحقق له : « الفارابي »، «ابن سينا»، «اخوان الصفاء»، =

ويقول الشيعي الاثنا عشري الدكتور علي محمود مقلّد ، في أطروحته « النبوة والإمامة عند نصير الدين الطوسي »[٢] ، نقلا عن الدكتور علي سامي النشار[٣] :

« ... والإسماعيلية فارسية المنشأ والرعاية . فمؤسسها ميمون القداح كان فارسيا ويدعي الانتماء لسلمان الفارسي . ويلاحظ ان الاسماعيلية في فارس لم تنجح كحركة عسكرية ، وانما سادت كنوع من الفلسفة في أوساط المسلمين ولكنها لم تؤثر في مجموعة البلاد التي بقيت سنيّة في غالبيتها حتى انتصر فيها المذهب الاثناعشري وما يزال » .

وتابع قائلا :

« والفرْس آمنوا بالحق الإلهي المقدس للملوك ولذا فهم على استعداد للايمان بالحاكم الملهم ، وها هو محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق ولي الاولياء من فاطمة بنت الرسول قد أتى لتفسير القرآن وتأويله ولازالة ظواهر

= «الحركات الباطنية في الاسلام» و«الإمامة وقائم القيامة» ، الخ . والكتاب الاخير تعرّضنا له في كتابنا « محنة العقل في الاسلام» ، الفصل الخامس : «الإمامة والقيامة والسياسة» من ص ٣٧٣ الى ص ٤٠٦ .

(٢) مخطوط / ٤٧٩ ص . من القياس الكبير ، مع خلاصة أو ثبت للمصادر والمراجع والآيات والاعلام . اشراف : الاب الدكتور فريد جبر .

(٣) لـه : « نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام » ، جزءان ، المعارف بمصر ١٩٧٧ .

التشبيه والتعطيل ... »(٤)

اذا كنا سنبحث في العلاقة بين هذين القولين ، فلا بد من الاعتراف ، أولا وأخيرا ، بأن هذه « القصيدة » الفارسية المنشأ قد تطورت على يد خراساني هو الخواجة نصير الدين بن محمد الطوسي (١٢٠٠ – ١٢٧٣م) ، وتكيّفت مع النجفيين ، حتى صارت ركنا كبيرا أساسيا في الفكر الاعتقادي الشيعي الاثني عشري ، الذي هو ، عند الدكتور مقلّد ، « اسلامي صاف غير دخيل »(٥) ؟!

---

(٤) مقلد : النبوة والامامة عند نصير الدين الطوسي(أطروحة دكتوراه « فئة اولى » في الفلسفة ١٩٨٥ ، ص ٤٨٦ .

(٥) مقلد : ص ٤٩٠ حيث يقول : « ان الفلسفة النبوية التي نادى بها الطوسي هي نمط من الفلسفة تغذي دينا ذا جوهر نبوي هو الاسلام . يقوم على رسالة ربانية متسامية منزلة على الناس بواسطة أصفياء ومختارين . ان التأمل الفلسفي الديني الذي ارسى قواعده نصير الدين الطوسي هو تأمل اسلامي صاف وغير دخيل » .

والواقع هو « ان العقائد الدينية الاسماعيلية لا يمكن بأية حال من الاحوال ان تدرس على انها عقائد ثابتة لفرقة موحدة ، بل هي عقائد تطورت حسب البيئات والازمان ، لكل بيئة عقائدها ،وتطورت العقائد في كل بيئة بمرور الزمن، فاختلفت العقائد الاسماعيلية باختلاف البيئات وتشعبت آراء الاسماعيلية بحيث أصبح من الصعب العسير أن نلم بأطراف العقائد الاسماعيلية طوال تاريخها ») . انظر « سيرة الاستاذ جوذر » ، وبه توقيعات الائمة الفاطميين تصنيف أبي علي منصور العزيز الجوذري ، تقديم وتحقيق الدكتورين : محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، منشورات دار الفكر العربي بمصر طبعة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م .

وفي الحقيقة ان الدكتور مقلّد ، العارف ان الفرس قالوا بـ « الحق الإلهي المقدس للملوك » قبل الاسلام بزمن بعيد ، هو مخطىء منذ الانطلاقة الاولى . كما غاب عنه سلمان الفارسي (ت ٣٥ هـ / ٦٥٥ م) ، الذي القى في أرض العرب هذه البذْرة « الملْك الإلهي » أو « الملْك المقدس » ، وقد نبتَت فخرجَت هجينة ، مع أن الزارع الأب هو غير عربي(٦) ، تدعو الى « الإمام المعصوم » باعتبار ان « الإمامة لطْف كالنبوّة ونصْب الامام واجب على الله لطفا منه، ووجود الامام في كل زمان لطْف من الله بعبيده لانه تعالى يفعل بعباده ما هو الاصلح لهم »(٧) ؟!

إنّ الذي يبعث على الشعور بالخيبة هو أن الدكتور مقلّد قد آثر البقاء في الزاوية المغلَقة المعتّمة مع الطوسي والحسن الحلّي (العلاّمة)(٨) وسائر علماء الشيعة،ممن لا عمل لهم سوى أن يرددوا ما نُسب الى محمد (النبي)

---

(٦) الهجينة : التي أبوها عربي وأمها أمَة غير محصنَة .

(٧) مقلد : ص ٤١٩ .

(٨) هو الحسن بن يوسف المطهر (٦٤٧ – ٧٢٦ هـ / ١٢٥٠– ١٣٢٥ م) ، فقيه الشيعة في عصره ويعرف بالعلاّمة وبابن المطهر . ولد في الحلة (العراق) ودفن في النجف . أول من اخذ بأقسام الحديث المعروفة من صحيح وحسن وموثق وضعيف ومرسل . مؤلف مكثر في الفقه والاصول والكلام والمناظرة والتفسير والفلسفة والحديث والنحو . جرت بينه وبين ابن تيمية مناقضات وردود .

قوله في مكان اسمه غدير خم ، وهو راجع من حجة الوداع : « معاشر المسلمين ألَسْتُ أوْلى بكم من أنفسكم ؟ قالوا بلى . قال من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصرْ من نصره واخذلْ من خذله » (٩) ؟! ومن هناك جمّع (مقلّد) بعض أعمال الطوسي في رسالة الى جامعة القديس يوسف كلية الآداب والعلوم الانسانية ، فنال دكتوراه « فئة أولى » في الفلسفة ؟!

من المؤكّد أن إقصاء علي وأبنائه عن الخلافة لهو من وراء هذه « الفلسفة الدينية » التي جاء بها الطوسي ، ومن وراء معظم الفرق الاسلامية التي تكلمت وتمنطقت ، وبعضها ذهب بعيدا عما كان منتظرا منها ، ويا ليت علياً قَبِل الخلافة عندما عرضها عليه ابن عباس وأبو سفيان وآخرون ، أو ليت الاجواء التي كانت سائدة، آنذاك ، قدّمت علياً وأخّرت أبا بكر ، فلو حصل ذلك ، وسارت الامور طبيعية مثلما يتصورون ، لاسترخت الإمامة واستغنت عن هذه الفلسفة الانقاذية التي يغذيها ذلك

(٩) أنظر أطروحة مقلد ص ٣٩١ . وهذا الحديث هو مذكور في عدة كتب . واتفق الإماميون على ان النبي لما عاد من حجة الوداع نزل بمكان اسمه غدير خم .. وكان سبب نزوله في هذا المكان ونزول القرآن عليه بنصبه علياً خليفة له ... فأراد أن يذيع النص قبل تفرق الناس والآية هي : « يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل اليك من ربك » (المائدة : ٦٧) .

الجرح « الذي استنزف قوة الاسلام الدنيوية » (١٠) ، ويحسبه الاماميون « ينزف في الجسم الحي .. ويستنفر قوى الجسد الكامنة » (١١) ، اذ يجعل « المشكلة العلوية دليل حياة الاسلام عبر العصور » (١٢) !!

إنّ الإمامة ـ السياسة هي التي اختلقت الجرح، وهي أيضا التي ابتكرت من يعمّقه ويصبّ عليه السمّ، فتعطّلت حيوية الخلافة وتوقّفت تماما الا عن معالجة الفتن والانقسامات ، والرد ، على « الثائرين » و « المتمردين » من الأئمة ومحازبيهم ، بالحديد والنار !

لقد أُعجب الدكتور مقلّد بالشيخ الطوسي وشارحه الحِلّي (العلاّمة) ، فبنى لهما « قصرا » سماويا يحاكي قصور الأئمة الطالبيين ، بينما قسا على منتقدهما السنّي الشيخ القوشجي (١٣) ، حتى انه أبى أن يقرأه بعقلانية ، وأبى أن يراه في مكان عزيز محترم ؟!

قال في الاول (الطوسي) :

« تدور فلسفة الحكم ، عند نصير الدين الطوسي ،

(١٠) (١١) (١٢) مقلد : ص ٧١

(١٣)هو علي بن محمد بن علاء الدين (ت ١١٧٤ م) :رياضي. قصد كرمان ودرس على علمائها . عاد الى سمرقند وعمل في خدمة الغ بك ثم انتقل الى خدمة السلطان محمد الثاني في الأستانة فعيّنه مدرّسا في آجيا صوفيا . وبقي هناك حتى وفاته . ألّف للسلطان « كتاب المحمدية » في الرياضيات ، و « الفتحية » في الفلك .

حول موضوع الانسان الكامل الفاضل الملهم رئيس المدينة الفاضلة ، وقد اتخذ هذا الحاكم في فلسفة الطوسي الاسلامية (؟) اسم النبي والامام . واستند الطوسي في فلسفته هذه على تأويل آيات من القرآن ذات دلالة، أخذت بها الاسماعيلية والاثناعشرية ، كما استند على أحاديث مرويّة عن النبي بإسناد تتصل الى الأئمة الاثني عشر وخاصة الإمام علي والامام السادس جعفر الصادق . والنبوّة والامامة بالمفهوم الفلسفي عند الطوسي هما مؤسستان مختلفتان عن مؤسسة الخلافة القائمة على فهم دنيوي خالص لاسلوب الحكم . ان فهم فلسفة الحكم عند الطوسي يتطلب وعيا تأويليا للقرآن (؟) ، وتتبعاً للسنة النبوية لا يقدر عليهما الا الخاصة من أهل العلم » (١٤) ؟

وقال في الثاني (العلاّمة) :

« قام العلاّمة ، بالنسبة الى كتاب « التجريد » للطوسي بعمل عظيم حتى ليحار الباحث في الجزم ايهما أهم ، في خدمة نظرية النبوّة والامامة ، «التجريد» للطوسي أم شرح التجريد (١٥) على يد العلاّمة . بل ان هناك من

(١٤) مقلد : ص ٣٥ .

(١٥) سمّى العلاّمة شرحه « كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد » ، طبعة الأعلمي ، بيروت ١٣٩٩ / ١٩٧٩

يقول « ان القسم من كتاب التجريد المتعلق بالخلفاء الثلاثة الراشدين ، قبل علي هو من اضافات « العلاّمة » . والموضوع خطير يستحق كل تدبر . ونحن نقول عن قناعة (؟) إن ذلك لم يحصل ، لان « العلاّمة » أجلّ من أن يرتكب في حق الامانة العلمية جريمة تقويل الآخرين ، وخاصة معلمه الطوسي ، ما لم يقولوه » .

أضاف :

« والعلاّمة حين شرح كتاب التجريد أدلى بكل الافكار التي تدور في المعتقد الاثني عشري حول الامامة» فأصبح معروفا « بين الاصحاب بـ « العلاّمة » عند الاطلاق ، على قول الميرزا عبد الله أفندي (١٦) ،وله حقوق عظيمة على الطائفة الاثني عشرية لسانا وبيانا وتدريسا وتأليفا . وكان حكيما متكلما فقيها محدّثا ، أصوليا أديبا شاعرا » (١٧) .

هكذا أهل الزاوية الواحدة المغلقة المعتمة يمجد بعضهم بعضا . وليس عجبا أن يعتبر الدكتور مقلّد نفسه من تلك « النخبة » التي استطاعت « فكفكة » فلسفة

(١٦) في كتاب له عنوانه « رياض العلماء » .

(١٧) مقلد : ص ٣٥٧ / ٣٥٨ ، نقلا عن ابراهيم الموسوي الزنجاني ، في تقديمه لـ « كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد » ، طبعة الاعلمي المذكورة أعلاه .

الطوسي وتبسيطها واستيعابها كما لو ان الامامي لا يفهمه الا إمامي مثله فحسب .

وقال (مقلّد) في الثالث (القوشجي) مستنتجا ومقيّما :

« يمكن أن نستنتج من شرح القوشجي أنه يمثّل الموقف السنّي قبل عصر الطوسي وبعده من موضوع النبوة والامامة . وهذا الموقف يمكن أن يتلخص بمعارضة الفكر الاثني عشري معارضة تامة في النظرة الى النبوّة والبعثة وما يتفرع عنهما ، وكذلك في النظر الى الامامةمن حيث انها تكملة للرسالة » .

أضاف :

« ان الفكر السنّي تسليمي ، عملي واقعي أرضي ودنيوي برغماتي . وإنه لو خلا الدين الاسلامي من المعتقدات الإمامية وبخاصة من مقولات الاثني عشريين في النبوّة والامامة لبدا الدين الاسلامي حدثا تاريخيا ماضيا (؟) ولولا المعتقدات الاثني (كذا) (والصحيح الاثنا) عشرية حول مفهوم النبوّة والامامة لسقط الاسلام في ما سقطت فيه الاديان الشرقية غير التوحيدية في سكينة وجمود » .

وقال أيضا :

« فالفكر السنّي من خلال القوشجي لا يغوص في التأويل أي لا يرجع الى زمن الميثاق يوم خاطب الله الملائكة (؟) بقوله : (إني جاعل على الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفْسِد ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدّس لك . قال اني أعلم ما لا تعلمون)(البقرة: ٣٠) » (١٨) .

هذه الحرب المذهبية على الفكر السنّي ماذا عساها تفيد محمدا (النبي) وعلياً وباقي « المعصومين » ؟ بل ماذا تفيدنا نحن وقد احترقنا بنار النبوّة والخلافة والامامة ؟

اذا كان الفكر السنّي واقعيا وأرضياً ، فعلا ، فلماذا نبدّل الواقع خيالا ، والأرضي سماويا ؟ ولماذا تتذابح مثلما الاعداء لحساب من قتلهم حب السيطرة والنفوذ ؟

الذين تلقفوا الخلافة ماتوا .. والذين طلبوها ولم تعط لهم ماتوا أيضا . الكل ، خلفاء وأئمة ، صاروا في التاريخ : صاروا حدثا .. لا أعتقد أن قراءته ،اليوم وغدا، تبرر هذه الحرب المستمرة ، والقبوع في الزوايا المغلقة المعتمة .

وبما ان الدكتور مقلّد قد تحيّز وانحصر في دائرة

---

(١٨) مقلد : ص ٤٧٥ / ٤٧٦

الطوسي والحِلّي دون غيرهما ، وهو يوشك أن يختنق أو يتلاشى ، نرى واجبا علينا اقتحام هذا المُختنَق ـ المَضيق لتخليص ابن عصرنا وجيلنا قبل أن يحدث ما سيحدث . ولذلك قرنا معالجة نص واحد فقط من الطوسي ، بعد العرض ، طبعا ، من خلال الشرحين: الشيعي والسنّي ، أي الحِلّي والقوشجي ، على أمل أن يصحو مُعاصرنا الدكتور مقلّد ويعود الى الارض ويستأنف العيش بعقلانية ووضوح وانسجام . وكان بودنا لو نعالج أكثر من نص طوسي غير أن « المدينة الفاضلة » ـ «تعقلنت» في الغرب حتى صارت علمانية ديموقراطية أو اشتراكية ـ أو «الحكومة السماوية» ـ ما زالت جامدة «متجمّدة» ـ انما مثلها مثل اناء من زجاج اذا رُشق بحجر تهشم واستحال اصلاحه وتجبيره .

ان النّص الطوسي الذي اخترناه هو من القسم الثاني من الفصل الاول في الباب الثالث : النبوة والامامة عند الطوسي من خلال شارحيه [19] ، وفيه :

(١٩) تتألف أطروحة مقلد من مقدمة وثلاثة أبواب : (الاولى): أهم المكونات الفلسفية لفكر الطوسي السياسي في موضوع النبوة . (الثاني) : النبوة والامامة عند الطوسي من خلال كتبه الفلسفية اليونانية والاسماعيلية والاثني عشرية . (الثالث) : النبوة والامامة عند الطوسي من خلال شارحيه.

قال الطوسي : « الإمام لطْف يجب نصْبه على الله تعالى تحصيلا للغرض » .

ويقول العلاّمة : « اختلف الناس هنا فذهب الأصم من المعتزلة وجماعة من الخوارج الى نفي وجوب نصْب الامام . وذهب الباقون الى الوجوب ، لكن اختلفوا . فالجُبّائيان [20] وأصحاب الحديث والاشعرية قالوا انه واجب سمعاً أي من القرآن والحديث ، لا عقلا . وقال أبو الحسين البصري [21] والبغداديون والامامية انه واجب عقلا . ثم اختلفوا فقالت الامامية ان نصْبه واجب على الله تعالى وقال ابو الحسين والبغداديون انه واجب على العقلاء

(٢٠) هما : (١) أبو علي ـ محمد بن عبد الوهاب (توفي ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م) (والبعض يقول ٩١٦ م) : من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره . ولد في جُبّا (خوزستان) واشتهر في البصرة ، وتوفي فيها . أستاذ الاشعري . (٢) : أبو هاشم ـ عبد السلام بن محمد (السابق) (٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) من كبار المعتزلة . تُنسب اليه الطائفة الهاشمية. تعلّم على أبيه . توفي في بغداد . له مصنفات في الاعتزال .
(٢١) الحسن البصري (أبو سعيد) (ويقال له أبو حسين) (٢١ ـ ١١٠ هـ / ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) تابعي من مشاهير الثقات ولد في المدينة وأقام في البصرة وفيها توفي ، لقي عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس . كان فريدا في معرفة الاحكام الشرعية والتدريس والوعظ والحديث . أثّر تأثيرا عظيما في جيله من المسلمين ، وعنه اعتزل واصل بن عطاء الذي غدا رأس المعتزلة . له مكانة عظيمة في التصوف .

واستدل المصنف (الطوسي) على وجوب نصب الامام على الله تعالى بأن الامام لطف واللطف واجب » .

أضاف العلاّمة :

« أمـا الصغرى (٢٢) فمعلومـة للعقلاء : اذ العلم الضروري حاصل بأن العقلاء متى كان لهم رئيس يمنعهم عن التغالب والتهاوش ويصدّهم عن المعـاصي ويعـدهم ويحثهم على فعل الطاعات ويبعثهم على التناصف والتعادل كانوا الى الصلاح أقرب ومن الفساد أبعد ، وهـذا أمر ضروري لا يشك فيه العاقل . وأما الكبرى « اللطف » فواجب على الله . لانه خلق في الانسان القوى الشهوانية ... ولم يعصمه من الزلل ولذا وجب عليه تعالى أن ينصّب إماما يقرب المكلف من الطاعات ويصدّه عن المنهيـات ، وفي كل وقت وفي كل مكان » (٢٣) .

كان هذا شرح وتعليق « العلاّمة » الحلّي . أمـا القوشجي الذي يرى الامامة « رياسة عامة في أمور الدين والدنيا ، خلافة عن النبي » (٢٤) ، فيقول شارحا ومعلّقا :

---

(٢٢) المقدمة الصغرى في القياس كما لو قلنا العالم متغير (مقدمة صغرى) وكل متغير حادث (مقدمة كبرى) فالعالم حادث (نتيجة) .

(٢٣) مقلد : ص ٣٨٣/٣٨٤

(٢٤) مقلد : ص ٤٥٦

« اختلف الفقهاء والباحثون من كل الفِرَق حـول نصب الامام بعد انقراض زمن النبوة هل يجب أم لا؟ وعلى تقدير وجوبه على من يجب ؟ على الله أم علينـا ؟ عقلا أم سمعاً ؟ . فذهب أهل السنّة الى أنه واجب علينا سمعا . وقالت المعتزلة والزيدية بل عقلا . وذهبت الامامية الى أنه واجب على الله عقلا ما اختاره المصنف (الطوسي). وذهبت الخوارج الى أنه غير واجب مطلقا وذهب أبو بكر الأصم، من المعتزلة ، الى انه لا يجب مع الامن [مع وجود الامن والطمأنينة] ، لعدم الحاجة اليه . وانما يجب عند الخوف، وظهور الفتن لان الظَلَمة ربما لم يطيعوه [أي الحاكم] وصار [غياب الامام] سببا لزيادة الفتن . وتمسّك أهل السنّة بوجوه » .

ولقد بيّن القوشجي هذه الوجوه كما يلي :

« الاول (الوجه) ، هو العمْدة ، اجماع الصحابة حتى جعلوا ذلك أهم الواجبات واشتغلوا (انشغلوا) به عن دفن الرسول . وكذا عقيب موت كل امام .

« روي أنه لما توفي النبي خطب أبو بكر : « يا أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كـان يعبد رب محمد فانه حي لا يموت » . لا بد لهذا (الامر) ممن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم رحمكم اللـه » .

فبادروا من كل جانب وقالوا صدقتَ لكننا ننظر في هذا الامر ، ولم يقل أحد أن لا حاجة الى الامام .

« الثاني (الوجه) ، ان الشارع أمر باقامة الحدود وسدّ الثغور وتجهيز الجيوش للجهاد وكثير من الامور المتعلقة لحفظ النظام وحماية بيضة الاسلام مما لا يتم الا بالإمام . وما لا يتم الواجب المعلق الا به ، كان مقدورا (لازما) ، فهو واجب على ما مر .

« الثالث (الوجه) ، في نصب الامام استجلاب منافع لا تحصى واستدفاع مضار لا تخفى . وكل ما هو كذلك فهو واجب » .

ويستطرد القوشجي فيقول :

« أما الصغرى فتكاد أن تكون من الضروريات بل من المشاهدات وتعدّ من العيان الذي لا يحتاج الى البيان ولهذا اشتهر ان ما يزع (يردع) السلطان أكثر مما يزع القرآن وما يلتئم بالسنان لا ينتظم بالبرهان . وذلك لان الاجتماع المؤدي الى صلاح المعاش والمعاد لا يتم بدون سلطان قاهر يدرأ المفاسد ويحفظ المصالح ويمنع ما تتسارع اليه الطباع وتتنازع عليه الاطماع كفاك شاهد (كذا ، والصحيح : شاهداً) ما يشاهد من استيلاء الفتن والابتلاء بالمحن بمجرد هلاك من

يقوم بحماية الحوزة ورعاية البيضة [٢٥] وان لم يكن (الخليفة) على ما ينبغي من الصلاح والسداد ولم يخل عن شائبة شر وفساد ، ولهذا لا ينتظم أمر أدنى اجتماع ، كرفقة طريق ، بدون رئيس لا يصدرون [الا] عن رأيه ومقتضى أمره ونهيه » .

وقال أيضا :

« بل ربما يجري مثل هذا فيما بين الحيوانات العجم كالنحل لها عظيم يقوم مقام الرئيس ينتظم به أمرها ما دام فيها فاذا هلك انتشرت الافراد انتشار الجراد وشاع فيما بينهم (بينها) الهلاك والفساد فغاية الامر أن لا بد في كل اجتماع من رئيس مطاع منوط به النظام والانتظام . لكن من أين يأتي وجوب عموم رياسته جميع الناس وشمولها أمر الدين والدنيا على ما هو المعتبر في الامام من العمل على انتظام أمور عموم الناس على وجه يؤدي الى اصلاح الدين والدنيا اللذين يفتقر الى رياسة عامة فيهما؟ اذ لو تعدّد الرؤساء في الاصقاع والبقاع لأدّى ذلك الى منازعات ومخاصمات موجبة لاختلال أمر النظام ولو اقتصرت رياسته على أمر الدنيا لفات انتظام أمر الدين ، الذي هو المقصود الأهم والعمدة العظمى » [٢٦] .

---

(٢٥) الحوزة : ساحة ، البيضة : جوهر الدين . والمقصود هنا : ساحة الدين وجوهرته .

(٢٦) مقلد : ص ٤٥٦ / ٤٥٨ .

أين هو خطأ القوشجي ؟ بل أين هو صواب الطوسي والحِلِّي ؟

ان الفرْق بين هذا الفريق وذاك يجب ألا يؤدي الى هذا التنافر والتباعد ، بل الى اتفاق وتعاون . ومن الواضح ان السياسة ، هي التي قرّرت ما هو قائم بينهما ، أي بين الفكر السنّي والفكر الشيعي . فكلنا يريد الامن والسلامة والاستقرار ، ولكن حب السيادة ، والطمع في الحكم ، هو ما يجعلنا نقباه من هذا ونرفضه من ذاك ، وهو أيضا ما يرغمنا على المفاضلة بين واحد وآخر ، من دون أن نكون عادلين دائما .

ان العاطفة هي وحدها التي ساقت الجماهير الاسلامية الى اتخاذ المواقف المضطربة والمتناقضة ، فتكاثرت الاحزاب والهيئات والجمعيات والمنظمات ، وكل يحسب نفسه « عمود البيت » و « بيضة الاسلام » من دون أن يسأل عن حقيقة الإمامة وحقيقة الخلافة الا بما توافق عليه الظروف العليا والمصالح المواجهة التابعة للامامة أو الخلافة. ولعل السبب الرئيسي هو أن أحدا من أنصار الامامة أو الخلافة لم يسأل عن حقيقة النبوة بل سلَّم بها وقبلها مثلما هي : وحي وتنزيل من الرحمن الرحيم (؟!)

فمن أين اللطْف اذا ؟ وما نوعه وحجمه ؟ وهل تستحق الانسانية أن تقع في هذا الوهم ؟

الواقع هو ان اعتراض القوشجي على القائلين بأن « الامام لطْف » لا يدعو الى التحامل عليه ، مثلما فعل الدكتور مقلّد ، ولا هو عقلاني تماما ، ولكنه أفضل ، لا شك ، مما زعمه الطوسي والحلي وبالتالي مقلد .

يقول القوشجي :

« وأعترض بأن نصب الامام انما يكون لطفا اذا خلا عن المفاسد كلها وهو من المحال . فان اداء الواجب وترك الحرام ، مع عدم الامام أكثر ثوابا لكونهما أقرب الى الاخلاص ، ولانتفاء احتمال كونهما من خوف الامام . ولو سلم (سلّمنا) بأن نصْب الامام (لطف) ، فانما يجب نصبه لو لم يقم لطف آخر مقامه كالعصمة (؟) . مثلا لمْ لا يجوز أن يكون زمان يكون الناس فيه معصومين ومستغنين عن الامام . وأيضا انما يكون لطفاً اذا كان الامام ظاهرا قاهرا زاجرا عن القبايح ، قادرا على تنفيذ الاحكام واعلاء لواء الاسلام . وهذا ليس بلازم عندكم [٢٧] . فالامام الذي دعيتم (ادّعيتم) وجوبه ليس بلطف . والذي هو لطف ليس بواجب » [٢٨] .

---

(٢٧) القوشجي ، هنا ، يخاطب الامامية القائلة بأن اختفاء الامام ناتج عن عدم استعداد للناس .
(٢٨) مقلد : ص ٤٥٨

وردّ على القول بأن الإمام لطف سواء تصرّف أو لم يتصرف (٢٩)، يقول القوشجي :

« لا نسلّم بأن وجوده بدون التصرف لطف . فان قيل لأن المكلف اذا اعتقد وجوده كان دائما يخاف ظهوره وتصرّفه فيمتنع من القبائح قلنا : مجرد الحكم بخلقه وايجاده في وقت ما كافٍ في هذا المعنى . فان ساكن القرية اذا انزجر عن القبيح خوفا من حاكم من قبل السلطان مختفٍ في القرية بحيث لا أثر له، كذلك فانه ينزجر خوفا من حاكمٍ علم أن السلطان يرسله اليها متى شاء . وليس هذا خوفا من المعدوم بل من وجود مترقب . كما ان خوف الاول أي المكلف انما هو خوف من ظهور مترقب» (٣٠) .

كان هذا هو رأي القوشجي في الإمام، ورأيه صحيح على كل حال، فلماذا الاعتقاد بأن القوشجي وغيره من العلماء (السنّة) قد اضطروا « بحكم الحاجة المعيشية،

(٢٩) يستند الاماميون الى ما نقل عن علي انه قال : « لا تخلو الارض عن قائم لله بحجة، إما ظاهرا مشهورا أو خائفا مضمورا (مغمورا) لئلا تبطل حجج الله . وقد فسّر الاماميون هذا القول بأن تصرف الامام الظاهر لطف آخر وانما عدم تصرفه من جهة العباد وسوء اختيارهم حيث أخافوه وتركوا نصرته، ففوتوا اللطف على أنفسهم » (مقلد ص ٤٥٨) .

(٣٠) مقلد : ص ٤٥٨/٤٥٩

أو بحكم طغيان التيار الشعبي السائد الى المسايرة والى التغاضي عن الحقيقة في مدوّناتهم » (٣١) (؟) مع التأكيد على أن « الحاجة المعيشية » انما هي عند العموم، اماميين وغير اماميين، من الضروريات التي تبرر السعي الى قضائها، واذا لم تسدّد أو تتأمن تصبح الثورات هي الحاجة الماسة التي لا يمكن التخلي عنها .

صحيح أن القوشجي عالج شرح آراء الطوسي في النبوة والامامة من منطلق ان الخلافة هي الامامة ـ بمعنى أن الخلفاء الراشدين «هم أئمة بقدر ما هم خلفاء » (٣٢)، ولكن الصحيح أيضا هو أن القوشجي انطلق من فهم للانسان واقعي وعلمي مفاده انه (الانسان) « مدني بالطبع يحتاج الى التعاون، ولا بد من شرح يفرضه شارع يكون مطاعا » (٣٣) .

بينما انطلاقة العلاّمة (الحلي) هي من فوق، ولكونه يقصد « العلو » السماء، ضاعت نظريته في الفضاء الواسع واللامحدود : « إن الإمام عنده (أي العلاّمة) شخص تجعله العصمة مؤهلا لا لوضع شريعة جديدة بل لحفظ شريعة محمد . والإمام هو إمام في الماضي والحاضر والمستقبل

(٣١) المصدر نفسه ص ٤٧٩
(٣٢) المصدر نفسه ص ٤٢٨
(٣٣) المصدر نفسه ص ٤٣٢

سواء وُلّي الخلافة أم لا . وإمامته ليست من الناس بل من الله » [٣٤] (؟!)

واذ يفتح الدكتور علي مقلّد عينيه باتجاه السماء، فلا يجد سوى ظلام شديد رهيب، وتحت وطأة الخوف مما حوله وفوقه ، سمعناه يقول : « ان الفكر الفلسفي الاثني عشري لا يأبه كثيرا لسعادة الفرد في الدنيا ، لان الدنيا دار ممر الى الآخرة ، وأمورها لا تصلح بالترقيع بل بالتّرك»[٣٥]؟!

لنا من هذه الحرب بين الفكر الامامي والفكر السنّي موقف ، نريد من أربابها وسماسرتها أن يلتفتوا اليه ويأخذوا به ، فهو دعوة الى السلام والتعاون والوئام ، ومتى تم ذلك تحققت السعادة المنشودة ، وليست الدنيا ممرّاً ولا دار فناء ، بل هي الحياة والبقاء ، لمن يعرف الى الخلود سبيلا .

على أن العقل هو المنقذ من الضلال ، لانه يحترم الدنيا ويقدّس الحياة .

١٩٨٦/٢/٢٣

---

(٣٤) (٣٥) المصدر السابق . وللقارىء أيضا أن يطلع على كتاب « تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة » للدكتور عبد الله فياض ، قدم له (المغفور له) سماحة الحجة السيد محمد باقر الصدر ، منشورات الاعلمي – بيروت ١٩٧٥ ، وهو تاريخ طائفة من الشيعة كانوا الرواد الاول للتتبع وواضعي بذرته في عهد محمد (النبي) ، كما كانوا أشهر بناة الفكر الشيعي .

(٨)
الشيخ خالد محمّد خالد بين التحرّر والتقليد

صباح الجمعة ، اليوم الرابع من السنة الجديدة (١٩٨٥) ، كان المفكر المصري ، خالد محمد خالد ، في جامعة الروح القدس .. اللبنانية .

القاعة وسيعة ، والحاضرون لم يتجاوز عددهم العشرة.
« عرس الدكتوراه » ، هذه المرة ، جرت مراسيمه بهدوء تام وصمت مثير .

خالد محمد خالد غاب بجسده ... وحضر بعقله .
السيدة سميرة عواد (ماضي) هي كانت الشيخ بكل ما كتب ونشر . في يمينها : « من هنا نبدأ » و « مواطنون لا رعايا » و « الديمقراطية أبدا » و « هذا أو الطوفان » و « لكي لا تحرثوا في البحر » و « الدين للشعب» و« لله والحرية » و « معا على الطريق محمد والمسيح » و « في

البدء كان الكلمة » و « الوصايا العشر » و « مع الضمير الانساني في مسيره ومصيره » و « انه الانسان »و«أفكار في القمة » و « نحن البشر » و « أزمة الحرية في عالمنا»[1] •
وفي يسارها :«كما تحدث القرآن» و« كما تحدث الرسول» و « عشرة أيام في حياة الرسول » و « انسانيات محمد » و « أبناء الرسول في كربلاء » و « الموعد لله » و« رجال حول الرسول » و « في رحاب علي » و« بين يدي عمر » و « جاء أبو بكر » و « وداعا يا عثمان » و « معجزة الاسلام : عمر بن عبد العزيز » و «الدولة في الاسلام»[2] •

مع السيدة سميرة أيضا مقالة لصاحبنا الشيخ عنوانها: « اسجدوا لآدم »[3] وحديث صحافي قال فيه : « نعم الاسلام دين ودولة »[4] •

السيدة سميرة عواد ماضي ، حاملة الشيخ خالد محمد خالد ، فرشت رسالتها : « من الحركات التحررية في الفكر

(١) هذه الكتب هي للشيخ خالد محمد خالد ، ألفها ونشرها بين ١٩٥٠ و ١٩٦٩ م •
(٢) هذه الكتب هي أيضا للشيخ خالد محمد خالد ، ألفها ونشرها بين ١٩٦١ و ١٩٨٠ .
(٣) نشرت في مجلة « الدوحة » القطرية ، السنة السابعة العدد ٧٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٢ ، ص ١٥/١٢ .
(٤) حديث أجراه جابر رزق مع الشيخ خالد محمد خالد في مجلة « الدعوة » العدد ٢٢ السنة ٢٧ .

العربي المعاصر : الشيخ خالد محمد خالد » أو « بين التحرر والتقليد : الشيخ خالد محمد خالد »[5] (هي تؤثر الثاني على الاول • غير ان الطلب الذي قدمته الى الجامعة يذكر الاول فقط) أمام الدكاترة : ألبير نصري نادر (المشرف) وغسان خالد وأدونيس عكرة والاب توما مهنا ،للمناقشة، طالبة « دكتوراه في الفلسفة » (مُنحت اياها بدرجة جيد !) اذ أحبت عملها فاعتزّت به وتشرّفت •

ان الاسباب والدوافع التي حدتني الى الحضور هي كثيرة ، منها ان السيدة سميرة ، هي ابنة الصديق ، القاضي السابق ، الشاعر والفنان سعد عواد،شقيق الفنانين العوّادين : نايف والياس وجوزف، وجميعهم ممن أُقدّر وأُحبّ • ومنها أيضا معرفتي بالدكاترة أعضاء اللجنة الحاكمة ، ولا سيما الأب توما مهنا والدكتورين خالد[6] ونادر • الى جانب هذا وذاك أهمية الموضوع (الرسالة) ،

(٥) ٤٢٢ صفحة فولسكوب ، مع ثبت للمصادر والمراجع ، أعدتها سميرة عواد ماضي ، باشراف الدكتور ألبير نصري نادر ، نالت درجة« جيد » .
(٦) أ ـ كان الاب توما مهنا ، عميد كلية الفلسفة واللاهوت في جامعة الروح القدس .. أحد الذين ناقشوا كتابي «لبنان في ظلال البعث» الصادر في مطلع ١٩٧٩ . وقد تمت المناقشة مساء ٨ آذار ١٩٧٩ ، في قاعة المحاضرات التابعة لكنيسة مار الياس ـ انطلياس .
ب ـ كتب الدكتور غسان خالد مقدمة لكتابي «في سبيل وطن وقضية » الصادر في أول كانون الثاني ١٩٨٠ .

بالنسبة إلي ، وما الشيخ خالد محمد خالد ، عندي ، الا واحد من أولئك المفكرين الشرقيين الذين عذّبتهم مواقفهم الفكرية وآراؤهم وأمانيهم ، وبخاصة بعدما وقعت الهزيمة العربية العسكرية والسياسية عام ١٩٦٧ ، يومئذ شعروا بالخيبة والانكسار النفسي والعقلي والادبي الرهيب • بعضهم طلّق الكتابة الى التجارة وغيرها ، وبعضهم تبرّأ من هذا « الذنب الفكري » ليقترف « ذنبا » جديدا أشد وأدهى ، فيما استمر الفريق الثالث يتألم ويتحسر ، حتى عبث ، بكل شيء ، ليدخل مرحلة العقم السياسي ويقطع الامل •

وتجربة خالد محمد خالد معروفة وحديثة العهد ، وهو ، على كل حال ، مثله مثل علي عبد الرازق وطه حسين ومصطفى محمود وجميع أولئك الذين اختلفوا مع الازهر والازهريين فكانت لهم كتابات « اصلاحية » و « ثورية » — نوعا ما — لم تصمد أمام ضغوط الجماعة والكهانة والحكومات والمؤسسات • وكما هؤلاء كما غيرهم ممن جاء قبلهم أو بعدهم • كلام الليل يمحوه النهار • ومن لم يتراجع أو يتحول عن الخط الذي رسمه لنفسه فهو ملحد وكافر ومنبوذ وهدّام وعميل وخائن ومرتدّ ؟!

ان الجماعة ، أينما كانت ، هي التي تقرر وتحكم

وتنفّذ • الجماعة تخاف الصراع الفكري وحرية القول والمعتقد • الجماعة قوة ونظام ونفوذ • اذا هي ردت ، على هذا أو ذاك ، فكلماتها جارحة ومؤلمة ومعنّفة • واذا سكتت ، فالمصيبة أعظم • وقلما تردّ الجماعة ، الا اذا كان العراك على الشكل لا على الجوهر ، ودائما ، سلاحها الاضطهاد والتنكيل والتهجير والترويع والتفقير • فكلما ذُكر كاتب متمرد أو مفكر متحرر أو أديب مجدد أو شاعر ثائر أو فنان تغييري ، ذُكر معه الفقر والحرمان والعزلة والاهمال والتشرد • وهناك من أُعدم أو اغتيل ، كما يحفظ لنا التاريخ القديم والوسيط والحديث ، أو سُجن وعُذّب وجُلد ، فأخذته صاعقة العذاب الهُون • على ان « التسامح » موجود بوجود العقاب ، فمن تاب وندم غفروا له ورجعوا عليه بالفضل ، ومن عصى أو خالف الامر وعاند ، فإلى جهنم وبئس المصير ؟!

بيني وبين خالد محمد خالد مسافة لا الزمان يحدّها ولا المكان •

« من هنا نبدأ » صار نبدأ ماضيا ، ونمشي ماضيا •

الشيخ ضربته عاصفة •••

وأنا أيضا ضربتني عاصفة ••

أنا هنا ••• والشيخ هناك !

أتراه كيف « يلمّع » كتبه [٧] ؟!

من أين نبدأ ؟

من جامعة الروح القدس ؟

من أطروحة الدكتورة سميرة عواد ماضي ؟

الى أين الطريق ؟

كانا معا ...

غابت الشمس .. طلعت الشمس .. لا أحد يعرف أحدا .. الوجوه لبست الحجب !

وماذا حدث بعد ؟

اطمئنوا !

لا زلازل ولا انهيارات .

الشيخ تغيّرت نواظره . هذا كل شيء .

النيل هو النيل . والاهرام هي الاهرام . ومصر بقيت في مكانها .

لن ينفع الوقوف على الطريق .. وقد سقط الجسر وضاعت « رأيتكما معا » .

يقول مونييه (Mounier) :

---

(٧) انظر رسالتنا الى المغفور له نجيب العقيقي ، المنشورة في كتابنا « جزيرة الكلمات » الجزء الاول ، طبعة ١٩٨٢،ص ١٥٢/١٥٨ .

« هناك أشخاص ينادون من حولهم فيوقظون النائمين وهكذا من نداء الى نداء تستيقظ الانسانية من أعماق نومها الثباتي الذي ما زال يخمدها » [٨] .

ولكن الامر ليس كذلك دائما .

شيخنا مثلا ، دق ناقوس الخطر بيد .. وحطّمه باليد الاخرى .

ماذا قالت اللجنة الحاكمة ؟

ان أياً من الدكاترة لم يكتب نقدا للاطروحة أو بحثا تحليليا . شغلتهم الأسئلة الكثيرة ... والملاحظات السريعة : « خروج على المنهجية » (؟) « عبارات ليست دقيقة تماما » (؟) « أخطاء لغوية » ... ويمر الوقت من دون أن يسلّم . الكل خائف من الوقت وعليه .

كانت سميرة تقرأ « المانيفست » . قيل لها: «اختصري! اختصري ! » ؟!

الدكاترة أعينُهم على الساعات ؟ كادوا أن يصيبوا السيدة ــ الطالبة بدوار الحركة السريعة ... لولا مداخلة

---

(٨) انظر الاطروحة ص ٣٩٥ ، نقلا عن « من الكائن الى الشخص » للدكتور محمد عزيز الحبابي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ، ص ١٢٧ .

متواضعة وخاطفة من الاستاذ المشرف ، الدكتـور نادر ، ومني .

الشيـخ في مصر ... والكلام في لبنان . اعترفت سميرة بأخطائها ... قبل أن يذكّر بها الدكاترة ، ردّت على الاسئلة .

غـاب اللبنانيـون (...) عن الاطروحة ، فاستنكر الدكتور غسان خالد وتساءل واستغرب .

سميرة تبحث في أعمال مصري أزهري .

جذور الشيخ طالعة من مدارس الافغاني ومحمـد عبده ومحمد رشيد رضا وعلي عبـد الرازق وعبـد الله القصيمي .

الحق مع الدكتور خالد ، ولكن ...

انهـا الظروف التي عاشتها وتعيشها السيدة سميرة عواد مـاضي .

ألا يكفي هذا الانتاج الضخم الذي يجره خالد محمد خالد وراءه ؟

للجنة الحاكمة أن تحاسب سميرة على كـل صغيرة وكبيرة .

ليت اللجنة بحثت وحللت .

الى ماذا ترمي السيدة سميرة عواد ماضي ؟

هي قالت :

« في ختام دراستنا هذه نستطيع أن نلخص موقف خالد الفكري ــ مع اعترافنا بصعوبة حصر فكر واسع في عبارة واحدة ــ بأنه موقف رافض للتقليد الجامد المتحجر، كما انه موقف منفتح متحرر من دون أن يتخلى عن أصالته العربية وثقافته الاسلامية التي لا تتعارض مع رغبتـه في الحوار مع الآخرين ، ومحبته الصادقة لكل انسان، وشعوره بمسؤولية تجاه كل انسان بشري معذّب على الارض » (ص ٤٢١) .

أحوار أم مماحكة ؟

في كتابه « انه الانسان » يقول الشيخ :

« نحن نقول ان العلم يغيّر وجه الارض ، وهـذا حق ... بيد ان العلم نفسه لا يوجد الا بمقدار ما يريـد الانسان . ولا تسري الحركة في آلة الا بمقدار مـا يضع الانسان فيهـا من حركة » (انظر الاطروحة ص ٢٣٧ / ٢٣٨) .

هذا الكلام يعود الى سنة ١٩٦٨ ، تاريـخ صدور كتابه « انه الانسان » . وبعد ثلاث عشرة سنة ، قال الشيخ في كتابه : « الدولة في الاسلام » ــ المنعطف :

« ان عظمة الاسلام الفريدة ماثلة في انه يسير بالتقدم العادي والتقدم الروحي في طريق واحدة ... ذلـك ان الحضارة الغربية المعاصرة تعاني هذه الآفة القاتلة ، وهي ان التقدم المادي يمضي هادرا وسريعا بينما تقدمها الروحي متخلف جدا وبطيء كذلـك » (الاطروحة ص ٣٢٥ / ٣٢٦) .

ماذا فعلت الرغبة في الحوار ؟

الشيخ يرفض ، كما يبدو ، أن يحاور نفسه . وربما صعّر لنا خدّه اذا نحن اعتمدنا النص الاول أو بعضه .

لا حوار اذن ولا مَن يحاور .

النص الثاني يلغي أو ينسخ النص الاول . مناخ « انه الانسان » هو غيره مناخ « الدولة في الاسلام » . وهكذا من نص الى نص .

الشيخ ـ الشيخ أقفل باب الحوار ... وباب الاجتهاد .. وباب العلم .. وجلس يحاسب العقل والعقلانيين .

ولكن سميرة لم تلتزم الصمت ، بل ناقشته وفنّدت بعض آرائه ولامته ، بلهجة هادئة وصوت ناعم جدا ، وكثيرا ما كانت (سميرة) تكتفي إما بالاشارة وإما

بالتساؤل ، كأن تقول مثلا : « هل الدعوة الى قيام دولة اسلامية في العصر الحالي الذي تتفاقم فيه الصراعات الطائفية بين الفِرَق من جهة والاقليات الدينية من جهة أخرى ، هل هذه الدولة الاسلامية دواء لتلك الصراعات وحلّ جذري لها ؟ » (ص ٣٣١) .

واذ هي تستعرض حلولا أخرى غير قيام دولة اسلامية تلفت (سميرة) الى أن المجتمعات العربية والاسلامية « لا تخلو من النزاعات ذات الطابع الديني والطائفي التي تمزقها وتجعل أمل تحقيق الامة الاسلامية أكثر ضعفا من أمل تحقق الامة العربية » (ص ٣٨٢/٣٨٣) لتقول :
« وافتراض حل مشكلة التمزق العربي عن طريق الوحدة الاسلامية لا يشكل بنظرنا الحل الامثل لان مبدأ الوحدة الاسلامية ، لن يؤدي ، مع تفاقم الصراعات وصعوبة الاوضاع الراهنة ، الى مجتمع متماسك قوي » (ص٣٨٣) .

وكي لا يكون « الحوار » مع الشيخ عنيفا قالت سميرة :

« ولا شك ان ذلك لم يغب عن خالد نفسه الذي اعترف بأن الظروف الدولية الحالية لا تسمح بقيام وحدة عربية حقيقية أو وحدة اسلامية » .

وتابعت تقول :

« فتجربة القومية العربية لم تلق النجاح المنشود لانه من الصعب جدا تذويب الكيانات المختلفة للمجتمعات العربيـة في قوميـة واحدة تصبو الى ازالة التمايز بين الثقافات والعادات الاجتماعية » (ص ٣٨٣) .

وتتوسع السيدة سميرة عواد ماضي في الشرح والتعليل فتقول :

« لذا نجد في الوقت الحالي اتجاها نحو وحدة عربية تحافظ على الكيانات الخاصة التي تميز كل بلد عربي عن غيره من البلدان العربية . وهذا ما توصلت اليه أوروبا بمحافظتها على القوميات الخاصة مع تضامن يضمن المصلحة الاوروبية ويجمع الاوروبيين دون أن يحاول تذويبهم في قومية أوروبية » .

أضافت :

« وهذا ما عبَّر عنه المفكر العربي المعاصر لويس عوض بتصريحه الآتي : (ان أية محاولة لاذابة الكيانات القومية والحضارات والثقافات المختلفة في شيء مبهم اسمه القومية العربية أمر مرفوض عندي وأعتبره نوعا من الفاشية ... انك لا تستطيع أن تكون عربيا جيدا الا اذا كنت مصرياً أو سوريا أو عراقيا أو لبنانيا جيدا ... انني أفكر في العالم العربي كما أفكر بأوروبا . عندما تنظر الى

أوروبا من جديد تعتقد ان كل الاوروبيين شيء واحد . عيون زرقاء وقبعات وبنطلون وأحذية . ولكن بالرغم من انهم جميعا مسيحيون ، ولهم قدر كبير من الثقافة المشتركة، فهم مجموعة أمم وليسوا أمة واحدة) » (ص ٣٨٣) .

الكل يعاني الخيبة والفشل . وكما خالد كما عوض . مثلهما ، بشكل أو آخر ، محمد اركون وجورج قرم وصادق جلال العظم وعبدالله العلايلي والعلمانيون والديمقراطيون . المطارحات كثيرة والحل بعيد ... بعيد . الحكم القومي وهْم ، ونصيبنا من الثورة الفكرية تراجع !!

وأما الشيخ خالد محمد خالد فيقول :

« لأن الدولة الاسلامية مأمورة من الله ومن رسوله برعاية حرماتهم (يقصد الاقليات في ظل الدولة الاسلامية) وحفظ حقوقهم، وتركهم أحرارا في العيش وفق معتقداتهم» اذ تصبح دولة الاسلام «حصنا حصينا للاقليات التي تعيش معها وبين مواطنيها » (الدولة في الاسلام ص ٨٥) (الاطروحة ص ٣٥١) .

وخير مثال ، على ذلك ، كما يحسب الشيخ :

« التجربة التاريخية الصادقة التي عرفها الاسلام في موقفه من الاقليات منذ عهد الرسول وعبر تاريخ الدولة الاسلامية خلال أيام الامويين والعباسيين وما تلاهما من عصور » (الاطروحة ص ٣٥١) .

أحِوار أم مماحكة ؟

بل لماذا الحوار ؟

وكما قتل خالد (الشيخ) خالد (المتحرر) قتل كذلك كل «الخالدين» .

لقد نجحت السيدة سميرة عواد ماضي في قراءة كتب خالد محمد خالد ، المقتول والقاتل ، أيما نجاح . وحددت سميرة ، بوضوح تام ، مراحل تطور صاحبنا واتجاهه الفكري ، ومنابع ثقافته ، كما ألقت الاضواء على نظرته المتقدمة الى الديموقراطية والسياسة والاستعمار والحرية والاقتصاد والمرأة والحياة الاجتماعية والاخلاق والتربية والفلسفة . ودلت على التحول في فكره من دون أن تغوص على الاسباب ، التي فرضت هذا التحول ، غوصاً عميقاً .

أما « الشخصانية في فكر خالد محمد خالد »(الباب الثاني من القسم الثالث) (نشير هنا الى ان الاب توما مهنا لحظ فوضى في الفهرست) فموضوع يستحق الاهتمام والتقدير ، لان فيه حشدت الباحثة مجمل ملاحظاتها وتعليقاتها ، على الشيخ وآرائه ومقترحاته ، وهي وإنْ دلت على شيء فانما تدل على استيعابها جميع ما كتبه الشيخ خالد محمد خالد خلال ثلاثين سنة ، وهو ، كما نعرف عنه ، كثير القراءة والكتابة .

١٩٨٥/١/٧

الباب الرابع

المحور العالمي

١ – ● ديبلوماسية التأزيم

٢ – ● الغرب والعالم (١) و (٢)

٣ – ● تكوين العقل الاوروبي الحديث

٤ – ● كنز قمران

٥ – ● البروتستانتية الشرقية تصحح ما « أفسدته » البروتستانتية الغربية

٦ – ● قضايا التبعية الاعلامية والثقافية في العالم الثالث

٧ – ● تغيير العالم

٨ – ● حملة على الشيوعية والرأسمالية لمصلحة « نظام الشخصية الانسانية »

(١)
ديبلوماسيّة التأزيم

كتاب « ديبلوماسية التأزيم أو قرار أميركا بالفشل في الشرق الاوسط » (١) لمؤلفه الدكتور انطوان شيبان (٢) ، صوت عربي شديد خطير ، نخاف عليه من

---

(١) ٢٤٢ صفحة من القياس الوسط مع الملاحق : وعد بلفور (١٩٧١) ، مشروع تقسيم فلسطين (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) ، مذكرة مساعدة من وزير الخارجية دالس الى السفير الاسرائيلي لدى الولايات المتحدة ابا ايبان في ١١ فبراير ١٩٥٧ ، مبدأ ايزنهاور ـ رسالة خاصة الى الكونغرس حول الوضع في الشرق الاوسط في ٥ يناير ١٩٥٧ ، البرنامج السياسي للمجلس الوطني الفلسطيني ، من ٦ الى ١٢ يناير ١٩٧٣ ، قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ / ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ ، ولائحة بمختلف المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة .

(٢) لبناني من مواليد بيروت (١٩٥٤) . تلقى دروسه الابتدائية في معهد الرسل ـ جونيه . تابع دروسه التكميلية والثانوية في أميركا . كان متفوقاً منذ صغره . حصل على شهادة B.A من جامعة فلوريدا في علم السياسة ، وشهادة M.A من جامعة بركلي في كاليفورنيا ، تقدم برسالة دكتوراه دولة PHD وناقشها في جامعة (Stati University

=

الخنق أو من نوائب الدهر ، اذ ان العرب لا يقرأون الا الأثنية والمدائح .

أهي أميركا التي تعاني الفشل أم العرب هم الافشال؟

مع « ديبلوماسية التأزيم » ينبغي لنا أن نتجاوز الظن الى مرحلة المعرفة أو اليقين ، وليس في الكتاب ما يدعى ظلما أو افتراء على أحد ، أو حسدا أو حقدا ، أو نميمة ، انما لكل ما يستحق ومن كل ما قد أعطى .فأميركا هي أميركا ، ولو تعددت الآراء والمواقف . والعرب هم العرب ، ولو عرفوا أصدقاءهم من أعدائهم . بيد ان الكتاب يحتوي على مواقع كثيرة قد تألفها ، برغم الآلام التي لا بد انها ستجتاحك إثر القراءة ، والقلق ، والشعور بالعجز ، واليأس ، وربما قلت : ظِل السلطان سريع الزوال، فأخذك النوم عن غد ، لتصبح كأنك من أهل الطواحين ، بل رحى قومك ، وعندئذ لن تنتجع ولن تبرح مكانك .

أين العرب من أميركا ؟ وأين اليهود من اسرائيل ؟

---

of Florida) فنال الشهادة بدرجة ممتازة مع التنويه. علّم لمدة سنتين في الجامعة نفسها . دخل اروقة الامم المتحدة في كاليفورنيا ومارس وظيفته بكل اخلاص وتفان وتجرد لمدة سنتين . بعدها توجّه الى العمل الحر ، فأصبح من رجالات الاقتصاد ، له مكاتب في نيويورك – تلهاسي – مونتكارلو – بالمادي ، مايوركا – اسبانيا – جنيف . يدير اكبر شركة مقاولات في الكويت .

لقد وُلدت قضايانا ميتة ووُلدنا حفاري قبور .

من الشرق الى الشرق الى الغرب ، وعقدة الحكاية كما البداية والنهاية . كلٌّ في مكانه . وأما من زايله وفارقه فهو مقتول أبرحَ قتل . وتستمر أميركا في غسل دماغ الشرق لكي ينسى لندن وباريس وروما وبونوفيينا، وبقية العواصم الغربية . فاذا التفت الى موسكو أو بكين انطرح على وجهه ، لئلا يقضب بالمنجل .. أو يُضرب بالمطرقة . وهكذا يحسب نفسه في منجى أو مأمن ،فيبذر ماله ويبدده .

هنا ، في الشرق ، أوروبا ورثت تركيا ، وأميركا ورثت أوروبا . غدا من سيرث أميركا ؟ إسرائيل أم الاتحاد السوفياتي أم الصين أم اليابان ؟

ليس المهم أن نعرف ما اذا كانت أميركا باقية أو هي راحلة . ولا المهم أيضا أن نعرف متى سترتخي يدها ويسقط الدولار من عليائه . انما الاهم من هذا وذاك أن يبصر الشرق طريقه .

ولكن أي طريق ؟

هنالك السلام والحرب والحياد ؟

ان أياً من هذه السبل يتطلب قوة وارادة وتوازنا . وفي كل الاحوال ، فان مسألة الشرق الاوسط « هي

موضوع ابحاث ومناقشات لا نهاية لها » (ص ١٥)، الامر الـذي حدا الدكتور انطوان شيبان على قراءة القـرار الامـيركي ، في شأن هذه المسألة ، بموضوعية وجـرأة واستشراف ، على أمل أن « يقبل سكان الشرق الاوسط، سواء أكانوا يهودا أم مسيحيين أو مسلمين » بالتخلي «ولو لمرة واحدة عن الطمع البشري بالتوصل الى حل عن طريق تحقيق التفوق في القوة والمحافظة على هذا التفوق » ، اذ ذاك سيمنحون «أطفال اليوم غدا مفعما بالامن والسلام » (ص ٢٤٢) •

أي سلام نحاول أن ننطلق اليه ، والعالم كله على خوف حتى من الاحلام الجميلة ؟

لنتذكر ما قاله الرئيس الاميركي جون ف • كينيدي ذات يوم :

« اذا كانت سندات الملكية في التاريخ سارية المفعول، فعلينا نحن الشعب الاميركي أن نسير في طليعة هذه الثورة العالمية وأن نرشدها وأن نساعدها في أن تؤتى أكلا سليما، اذ كلما قـام وطني محلي في آسيا أو الشرق الاوسط أو افريقيا أو أميركا اللاتينية ليعطي قوى الغليان شكلا ونقطة ارتكاز فانه غالبا ما يقتبس شعارات عظيمة كنا نحن الذين أذاعوها على العالم : شعارات الحرية الشخصية والوطنية، والمساواة الطبيعية لجميع الناس ، وكرامة العمل، والتطور

الاقتصادي ، وهي شعارات يشارك فيها الكثيرون ، ومع ذلك فقد سمحنا للشيوعيين بأن يخرجونا من مكاننا الحق على رأس هذه الثورة العالمية • فأظهرونا مظهر المدافـع عن « الوضع الراهن » بينما تظاهروا هم بأنهم القـوة الطبيعية التي تدل على السبيل الى نظـام حياتي أفضل وأشجع وأكثر اشراقا » (ص ١٠٤/١٠٥) •

فما حدث لاميركا ، التي سُرقت منها «الراية البيضاء»، سيحدث ، لا شك ، مثله أو أكثر ، لسكان الشرق الاوسط، على ان السلام هو أيضا من الشعارات التي « يشارك فيها الكثيرون » حتى يوشك أن يصبح حقيقة ، وفي هذه الآونة تحصل عملية « الخطف » ليستيقظ الحلماء على الاماني الكاذبة ودوي المدافع •

يتألف كتاب « ديبلوماسية التأزيم » من عشرة فصول، تبحث في نشوء الصهيونية وما للرؤساء الاميركيين ، منذ ترومـان حتى كـارتر ، من فضل على اسرائيل ، مرورا بالخمسينات ، وما رافقها من تطور في السياسة الاميركية، ومفاجآت أبرزها أحداث السويس وتدخل موسكو ، كما وان « انشاء دولة اسرائيل وبقاءهـا كانا ولا يزالان في المصلحة العليا للمتطلبات السياسية والامنية والاقتصادية للغرب عموما وللولايات المتحدة خصوصا » (ص ١٦)•

ويلحظ الكتاب المصالح الاميركية في الشرق الاوسط، والنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، ولا سيما حرب الايام الستة ، وحركة المقاومة الفلسطينية ، ومشروع السادات ، والمقارنة بين السياسات الاميركية والسوفياتية الخارجية وتأثيرها في بلدان العالم الثالث •

يضع الدكتور شيبان في يدك النار ، ويعلّمك كيف تطفئها قبل أن يحترق جلدك • الا انه لا يريد لهذه النار أن تسقط أرضا • فهو خائف منها على الارض ••• والزيت • مما يدل على خطورة الوضع ودقته • ويرسم المؤلف سؤالا «مركزيا» (ص ١٩) عن المصالح القومية ، العربية وغير العربية ، ثم يعود الى الجواب عنه اذ يكشف، لنا ، عن « الحوافز المحلية الاميركية في صياغة السياسة الخارجية » (ص ١٩) أو القرار المطلوب •

ولكن اسرائيل وُلدت لتحيا • هكذا قال القرار الاميركي ، أو سيد القرارات الدولية •

ويقول العرب بازالة اسرائيل •

هل الصراع اذن بين القرار الاميركي والقرار العربي ؟

اذا كان ذلك فحسب ، فهو بين الموجود أو الحاضر أبدا ، وبين الغائب أو المعدوم أبدا •

أين هي عناصر الصراع ؟

حيثما لا يوجد التوازن بين المتصارعين ، يبرز وجود آخر ، بل فريق آخر • وكلما أنعمت أميركا في العطف على اسرائيل قوي نفوذ الفريق الثالث ،وبخاصة اذا عرف الاخير ، الذي هو اليوم الاتحاد السوفياتي،كيف يحافظ على موقعه ونجاحه الديبلوماسي • الا ان هذا لا يعني ، بالضرورة ، تراجعا في النفوذ الاميركي ، كما يعتقد المؤلف • لان البناء الشيوعي فوق الارض العربية انما هو بناء على رمل فحسب • ولن يحقق الاتحاد السوفياتي لنفسه « التوسع العقائدي » ، في البلاد العربية ، ما دام الاسلام هو دين أغلبية سكان هذه البلاد • معنى القول ان الولايات المتحدة الاميركية ستظل ، برغم الخسائر الفادحة التي منيت بها مصالحها في بلاد المسلمين ، على اعتقادها بضرورة بقاء اسرائيل في المنطقة ولن تتنازل عن هذا القرار ، ولو أُبيد الديبلوماسيون الاميركيون ، في الشرق ، كافة •

اذا سقطت السياسة الاميركية في الشرق الاوسط، فان اسرائيل لن تسقط اذ هي الوجه الآخر للديبلوماسية الاميركية الخارجية • وأنّى لاسرائيل أن تزول ما دام حليف العرب هو الاتحاد السوفياتي ؟ اما « الانجاز

والتوسع السوفياتيان » (ص ٢٠) اللذان انتشرا عندنا ، فمردهما الى الوجود الاسرائيلي ، وليس الى فشل القرار الاميركي •

ان الاسلام هو السد الطبيعي المنيـع ، الذي يحول دون انتشار الشيوعية في دياره • ولن يسمح القرآن أبدا للماركسية اللينينية الالحادية بحرية العمل والتحـرك في ظلاله • هذا « القرار الإلهي » يعرفه السوفياتيون أنفسهم، كما يعرفه الاميركيون والاسرائيليون • وان صحّت نظرية « وجود لوجود » ، وهي صحيحـة على كل حال ، فان القـرار الاسلامي هو الذي تسبب ، في شكـل او آخر بالحياد ، مثلما تسبّب بتصويت الاتحاد السوفياتي عـام ١٩٤٨ الى جانب اسرائيل • « ويوم أنشئت دولة اسرائيل لم يكن للاتحاد السوفياتي نفوذ يذكر في المشرق العربي • وفقد ما كان له من شعبيـة بين الجماهير العربية بسبب تأييده القوي لتقسيم فلسطين ، ومسارعته الى الاعتراف بدولة اسرائيل ، ثم بسبب استعداده للسماح ببيع السلاح من اوروبا الشرقية الخاضعة للاحتلال السوفياتي لدولـة اسرائيل الحديثة » (ص ٦٦) ، فكأن السوفيات وحدهم الذين أيدوا قيام هذه الدولة ــ السرطان !

ان الاسلام هو عدو الشيوعية وعدو اسرائيل وعدو اميركا ، صاحبة « الديبلوماسية المأزومة » ، وعدو الوعي

القومي • بينما اسرائيل ليست عـدو الشيوعية تماما • وربما ساعد القرار الاسرائيلي الدولتين العظميين : اميركا والاتحاد السوفياتي ، في «تبريد» المناخ الشرق الاوسطي لسياستيهما الخارجيتين •

واذ يقول جورج بول (George Ball) وكيـل وزارة الخارجية الاميركية في عهد كينيدي ١٩٧١ : « لا شك ان الخرائط لم تعد تقرأ على أساس القوة البحرية ، ولم يعد أحد يتحدث عن « شريان الحيـاة الامبراطورية » ، فقد مات كيبلنغ والاميرال مهان والطائرات النفاثة تسخر من المفاهيم الاستراتيجية• ومع ذلك تبقى الشواطىء الجنوبية والشرقية من البحر المتوسط مهمة لوجـود الغرب ، ومن شأن احراز السوفيات مكانة مهيمنة في العالم العربي كله ان يهدد معظم مصالحنا الحيوية ــ فيتحدى المفهوم القديم للمتوسط باعتباره بحيرة آمنة ، ويخلخل دفاعات الجناح الايمن للناتو بتهديده استقلال تركيا واليونان ، ويدفـع يوغوسلافيا الى الاعتماد على السوفيات، ويحرض الاحزاب الشيوعية الكبيرة في ايطاليا وفرنسا على القيام بنشاط جديد ، ويعزل ايران ويعرقل المرور الجوي الى الهنـد وباكستان • وما هو سوى بعض العواقب المحتملة عاجلا او آجلا بعد فيتنام »(ص ١٦٩)، فانما يؤكد فضل اسرائيل على الاتحاد السوفياتي • ولن يبلغ الصراع الاميركي ــ

السوفياتي دائرة الخطر ، ما دامت اسرائيل في المنطقة . وهي اذ تفعل ذلك فلكي تبرر تدخل السوفيات في شؤون الشرق الاوسط ، الا ان هذا التدخل سيبقى محدودا ، ومهمته أن يخفف من الروع الاميركي ، لا من الاسلام (المتطرف) والعرب . بيد ان مهمة السوفياتي أساسا هي لجم الاسلام والعرب عن حاجتهما .

الحرب لها حدودها . والمصالحة لها حدودها أيضا . كذلك الحياد والسلام . ولا أراني قد ظلمتُ أحدا اذا ما قلت ان « الحياد الايجابي » هو طبخة مشتركة هيأها الاميركيون والسوفيات واليهود ، فأخذ بها العرب وأصدقاؤهم (...) ليظل كل شيء في مكانه .

لنفترض ان الولايات المتحدة الاميركية قد استأثرت بالشواطىء الجنوبية والشرقية من البحر المتوسط ، ولم تكن اسرائيل موجودة ، فهل ان الاتحاد السوفياتي كان سيقتنع بذلك ، ام انه سيبحث عن وسيلة تمكنه إما من الدخول الى هذه الشواطىء أو الهبوط عن حاله ؟!

من الواضح ان القرار بانشاء دولة اسرائيل ، إن لم يكن بريطانيا أو اميركيا او فرنسيا ، فسيكون شيوعيا سوفياتيا بكل تأكيد . والا فهنالك الحرب العالمية الثالثة ، بل حرب التقاسم ، التي لا غنى للسوفيات عنها . ويمكننا

القول ان اسرائيل هي الكابح الاوحد لمثل هذه الحرب . مما لا يسمح بالتسليم بأن واشنطن كان في وسعها « ان تسجل مكاسب أخرى من المآرب السياسية لو أن سياستها الخارجية كانت منسجمة مع مصالحها القومية »(ص ١٦٩) التي يحسبها المؤلف مستقلة عن مصالح اسرائيل . يكفي ما قاله الحزب الديموقراطي (الاميركي) في بيانه الانتخابي (١٩٤٨) دعما لمرشحه السيناتور هاري ترومان :

«ان الرئيس ترومان بمنحه الاعتراف الفوري لاسرائيل قاد العالم في محض المودة والترحيب لشعب طالما سعى وراء ما يستحقه من عدل وانصاف ومن حرية واستقلال . واننا نتعهد بالاعتراف الكامل بدولة اسرائيل . ونؤكد اعتزازنا بأن الولايات المتحدة قد لعبت بقيادة الرئيس ترومان دورا رئيسيا في اتخاذ قرار ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ في الجمعية العامة للامم المتحدة بانشاء دولة يهودية » (ص ٤١/٤٢) .

والى الآن ما زال الحزب الديموقراطي على اعتزازه هذا . وكما الديموقراطيون كذلك الجمهوريون وكل الاميركيين .

يقول الدكتور شيبان : « ان دور الولايات المتحدة كان حاسما في خلق وطن قومي يهودي مستقل وان التزام الولايات المتحدة بنكبة اليهود تضاعف عبر السنين.فكانت

تتيجة السياسات الاميركية تنفير معظم البلدان العربية وخفض النفوذ الاميركي في العالم العربي الى حد بعيد وتسهيل دخول السوفيات الى الشرق الاوسط»(ص٢٣٤).

لكن ذلك لا يفرض على الولايات المتحدة الاميركية ان تغيّر موقفها من اسرائيل . وكيف لاميركا ان تفعل ذلك ، والشيوعية في المقلب الآخر من العالم ؟ بل كيف لاميركا ان تركب رأسها وتقرر تغيير موقفها من اسرائيل فيما « لا توجد ناحية في الحياة الاميركية ليس فيها لليهود إصبع » (ص ٢٢٩) ؟

إن في الشرق الاوسط ، اليوم ، فريقين لا تستطيع الشيوعية القضاء عليهما : الاسلام والصهيونية . ولكن مفهومها للاثنين ليس واحدا . الاول ، بالنسبة اليها ، عدو طبيعي . والثاني لا هو العدو ولا هو الحليف . ولكن الصراع بين الاسلام والصهيونية هو المثغر الوحيد، تقريبا، الذي منه نفذ الاتحاد السوفياتي الى المنطقة. وليس غريبا اذن إن بدا ، في الافق ما يشبه التعاون السوفياتي - العربي ، الذي إن لم يتحول الى وحدة في العقيدة ، فلن يكون حاسما في ازالة هذا الوطن القومي اليهودي ، المتكىء على السياسات الغربية الاميركية والاوروبية وعلى « الهيمنة اليهودية على الحياة الاميركية » (ص ٢٢٩) .

لنا ان نتوقف حيث يقول الدكتور شيبان :

« ومع ان التمييز ضد العرب ليس بعادة عامة متبعة في

كل الولايات المتحدة ، فانه يظهر من حين لآخر . وعندما وصف بول ديكسون ، عضو لجنة التجارة الخارجية ، رالف نادر بأنه « عربي قذر » لم تنطلق صيحات جدية مطالبة باستقالته . ولكن عندما تساءل الجنرال جورج براون الراحل ، رئيس الاركان المشتركة السابق ، عن الحكمة في السياسات الاميركية تجاه اسرائيل انطلقت على الفور الاصوات مطالبة باستقالته . وكثرت الاتهامات بأنه معادٍ للسامية حتى إن الرئيس فورد اضطر الى تأنيبه علانية والى مطالبته بالاعتذار رسميا للجالية اليهودية » (ص ١٢٠/٢٠٢) .

بعد أن نقرأ مثل هذا القول هل يحق لنا الادعاء ان الاميركيين المتعاطفين مع اسرائيل يجهلون مصالحهم القومية فعلا ؟ وماذا سينفعنا هذا الادعاء او ما يشبهه ؟

الواقع ليس دائما كما هو في الكتب. اميركا في الشرق الاوسط تكون اسرائيل أو لا تكون . واسرائيل في اميركا تكون أربعمئة منظمة يهودية أو لا تكون .

كل الطرق تؤدي الى تل أبيب وأورشليم (القدس). وما اسرائيل الا بمثابة « الفريزر » (البراد) للسياستين : الاميركية والسوفياتية ، اللتين يفترض أن تكونا حارتين جدا جدا .

مَن سيحطم هذا « البراد »؟الاميركيون أم السوفيات؟ الولايات المتحدة الاميركية بحاجة الى اسرائيل .

والاتحاد السوفياتي بحاجة الى اسرائيل أيضا . وكما هذان الكبيران كذلك أصدقاؤهما العرب . ان كثيرا من حلفاء واشنطن وحلفاء موسكو لا يرضيهم زوال اسرائيل . ولقد أدرك المؤلف هذا على ما يبدو ولكن من دون أن يعلنه، حيث قال: «ولا شك ان البحث عن سلام دائم ما زال مهمة طويلة وشاقة . غير ان الاسراع في هذه العملية أصبح ضرورة لازمة . وهذه العملية لا تحتاج فقط الى مفاوضات مباشرة بين جميع الأطراف المعنية ، بل انها تقتضي قبل كل شيء تغطية وأمانة وحنكة سياسية » (ص ٢٤٢) . مع العلم ان ما يطلبه الدكتور شيبان قد تحقق تماما ، اذ أبقى العرب والمسلمين في صراع بعضهم ضد بعض ، فأبعد الحرب العالمية الثالثة . كل ذلك لان اسرائيل موجودة حيث هي . ولن يضر موسكو وواشنطن استمرار الحرب الباردة أو أن يظل الشرق الاوسط « في حالة غليان » (ص ٢٤١) أو « فوق قنبلة موقوتة » (ص ٢٤١) ، بل على العكس ، اذ الجباران عندهما مصانع للاسلحة يجب أن لا تقفل، وهنا، في الشرق الاوسط النفط والمعادن والناس والاسواق الاستهلاكية، فكأنها قد أُعدت لخدمة البنتاغون و «الثورة البروليتارية » الحمراء !

هل يقرأ العرب كتاب الدكتور شيبان ليتخذوا منه العبرة والعظة ؟ أم ان الذي يجلس فوق قنبلة موقوتة لا يستطيع القراءة ولا يتعمق في أمره ؟ ٢٠/٣/١٩٨٥

(٢)

الغرب والعالم

أولاً

هل صحيح أن معرفة التاريخ تجعل الوجدان مركّبا وأكثر شمولا ؟ أم إن كتابة التاريخ هي التي لها مثل هذا الدور ؟

أين الوجدان العربي اليوم ؟ وأين هو غدا ؟

ربما لن نسأل عنه الماضي . فهذه مهمة لا بد واقعة علينا عندما نستحضر الآتي ... أو الذي قد يأتي .

ليس الواقع كنزا مخبوءا يجب البحث عنه بمختلف الوسائل . ولا الخيال جزء من دماغنا ، وان يكن هو المسيطر على هذا الدماغ كله . فالقفز فوق الازمنة مثله مثل القفز فوق السدود والحدود ، الطبيعية منها والمستحدَثة ، ولا شيء يفيد الوجدان العربي كما التعامل مع العقل والحدَث ، لا من خلال ما كتبه العلماء العرب

فحسب ، بل والغربيون أيضا ،بالنقل والترجمة والاستيعاب، وهكذا حتى يتسنى لنا أن « نقدّم رؤية عربية لتاريخ الحضارة الانسانية » (١) .

ان كلامنا هذا يشمل الجوهر قبل الشكل . والا فباب التقليد مفتوح على مصراعيه ، ولعلّه أوسع الابواب كافة ، فمن شاء أن ينفذ فلينفذ ، بسلطان أو بغير سلطان، اذ الشروط مبتذلة والعقبات كأنها من خزف لا تقاوم أصغر الراغبين في تهشيمها وبعثرتها .

قبل معالجة كتاب « الغرب والعالم » (٢) للمؤرخ الاميركي كافين رايلي (Kevin Reilly) علينا أن نضع أمامنا هذا الحكم الحاسم القاطع ، الذي أطلقه رايلي على نفسه والغرب بجرأة علمية كبيرة يكاد الشرق يحسبها انتفاخا أو تطاولا الى ما ليس له .

يقول كافين رايلي :

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري و د. هدى عبدالسميع حجازي، من مقدمة كتاب « الغرب والعالم » (تاريخ الحضارة من خلال موضوعات القسم الاول) لمؤلفه كافين رايلي :
The West and the World (A topical history of Civilization) by : Kevin Reilly (2 vols. Harper & Row 1980) .
راجعه الدكتور فؤاد زكريا ، عالم المعرفة ــ الكويت (٩٠) رمضان ١٤٠٥ هـ / حزيران ١٩٨٥ .
(٢) المصدر نفسه .

« ولعلّه يبدو غريبا بالنسبة لنا أن الناس لم يدركوا دائما أن الطبيعة منفصلة عن الانسان . فنحن مقتنعون تماما بأن العشب أو القمر أو المنضدة الخشبية مختلفة عنا الى درجة يصعب معها أن تتخيل كيف يمكن للناس أن يفكروا على نحو آخر . ومع هذا تبقى حقيقة أننا في العالم الغربي نفرّق بين الناس والاشياء ، وبين الانسان والطبيعة ،وبين أنفسنا والاشياء المحيطة بنا بشكل يفوق في حِدّته التفرقة التي قام بها أي امرىء من قبل . ويبدو كأن جلودنا قد ازدادت صلابة في مائتي السنة الاخيرة ، وهذا لم يحدث لجلودنا بطبيعة الحال ، لكننا طوّرنا وعياً بأنفسنا بوصفنا أفرادا منفصلين ، نعمل في عالم مليء بالاشياء ، وهو وعي لم يظهر الا مؤخرا للغاية» (ص ٢٦٣/٢٦٤) .

ويبقى للمترجمَيْن : الدكتور عبد الوهاب المسيري والدكتورة هدى عبد السميع حجازي،أن يسألا بطريقتهما عن المنهج الذي اتّبعه المؤلف ، ولو أن هذا « الموقف» ــ السؤال لا يستدعي أي تعديل يُذكر ، ولا سيما أن المؤلف يحترم « الحكم الحاسم القاطع » ويعرف «جِلْده» ومكانه ومشكلته .

فاذا كان الجديد في « الغرب والعالم » ــ الكتاب هو « القصور المنهجي » أو « الخروج على الاكاديمية » ،فان حلماً كهذا لن يراودنا قبل عصور ، وأما من هجَس مثله

في صدره ، وكان عربيا ، نزعوا جلده ، وغسلوا دماغه ، وقتلوه أو نبذوه ، بحيث ان المكان،عندنا،أهم من شاغله ، والعقيدة أعظم من المعتقِد ، والجلاّد في نعيم !

وبرغم ذلك استطاع المترجمان اظهار مزايا الكتاب والثناء على انجازه الاساسي ، كما تصوّراه ، وهو« الرؤية المركّبة التي يطرحها للتاريخ » (ص ٩) ، ولكن خوفهما من « التغيّر الكامل » عاد بهما الى مكانهما الاول والثابت، حيث يرتفع سور عظيم ، خلفه ملايين الناس يرددون معهما: « الانسان العربي قد أعيدت صياغته حين خرج من الجاهلية الى الاسلام . وهو كمسلم قد أعاد صياغة نفسه دون أن يفقدها حتى خرج من الجزيرة العربية وواجه حضارات جديدة ألقت عليه بتحدياتها . وعبر التاريخ العربي قامت مناقشات فلسفية ودينية عديدة هي في جوهرها تعبير عن نماذج مختلفة للانسان » (ص ٢١) .

لماذا هذا الكلام الذي يشبه اللطم على حُرّ الوجه؟!

العربي كمسلم هو امتداد لذلك العربي الجاهلي،لغة ومسلكا وتفكيرا .

ومما لا شك فيه أن الجاهلي هو القاعدة ــ الاساس، والمسلم « رأسها » ، الذي يحتاج دائما الى صيانة وتجديد وتهذيب وتطوير ، ولربما صار هذا « الرأس » ، غدا ،

قاعدة لقمّة جديدة ، أو لرأس أكثر علما وأكثر تواضعا .

ويقول المترجمان أيضا :

« ولكن المهم أيضا أن نعيد الصياغة داخل اطار نضمن أنه سيحقق انسانيتنا ويحقق عروبتنا ، لان انسانيتنا لصيقة بعروبتنا لا يمكن فصل الواحدة عن الاخرى . ونحن في اعادة صياغة أنفسنا لندخل العصر الحديث ،أو لنستوعب العلم والتكنولوجيا ، يجب أن نضع نصب أعيننا النكبة الحضارية في الغرب ، حضارة الاجراءات التي لا تكترث بالاهداف : الحضارة التي أفرزت النازية ومن بعدها الصهيونية ، والتي تتحدث عن فصل الدين عن الدولة وهي في واقع الامر تتحدث عن فصل الاخلاق عن الدولة وعن كل شيء » (ص ٢١) .

كثيرا ما يأتي الكلام العربي والاسلامي على الحضارة وكأنها مشروع هندسي يضعه المصممون على الورق بناء لذوق معين وارادة واضحة وقدرة مادية محدّدة ومعروفة .

وبما أنها (الحضارة) ليست كذلك ، فان التأطير والتشكيل والتجنيس لمن الاعمال التي تقولب الحضارة وتؤخرها ان لم تعطّل نموّها ، وكما هو معلوم يشارك في هذه الاعمال وغيرها الدّين والطبيعة والزمن .

ان هذا لا يعني دعوة الى التخلي عن انسانيتنا

وعروبتنا ، ولا نحن ممن يستهويهم الفراغ أو الجفاف أو العقم ، بل ايماننا بالتغيير كبير ، وهو ، في رأينا ، يصيب الافكار والمشاعر والتقاليد والعادات والعبادات مثلما يصيب الارض والحيوان والنبات واللغات والانسان ، ويصيب القضاء أيضا .

لذلك يجب أن نقدْم على قراءة « الغرب والعالم » وسائر الدراسات والابحاث المتحررة من القيود والشروط المدرسية ، بقلب رحب وعقل مفتوح ، اذا كنا نتوخى الحقيقة والعلم ، « فمعظم الكتب المدرسية التقليدية عن تاريخ الغرب أو العالم تستند الى الفرْض القائل ان الفهم التاريخي يعني امتلاك المعلومات (الحقائق والافكار) وأن عملية التعليم تعني نقل هذه المعلومات للطالب » كما يقول المؤلف (ص ٢٣) .

ألم نسأم من تراكم الحقائق والافكار ؟!

نحن لا نريد هذه التخمة (Feast) .. ولا هذا الكسل الذي تسببه لنا المسلّمات (Postulates) .

النقد هو العدو الطبيعي لسلطان الذاكرة ، ومذ غاب الاول استشرى الثاني ، فبتنا عبيدا للتراث والعقيدة

والسماء ، الى كوننا عبيدا ، أصلا ، للطبيعة وما ينبثق منها .

ويقول المؤلف أيضا :

« لقد كان اليونان القدماء يتحدثون عن التاريخ (Historia) باعتباره عملية بحث وتحقيق . فقد كانوا يكتبون لفظ التاريخ بصيغة الفعل : أي انه طريقة للتفكير وللبحث في التغيير الانساني ــ أما اليوم ــ حينما أصبح التغيير يلح علينا من أجل فهمه ــ فان التاريخ أصبح موضوعا دراسيا . وهكذا أصبح المرء يتعلم التاريخ بدلا من أن يتعلم كيف يفكر بشكل تاريخي ، وأصبح يحفظه عن ظهر قلب بدلا من أن يفهمه ، وهكذا فقدنا قدرتنا على التفكير في التغيير » (ص ٢٣) .

من الواضح أن المؤلف يعرف ما هو ساع لاجله ، ويعرف أن المسألة باتت بحاجة الى أسلوب آخر وربما الى عقل آخر . « فالمعرفة تُخلق ولا تعطى ، والمصلحة أو المنظور الخاص أو القيم أو الارتباطات هي التي تخلق كل واقعة (من بين عدد لانهائي من الممكنات الاخرى) ، كما اننا لا نملك قط الوقائع المتعلقة بأنه حدث ، كما أن الوقائع المحددة ليس لها قيمة في ذاتها وليس لها أهمية أساسية ، وانما يكون لها معنى في اطار الاسئلة التي تطرحها وحسب» (ص ٢٣)و«أما التعليم فهو معرفة كيف

نخلق الحقائق والتفسيرات ، وكيف نختبرها للتحقق من صحتها ، وكيف نطرح أسئلة مفيدة ونجيب عليها (عنها) ، ونخلق معنى ما ، ونقيّم مدى الدقّة ، ونفكر بشكل نقدي وواضح » (ص ٢٣) .

ان هذا الهدف النبيل الذي يعمل له المؤلف انما هو هدفنا جميعا ، عندما نرى رأيه ، ونقول معه : « واذا كان التعليم هو تدريب على التفكير ، فان تعليم التاريخ هو تدريب على التفكير في الماضي، وفي علاقة الماضي بالحاضر » (ص ٢٤) .

المهم أننا لا نرغب في مناقشة المترجمَين : المسيري وحجازي ، وما بادرنا اليه لا يتعدى محاولة متواضعة ترمي من خلالها الى التأكيد على ضرورة مطالعة « الغرب والعالم » (الكتاب) لا لاجل المتعة فحسب ، بل لنعوّد أنفسنا على مراجعة تاريخنا بطريقة تفكيرية جريئة وليس محاباة أو تضرّعا، بل كما فعل المؤرخ الاميركي كافين رايلي نفسه .

يتألف «الغرب والعالم» من ثلاثة أبواب : ١ ـ العالم القديم حتى سنة ١٠٠٠ ق.م » (من ص ٢٧ الى ص ٩٧) ٢ ـ « العالم الكلاسيكي ١٠٠٠ ق.م ـ ٥٠٠ » (من ص ٩٩ الى ص ١٧١) ٣ ـ « العالم التقليدي ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ » (من ص ١٧٣ الى ص ٢٧٩) ، وينفتح كل باب منها على

ثلاثة فصول تحمل ، في مجملها ، عناوين مثيرة ، هي : « الذكر والانثى » ، « الطبيعة والتاريخ » ، « النظام الاموي والنظام الابوي » ، « المدن والمدنية : التمدن والطبقة » ، « المدينة ـ الدولة والعاصمة » ، « الحرب والسلام » ، « التفرّد والثقافة » ، « العنف والانتقام »، « المواطن والرعية » ، وعلم البيئة الحيوية (الحيابيئية) واللاهوت » .

والحق يقال إنه عمل تاريخي شمولي ،ولكن من خلال موضوعات مختارة قديمة وجارية ، أخضعها كافين رايلي للتفسير الذي يخرج أحيانا على « التفسيرات السائدة » ،وقد استنبط من الاحداث أسئلة تدعو الى اعتقاد تاريخي غير تقليدي ونقد متحرك يكاد يكسر الاصابع والاقلام .

النصوص في « الغرب والعالم » كثيرة...والتعليقات عليها كثيرة أيضا ، وكل ذلك بأسلوب أدبي جميل ، وعلى صعيد المثل ، يقول مؤرخنا في موضوع «الطبيعة الانسانية والتاريخ الانساني » :

« ان كاريكاتير انسان الكهف ، القوي العضلات ، الذي يجذب امرأة من شعرها (الطويل عادة) الى كهفه لتسليه ليلة تقضيها معه ، انما هو صورة تعبر عن حاجة

للايمان بالطبيعة الانسانية نشأت في العصر الحديث •ففي مثل مجتمعنا الذي يتغير فيه كل شيء باستمرار تتوق الى تكوين صور عن الطبيعة الانسانية العامـة التي تتغير ، ولكن خبرتنا الحديثة قد دفعت علماء الانتروبولوجيا الى اكتشاف أن الناس يتصرفون في اطار « ثقافتهم » الخاصة، وأن في العالم عددا كبيرا من الثقافات المختلفة ، وأن كـل شيء يكاد يكون « طبيعيا » بالنسبة لاصل احدى الثقافات في مكان ما في عالم الماضي والحاضر » (ص ٤٢/٤٣) •

طبعا ، الكهف تغيّر • صار إما قصرا منيفـا وإمـا منزلا حجريـا أو خيمة في أسوأ الاحوال • والتسليـة أيضا تغيرت•صارت زواجا ،أو حباء والجذب من الشَّعر ما عاد مثلما كان• بل هو صار تفاهما ومشاركة•وهنالك حالات أخرى ، مثل الاغتصاب أو الاغراء أو الوعد الكاذب • ودائما يوجد امرأة « تغتصب » رجلا ، أو تخدع رجلا ، أو تتملّق رجلا • وسواء غلبت المرأة الرجل ، أو كانت هي المغلوبة ، فان « الجذب » هو الذي لا يمكن الغاؤه أو نفيه أو حتى استنكاره •

ويقـول مؤرخنا في موضوع « عمل النساء » مـن الفصل الثاني :

« لقد كانت النساء هن اللائي ابتكرن الزراعـة • فقد كنّ ــ نظرا لقيامهن بجمع الثمار ــ أكثر شعورا بعالم

النباتات ، فعرفن السائـغ من السام ، وأسهل النباتـات زراعة وأوفرها غلة • ولقد كن مزودات أيضا بأقدم أداة نسائية ، وهي عصا الحفر ، التي يمكن استخدامها فـي غرس البذور ثم في جني المحصول واجتثاث الجـذور • كذلك كان العمل في الزراعة يشبه في رتابته جمع الثمار ، فهو ثابت ومنتظم ومرهق تنقصه الجوانب المثيرة ، ولكنه كان كفيلا بتوفير الرزق الضروري المضمون » (ص ٥٠)

ولكن عصا الحفر ، هذه ، أصبحت محراثا ثم جرّارا، وربما صارت غدا قمرا أو شيئا ما غير المألوف حتى اليوم• المحراث رفع يد المرأة عن الارض ، لتأخـذ مكانها يـد الرجل ذات الاصابع الغـلاظ • المرأة متطلبة ، والارض متطلبة كذلك • فلكي نطوّر الزراعة ونكثرها لا بد من الحرث العميق • ومثلما رحم الارض هكذا رحم المرأة • بالخصب تتجدد الارض ، وبالأمومة تتجدد المرأة • على أن الحياة أهم من الموت ، والواقع أعظم من الوعد •

وكثيرا ما يبرهن المؤلف على انفصاله عن الاشياء ، في انتقائه النصوص كما في التفسير ، كأن يقول مثلا :

« كتب الشاعر جوفينال (Juvenal)[٣] يقـول :

---

(٣)
Juvenal : A. O . 60 ? — ?140 Decinus Junius Juvenalis Romanian Poet and Satrist .

« إنّ الامر يتطلب منك الكثير من النفوذ كي تحظى بالنوم في روما » • فقد كان هناك كثير من الاغنياء يعيشون في ضِياع تكتنفها الحدائق على تل من التلال أعلى المدينة • وحين كانوا يجازفون بالسير في الشوارع المظلمة ليلا كان في مقدورهم أن يأتوا بالعبيد كي يضيئوا لهم الطريق بالمشاعل وبالحرس لحمايتهم • أما الفقراء فكان عليهم أن يغلقوا الابواب على أنفسهم باحكام طول الليل وحتى الفجر » •

ويخبرنا جوفينال (Juvenal) : « ان حرية الفقير بعد أن يُضرب ويمزّق إرباً هي أن يرجو ويتضرّع أن يُسمح له بالعودة الى منزله دون أن تُهشّم كل أسنانه » (ص ١١٤) • في حين ان العاصمة الامبراطورية (هانجشو)، هي كما يصفها ماركوبولو قائلا في ملِكها :

« وكان هذا الملك اذا طاف بأحد شوارع المدينة... ووجد بين منزلين كبيرين منزلا صغيرا ... فانه كان يتساءل عن تفسير لصغر حجم هذا البيت الصغير ... فاذا قيل له ان صاحبه فقير ولا يملك أن يجعله كبيرا ، فان الملك يأمر بأن يكون هذا المنزل جميلا وعاليا كالبيتين المجاورين له ، وذلك على نفقته • أما اذا كان المنزل الصغير لغني ، فانه يأمر بانتزاعه منه في التو • فان أوامره

تقضي بألاّ يقوم في عاصمة ملكه ، هانجشو ، بجوار القصور الكبيرة والمنازل الرائعة التي تحفل بها المدينة أي بيت الا كان جميلا كبيرا » (ص ٢١٩) •

أينما كنت ، اليوم ، في الشرق أو في الغرب ، فلا غنى لك عن النقود الكثيرة • فالفنادق ذات الدرجة الواحدة أسعارها متقاربة ، والغلاء ليس جديدا على الانسان، ولئن تعددت أمكنته واختلفت أسبابه •

ففي كل بلد تجد « روما » •• ولكنك غير واجد « هانجشو » • في الصحراء كما في المناطق الباردة والمعتدلة، العواصم تلفّها بيوت الفقراء ، وهي إما من التنك وإما من الطين ، ومن الفقراء من اتّخذوا « المستوعبات » (Containers) منازل لهم وحوانيت ومطاعم و «صالات» للسينما و « بارات » وعيادات وصيدليات ومستشفيات ومدارس ، ما عدا بيوت العبادة ، فهذه يتعهدها ملوك ورؤساء « ومحسنون مؤمنون » • يبرر هذا الانهيار المديني كون المدينة الأم تشتمل ، يا للأسف ، على القصور والمقابر ... كما على السجون والجامعات والفنادق والمصانع والمواخير ، وعلى عدد لا يحصى من المفارقات •

لقد تغيّر أيضا تهشيم أسنان الفقير ، اذ القتل ، اليوم ، يتم بالسلاح الصامت أو بالقذيفة أو بالمتفجرة ،

أو بالخطف على الهوية ، أو بالتجويع . وقلّما يعرف القاتل ضحيته ، والضحية تعرف قاتلها .

وفي موضوع « المدينة منذ عصر المجتمعات المحلية: عصر الباروك والتفتيت » يقول المؤلف :

« أصاب جماعة المدينة ــ الدولة في القرون القليلة الماضية شيئان . لقد فقدت استقلالها ، وفتّتها ــ جزّأها حكامها الجدد الوافدون من الخارج بالشوارع والطرق والشوارع العريضة لتسهيل الدخول والتحكم والخروج. والتطوّران مرتبطان على نحو واضح: لقد ضاع الاستقلال في الطرقات » (ص ٢٣٤) .

ونخَعَ الفلاحون والعسكريون المدن فحوّلوها الى احياء (Quarters) فدخلتها الحرب الاهلية ، التي أسقطت المعالم المدنية كلها حتى ذلك العنوان العريض الذي كان يشبه الوسادة ، وما عاد بمقدورنا أن نفرّق بين « الاشراف » وبين « الاجلاف » .

والغريب حقا هو أن بعضنا لا يزال يكذّب هذا التغيير ويقاومه بالكلمات المحنّطة والافكار المجلّدة ؟!

١٩٨٥/٧/١٨

ثانيًا

نمضي في معالجة القسم الثاني من كتاب « الغرب والعالم » ، بدءاً من الفصل الاخير (الفصل الحادي والعشرون) ــ عنوانه : « الثقافة والتغيّر : ما وراء اليقين والنسبية » ــ حيث يرسم المؤلف ، بقلمه الرصاصي الاميركي العريض ، الغاية التي من أجلها أعدّ مؤلّفه ، اذ يقول :

« في السنوات المائة الاخيرة أصاب الثقافة الغربية ــ أي أفكار الرجال والنساء وقيمهم وعقولهم ومشاعرهم في أشد مناطق العالم تصنيعا ــ تحوّل عميق ــ وقد لا يكون من باب الافراط في التبسيط القول بأنه تحوّل من اليقين الى النسبية . فقد كان الناس ــ لمائة عام خلت ــ على يقين من كل شيء . فتصوّراتهم عن الله والتقدّم والحقيقة والجمال والبواعث الانسانية والاخلاقيات والجنس والزواج والحضارة والحرب والاقتصاد والطبيعة كانت جميعها واضحة ــ يمكن صياغتها في عبارات محدودة وغالبا مطلقة أما اليوم فلم يعد هذا اليقين ممكنا » (ص ٣٤٨) .

وما يؤكد عليه كافين رايلي (Kevin Reilly) هو أن العالم الغربي يعيش ، اليوم « عصر الشك والقلق والنسبية والسخرية من كل شيء » (ص ٣٤٨) حتى من

عظمته وعبقريته • واذ صار هذا الكتاب في متناول القارىء العربي ، فمن الواجب أن ندعو أنفسنا وندعوه الى الانفتاح على النتائج التي يخلص (الكتاب) اليها ، مع اعتقادنا بأننا واجدون ذاتنا قريبا منها ، وسنتعاطف معها برهافة شرقية مكبوتة مقهورة •

فمنذ أمد بعيد عرف الشرقي أن الفقر هو عدو الهوية والحرية ، وعدو الفردية • اما وان يبقى فقيرا أبدا، فتلك هي محنة العالم الصناعي الصاعد الى الفضاء بـ « سرطان البرونز » •

أيها الغرب الى أين ؟

لو تنازلنا عن حقنا في الانطلاق مع كافين رايلي من الفصل الاخير ، فان معضلة ستواجهنا ولا شك ، اذا ما سلمّنا بأن مستهل الفصل الثالث عشر (السياسة والمثل العليا : الدولة العلمانية والطبقات الوسطى) ، أي الفصل الاول من الباب الرابع (بدايات العالم الحديث ١٥٠٠ — ١٨٠٠) ، انما هو مستهل القسم الثاني وغير مغلوط ،وهنا مطلعه :

« أبدى الامريكيون في السنوات القليلة الماضية ،ولا سيما بعد (الرئيس ريتشارد نيكسون) [1] ، اهتماما

(١) ولد ١٩١٣ سياسي امريكي .رئيس الجمهورية ١٩٦٩ . استقال ١٩٧٤ اثر فضيحة وترغيت السياسية .

جديدا بأمر الاخلاق في السياسة • وبينما سخر البعض من امكان أن تصبح السياسة ذات طابع أخلاقي ، التمس غيرهم الوسائل لتحقيق الثقة في الحكومة عن طريق اصلاح المؤسسات وانتخاب السياسيين من أصحاب المثل العليا » (ص ٧) •

ان المسافة بين البداية والنهاية ليست قصيرة ، كما يحسب البعض،ولا هي غير محدودة أيضا • فمن سلكها ، من أولها الى آخرها ،أو بالعكس ، لن يحصد سوى الاثارة والتيقظ ، وربما الخوف من المجهول والمباغت •

لقد رجع المؤلف (الامريكي) الى ثلاثة مفكرين سياسيين أوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهم : مكيافيلي [2] وهوبز [3] ولوك [4] ، في حين أن المجتمع الغربي ، وبخاصة الاميركي ، يغيّر كل شيء ،معللا ذلك بالقول : « وترجع أهمية مكيافلي الى قيامه بصياغة فكرتين أساسيتين في تصوره للعلاقة بين السياسة والاخلاق، أولاهما امكان قيام علم للسياسة أو علم السياسة ، والثانية أن أخلاق الدول العلمانية الحديثة قد تكون ، بل ينبغي أن

(٢) — Nicolo Machiavelli (1469 — 1527) Italian statesman & Political Philosopher .

(٣) — Thomas Hobbes (1588 — 1697) English Philosopher .

(٤) — John Locke (1632 — 1704) English Philosopher .

تكون ، مختلفة عن المثل السياسية للافراد • ولكننا لا نعيش في عالم يحترم العلم والدولة فحسب ، فنحن نحترم أيضا أشكال الحكم الدستورية والقانونية ، وهي مستمدة من ثورات الطبقة الوسطى الرأسمالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر • وهكذا نعود الى «النظرية السياسية عند هوبز ولوك لانهما من بين أوائل من استكشفوا النتائج السياسية والاخلاقية الكامنة في ثورات الطبقة الوسطى هذه » (ص ٧) •

اذاً لكل علم أساس ، ولكل حدث سبب • وليس الرفض أو القبول مادة مائتة لا تحتمل لا الزيادة ولا النقصان ، بل هو (الرفض أو القبول) علامة على شيء ما يتحرك ولو ببطء ، واذ نبحث عن العلة فكأننا نعترف بالتغيير ، الذي لا بد منه ، من دون حاجة الى السؤال : هل هذا الاعتراف هو عن وعي منا أو غير وعي ؟

الغرب يتكىء على مكيافلي وهوبز ولوك •

فعلى من يتكىء الشرق العربي يا ترى ؟

عندنا : علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وابن خلدون ، غير ان الرحلة في التاريخ تقتضي أن نعرف كيف تكون هذه الرحلة ، بل كيف نجعل التاريخ حياً نابضا فاعلا منفعلا • فالامم التي مات تاريخها لا تعيش

حاضرها ولا هي تصنع المستقبل •

كيف يحيا التاريخ ؟

وحدها التخطئة (Criticism) تتعهد ذلك • تماما كما في « الغرب والعالم » • ولكن هل يتفق الشرق والغرب، يوما ، على متّكأ واحد ؟ أم ان التخطئة لا تُصدَّر ولا تُستورد ؟ وما دمنا سنتابع قراءة « الغرب والعالم » فلنتفقْ جميعا على ما يلي :

« ومن الجائز ان أصحاب السلطان هم دائما أشدّ اهتماما بحقائق السياسة أو « بما هو كائن »،أما المبعَدون عن السلطة فهم أكثر وعياً (بما ينبغي أن يكون) وأقلّ اهتماما بما هو (كائن) • إن الحكام يدعون رعاياهم الى مواجهة الحقائق ، لان الاوضاع القائمة في صالحهم • فيتلفظون بالعبارات الاخلاقية المطلوبة ، غير أن اهتمامهم ينصب على الامور العملية أكثر مما ينصب على الاخلاقيات• أما هؤلاء الناس المبعدون الذين لا نصيب لهم في السياسة، اولئك الذين ينظرون الى الامور من الخارج ، والذين يمثلون امكانية ثورية ، فهم الذين يطرحون أسئلة اخلاقية جوهرية ويطالبون باتباع سياسات متفقة مع المعايير الاخلاقية » (ص ٢٥) •

على ان « هؤلاء الثوار (هم) دعاة اخلاق » (ص

٢٥) شكلا و « في الحقيقة طلاب سلطة . وفكرتهم عن العدالة لا تتجاوز المطالبة لانفسهم وأتباعهم بالسلطة السياسية ، (بينما) سخطهم ونضالهم يتضمنان عادة طرح المشكلات الرئيسية الخاصة بعلاقة السياسة بالاخلاقيات. وعندما يحرز النضال نجاحا ، يؤدي احيانا الى ابرام اتفاق جديد بخصوص الامكانات الاخلاقية والحدود السياسية بصفة عامة (ص ٢٥) » (٥) .

ومهما تغيّرت الانظمة والدساتير ، وتشددت الاجهزة الامنية ، فان للمبعَدين حقهم في النقد والمعارضة ، مثلما للحاكمين في كل وقت وحين ، ما يبرر دفاعهم عن الشرعية، كالدولة والامن والمؤسسات .

ماذا يبقى بعد الصراعات الحادة والعنيفة ؟

ماذا يبقى بعد اراقة الدماء ؟

هل البقاء للحكام أم للمعارضين ؟

التخطئة هي التي تقرّر وتحسم . لانها وحدها الباقية .. والباقية أبدا . ويجب ألا نستغرب اذا ما

---

(٥) بهذا المنطق عقدنا كتابنا « قاموس حرب علي ومعاوية وسباعية طلال سلمان » طبعة ١٩٨٥ ، لنؤكد على ان الصراع في لبنان انما هو امتداد لحرب علي ومعاوية ، التي هي حرب من أجل « قم لأجلس مكانك » ليس الا .

الرأسمالية أخذت مكان التراث (٦) ، والعنصرية غدت استعمارا (٧) ، والثورة الصناعية أصبحت مفصلا عالميا (٨) ، والمدينة الفاضلة اقتنعت بالاشتراكية ــ أي اشتراكية (٩) ، لاجل القضاء على العرْق والطبقية (١٠) ، وتعزيز الذات أو الفردية على حساب المجتمع (١١) .

عندما يكون المجتمع هو السيد ، يأخذ الفرْد على عاتقه مهمة المعارضة والرفض ، واذا ما استفحلت الفردية (Individualism) أو هي سادت ، فان المجتمع ينتقل الى رصيف المتألمين ، ليطلق احتجاجاته وانتقاداته المتشنجة في أكثر الاحايين .

في هذه الاجواء يتبادل المفكرون التهم والشتائم ،

---

(٦) الفصل الرابع عشر : العمل والتبادل الاقتصادي ، الرأسمالية في مقابل التراث .
(٧) الفصل الخامس عشر : العنصرية واللون ــ الاستعمار والرق .
(٨) الفصل السادس عشر : الطاقة والبيئة ــ الصناعة والرأسمالية .
(٩) الفصل السابع عشر : الاقتصاد والمدينة الفاضلة (أصول الاشتراكية .
(١٠) الفصل الثامن عشر : العرْق والطبقة (الامريكتان منذ أيام الرق) .
(١١) الفصل التاسع عشر : الفردية والمجتمع (الذات في العالم الحديث) .

هذا مع المجتمع ، وذاك مع الفرد ، ثم يدخل جميعهم في التاريخ ، وكل يدّعي البطولة والانتصار ، حتى تظهر التخطئة ، وحينئذ تفتح المحاكم الفكرية أبوابها، فيتنافس «المحامون» ، و « الشهود » و « الشرَط » و «الانصار»، الى أن يأتي ملك التخطئة فيلغي هذه المظاهر الفولكلورية ويقيم ،في الهواء الطلق،محكمة لا تحابي احدا ولا تنحرف عن العدل .

يقول كافين رايلي :

« الاستثناء يثبت القاعدة أحيانا . فلنستمعْ الى ما يقول ربّان سفينة عبيد ، هو الكابتن توماس فيلبس (Thomas Phillips) في عام ١٦٤٩ . يشكو القبطان الطيب من العنصرية الفاشية بين رفاقه الانجليز،ويستغرب من ازدرائهم للافارقة لا لشيء الا لسواد بشرتهم . فيقول النخّاس الطيب انه لا يتصور لماذا يحقَّر الافارقة بسبب « لونٍ لا حيلة لهم فيه من اثر المناخ الذي شاء الله أن يخصّهم به . إني لا أرى فضلا للون على آخر ، ولا أرى الابيض خيرا من الاسود . وكل ما في الامر اننا نظنه هو الافضل لاننا نحن على هذا اللون ، أو نميل الى التحيّز لحالنا ، مثلما يفعل « السود الذين يدفعهم بُغْضهم للون الابيض الى القول ان الشيطان أبيض وهكذا يرسمونه »

(ص ١١٨–١١٩) (١٢) .

بالحقد المتبادَل كتب التاريخ : الابيض يكره الاسود. والاسود يكره الابيض .

أين التخطئة ؟

لقد انتقل الحقد بين الالوان الى ساحات أخرى ، ليصبح بين العامل ورب العمل ، والمجتمع والفرد،والانسان والآلة . وفي الواقع ان الرقّ هو قديم جدا ، حتى ان أحدا لا يستطيع أن يدّعي شرف استعماله قبل غيره . فالابيض يريد العالم ملكا له والى الابد .. ومثله الاسود الميّال الى الرقص حتى الجنون أو الهذيان .

ان هذا النزاع الطبيعي ، بين الاسود والابيض ،لهو شمولي يكاد يغطي العالم كافة.وحسنا فعل كافين رايلي اذ هو بحث في الجذور الثقافية للعنصرية الاوروبية (الفصل الخامس عشر) ، حيث اهتدى الى حقيقة ثابتة هي ان المجتمعات كلما تعارفت وتهاجنت (Hybridiged) وتمازجت، كلما تحررت من الكره وأسبابه ، والحقد ونتائجه . ومن المفيد جدا التوقف عند ما يقوله رايلي في هذا الموضوع حيث نقرأ :

---

(١٢) عن ونثروب جوردان في : الابيض يعلو الاسود .
— Winthrop Jordan , White over Black (Baltimore Penguin Book, 1986), P. 11 .

« ... لا يكفي بطبيعة الحال أن نفسّر الفروق الشاسعة بين عنصرية أمريكا اللاتينية وعنصرية أمريكا البريطانية بالاشارة الى الحقيقة البيولوجية الخاصة بلون البشرة أو الى المواقف السيكولوجية الغامضة تجاه الجنس والسواد . فثمت أسباب تاريخية مميزة لموقف شعوب أمريكا اللاتينية الاكثر تحررا تجاه العلاقة الجنسية بين الاجناس المختلفة. فلقد جاء الفاتحون الاسبان والبرتغاليون الى العالم الجديد بدون زوجاتهم ، وكثيرون منهم في الواقع لم يكونوا متزوجين . وقد تبنوا منذ سنوات الاستيطان الاولى نظرة متسامحة تجاه ممارسة الجنس بين الاجناس المختلفة (تمازج الاجناس) لانه لم يكن هناك مفرّ من ذلك » .

ويتابع قائلا :

« أما المستوطنون الانجليز في أمريكا الشمالية فقد جاؤوا بزوجاتهم وعائلاتهم . كما ان الزوجات البريطانيات كن في كثير من الاحيان يتمتعن بقدر من الاستقلال يمكنهن من الاصرار على أن يبقى أزواجهن من ملاّك الرقيق غرامياتهم العنصرية سر (كذا) . وحتى عندما كانت نساء شبه جزيرة ايبريا يأتين الى الامريكتين لتكوين أسرة فقد كنّ يأتين من ثقافة أوروبية يهيمن عليها الرجال وقيمهم بشكل أوضح » .

ويقول أيضا :

« لهذا كان رجال شبه جزيرة ايبريا في الامريكتين يتباهون بعشيقاتهم السوداوات ويعترفون بأولادهم السود، وكثيرا ما كانوا ينقلون كل أسرهم الى منزل العائلة الكبير. وعلى حين أن معظم الولايات في الولايات المتحدة الاميركية سنّت قوانين صارمة ضد ممارسة الجنس بين الافراد ومن أجناس مختلفة (الامر الذي فرض على الرجال التعقل) فان مجتمعات أمريكا اللاتينية شجعت صراحة التمازج بين الاجناس بوصفه دليلا على فحولة الرجل وأسلوبه للحياة» (ص ١٣١) .

يتضح مما تقدم ان معرفة اسبانيا والبرتغال بالافارقة والعرب (الاندلس) ، هي التي جعلت أمريكا الجنوبية أقل تمسكاً بالعنصرية من أمريكا الشمالية ، ما جعل البيض في أمريكا الجنوبية لا يصرّون البتة « على ان هناك جنسين فقط (بعد استبعاد الهنود) و « لا يصنّفون الناس المنحدرين من أصول (مختلطة) ضمن فئة (الآخرين) كما لو كانوا كلابا همجية » ، فيما « الامريكيون الشماليون (قد) استمروا في الاعتقاد (برغم القرائن التي شاهدتها عيونهم) بأن هناك نمطين عرقيين فقط : البيض الخلّص والآخرون » . كما أدرك الامريكيون الجنوبيون « ان هناك أنماطا كثيرة ولذا شجعوا تمازج الاجناس الذي

خلق فئات عرقية مختلفة تقع بين الابيض الناصع والاسود الداكن » (ص ١٣٣) .

ان التخطئة لا تقول بالمدينة الفاضلـة ولا بالمساواة المطلقة الطوباوية، بل هي تدعو الى المعاصرة Contemporary والحوار ، والى التكاشف والتثاقف . والتخطئة هي أيضا البحث عن الاسباب والموجبات ، وليس شرطا أن تـأتي بالبديل أو العوض ، فتلك مهمة المنهجيين البنائين فحسب .

ومما لا شك فيه ان كافين رايلي قد أدرك ذلك أيما ادراك ، حتى انه تجنب « البنائية » (Structuralism) تـاركا ايـاها لغيره ، مكتفيا بالعرض والنقد والاستبيان (Questionnaire) والتحليل والتعليل .

ففي الفصل التاسع عشر ، مثلا ، جاء ما يلي :

« في الخامس عشر من شهر زاتيكوس في السنـة الرابعة من حكم الامبراطور فيسباسيان (٧٣٨) [١٣] آثر ٩٦٠ يهوديا كانوا في قلعة ماسادا بالقرب من البحر الميت قتل النفس بعد أن استحثهم العازر على ذلك بـدلا مـن الاستسلام للرومان ، فقتل الرجال أولادهم وزوجاتهم وهم يعـانقوهم للمرة الاخـيرة . ثم اختاروا من بينهم عشرة

(١٣) — Vespianus : A. D 9 — 79 Titus Flavius Salimus Vespianus , Romanian emperor (69 — 79) .

بالقرعة ليتولوا قتل الباقين ، واختار هؤلاء العشرة واحدا منهم فقتل التسعة ثم بعج نفسه ؟ وقد تخيـل المؤرخ يوسيفوس [١٤] ، ما قاله العازر : « فلتمت زوجاتنا قبل أن يسربلهن العار ، وليمت أولادنا قبل أن يعرفوا الاسترقاق ، فاذا قضوا نحبهم ، فليقدم كـل منا صنيعـا الى الآخر ، محتفظين بحريتنا لتكون كفننا لائقا بنا » (ص ٢٦٣) [١٥] .

وبعد تسعة عشر قرنا ، وقعت ، في احدى المـدن الامريكية الجنوبية ، مجزرة جماعية ذاتية (انتحار) تحاكي تلك التي حدثت في قلعة ماسادا ، وهي انه « في يوم ١٨ نوفمبر ١٩٧٨ قام حوالى ألف من أعضاء فرقـة دينيـة امريكية تدعى « المحفـل الشعبي » في جيانـا بأمريكـا الجنوبية بقتل أنفسهم بعد أن حثهم على ذلك زعيمهم جيم جونز ، الذي توهم ردا عسكريا امريكيا على قتل أحد أعضاء الكونغرس . فجرع الآباء أولادهم شراب الكـولا ممزوجا بمادة السيانيد ثم شربوهـا بدورهم ، وعقـدوا الخناصر وهـم يجودون بـأنفسهم . وتعكس خطـابات

(١٤) — Josephus Flavius , A. D. 37 — ? 100 Jewish Historian .

(١٥) عن :

— Flavius Josephus , The Jewish war,BK VII,Ch. VIII V.6. trans. Robert Traill (London : Houlston and Wright 1868) , P. 50 .

الاعضاء الى جونز التي استهلوها بعبارة « بابا حبيبي »
ولاءهم التام لزعيمهم واستعدادهم للموت في سبيله وفي
سبيل قضيته : (بابا أحسن مما وقع لي) ، (أنت الذي
حرّرتني) ، (ها انذا أرتشف الجرعة) ، (أنا كالموزة،
قرن في سباطة) ، (أموت مغتبطا) (ص٢٦٣/٢٦٤)[١٦] .

وكما العنصريات تتجدد وبأساليب مختلفة ، كذلك
المجازر الذاتية والمآسي والويلات .

ماذا فعلت الحداثة والفردية والذاتية ؟

لقد حدثت المجزرة الاولى (الانتحار الجماعي) ،
فلاذ المجتمع ، آنذاك ، بالصمت ، وجلس يتفرج ، وربما
أغمي عليه لفرط الضحك .
كذلك منذ ثماني سنوات ، وترى الانتحار هو
الانتحار !

من ينقذ من ؟
الفردية هي الفردية . والمجتمع هو المجتمع . أما
الباب على الكوارث فهو الاغتراب (Alienation) !

من ينقذ من ؟

هل المجتمع ينقذ الفرد ؟ أم ان الفرد ينقذ المجتمع ؟

---

(١٦) عن :
— The New York Times , Novomber 29, 1978 .

لقد انتصر الانتحار ليس الا .

أما كافين رايلي فيقول متسائلا :

« فما الذي يحمل الفرد على الانتحار في سبيل
قضية ؟ ومتى تكون القضية أو الفرقة أو الملة أو الطائفة
أهم عند المرء من نفسه ؟ وفيم كان قتل الابناء بأيدي
آبائهم ؟ هل يعطينا المجتمع أسباب الموت كما يعطينا
أسبابا للحياة ؟ هل العقيدة خطر على صحة الانسان وحياته؟
أيكون الاشخاص الاقل شعورا بفرديتهم أشد إقبالا على
قتل أنفسهم ؟ هل القضاء على النفس التي لم يكتمل نموها
أسهل ؟ » .

ويتساءل أيضا :

« وكيف تغيَّرت الامور ؟ أظلت غريزة بقاء الذات
في نفوسنا ، فجة كما كانت منذ ألفي عام ؟ وهل ظلّ
احساسنا بالفردية ضئيلا كما كان ؟ واذا عشنا في عصر أكثر
نزوعا الى الفردية فهل تقع أمثال تلك الامور ؟ وهل يكون
استحسان اليهود والرومان ما حدث في ماسادا واستقبال
الجميع ما جرى في جيانا ، باعثا على شيء من الامل ؟ وهل
ترانا أصبحنا أشد احتراما لحياة الفرد مما جرى عليه
الناس واذا كان ذلك كذلك ، فلماذا وكيف ؟ وكيف نعلل
ما وقع في جيانا ؟» (ص ٢٦٤) .

هنا تبرز التخطئة اذ يقدّر كافين رايلي فيقول :

« ... ونحن نذهب الى ان استعدادنا للتفرد وحفظ الذات قد نما منذ عهد الماسادا . وقد نجد أسباب هـذا النماء في تهافت الرؤى الشاملة والأخروية . كما قد نجدها في زوال ما أطلقنا عليه « مجتمع العسر » وتنامي مجتمعات الوفرة . ان القدرة متاحة أمام الناس في المجتمع الحديث ليعيشوا حياة أجدى وأبلغ وأكثر فردية مما كان ممكنا في المجتمعات القديمة (الا بالنسبة لحفنة صغيرة) . فامكانات النماء ذوات متفردة مبدعة ولا سيما في العالم الغربـي الصناعي ، المتعلم ، المتخصص ، المتحرك ، الديمقراطي ، هي امكانات فريدة في تاريخ العالم . ولو قارنـا ذلـك بمجتمعات العصر الآسيوية لظهرت امكانات الغرب » (ص ٢٦٥) .

ومع ذلك حدث ما حدث .. وربما سيحدث ما هـو أفظع من مجزرة جيانا . لم لا ؟

ان جولة سريعة على الصين والهند وكل الشرق ، لا بد أن تنتهي بأن الانسان ، أينما كان ، هو أهم بكثير مـن الانظمة ، وأهم مـن السعادة والوهم والحقيقة والقلـق والعلم . بل ان هذه كلها ، مجتمعة أو متفرقة ، هي بعض

منه . ولذلك نراه يغيِّر ويبدّل ، ويرفض ويقبل ، ويثور ويهدأ ، ويسافر ويقعد ، ويفكر ويتبلّد ، وينتقم ويتسامح ، ويحب ويكره ، ويؤمن ويكفر ، ويخلص ويخون ، وان اختلف الانسان الغربي عن أخيه الشرقي ، فلاسباب محض مادية لا يمكننا تجاوزها .

ذلك يعني ان عنصر الزمان هو أكبر عامل تغييري ، فمن ضمِنَه ضمِن لنفسه السيطرة والسيادة ، وأصبـح متفوّقا يستطيع أن ينفذ الى حيث يشاء .

١٩٨٦/١/٢٩

(٣)

تكوين العقل الأوروبي الحديث

بين قلب كتاب « تشكيل العقل الحديث » [1] وخاتمته، مسافة لا يمكننا اختصارها بكلمات باردة ، كتلك التي انتهى اليها مؤلفه ، وما هي بنهاية على كل حال .

لن أبدأ ، مع الاميركي ، كرين برينتون ، المؤلف[2]،

---

(١) ٣٨٧ صفحة من القياس الوسط ، مع ثبت للهوامش (بقلم المترجم) من ص ٣٩٣ الى ص ٤١٣ ، سلسلة عالم المعرفة (الكويت) الرقم (٨٢) تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٤م تأليف : كرين برينتون ، ترجمة : شوقي جلال ، مراجعة: صدقي حطّاب . العنوان الاصلي للكتاب :
The Shaping of Modern Miind by : Crane Brinton New York , 1953 .

(٢) كرين برينتون (١٨٩٨ ـ ١٩٦٨) ، درس في جامعتي هارفارد واكسفورد ، وشغل وظيفة أستاذ التاريخ القديم والحديث بجامعة هارفارد . له عدد من المؤلفات أشهرها كتابه « افكار ورجال » ، الذي يشكل كتاب « تشكيل العقل الحديث » ، جزءا منه . كان عضوا في عدد من الهيئات والجمعيات العلمية الاميركية .

لا من القلب ... ولا من النهاية ، وان كنت أميل الى التوقف ، عند الفصل السابع ، الما قبل الاخير ، المخصّص للقرن العشرين ، و « الهجوم ضد العقل » (من ص ٣١٦ الى ص ٣٥٨) .

على ان الفصول الاولى ، من هذا الكتاب ، هي أكثر من التمهيد ، وأكثر من النصف ، اذا ما اعتبرنا القرن الثامن عشر نصف الطريق الى الباب الاخير ، الذي أوصده ، علينا ، المؤلف ، أو المترجم ، إما ليصيب منا الرأس ، فنقع أرضا ، وإما ليكسر لنا أصابعنا ، ويكرهنا على التسليم بأن « الغرب ، اجمالا ، لم يتأثر كثيرا بالافكار الكوزمولوجية [3] للثقافات الاخرى بل ولا حتى أفكارها

---

(٣) الكوزمولوجيا (Cosmology) : مبحث فلسفي وفرع من علم الفلك يعنى بنشأة الكون وعمليات تطوره وبيئته . ويعالج الكون ككل واحد متكامل . ظهر في العصر القديم نتيجة جهود الانسان لاستكشاف مكانه في الكون . ويرى ان وراء هذا الكل بما يحويه من حركة مشوشة وتباين ظاهري بين عناصر الكون ، قانونا عاما يحكم حركات هذه العناصر في مجموعها . وكانت صورته قديما وحتى العصر المدرسي تمثله نظرية المحورية الارضية التي دعمتها الفلسفة الاسكولائية والكنيسة الكاثوليكية ، ثم تلتها النظرة المحورية الشمسية اي القول بأن الشمس محور الكون . وبدات هذه النظرة تتغير ابتداء من نيوتن وقانون الجاذبية الكونية وأخيرا نظرية النسبية التي قال بها ألبرت اينشتاين وخرجت الكوزمولوجيا بذلك من مجال التأمل النظري والكتابات الغيبية الى مجال البحث العلمي،وأضحت النظرة الكلية الفلسفية=

الاخلاقية والجمالية » (ص ٣٦٠) ، فيما نحن ـ الشرقيين ـ لا نلحّ كثيرا في طلب مثل هذا [٤] .

يقول كرين برينتون :

« والى هنا نصل الى الحد الذي يمكن ان ينتهي عنده كتاب كهذا . ان الديمقراطية المثالية ، أي ديمقراطية مؤمنة (بالمعنى السامي للعقيدة الدينية) قد تكون أمرا ممكنا ، على الرغم من ان ديمقراطية كهذه قد يكون عسيرا عليها أن تلائم ارثها الدنيوي والعلمي مع العقيدة الاخروية. أما الديمقراطية الواقعية أي الديمقراطية التشاؤمية ـ وهي الديمقراطية التي يحاول في ظلها المواطنون العاديون تناول

= للكون معتمدة على معطيات يبينها البحث العلمي للانسان، وان كان هذا لا يعني سقوط كل المشكلات ، مثل مشكلة تعدد الكون وخلقه وما وراء المجرات ... الخ (شوقي جلال ، المترجم ص ٤١٠) .

(٤) من الذين يطلبون من الغرب الاعتدال والتواضع ، الدكتور شاكر الفحام القائل : « ولكن الغرب الذي نجح النجاح الكبير في كتابة تاريخه على أحدث نظرات النقد ومناهج البحث التاريخيين ، وما يزال يكتبه ، يرجو أن يبلغ به مرتقى فوق ما بلغ، قد حالت أسباب شتى وملابسات كثيرة دون نجاحه النجاح المرجو وهو يكتب تاريخ العالم . كأن شعوره أنه سيد هذا العالم وقطبه ، قد تمكن منه ، ثم تسلط عليه تسلطاً حال بينه وبين الرؤية البصيرة ، والنفاذ الى حقائق تاريخ هذه الشعوب التي قهرها سياسيا وفكرياً واقتصاديا ، ففاجأنا بمزق وأسمال سماها تاريخ العالم ، لا تمثل في الحق الا نظرته الى هذه التي غلبها واستطال عليها وود لو سحقها » (دراسات تاريخية ـ العدد الثاني ـ ١٩٨٠ / المذكور سابقا ـ ص ٥) .

أمور الاخلاق والسياسة وقد انعقد عزمهم على معالجة مظاهر النقص التي يتصف بها الفلاح الطيب ، والطبيب الجيد ، والمسؤول عن شفاء النفوس سواء أكان رجل دين أم مستشارا أم طبيبا نفسيا ـ مثل هذه الديمقراطية قد تتطلب من مواطنها أكثر كثيرا مما تتطلبه أي ثقافة انسانية. واذا تسنى الوفاء لطلباتها فربما تكون أنجح الثقافات قاطبة » .

أضاف :

« وأخيرا فان الديمقراطية المرائية الدائمة الشكوى والسخرية ، او الديمقراطية التي يعترف أهلها في هذا العالم بمعتقدات معيّنة ويعيشون غيرها ، مثل هذه الديمقراطية هي ضرْب من المحال ، ومثل هذا المجتمع لا يمكن له أن يبقى طويلا في أي مكان على الارض . ان التوتر بين المثالي والواقعي يمكن حله بوسائل كثيرة في مجتمع صحي ، ولكن لا يمكن أبدا الزعم بأنه غير موجود » (ص ٣٨٧) .

اذاً ، ثلاث ديمقراطيات ... والانسان واحد ! ! وان كثرت وثقلت ، فهي أعجز من أن تجعل الانسان (القلب والرأس) بدون ارادة ، لا يحلم ولا يطمح ولا يعاند ولا يتمرد ، ولا يركب الاهوال والصعوبات ، وهي كذلك أعجز من أن تتركه قلبا بدون رأس أو رأسا بدون قلب .

لمن يكتب كرين برينتون ؟

هذا الاميركي ، المتحدر من انكلترا ربما ، أو من اسبانيا ، أو من البرتغال ، أو من هولندا ، أو من فرنسا، أو من ألمانيا ، أو من أي مكان من أوروبا ، لا يشعر بالعزلة أو الغربة ، ما دام « ديمقراطيا مؤمنا » (؟) وهو أوروبي في أميركا ، وان بدا منه « استبداد » ثقافي (اميركي) ، لدن كتابته قصة تكوين العقل الاوروبي الحديث •

هل يكون برينتون قد كتب الى الغربيين ، دون سواهم ، وقد انفعلنا ــ بهذا العقل الاوروبي ــ وتفاعلنا معه (نحن وبلدان العالم الثالث) ــ كما يقول المترجم ــ وتباينت سبل وأشكال الانفعال والتفاعل بين صد وقبول وملاءمة ، وان أثره لا ينكر على فكر وعقل أجيال المثقفين المحدثين في عالمنا العربي وكذلك أثره على التوجه السياسي بعامة ••• (ص ٩) ؟

ان الحواجز الفكرية والنفسية القائمة ، منذ قرون، بين الشرق والغرب ، يجب ازالتها ، اذا كنا سننشد ، معا ، الكمال و « تحرير الطبيعة البشرية من بيئتها الفاسدة » (ص ٣٨٢) • فالكمال واحد ، والطبيعة واحدة ،على الرغم من مداها الوسيع المديد ، وجنة الارض لا هي شرقية ولا غربية ولكنها من صنع الانسان بكل تأكيد • كما وان كل ما شقّ ، على هذا الانسان ، ومنعه من مراده ، قد بات معروفا ، وان كنا لم نستطع ، بعد ، الغاءه من الوجود ، والى الابد • ولقد قال روسو « ان اول

انسان تجاسر على انتزاع قطعة أرض واقتطاعها من الملكية العامة ، ثم أحاطها بسياج وقال « هذه ملكي » هو الوغد المسؤول عن انهاء حالة الطبيعة » (ص ١٨٧) •

أما أن يقول المؤلف « ولا يفسّر لنا روسو لماذا تصرّف ابن الطبيعة على هذا النحو غير الطبيعي » (ص ١٨٧) فذلك هو موقف « اميركي » ، من روسو الفرنسي، يغلب عليه التأريخ الذي قلّما يخلو من اللوم والتثريب ، وقد قال : « واذا عجز المستنيرون عن حل مشكلة أصل الشر ، فان لديهم أفكارا راسخة وثابتة للغاية عن الخير والشر في زمانهم • اذ يرون الشر نموّاً تاريخيا متجسدا في الاعراف والقوانين والمؤسسات ــ أي متجسدا في البيئة ، وخاصة البيئة الاجتماعية ، التي صنعها الانسان من الانسان » •

وقال أيضا :

« وأدركوا في ضوء ما كتبه مونتسكيو في كتابه « روح القوانين » ان البيئة الطبيعية إما خشنة جرداء غالبا أو يسيرة مترفة جدا ، وعرفوا أمراضا بذاتها ليست كلها فيما يبدو نتيجة البيئة الاجتماعية • ولكنهم عقدوا الامل على امكانية السيطرة على البيئة المادية ، وان كانوا يأملون في الحقيقة في السيطرة على البيئة الاجتماعية • ورأوا ان البيئة الاجتماعية في عصرهم سيئة بل ربما شديدة السوء

مما يستلزم استئصالها جملة وتفصيلا . ولم يؤمنوا في الغالب الاعم بأن يأتي تدميرها بوسائل العنف . لقد تنبأوا بثورة فرنسية ، ولكن لم يتنبأوا بحكم الارهاب » (ص ١٨٧) .

الثورة الفرنسية محطة « طبيعية » من أجل طبيعة فرنسية متكاملة . وان شاء المؤلف فهي محاولة ذات قوتين: نظرية وعملانية .

ولكن هذه المحاولة بوجهيها، أخطأت أو فشلت، وأخطأ العالم أو فشل، هي للتأكيد على أن ما للفرنسي ليس للعالم، فيما الصحيح — في رأينا — هو ان الانسان ، بمشكلاته وقضاياه المتراكمة والمستمرة في التراكم، لن يعرف العصر النهائي ولا الثورة الاخيرة .

ان هذا لا يعني اننا على اختلاف كبير مع المؤلف . وانما هي المشرقية التي نفاخر بها الامم .

ويأبى المؤلف الا أن يهملنا ويتناسى ثقافتنا وانسانيتنا، لكي يبقى التنافر والتباعد بين الانسان والانسان ، أي بين العقل والعقل ، والقلب والقلب ، حيث يقول :

« ولكن لا يزال بالامكان اصدار بعض التعميمات الهامة عن المناخ الفكري للغرب . أولا ، يجب الاشارة الى ان العلوم الطبيعية لم تزدهر أبدا في أي ثقافة أخرى مثلما ازدهرت في الغرب . حقا ان رجالا من ثقافات اخرى أقبلوا بصورة متزايدة على دراسة العلم وحققوا نجاحا كبيرا .

ويُعدّ العلم من نواح كثيرة أنجح الجهود البشرية في مجال اختراق حدود القبائل أو الدول القومية ، وهو في هذا الصدد أنجح من التجارة والدين . بيد أن العلم في صورته الحديثة يحمل في وضوح سمة الغرب الذي نشأ فيه . وما كان يمكن له أن ينمو ويتطور الا في ظل المناخ الغربي الذي عايش التوتر بين الواقعي والمثالي ، وبين هذا العالم والعالم الآخر . فان استغرق العقل كلية في عالم آخر ، والتفاني تماما في منطق باطني روحي كان من شأنه أن يجعل العلم مستحيلا » (ص ٣٦٤) .

أي علم هذا الذي يحمل سمته الغرب ؟

هل نقول له ان العلم الغربي ، بصورته الحديثة ،هو أيضا تنبأ بالطائرة والصاروخ والرجل الآلي ، و « لم » يتنبأ بحكم الارهاب ؟

ان عددا غير قليل من الرجال « اللاغربيين » ممن يمتدحهم الاستاذ برينتون قد أبادهم العقل الغربي الحديث، كي يظل الغرب مصدر هذا العلم ... الذي تحوّل الى آلة للموت والدمار .

ان المسؤولية ، طبعا ، لا تقع على المؤلف بالذات ،ولا هو يُعتبر مسؤولا ، عن « ارهاب العالم الغربي »وغلطته البشعة جدا . لكن العلماء الغربيين و « الايديولوجيين »

مثلهم مثل صانعي الثورة الفرنسية ، جميع هؤلاء وأولئك « ارهابيون » بشكل أو آخر .

ماذا يريد المؤلف ؟

قد يكون أقصى غاياته « البحث في التاريخ والتقاليد والعادات وفي سلوك الانسان » كما يقول المترجم (ص٨) ولكن الحقيقة ، هي ان الاستاذ ، المؤرخ ، برينتون ، كرّس « الامتيازات » الغربية ، التي باسمها انتشر الجوع والفقر والتخلف ، في جزء كبير من الطبيعة البشرية ، دعيت — يا للأسف — « العالم الثالث » .

أقسام الكتاب :

يتألف الكتاب من : « تصدير » بقلم المترجم ، و « مدخل » بقلم المؤلف ، وثمانية فصول .

لقد قسم المؤلف « بناء العالم الحديث » (القسم الاول) الى ثلاثة فصول هي : « الحركة الانسانية » (من ص ٢٣ الى ص ٧٥) و « البروتستانتية » (من ص ٧٧ الى ص ١٢٢) و « الحركة العقلانية » (من ص ١٢٤ الى ص ١٦٥) .

على هذه القواعد الثقافية (الحركات — القوى)

الثابتة التي لا تتزعزع ، يقف القرن الثامن عشر شامخا بل شاهدا على عصر أوروبي غربي جديد ، هو « عصر التنوير » (الفصل الرابع) (من ص ١٦٩ الى ص ٢١٤) وعلى « تطور جديد في نظرة الانسان الى الكون » (الفصل الخامس) (من ص ٢١٥ الى ص ٢٦٠) انتهى الى « هجمات من اليمين ومن اليسار » (الفصل السادس) (من ص ٢٦١ الى ص ٣١٣) ملأت (الهجمات) القرن التاسع عشر ، الذي توارى بمذاهبه وتياراته ومدارسه ورجاله ، ليأتي القرن العشرون و « الهجوم ضد العقل » (الفصل السابع) (من ص ٣١٥ الى ص ٣٥٨) مما حتّم على المؤلف خاتمة انقاذية سمّاها « بعض المهام التي لم تتم » (الفصل الثامن) (من ص ٣٦٠ الى ص ٣٨٦) .

يحدد المؤلف موقعه الفكري فيقول :

« وإني هنا في كتاب « تشكيل العقل الحديث » أقرب الى موقف (ماريوس) روستان [٥] مني الى موقف

---

(٥) أصدر عام ١٩٠٦ كتابا تحت عنوان « الفلاسفة والمجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر » . فيه آثر التأكيد على أن أفكار الفلاسفة ظلت تعمل أثرها داخل مجتمع يعاني مظالم مادية ووحدت صفوف الفرنسيين من أجل العمل على نطاق قومي . (انظر مقدمة المؤلف ص ١٣/١٢) .

(فليكس) روكسان [٦] • حقا ، ان موقفي الاساسي يقضي بأننا حين نسعى الى فهم السلوك البشري في المجتمع فان الخلاف الدائر برمته حول ما اذا كانت الافكار هي العلة التي تدفع الناس الى العمل أم الظروف المادية (الشهوات والمصالح والحوافز ، أو كما يقول الماركسيون « وسائل الانتاج » وما يترتب عليها من صراع طبقي) هي العلة المحرّكة ، انما هو في جوهره خلاف عقيم لا جدوى من ورائه » (ص ١٣) •

لكن هذا « الخلاف العقيم » هو الذي مدّنا بهذه الافكار والحركات الكثيرة التي تُعتبر الثورة الفرنسية، النظرية والعملانية ، امتدادا لها •

وبما ان المؤلف أحب أن يتخذ لنفسه هذا الموقع ، نرى من الواجب أن نصرف النظر عن مناقشته التي هي أيضا لن تجدي ، وربما رددنا معه :

---

(٦) اصدر في عام ١٨٧٨ كتابا بعنوان « الروح الثورية قبل الثورة (الفرنسية) ، ١٧١٥ ـ ١٧٨٩ » ، بيَّن ، فيه ،ان الاستياء والسخط والمعاناة الحقيقية اثارت منذ عام ١٧١٥ فصاعدا عدم استقرار مزمن في فرنسا متمثلا في اضطرابات ثانوية ومظاهرات من اجل الخبز ومنازعات بين ما يمكن أن نسميه فروع السلطتين التنفيذية والقضائية وبين الهيئات التنفيذية والتشريعية المحلية المتبقية (انظر مقدمة المؤلف/ المصدر نفسه) •

« اذ لا أظن ان مهندس سيارات يتراءى له أن يجادل ليثبت ما اذا كان البنزين أم الشرارة هي السبب في دوران آلة الاحتراق الداخلي ، ناهيك عن أيّهما أول وأيهما ثان، البنزين أم الشرارة • ولا أحسب ان مؤرخا للافكار يعنيه أن يجادل فيما اذا كانت الافكار أم المصالح هي التي تحرك الناس في علاقتهم بالمجتمع ، ولا أيّهما يأتي أولا ، ذلك لانه بدون كليهما ، البنزين والشرارة ، لن تتحرك السيارة ، وبدون كل من الافكار والمصالح (أو الشهوات أو الدوافع أو العوامل المادية) لن يكون ثمة مجتمع بشري حيّ وفعّال، ولا تاريخ بشري » (ص ١٤) يُعتَزّ به •

بيد ان «البنزين» (الشرق) في مكان و « السيارة » (الغرب) في مكان آخر، كما يحاول مؤرخ العقل اثباته والتأكيد عليه •

هل سأل المؤلف نفسه ، لماذا يبيد الجوع «الجنوبي» أولئك المساكين في بنغلادش والهند وغيرهما من « العالم الثالث » بمرأى ومسمع الغرب العاقل المتمدن ؟

هل سأل المؤلف نفسه أيضا ، الى متى سيبقى « التمييز العنصري » و « التسلح النووي » واغتصاب حقوق الشعوب الضعيفة المستضعَفة ؟

بعد أن عرفنا موقع الاستاذ برينتون ، لا بد أن نعرف

نهجه « الذي استنّه متميّزا » كي « يوضح رؤيته ويهديه الى سبيل الخلاص » ـ على قول المترجم ـ (ص ٨) .

يقول كرين برينتون : « وحيث ان الافكار بهذا المعنى (الروستاني) تشكل جانبا من الحياة الانسانية في شمولها ، فان التاريخ كله يصبح معنى من المعاني تأريخا للافكار ، بيد اننا في هذا الكتاب لا ننشد المستحيل لنقدم تاريخا عالميا جامعا . وانما نقتصر بداية على ذلك القطاع من الانسانية الذي أطلق عليه أرنولد توينبي في كتابه « دراسة التاريخ » اسم « المجتمع الغربي » أي تلك الجماعة من الرجال والنساء الذين يعيشون في أوروبا وما وراء البحار ، ورثة المجتمع الاغريقي ـ الروماني ، ومن يبدأ تاريخهم بالغزوات الجرمانية للامبراطورية الرومانية التي بدأ أفولها ابان القرون الاولى للعصر المسيحي،وزيادة في التحديد ، فاننا سوف نقتصر ، داخل اطار هذا المجتمع الاوروبي ، على الفترة الزمنية في عصره « الحديث » ، ونقصد بهذا على وجه التقريب القرون الخمسة التي تبدأ مع منتصف القرن الخامس عشر ، وهي الفترة التي اصطلح عليها في تقسيم التاريخ الى حقب باسم حقبة النهضة والاصلاح ، والتي تمثل الانتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث » (ص ١٤) .

ويقول أيضا :

«وسوف نلتزم من ناحية ثانية بهذا النوع من الافكار التي آمن بها العامة بشأن القضايا الكبرى المتعلقة بمصير الانسان : عن الخير والحق والجمال ، وعن النافع ونمط الحياة التي ينبغي على الانسان أن ينشدها لنفسه على الارض . واذا شئنا توضيح الفارق بأسلوب مألوف ،وان بدا غير محكم أو دقيق ، اقول اننا بصدد دراسة الرأي، بل الرأي العام دون الفكر بمعناه الشكلي » (ص ١٤) .

من الطبيعي أن يعنى الاستاذ برينتون ، وهو المؤرخ، « بأعمال طلائع الفكر العظام ، أعلام تاريخ المذاهب والمدارس المتعارف عليها من الفلسفة واللاهوت والادب والعلوم الطبيعية والاجتماعية » مركّزا على « دور هذه الافكار في حياة عامة الناس ، وتتاج هذه الافكار وكيف أثّرت في هذا العالم » (ص ١٤/١٥) فجعلته « متميّزا » و « علميا » متفوّقا .

واهتم برينتون ، كثيرا ، بأفكار لوثر (مارتن) (Luther) (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) « الاوغسطيني » ـ الالماني ، وكالفن (جون) (Calvin) (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) الفرنسي،مؤسس المذهب الكالفني ، منطلقا لا من وجهة نظر مؤرخ اللاهوت الشكلي ، وانما من وجهة نظر « المؤرخ المعني بملايين البشر الذين تأثروا بما كتبه هذان الرجلان » ، « على الرغم

من ان هذه الملايين ، وعادة ما يكون الامر على هذا النحو حقيقة وفعلا ، لم يقرأوا شيئا عن لوثر أو كالفن (؟) (ص ١٥) •

كذلك ، عني برينتون بالبروتستانتية أو الماركسية أو الديمقراطية ، باعتبارها « تمثل مجموعة اجابات عن القضايا الكبرى التي يؤمن بها كثيرون ويتقاسمون الرأي بشأنها كعقيدة ومذهب ونظرة الى الحياة » (ص ١٥) •

هذا هو موقع الاستاذ برينتون ، وهذا هو نهجه ، ومن الممكن أن تستوقفك آراء في الكنيسة الكاثوليكية او البروتستانتية أو الكالفنية أو الانكليزية ، ضمها « تشكيل العقل الحديث » ، تشبه رأيك في هذه أو تلك ، فيأخذك العجب منه ، وأنت تعلم انه « أميركي » • كذلك الحال ، عندما يؤيد أو يعارض فرنسيس بيكون (١٥٦١ ــ ١٦٢٦) وجاليليو جاليلي (١٥٦٤ ــ ١٦٤٢) ورينه ديكارت (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) وجورج باركلي (١٦٨٥ ــ ١٧٥٣) وزينو الايلي (Zeno of Elea) (٤٩٠ ق٠م٠ / ٤٣٠ ق٠م٠) وجون كالايس (١٦٩٨ ــ ١٧٦٢) (تاجر من تولوز في فرنسا ، اتُّهم كذبا بقتل ابنه ليمنعه من الردة عن البروتستانتية • وقد نكل به حتى الموت • وأسهم فولتير في رد اعتباره) واسحق نيوتن (١٦٤٣ ــ ١٧٢٧) والقديس

توما الاكويني (١٢٢٥ ــ ١٢٧٤) (أين ابن رشد ؟) ومونتسكيو (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥) وهلفتيوس (١٧١٥ ــ ١٧٧١) وهولباخ (١٧٢٣ ــ ١٧٨٩) وروبرت أوين (١٧٧١ ــ ١٨٥١) وجيرمي بنتام (١٧٤٨ ــ ١٨٣٢) ودافيد هيوم (١٧١١ ــ ١٧٧٦) واليسوعيين « رفقة يسوع المسيح » أو « جماعة يسوع » (أسسّها القديس اجناس دي لويولا (Loyola) عام ١٥٤٣ وأقرّها بابا روما عام ١٥٤٠) وأوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧) وكارل ماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) وهربرت سبنسر (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣) وفاجنر (١٨١٣ ــ ١٨٨٣) وبرنشتين (١٨٥٠ ــ ١٩٣٢) والاشتراكية الفابية (Fabian Society) واينشتين (١٨٧٩ ــ ١٩٥٥) وشبنجلر (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) وغيرهم وغيرهم •

ومهما يكن ، فأنت ، بكل تأكيد ، ملتزم معه القول بأن « كلمة شكّاك تُستخدم استخداما فضفاضا ويوصف بها رجال من أمثال فولتير ، وكتّاب الموسوعة الفرنسية الكبرى كما يوصف بها محمل الاتجاه الذي نسميه التنوير • وطبيعي ان هذا استخدام خاطىء للكلمة • فلم يكن مزاج القرن الثامن عشر نزّاعا الى الشكل بل كان معاديا لرجال الدين ، وضعيا وكذلك ماديا عند المتطرفين من المفكرين • واذا كان الفلاسفة قد كفروا بالمسيحية

التقليدية فقد آمنوا بعالمهم الجديد الطريف . ونجد بطبيعة الحال جماعات كبيرة من الناس ، بل ومن المفكرين ، لم يتخذوا بحال من الاحوال موقف الشك . وان نزعة الشك ليست أبدا حركة جماهيرية واسعة النطاق جدا . وثمة جدول صغير لنزعة شك فلسفية أصيلة يمتد من الاغريق الى عصرنا ، وان كان قد جفّ ونضب خلال العصور الوسطى وعاد يتدفق ثانية مع عصر النهضة وقدّم لنا مونتيني [٧]، أوسع الادباء الشكّاك شهرة وأكثرهم سحرا » (ص ٢٠٦) .

الا انك ستسأل ، ويجب أن تسأل ، هذا الحشد الكبير من الفلاسفة واللاهوتيين والعلماء والكتّاب والادباء والشعراء ، الذين استحضرهم المؤرخ برينتون ،عن توماس مور (١٤٨٠ — ١٥٣٥) وروايته « يوتوبيا » التي نشرها باللغة اللاتينية في مدينة «لوفان» ببلجيكا عام ١٥١٦ ،وفيها نقد الحالة السيئة لانجلترا في ذلك الوقت ، ووصف تفصيلي شديد لكافة نواحي الحياة في مجتمع يوتوبيا السعيد [٨]،

(٧) مونتيني (ميشيل) Montaigne (١٥٣٣ — ١٥٩٢) : كاتب ومفكر فرنسي ، عاش في التأمل والقراءة ثم طاف اوروبا . دوّن أفكاره واختباراته في كتابين : « المحاولات » وقد اظهر فيه عجز الانسان عن بلوغ الحقيقة والعدل ، و « يوميات » أثبت فيها نسبية الشؤون البشرية .

(٨) الدكتور أحمد جامع : المذاهب الاشتراكية ،دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية ١٩٦٩ ص ٢٥/٢٦ .

لتسأل أيضا عن الراهب توماس كامبانيلا (١٥٦٨ — ١٦٣٩) وروايته « مدينة الشمس » . وعن بابيف (Babeuf) (١٧٦٠—١٧٩٧)الذي يُعد أعظم الاشتراكيين قاطبة في عهد الثورة الفرنسية . ويمكن السؤال حتى عن سيسموندي وسان سيمون وشارل فورييه (١٧٧٢ — ١٨٣٧) والاخير معروف عنه أنه علّم نفسه بنفسه ،وهو من أبرز المفكرين الذين ركّزوا اهتمامهم على الفرد لا على المجتمع .

الا ان الهفوة الكبرى ، التي لم يُبد برينتون ، كما يظهر ، رغبة في تجنّبها ، اهماله وليام جودوين (Williame , Godwin) (١٧٥٦ — ١٨٣٦) وماكس شتيرنر (Max, Stirner) (١٨٠٦ — ١٨٥٣) وبيار جوزف برودون (Pierre-Joseph Proudhon) (١٨٩٠ — ١٨٦٥) وميشال باكونين (Michel Bakounine) (١٨١٤ — ١٨٧٦)وكروبتكين (Uierre Alexejevitsch Kropotkin) (١٨٤٢ — ١٩٢١) ، هؤلاء مجّدوا الحرية الفردية باعتبارها « الغاية والوسيلة في نفس الوقت » [٩] وحاربوا « كل ما يهددها أو يحدّ من النمو الحر لشخصية الفرد

(٩) المذاهب الاشتراكية نفسه ص ٦٣

وملكاته»[١٠] • مثالهم لودفيج فيرباخ (Ludwig Feuerbach)
(١٨٠٤ — ١٨٧٢) الالماني ، الذي اعترف به كارل ماركس
« وسيطا » بينه وبين هيجل ، والروائية الفكتورية جورج
ايليوت (ماري آن) (Eliot, George) (١٨١٩—١٨٨٠)
أول من كشف الغبار عن فيرباخ وكتابه « جوهر المسيحية»
(The Essence of Christianity) الصادر عام ١٨٤٣ •

واذ نستعين بمنطق باكونين (Bakounine) القائل:
« انني لن أكون حراً حقا الا عندما تصبح جميع الكائنات
البشرية التي تحيط بي من رجال ونساء حرة أيضا • وحرية
الآخرين ، بعيدا عن أن تكون قيدا أو نفيا لحريتي ، هي
العكس شرطها الضروري وتأكيدها الكامل » [١١] فانما
لنؤكد تقديرنا للاستاذ المؤرخ كرين برينتون وكتابه
« تشكيل العقل الحديث » الذي هو حقا واحد من الكتب
العالمية •

١٩٨٥/١/١٤

---

(١٠) (١١) المصدر السابق ، عن :
Bakounine OEuirres , t. I , in Gide et Rist, histoire Doctrines Economiques P. 237 .

(٤)
كنز قمران *

كتاب « كنز قمران » (مدارج البحر الميت) [١] ، لمؤلفه نيافة أثناسيوس يشوع صموئيل ، مطران الولايات المتحدة الاميركية وكندا للسريان الارثوذكس ، سيرة ومسيرة • واذ يقول المثل : من طابت سريرته حَمِدت سيرته ، أي من طابت نيّتُه حمِد سلوكه ، فان « كنز قمران » — الكتاب ، من أوله الى آخره ، هو الخبر القاطع والامين في شهادته للمؤلف • وما قيل فيه وسيقال فمن وحيه وإلهامه ، بل منه وإليه • فلا عجب اذا ما أقبل عليه الباحثون والدارسون ومحبو الآثار والكنوز وأخذوا فيه

(*) القيت مساء السبت ١٩٨٥/٣/٣٠ في قاعة مار يعقوب السروجي — في السبتية — بيروت ، وذلك بحضور صاحبي النيافة المطرانين : أثناسيوس يشوع صموئيل (المؤلف) وثاوفيليوس جورج صليبا ، ولفيف من وجهاء الطائفة السريانية .

(١) ٢٥٥ صفحة من القياس الكبير مع ملحق مجموعة صغيرة من الرقوق . ترجمه عن الانكليزية الدكتور القس الفونس شوريز ، راجعه ونقحه ونشره المطران ثاوفيليوس جورج صليبا ، طبعة ١٩٨٥ .

ولزموه • فهذا المدّخر العظيم ، الذي يُتنافس فيـه ، لن
يظفر به الا الذين أعَدّوا الحسنة لآخرتهم •

ذكَر الشيخ أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي
الرومي البغدادي ، في معجمه ، البُحَيرة المنتنة ، بحيرة
زُغَر ، فقال انها « بحيرة ملعونة لا ينتفع بها في شيء ،
ولا يتولد فيها حيوان ، ورائحتها في غاية النَّتْن ، وقـد
تهيج في بعض الاعوام فيهلك كل من يقاربها من الحيوان
الانسي وغيره حتى تخلو القرى المجاورة لها زمانا الى أن
يجيئها قوم آخرون لا رغبة لهم في الحياة فيسكنوها ،وإن
وقع في هذه البحيرة شيء لم ينتفَع به كائنا ما كان ، فانها
تفسده حتى الحطب فان الرياح تلقيه على ساحلها فيؤخذ
ويشعَل فلا تعمل النار فيه • وذكر ابن الفقيه أن الغريق
فيها لا يغوص ولكنه لا يزال طافيا حتى يموت » (٢) •

وقيل الكثير في هذه البحيرة ، التي لا تأتيها الطيور،
ولا تسكنها الاسماك ، وانما هي غنية بالثروة المعدنيـة ،
وبخـاصـة البـوتـاس (Potassium Chloride)
والبرومَيْد (Magnesium Bromide) • ولكن أحدا
لم يثبت له أن في تلك البقعة من العالم المنخفض ، ما هـو
أثمن من الملح والصوديوم والكبريت والكلس والفوسفور

(٢) معجم البلدان ، المجلد الاول ، ص ٣٥٢

والمانغنيز ، وأثمن أيضا من الالماس والذهب وسائر المعادن
والحجارة الكريمة،حتى جاء الحبر الجليل المطران أثناسيوس
يشوع صموئيل ، الذي بجَس الماء المالح وفتح له منفذا
فجرى ، واذا الطريق الى الحقيقة واسع وواضح ، والمـاء
عذْب ، مما أساغ الطعام والشراب •

فمنذ سنة ١٩٤٧ أعطي البحر الميت إسما جديدا،فصار
بحر المدارج أو الرقوق • على أن المطران صموئيل هـو
الذي أحيا هذا البحر •• اذ قدّس المدارج ، التي اشتراها
من البدويين التعمريين : محمد الديب وأحمد محمـد ،
بواسطة السيد جورج شعيا ، وكفلها وأحاطها « بكل عناية
وبكل احترام » (ص ٢٤٤) متحدّيا غرابيـل النقّـاد
ومناخل المحلّلين ، وقد « تفسّخت آراء علمـاء العصر في
أمر هذه المدارج ، فمنهم من أنكر قِدمها ، ومنهم مـن
أثبته » (ص ٢٢٧) • ففي المدارج حياة « اجتاحها كثـير
من الزلازل ، والصواعق ، والعواصف ، والامطار ، وكل
أنواع التقلّبات الجوية ، فضلا عن الغارات والحروب »
(ص ١٨٨) ، فقاومت وتمردت ، ولما تم اكتشافها ظهرت
« في عصر القوة الذرية جميلة بهيـة مفتخرة بعنصرهـا
الإلهي » (ص ٢٣٠) فكأنها لكل عصر وزمان •

وعندما نعلم أن أبا المدارج : المطران صموئيل ، هـو

ذلك الطفل اليتيم الذي أصيب « باليرقان والشلل »(ص ٢٦) عام ١٩١٥ ، وكان له من العمر ثماني سنوات ، إثر ضيقة سببتْها الحرب العالمية الاولى « فعضّت الناس في جلودهم » (ص ٢٥) و « ارتـأى القوم » (ص ٢٥) آنذاك ، طرَحه بالقرب من بركة ماء تقع في جوار «خربة إلي"»،«التي تبعد نصف ساعة مشيا عن دير مار ملكي » (ص ٢٤) ، في طورعبدين ، لكي يموت « تدريجيا دون أن يمد اليه أحد يده ليقتله » (ص ٢٦) ، وقبل أن يقوى عليه الموت جاءه « شاب يرتدي ثوبا أسود ، ولـه لحية طويلة كثّة» (ص٢٨)هو «المغفور له الابالقس ديمط ، فحمله على كتفه وسار به الى بيته، حيث تعهّدته امرأته الفاضلة (بثقيومو) أي ابنة العهد» (ص٢٨)[٣] فحنّت عليه وغسّلته وألبسته ثيابا نظيفة وأطعمته واهتمت بأمره ، حتى عادت اليه الحياة والعافية ، « وكسا اللحم قصبات رجليه وأنابيب ذراعيه » (ص ٢٩) . وعندما نعلم أيضا تلك المصاعب والشدائد والمشقات التي جبهته بالمكروه ، حتى وصل الى دير مرقس ــ في أورشليم (القدس) ــ حيث دخل الرهبنة (١٩٢٦) ، ثم الى الهند حيث رسم كاهنا (٤ نيسان ١٩٣٤) في كنيسة مار اسطفانوس في أومللور ، ثم أسقفا على دير مار مرقس نفسه (١٩٤٦) خلفا للمرحوم المطران مـار

(٣) اسمها الحقيقي : مريم ، وبهذا الاسم (بثقيومو) تعرف زوجات الكهنة السريانيين حتى اليوم .

فيلكسينوس يعقوب الصلحي ، فـلا بد أن يستشف لنـا الستر .. ويتبين ما وراءه ، فكأن أدراج البحر الميت ،التي مضى عليها ألفا سنة في المخابىء ، قد أوحي لها أن تشق رحم مغارة عين فشخة ، في اريحا ، على يد بدوي من قبيلة التعامرة ، لتكون للمطران صموئيل مساور المجد ، بـل المتّكأ الآخر ، بعد الكنيسة السريانية العظيمة ، التي مُنح شرف تمثيلها في القدس ثم في الولايات المتحدة الاميركيـة وكندا .

وهكذا يكون المطران اثناسيوس يشوع صموئيل ، الذي جرّب القهر والجوع والتشرد ، قد استولى على أروع وأجمل قمم الشهرة ، ولا أعتقد أن باحثا أو مؤرخا أو عالما أثرياً ، قد سبقه اليها .

ان الكنيسة السريانية الارثوذكسية ، ومدارج البحر الميت، والمطران صموئيل ، ثلاثة كواكب ، أضاءت شرقنـا العزيز ، فدهش الذين أتوا بالبهتان ، ممن افتروا الكذب على المطران أو المدارج أو الكنيسة ، إما حسداً وإما حقدا، وربما للسببين معا ، فكانوا هم الخاسرون .

ألا برَدت سرورا أعين المعلمَين العظيمين :اوريجانس الاسكندري (١٨٥ ــ ٢٥٤م)وطيمثاوس الاول ، بطريرك الكنيسة النسطورية (٧٧٨ ــ ٨٢٣ م) اللذيْن طـالمـا وصّيا بالبحث والتنقيب عن أسفار العهد القديم وجمعها .

لقد غمرني هذا الكتاب النفيس : « كنز قمران » (مدارج البحر الميت) بفضله ، وبالغ في الاحسان إليّ ، اذ هو أرشدني وهداني الى طريق ليس فيه هوَج ولا جنون ، فبان لي اولئك الأسينيون اليهود ، الذين انسحبوا « الى منطقة اليهودية في شمال البحر الميت قبل المسيح بمائتي سنة » (ص ٢١٠) ، ليبنوا ، هناك ، مدينتهم الفاضلة ، التي تآمر عليها يهود أورشليم ورفضوها ، ولكن « البحيرة الملعونة » ، التي ملّحها لا على ذيلها فحسب ، كما يقول المولّدون ، بل على ركبتيها أيضا ، انتقمت منهم وخذلتهم ، فانقرضوا ولم يبق منهم أحد . أما كتبهم — المدارج فقد عجزت عن تدميرها نوائب الدهر .. والبحيرة المنتنة .. واليهودية المادية المتعصبة .

ليعلم المؤرخون ومؤلفو الموسوعات العالمية أن يشوع صموئيل ، المطران العربي كما دعاه علماء اليهود ، سيذكر كلما ذُكرت الاسفار القدسية ، واليهودية الاسينية المثالية ، ومغارة عين فشخة ، وأريحا ، وكل منطقة البحر الميت . بل كلما ذُكر دير مار مرقس — « علية صهيون » (ص ٧٨) في أورشليم أم الكنائس (إمو دعيدوتو) (ص ١٧٧) ، والمركز الكنسي الارثوذكسي في ولاية نيوجرزي الاميركية ، على الاطلسي ، حيث جاهد المطران صموئيل ويجاهد من أجل شعبه السرياني العظيم وكنيسته المجيدة .

١٩٨٥/٣/٣٠

(٥)
البروتستانتيّة الشرقيّة
تصحح ما "أفسدته" البروتستانتيّة الغربيّة

جاء في كتاب « الصهيونية غير اليهودية »(جذورها في التاريخ الغربي) [١] للدكتورة ريجينا الشريف [٢] ما يلي :

« يبدو لي أنه أمر مناسب وجدير بالثناء أن يرغب

(١) ٢٨٦ صفحة من القطع الوسط ، مع ثبت للمراجع المختارة ، كتب ومطبوعات حكومية ودراسات خاصة (Books , Government Publications and Special Studies) ترجمة : أحمد عبد الله عبد العزيز ، منشورات عالم المعرفة ـ الكويت رقم (٩٦) ، ربيع الاول ١٤٠٦ ﻫ / ديسمبر (كانون الاول) ١٩٨٥ .

(٢) د. ريجينا الشريف : حصلت على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من الجامعة الاميركية بواشنطن عام ١٩٧٤ ، التحقت بعد تخرجها مباشرة بمؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت كباحثة رئيسية . كتبت عدة مقالات وحررت بعض الكتب المتعلقة بالصراع العربي ـ الاسرائيلي ، منذ عام ١٩٨١ عملت باحثة في جامعة الكويت .

الشعب اليهودي في كل انحاء العالم أن يكون هناك وطن قومي لافراد جنسه الراغبين في العودة الى الارض التي كانت مهدا لهم والتي عاشوا وجهدوا فيها آلاف السنوات.. انني لم أحتمل أبدا فكرة وقوع القدس وفلسطين تحت سيطرة المحمديين ... ان بقاء القدس وفلسطين المقدّسة بالنسبة لليهود ... والارض المقدسة بالنسبة لكل الامم المسيحية الكبرى في الغرب في أيدي الاتراك كان يبدو لي لسنوات طويلة وكأنه لطخة في جبين الحضارة ومن الواجب إزالتها » (٣) .

إنّ هذه الكلمات هي منتزَعة من خطاب للسناتور الجمهوري هنري كابوت لودج (Henry Kabot Lodge) من ماساشوستس ، ألقاه في بوسطن في يونيو (حزيران) عام ١٩٢٢ ، حسبما ذكرت الدكتورة الشريف نفسها (٤) .

ويفتتح الدكتور كمال سليمان الصليبي الفصل الخامس عشر (الارض الموعودة) من كتابه الجديد « التوراة جاءت من الجزيرة العربية » (٥) فيقول :

---

(٣) الصهيونية غير اليهودية ص ٢١٨

(٤) المصدر المعتمد هو الآتي :

Henry Cabot Lodge , Speech reported in New Palestine , Vol. 2 — 26 May 1922 (?) , P. 330 .

(٥) لدينا الترجمة العربية ، نقلها عن الانكليزية عفيف الرزاز وراجعها وناقشها المؤلف نفسه. /٣٠٥/ صفحات =

« الوعْد الذي قطعه « الرب » يَهْوه لابرام العبراني ، على ما تقوله التوراة العبرية (التكوين ١٥ : ١٨) ، جاء بالترجمة العربية كما يلي : « لنسلِك أعطي هذه الارض من نهر مصر (نهر مصريم) الى النهر الكبير (هـ ـ نهر هـ ـ الجدول) نهر فرات (نهر فرت) » . « فهل يُعقل أن يكون بنو اسرائيل قد تصوّروا في زمانهم ، وهم الشعب الصغير الذي قضى معظم تاريخه في ظل الامبراطوريات المصرية والعراقية العظيمة ، بأن أرضهم الموعودة تمتد فعلا من النيل المصري الى الفرات العراقي لتشمل معظم

= من القياس الوسط مع كشاف أسماء الاعلام والاماكن والموضوعات (من ص ٣٠٦ الى ص ٣٦٤) . صمم الغلاف : نجاح طاهر ، رسم الخرائط : أحمد شاه دُرّاني وميشال كاليوس ، خطوط الخرائط : فؤاد بليبل . أعدّ الكشاف الدكتور يوسف ق. خوري ، التنفيذ والماكيت : شركة الخدمات الفنية للطباعة . منشورات مؤسسة الابحاث العربية ش.م.م. بيروت / أيلول ١٩٨٥ .

واذ يقول ألفرد وميمر : « كان عليه (د. الصليبي) أن يقول « شبه الجزيرة العربية » كي لا يقع في خطأ جغرافي يتكرر من العنوان حتى آخر صفحة » (؟) (النهار العربي والدولي ٩ كانون الاول ١٩٨٥ / العدد ٤٤٩ ص ٤٦) ، نبادر الى القول بأن العنوان العربي هو ترجمة عن الاصل الانكليزي (The Bible came from Arabia) والعربية ، هنا ، معناها : شبه الجزيرة العربية ، وكما في متن الكتاب ، بدءا من المقدمة وحتى آخر صفحة ، وليس كما يحسب الفردومي ، ولعل حسن التخلص من اطالة العنوان على الغلاف هو الذي فرض حذف كلمة « شبه » عن الغلاف فحسب .

بلاد الشرق الادنى ، بما فيها الشام بأسره ؟ أو هل إن للوعد الوارد في سفر التكوين تفسيرا جغرافيا آخر؟»[٦].

فاذا كان الهدف من الكتاب الاول هو وصف ظاهرة اختارت المؤلفة ، الدكتورة ريجينا الشريف ، أن تطلق عليها اسم « الصهيونية غير اليهودية » (Gentile) أو

(٦) التوراة جاءت من الجزيرة العربية ص ٢٥٩
في الفصل الرابع « البحث عن جرار » يعرّف الصليبي بـ (نحل مصريم) فيقول : الاسم هذا بالعبرية نحل مصريم ، أي « وادي مصريم » ، ويعتبر أنه يشير الى وادي العريش الذي يفصل فلسطين عن سيناء . ونحل مصريم هو في الواقع الاسم التوراتي لوادي لية بمنطقة جيزان ، حيث هناك الى اليوم قرية اسمها المصرم (ص ٩٢ / حاشية ٢).
وفي دراسة للمحامي السوري الاستاذ محمد عبدالقادر عياش (صاحب مجلة صوت الفرات ورئيس تحريرها ، رئيس مركز الدراسات التاريخية بدير الزور) عنوانها « مشاركة مدن الفرات في سوريا » يعرّف بالفرات فيقول : « الفرات هو الاسم الذي عرفه العرب قبل الاسلام ، للنهر العظيم ، وهو تعريب صيغ قديمة له . في السومرية (بورانونو) و (بوراتن) . وفي الآشورية (بوراتو) . وفي العبرية (فرات) . وفي الآرامية (فرت) و (فروت) . وصار العرب يطلقون لفظة الفرات على كل ماء عذب كصفة » .
أضاف : « جاء لفظ الفرات في التوراة في سفر التكوين : (وكان نهر يخرج من عدن ، فيسقي الجنة ، ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس منها الفرات) .
«للفرات عند العرب ، منذ القديم ، منزلة عظيمة ، وحرمة كبيرة . فهو عندهم من أنهار الجنة . ورد ذكره في عدة أحاديث نبوية ، منها الحديث : (ينزل في الفرات كل يوم مثاقيل من بركة الجنة) .
المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، المذكور سابقا ، ص ٢٥٦

(Non-Jewish Zionism) التي « تعزى (اليها) قصة نجاح الصهيونية (اليهودية) »[٧] ، فان كتاب الدكتور كمال الصليبي هو « بحث في جغرافيا التوراة على أسس جديدة وخلاصته أن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين بل في غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الاحمر ، وتحديدا في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن »[٨] ، على أن « بني اسرائيل (هم) من شعوب العرب البائدة ، أي من شعوب الجاهلية الاولى . وقد نشأت الديانة اليهودية بين ظهرانيهم ، ثم انتشرت من موطنها الاصلي ، ومنذ وقت مبكّر ، الى العراق والشام ومصر وغيرها من بلاد العالم القديم »[٩] .

وبما أن بحثنا — هنا — ليس من قبيل المقارنة بين كتاب الشريف وكتاب الصليبي ، بل هو مداخلة ، ولو متواضعة ، حول الثاني ، سنكتفي من الاول بما قالته الدكتورة الشريف في موضوع « نشأة الصهيونية غير اليهودية » حيث نقرأ :

« ظهرت الصهيونية على مسرح أوروبا السياسي لأول مرة كأيديولوجية سياسية شاملة وحركة سياسية منظمة في أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنها « كفكرة » سبقت

(٧) الصهيونية غير اليهودية ص ١١
(٨) (٩) الصليبي : ص ١١

الصهيونية اليهودية اذ يعود تاريخها الى ما قبل ذلك . لم تنشأ الفكرة الصهيونية ، بما في ذلك أسطورتها الاساسية ، في هذه الفترة ولكنها تعود في تاريخها الى ثلاثمائة عام قبل المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في بازل عام ١٨٩٧ حين التفّت مجموعة من اليهود الاوروبيين حول اللواء الصهيوني » .

أضافت الدكتورة ريجينا :

« وقد اتخذ النسيج الصهيوني شكله خلال القرون الاربعة لتاريخ أوروبا الديني والاجتماعي والفكري والسياسي نتيجة تداخل خيوط كثيرة مختلفة من الثقافة الغربية ، وفي طليعتها الخيوط الدينية . وعلى ذلك فالتعاليم الصهيونية التي تسرّبت للتاريخ الغربي وكان أكثرها وضوحا ما تم عبر حركة الاصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر » (١٠) .

في الحقيقة، ان البروتستانتية (Protestantism) تؤدي، بمعناها اللغوي، الى الاحتجاج والاعتراض (Protestation) أي الى حرية القول والرأي والعبادة ، بل الى الدفاع عن هذه الحرية وصونها واحترامها . والبرهان على ذلك هو أن البروتستانتية الدينية أصبحت « بروتستانتيات »

---

(١٠) الشريف : ص ٢٦/٢٤ .

كالموحدين (Unitarians) والاصوليين (Fundamentalists) والكويكرز (Quakers) ودعاة المساواة ـ العدول (Levellers) والمشيخيين (Presbytarians) والابرشيين (Congregationalists) والآراستية (Erastiantism) والمنهجية (Methodism) والبيوريتان (المتطهرون) (Puritan) الفيلادلفيين (Philadelphians) والاخوة في المسيح (Chrestiadelphians) والسبتيين ، الادفنتست (Adventists) والمعمدانيين (Baptists) ودعاة التقوى (التقويون) (Pietists) الخ. حتى ان المرجع الامريكي المعروف، التقويم العالمي (World Almanac) قد ذكر أن الولايات المتحدة كان بها ٢٥٦ هيئة دينية خلال عام ١٩٤٧ مثلا . وهذا التشرذم هو ، في رأينا ، نتيجة العمل بمبدأ احترام آراء الآخرين ومعتقداتهم من جهة ، والرغبة ، عند البروتستانتيين أنفسهم ، في التسلط والاستبداد من جهة أخرى ، ولو كان من الفرِق والمذاهب المنبثقة من اللوثرية الالمانية والكالفينية الفرنسية والاسقفية البروتستانتية أو كنيسة انجلترا ، بدعة هنري الثامن ، فضلا عن مصادر أخرى قوية ومؤثرة ولا سيما منها الاقتصادية والاجتماعية التي دعيت النزعة القومية ، بل « كراهية » روما وازدرائها . ولعل أول من

أطلق فكرة الانفصال عن روما هو مارتن لوثر الذي سمع له الالمان والانجليز والاسكتلنديون والهولنديون ، حينما صرخ بأعلى صوته :

« لان روما هي أخطر لص وأكبر سارق ظهر على سطح الارض ، في الماضي أو في المستقبل ... آه لبؤسنا نحن الالمان ، لقد خدعنا !! وُلدنا لنكون سادة ، ولكننا أجبرنا على أن نحني رقابنا تحت نير طغاتنا ... لقد حان الوقت لكي يكف الشعب التيتوني المجيد عن أن يكون دمية في يد بابا روما » .

وكان من الطبيعي أن يستغل يهود أوروبا هذه « الفرصة السعيدة » ، لينتقموا مرة أخرى من المسيح والمسيحية ، ويخرجوا من عزلتهم التي ارتضوها لأنفسهم على مدى أجيال عديدة . وربما بسبب العنصر اليهودي ، الذي تعاطف مع الكنيسة القومية ، ظلت البروتستانتية تلد شيعا وأحزابا « تحتج على المحتجين (Protestants) الاوائل » ، على قول الاسقف والكاتب الفرنسي بوسيه .
ولقد ادعى المؤرخ برنارد لويس «ان اليهود شعب قادر على استنباط الاشياء الجديدة ، (كما) شهد لهم بذلك اصدقاؤهم وأعداؤهم على حد سواء (وهم) الذين اخترعوا الرأسمالية والشيوعية ، (حتى ان) بعضهم قال

إنهم (اليهود) هم الذين جاؤوا بالمسيحية والاسلام»(١١) .

وان شئنا أن تتفحص عن « ذنوب » روما ، آنذاك ، فلا بد من التأكيد على انه « لم يكن في الفكر الكاثوليكي التقليدي (قبل عهد الاصلاح الديني) أدنى مكانة لاحتمال العودة اليهودية الى فلسطين ، أو لأية فكرة عن وجود الأمة اليهودية » (١٢) ، بل « كان القساوسة الاوائل يرفضون التفسير الحرفي للتوراة ويفضلون الاساليب الاخرى للتفسيرات اللاهوتية وبخاصة التفسيرات المجازية التي أصبحت الاسلوب الرسمي للتفسير التوراتي كما وضعته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وكان يُعتقد ان الفقرات الواردة في التوراة، وبخاصة في العهد القديم ، التي تشير الى عودة اليهود الى وطنهم لا تنطبق على اليهود بل على الكنيسة المسيحية مجازا . أما اليهود فانهم ، طبقا للعقيدة الكاثوليكية الرسمية ، اقترفوا إثماً فطردهم الله من فلسطين الى منفاهم في بابل » (١٣) .

---

(١١) انظر مراجعة موسى حمود لكتاب المؤرخ برنارد لويس « الغرب والشرق الاوسط » مجلة « الفكر العربي » ،العدد ٣٢ ، المذكور سابقا ص ٢٩٠ .
(١٢) ريجينا الشريف ص ٢٤/٢٦
(١٣) المصدر نفسه .

على أن لا ننسى التفسير الاقتصادي للثورة البروتستانتية السابق على التفسير الماركسي . « ويقضي هذا التفسير بأن الكنيسة الكاثوليكية تضخمت ثرواتها بصورة هائلة منذ قرون العصر الوسيط الديني وذلك بفضل المنح والهبات ومواريث الاثرياء الذين سعوا لكي يضمنوا لانفسهم قصورا في الجنة. ولكن الملوك والامراء وأتباعهم ، أو الطبقة الحاكمة باختصار (في انجلترا كما في المانيا) ، والتي كانت بحاجة الى المال ، اعتادت أن تنظر بعين الحسد الى ثروة الكنيسة . وتلقف هؤلاء أفكار لوثر النظرية وأفكار مريديه ، واتخذوها وسيلة لكي يبدو نهب وفساد رجال الدين أمرا جللا في عيون العالم »[١٤] .

وكون البروتستانتية حركة تنزع الى السلطة والحرية أي الانفصال عن روما (الفاتيكان) ، فان الصراع بينها وبين الكثلكة، انما هو بمثابة الحرب بين النظرية المسيحية الشمولية العالمية (Cosmopolitan) المتمثلة في الكنيسة الرومانية التي تعتبر العالم كله وطنا لها ، وبين النظرية القومية (Nationalist) التي انطلقت من ألمانيا وانتشرت في كل انحاء اوروبا الى أن امتدت ، مع الايام،

---

(١٤) انظر الفصل الثاني من تشكيل العقل الحديث، موضوع الفصل الثالث من هذا الباب ، (من ص ٧٨ الى ص ١٢٢) .

نحو أميركا وافريقيا وآسيا ، وحيث وُجدت الارثوذكسية والنسطورية وُجد المناخ المؤاتي والمناسب ، مما شجع البروتستانتية على التحرك بدون مضايقات تذكر[١٥] . فليس غريبا أن تلقى هذه النظرية القومية عند اليهود ، برغم الوضع المأسوي الذي كانوا فيه ، القبول والاستحسان ، وهكذا اتفق الشعور الديني الاوروبي الجديد والشعور اليهودي بالاضطهاد[١٦] ، فامتزجا حتى بدا الواحد كأنه يكمل الآخر ، واستمرا متلاحمين الى أن تمَّت ولادة الصهيونية الحالمة بالوطن القومي — الديني ، ثم الصهيونية

---

(١٥) عن النشاط التبشيري الالماني في فلسطين بين عامي ١٨٤١—١٩١٨ ،مثلا، كتب الدكتور علي محافظة دراسة تمتاز بالموضوعية والدقة ، تم نشرها في « دراسات تاريخية » العدد الثاني رمضان ١٤٠٠ هـ / حزيران ١٩٨٠ المذكورة سابقا (من ص ٥٣ الى ص ١٠٢) نرجو الرجوع اليها .

(١٦) تقول الدكتورة ريجينا الشريف : « لم تكن أوروبا قبل عهد الاصلاح الديني تعتبر اليهود الشعب المختار الذي قدِّر له أن يعود للارض المقدسة ، واذا كان اليهودي مختارا لأمر فانه اللعنة . وكان اليهود يعتَبرون مارقين ، ويوصمون بأنهم قتلة المسيح . ولم تكن هناك ذرة من حب عاطفي للجد القديم للجنس العبري ، كما لم تكن هناك بارقة أمل في اعادة بعث اليهود روحيا أو قوميا . ولم تكن هناك ادنى فكرة عن تملك اليهود لفلسطين . كانت الصهيونية غير اليهودية غائبة تماما عن أوروبا في العصور الوسطى . وكانت اسرائيل تعني مجرد اسم لديانة ، بل وديانة دنيا ، ولم يكن هناك أية فكرة من الممكن أن تكون « لاسرائيل » صفات قومية » (ص ٢٩) .

الفاعلة من أجل تحقيق هذا الحلم ، ثم الصهيونية الدولة التي دُعيت « اسرائيل » .

ومن المؤكد أن ليس الشعور الديني الاوروبي وحده من وراء الصهيونية ، بل هنالك أيضا الدوافع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وما نشأ عنها من صراع بين البورجوازيتين الصغيرتين : المسيحية الاوروبية واليهودية، الامر الذي جعل الدول الاوروبية ، بمساعدة البورجوازية اليهودية العليا ، تستعجل تهجير اليهود ـ صغار اليهود ـ أو توجيههم نحو الشرق ، وكيفما كان . وكما دلّت الاحصائيات الرسمية فان « اليهود كانوا يملكون من أرض فلسطين عام ١٩٢٠ ، ما نسبته ٢،٥ بالمئة من مجموع مساحتها البالغة ٢٧،٠٢٧،٠٣٢ دونماً . وكانت نسبة ما اشتروه ووهبته لهم حكومة الانتداب (البريطاني) حتى عام ١٩٤٥ لا تزيد عن ٣،٥٦٪ من مجموع الارض الفلسطينية . أي ان مجموع ما كانوا يملكونه حتى هذا التاريخ هو ٦،٠٦٪ . وحسب أعلى التقديرات الرسمية تملّك اليهود أقل من ١٪ ما بين عامي ١٨٤٥ و ١٩٤٨ . وهذا يجعل مجموع ما كانوا يملكونه لا يزيد عن ٧٪ من أرض فلسطين » [١٧] .

---

(١٧) الدكتور محمود السمرة : فلسطين الفكر والكلمة ، الدار المتحدة للنشر ، طبعة أولى ١٩٧٤ ، ص ٩١ =

نسارع الى القول ان الاستيطان اليهودي ، أو الحلم الصهيوني ، ما كان ليتحقق لولا الانهيار الشامل الذي أصاب الامبراطورية العثمانية في الصميم . ومثلما القرار القورشي (الفارسي) القاضي برجوع اليهود الى فلسطين[١٨]، كذلك القرار الاوروبي ـ الاميركي ، الذي سمح بتأسيس الدولة الاسرائيلية الحديثة .

واذ يضع مؤرخ لبناني كتابا يقلب مفاهيم سائدة ومسلّمات ، فلا بد أن يعاني هذا المؤرخ الصعوبات والمتاعب والهموم والانتقادات القاسية العنيفة ، التي لن يكون مصدرها علماء يهود فحسب ، بل مسلمون أيضا

= وحسب آخر التقديرات الاسرائيلية الصادرة منذ بضعة أشهر فان سكان اسرائيل والاراضي العربية التي تحتلها منذ العام ١٩٦٧ ، وصل الى ٥،٥٦ مليون نسمة منهم ٣،٥١ مليون يهودي و ٢،٠٥ مليون من العرب .

(١٨) قورش الثاني الكبير (٥٥٧ ـ ٥٢٨ ق . م .) والبعض يقول انه توفي عام ٥٢٩ ق.م. استولى على بلاد ماداي وآسيا الصغرى وبابل . اذن لليهود بالعودة الى فلسطين .

ومن حق أن نشير ، هنا ، الى : « مشاريع الاستيطان اليهودي » للدكتور أمين عبد الله محمود (انظر الفصل الثاني من الباب الثاني ص ٢٣٠) ، و « البحر الاحمر والصراع العربي ـ الاسرائيلي ، التنافس بين استراتيجيتين » للدكتور عبدالله عبد المحسن السلطان (انظر الفصل الثالث من الباب الثاني ص ٢٤٨) ، و « دبلوماسية التأزيم ، فشل القرار الاميركي في الشرق الاوسط » للدكتور أنطوان شيبان ـ بيروت (أنظر الفصل الاول من هذا الباب ص ٥٠٣) .

وغربيون علمانيون ومسيحيون وشرقيون ، وهو ، على كل ، أمر « طبيعي » في عالم تتحكم فيه المصالح والعواطف والنظريات العنصرية والتحالفات القائمة على الربح والمنفعة .

فمنذ سنة ، وفيما كان « التوراة جاءت من الجزيرة العربية » لا يزال في المطابع ، تناقلت الصحف المحلية والعالمية بعض الاخبار عنه ، فردّ عليه مسلمون شرقيون ، منهم : الدكتور عمر فروخ ، في مجلة « الرسالة » البيروتية (صاحبها فيصل السمّاك) [١٩] ، والدكتور محمود الزايد ، أستاذ التاريخ في الجامعة الاميركية ، بمقالة نشرتها جريدة « الشرق الأوسط » ، الصادرة في لندن [٢٠] ، « الا ان أيا من هذين الردين لم يكن كافيا أو مقنعا ، اذ ان الباحثيْن : فروخ والزايد لم يطّلعا (حينذاك) على هذا الكتاب ، وانما اكتفى كلاهما بما قاله الدكتور الصليبي في أحاديث صحافية عقدها معه صحافيون لبنانيون ، ولا سيما في (السفير) و (الشراع) [٢١] البيروتيتين » .

---

(١٩) العدد ٦٤ ، السنة الثامنة ، ربيع الاول ١٤٠٥ هـ / كانون الاول ١٩٨٤

(٢٠) في عددها الخميس ٣١ كانون الثاني ١٩٨٥

(٢١) أنظر كتابنا « رسالتي الى المسيحيين » ـ سلسلة نافذة على المعرفة ـ ١ الطبعة الاولى ١٩٨٥ ، ص ٣٩٨ / ٣٩٩ حاشية رقم (١٤) .

ولما أبصر هذا الكتاب النور ، نشرت جريدة « الغارديان » (Guardian) في عددها ٢٥ تشرين الاول ١٩٨٥ ، مقالة تحت عنوان « اسرائيل في المكان الخطأ » [٢٢] ، وهي عيّنة من التعليقات الغربية على كتاب الصليبي ، جاء فيها :

« الاسرائيليون يقولون « حوافزها سياسية » . يجدها طريفة ، وعلماء التوراة يشجبونها على انها « هراء تافه » ، والسعوديون يصفونها بأنها « مؤامرة صهيونية » ، لكن البروفسور كمال الصليبي ، بأسلوب المؤرخ الهادىء والرصين ، يصر على صحة نظريته : اسرائيل في المكان الخاطىء » .

أضاف الكاتب يقول :

« كان الصليبي (وهو بروتستانتي لبناني) يعرف طوال الوقت انه سيهاجَم بقسوة ، وكتب يقول « كل معرفة حقيقية تتضمن درجة من الجهل » وكان مستعدا بشكل خاص لان يُذَمّ من قبل علماء الآثار الذين بنوا رصيدهم على الاكتشافات « التوراتية » في فلسطين .

« وفي الواقع فان علماء العبرية هم الذين تصدوا له « هراء تام من البداية حتى النهاية » قال أحد الاكاديميين الذين قرأوا المخطوطة (الدكتور جان داي) فقد وجد أن

---

(٢٢) أنظر ترجمة حسان حيدر . « السفير » ٣١ / ١٠ / ١٩٨٥

نقْل الصليبي لاسماء الاماكن « غير مقبول بناء لاسس فقه اللغة التاريخي » .

وتابع كاتب « الغارديان » يقول :

« وقد قدمتُ نسخة المراجعة خاصتي الى البروفسور امرتون استاذ العبرية في جامعة كامبريدج . وقد وجد الصليبي مخطئا في النظرة الى العبرية : فهي لم تكن لغة ميتة في أوائل القرون الوسطى ولم تكن حروفها الصوتية تضاف تخمينا ، كما ان فلسطين ليست خالية من النصوص والمخطوطات التي تثبت أن أحداث التوراة وقعت هناك »[٣٣]

وفي بيروت ، صدر للقس غسان ايليا خلف كتاب عنوانه «لبنان في الكتاب المقدّس»[٣٤] حاول مؤلفه نبش جميع شواهد الكتاب المقدس المتعلقة بلبنان ، وكتب الاستاذ سهيل ديب ، في « النهار » (اليومي) [٣٥] ، بحثاً ايجابيا لا يخلو من الملاحظات ، ومما قاله : « وأفرد الصليبي فصلا لدراسة عبارة « ملكيصادق » ، الى جانب

(٣٣) المصدر نفسه .
(٣٤) دراسة لاهوتية تاريخية مع ملحق « لبنان في كتب الايوكرينا » وخرائط ، وثبت للمصادر والمراجع ، وفهرس شواهد الكتاب المقدس : العهد القديم والعهد الجديد ، وفهرس الاعلام ، منشورات دار منهل الحياة — منصورية المتن — لبنان الطبعة الاولى ١٩٨٥
(٣٥) الجمعة ١٩٨٥/١٢/٢٦

دراسته الموسوعية والفيلولوجية والفونولوجية[٣٦] الفذّة لعبارات وكلمات وأسماء في التوراة . ومعرفته المعمّقة باللغات السامية وخلفيته العلمية المتينة أفسحتا له التعمق في أصل هذه العبارات والاسماء ، فاعادة نظر جذرية في التاريخ وجغرافية التوراة بالعبرانيين (كذا) »[٣٧] .

وناقش الاستاذ ألْفرد مُر وزوجته الشاعرة السيدة مي، في « النهار العربي والدولي »[٣٨] ، ما ورد عن لبنان في « التوراة جاءت من الجزيرة العربية » ، بأسلوب طغت عليه العاطفة ، حتى انهما قالا ، بوضوح وصراحة : «لا يا صاح، لا ، كتابك لن يرضي أحداً ... لأنه لا يرضي الحق»[٣٩] . (؟!) وقالا أيضا : « لا ، لم يعد في امكاننا احتمال من « عرّبوا فخرّبوا » . كفانا قلب الامور العظمى رأسا على عقب . كفانا اجبار لبنان والشرق ، وربما العالم على التصرف كمن يمشي على رأسه وقدماه الى فوق . كفانا تثبيت حقوق مختلفة للآخرين على أرضنا ، حقوق تجعل من شعبنا فريسة دائمة للطامعين »[٣٠] .

(٣٦) الفيلولوجية (Philology) أ : فقه اللغة التاريخي والمقارن . ب : « دراسة اللغة وعلى الاخص بوصفها أداة التعبير في الادب وحقلا من حقول البحث يلقي ضوءا على التاريخ الثقافي » .
— الفونولوجيا (Phonology) : علم الاصوات الكلامية .
(٣٧) سهيل ديب المصدر نفسه .
(٣٨) انظر حاشية رقم (٥) من هذا الفصل .
(٣٩) (٣٠) المصدر نفسه .

ولأن « النهار العربي والدولي » دعت الى مناقشة هذا الكتاب ، استمر الباحثون في الكتابـة ، فرأى الاب كميل مبارك ، في موضوع « ملكيصادق ملك كاهن أم .. أكلة طيبة ؟ » ، ان كتاب الصليبي « المقسوم الى ١٧ فصلا بالاضافة الى مقدمة وخاتمة وملحق (هو) عقد محكـم الرصف ، كل حبة فيه مربوطة بالأخرى ربطا وثيقا ،حتى انك اذا أردت فرط العقد ، يكفيك أن تفرط منـه حبـة واحدة »[٣١] . و « الحبة » التي « فرطها » الأب مبارك ــ حسب اعتقاده ــ هي قضية ملكيصادق ، حيث أكـد (الاب مبارك) « ان الأسم (صادق) المضاف الى (ملكي) ورد في اسم آخر لملك أورشليم أيام دخل يشوع بن نون أرض كنعان ألا وهو (ادوني صادق) (يشوع ١٠و١١) وادوني قد تعني الاول أو السيد ، فيصبح اسم الملـك ، الاول الصادق ، أو السيد الصادق ، وهذا يؤيد الـرأي القائل ان ملكي صادق اسم علم وليس أكلا طيبا أو اسما لمكان ، علما أن الدكتور الصليبي لم يأت على ذكر«ادوني صادق » لا نفياً ولا اثباتاً »[٣٢] .

بعـد هذه الجولة السريعة على منتقدي الـدكتور

---

(٣١) النهار العربي والدولي ٣٠ كانون الاول ١٩٨٥ العدد ٤٥٢

(٣٢) الاب مبارك : المصدر نفسه .

الصليبي ــ لا أدّعي أنني وقعْتُ على أعمال منتقديـه كافة ــ ماذا يمكننا أن نقول ؟

فكرة واحدة راودتني حينما كنت أقرأ هذا الكتاب الحدث ، وهي أن الجغرافيا اذا ما عُرفت تماما عُرف ما سواها[٣٣] ، وكذلك اللغة.وظهرت لي النهاية ــ كما رسمها كتاب الدكتور الصليبي ــ تعسة وسعيدة في آن معا .

كان المكان معروفا على الظن ، فصار معلوما علـى اليقين . وكانت الاسماء غامضة أو مستعصية فصـارت واضحة وهيّنـة . ولكن هـل باستطاعتنا أن نصدّق وكيف ؟

انه لزلزال حقا .

يقول الدكتور الصليبي :

« اننا نعتبر في العادة ان الدقة والامانة في العمل هي من شيم أهل الاختصاص . وفي حقل مثل حقـل التاريخ القديم ، قليلون منا هم القادرون على النظر في صحة مـا يقوله الاختصاصيون . فليس كلنا عالم آثار ، ولغـاتُ

---

(٣٣) يرى القاص السوفياتي غوغـول أن الجغرافيـا هي « عامل هام في دراسة التاريخ ، اذ على طبيعة الارض تتحدد طرائق الحياة ، بل وشخصيات الناس انفسهم » . خرّجه محمد علي نصر الله في « تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام » المذكور سابقا ، ص ٧٢ .

العالم القديم ، بكتاباتها الغريبة ، هي ألغاز " بالنسبة لمعظمنا ولهذا ، عندما يقول الاختصاصيون رأيهم في موضوع ما نأخذ ما يقولون على انه كلام ثقة ونترك لهم وحدهم أن يختلفوا حول النقاط القابلة للجدل » .

أضاف :

« وهذا ما يمكّنهم من أن ينفذوا بأخطائهم دون حساب في المسائل التي يختارون الاتفاق عليها لسبب أو لآخر . وهذا يصل بالفعل حد الفضيحة في ميدان علم الآثار التوراتي وفي دراسة النقوش والنصوص القديسة التي درج اعتبارها رديفة للتوراة » (٣٤) .

كم من العلماء التوراتيين سيتنازل عن « حقه » ويعترف بما حققه الدكتور الصليبي على صعيد التاريخ والعلم ؟

ربما لا أحد .

ولكن الزمان وحده سيحكم ويقرر . ذلك لان الاعمال العظيمة تفرض نفسها مهما تطاولت عليها الازمنة والاحداث .

---

(٣٤) الصليبي ، الفصل الخامس : « ما لم يكتشف من فلسطين » ص ١٠٥

منذ حوالى أربعين عاما قال جيرالد دي غوري (Gerald de Gaury) وهو من آخر الرحّالة البريطانيين الذين وصفوا شبه الجزيرة العربية :

« هناك في وديان عسير واليمن والحجاز خرائب قد تقدم ذات يوم لعلماء التاريخ وللعالم معرفة أكبر بالدول القديمة ... و ... بالممالك الاقدم لشبه الجزيرة العربية، وقد تفصح بوضوح عن معاني الكتب المبكّرة للتوراة وعن معاني التلميحات التاريخية في القرآن . ومن يدري أية كنوز تاريخية ترقد دفينة في خرائب عسير الدارسة؟» (٣٥)

ها قد بدأت نبوءة دي غوري تهز العالم !

البروتستانتية الشرقية تصحّح ما « أفسدته » البروتستانتية الغربية . فما أعظم الشرق حرا .. وما أنبل الفكر الشرقي !!

« في يوم ما ، قد يؤكد علم الآثار التحديد المقترح لموقع « أورشليم » التوراتية باعتبارها القرية الحالية ال شريم ، في مرتفعات النماص . والشيء الاكيد هو أن « مدينة داود » ، التي هي أم صمدة ، في رجال ألمع ،

---

(٣٥) الصليبي ، ص ١٠٤ عن :
Gerald de Gaury , Arabia Phoenix (London 1946), P. 119 .

كانت مكانا مختلفا تماما عن « أورشليم » هذه »[٣٦] .

لا شك أن « المتضررين » سيغضبون ويحقدون ، وربما أحرقوا هذا الكتاب لكي تبقى « اورشليم » هي أورشليم ، و « صور » (صَرْ العبرية) هي صور الفينيقية، و « صيْدن » أو زيْدن « العسيرية » هي الميناء اللبناني صيْدون ، وحمْرن أو خمْرن (حمْران أو خمران) في جنوب الحجاز وعسير ، هي حرمون أو جبل الشيخ اللبناني المكلل بالبياض والصفاء الطبيعيين . ولكي تبقى فلسطين، كل فلسطين ، هي « الارض الموعودة » و (هـ يردن)، الجرف الرئيسي لسراة عسير الجغرافية ، هي الاردن ، أو الاراضي والاجزاء المجاورة من وادي نهر « الشريعة » و « عزة » ، التي في وادي أضم من منطقة الليث ، هي غزة الواقعة على البحر المتوسط . هؤلاء وأولئك « المتضررون » بعضهم يشبه بعضا في كل زمان ومكان .

ولكن الجغرافيا الصامتة آن لها أن تتكلم . فالذي لا يمكنه الرد والتصدّي بموضوعية ومنطق ما عليه الا أن ينتظر ، ولو طال هذا الانتظار ، ودائما الطريق الى الحقيقة صعب وخطر .

لستُ خائفا على لبنان من كتاب الدكتور صليبي ،

---

(٣٦) الصليبي ، الفصل التاسع : « اورشليم ومدينة داود » ص ١٩٢

بل هو زادني ثقة واطمئنانا ، اذ يدعو الى اعتبار لبنون سِفْر زكريا هو لبنان اليمن ، وليس لبنان الشام ، ويرى أن النار التوراتية قد أكلت « عرعر لبنان » و« بطم البثنة» في « جبل نيقا » بداخل منطقة جيزان ، لا أرز لبناننا الحبيب ، على ما جاء في الفصل السابع من كتابه (ص١٥٢/ ١٥٣) .

مجد لبنان أن يبرهن الدكتور الصليبي أن أحداث التوراة كانت بعيدة عنه ، وهي لا تمتّ اليه بصلة أبدا .

ويبدو أن أهم ما في « التوراة جاءت من الجزيرة العربية » ، بالنسبة الى لبنان ، هو التأكيد على ملكية لبنان لارضه ومياهه وعلى حقه في الحرية والاستقلال . فلماذا نصرّ على أن « أبهى قاعات قصري داود وسليمان، أعظم ملوك اسرائيل ، كانت مكسوّة بالارز وترتكز على أعمدة من أرزه، حتى لكأنها غابة من غابات لبنان»[٣٧] ؟!

---

(٣٧) الفرد ومي مر ، المصدر السابق .

وفي كتاب القس غسان خلف (ص ٤٨) تفسير لآيتين من اشعيا كما يلي :

ـ الآية الاولى (٤٠ : ١٦) : « ولبنان ليس كافيا للايقاد وحيوانه ليس كافيا لمحرقة » .

ـ التفسير : « ترد هذه الآية في قرينة تتحدث عن عظمة الرب وجلاله . فهو الإله الذي كل ما في لبنان من خشب ، وهو المشهور بغاباته ووعره ، لا يكفي لايقاد ذبيحة أو محرقة له . وكل ما يرتع في غابات لبنان من حيوان، وهو كثير جدا ، =

مجـد لبنـان ، علينا ، نحن ، أن نحافظ عليـه •
واستقلاله يؤخذ ولا يعطى •

حمى الله لبنان من كل ملك طمّاع وحاكم جبار •

حمى الله أرز لبنان من الايدي القذرة •

لقد تفاقمت القضية الفلسطينية حتى كانت القضيـة اللبنانية • وعندما يضع الدكتور الصليبي حدا للـوهم المزمن ، المرتكز على التـوراة ، فكأنه يضع حلاً لهاتين المشكلتين المعقّدتين •

عن الفلسّتيين وعلاقتهم مع الاسرائيليين(الاسرائيليون هم غير اليهود) يقول الدكتور الصليبي :

« واستنادا الى التحديد الجغرافي لاراضي الفلسّتيين،

= غير كاف ليحسب ذبيحة تقدم على مذبحه » (ـ!)

ـ الآية الثانية (٦٠ : ١٣) : « مجد لبنـان اليك يأتي السرو والسنديان والشربين معا لزينة مكان مقدسي وأمجّد موضع رجلي » :

ـ التفسير : « يتكلم النبي هنا باسم الرب مخاطبـا مدينة أورشليم المهدومة ، معزيا اياها بالاشارة الى المستقبل المجيد الذي ينتظرها ، ومن اعادة بنائها بخشب لبنان هي وهيكلها وقصورها كما فعل سليمان (الملوك الاول ٥) •وفي حديثه هذا ايحاء لا لبس فيه الى أن تشكيل هياكل العبادة والقصور ودور السكن بخشب لبنان ، كـان يعتبر منتهى الرفاه الذي يحكم به مدينة » (؟!) •

ويذكر القس خلف في ص (٣٠) ان لبنان التوراة « هو جبل الباروك أو القسم الجنوبي من سلسلة جبال لبنـان الغربية ، حيث كان الارز ينبت بكثرة ، ومنه قطع الفينيقيون خشب الارز وأرسلوه الى سليمان لبناء الهيكل في أورشليم والقصور الملكية » (؟)

فان هذه الاراضي كانت تمتد في كامل المساحة بين حـدود اليمن في الجنوب وحتى وادي أضم في الشمال ،وهذا يعني أنه لم تكن هنالك حدود جغرافية بين أراضي الاسرائيليين وأراضي الفلسّتيين في غرب شبه الجزيرة العربية في الوقت الذي تواجد فيه الفلسّتيون الى جانب بني اسرائيل هناك• وجلّ ما في الامر ان الفلسّتيين انتهى أمرهم كشعب لـه شأنه في تلك الاراضي قبل انتهاء شأن بني اسرائيل بخمس مئة سنة تقريبا » [٣٨] •

كارثة ؟

كيف يجب أن نفهم هذه الكلمات ؟

بل كيف يجب أن نستقبل العواصف والزلازل ؟

الفلسّتيون انتهوا ••• والاسرائيليون انتهوا ••• لكن شيئا واحـدا ما زال مستمرا هـو الظلم والتعسّف والباطل والاغتصاب •

نحن الذين نرفض كل الاحتلالات ، من أي جهة أتت، كيف لا نصفّق لهذا العمل اللبناني الجليل ؟

اذا اليهود والعرب اقتنعوا بما أتانا به الدكتور كمال الصليبي ، فان الصراعات التي تعانيها المنطقة تفقـد مـا يبررها ، وتلك هي رسالة لبنان ، الوطن الصغير ـ الكبير•

---

(٣٨) الصليبي ، الفصل الرابع عشر : « ماذا عن الفلسّتيين» ص ٢٥٨

معجزة • ولبنان هو منطلق المعجزات •

ان كتاب «التوراة جاءت من الجزيرة العربية» هو حرب على مفاهيم كثيرة آذت وتؤذي الانسانية في أعماقها، وتنقل الارض بطريقة عجائبية تماما مثلما نقل عفاريت سليمان عرش بلقيس على «حيوان» يسابق البرق والبصر !

ألا يجب أن تسقط هذه المفاهيم ؟

لن تفتح عسير أبوابها لليهود •• وقد قال محمد (النبي) : «لا مكان لدينين في مكة » •

ان الزعامة ، هناك ، هي لمكة • ومكة ، منذ محمد ، هي المشرفة على بلاد الحجاز كلها[٣٩] •وأما اذا وهنت،مثلما وهنت أو تراخت من قبل ، فان يدا قوية أخرى ستسيطر• ولكن هذه اليد لن تكون يهودية ولا اسرائيلية •

لقد حملت تلك الارض يهودا واسرائيليين وفلّستيين

(٣٩) تؤكد المصادر والمراجع ان ((النبي) قد باشر مصادرة اراضي اليهود والكتابيين ، اما عنوة وأما « صلحا » . وقد عومل أصحاب هذه الاراضي تبعا لموقفهم من الدعوة الاسلامية ومن الذين طردوا من شبه الجزيرة العربية بنو النضير وأهل خيبر ووادي القرى ، بينما قتل بنو قريظة وسبيت نساؤهم وهذه الاراضي اعتبرت اما خالصة للرسول مثل اراضي بني النضير أو قسمت بين المسلمين على سهام كما في اراضي بني قريظة .

أنظر « تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام » ـ نصر الله، المذكور سابقا ، من ص ٥٠ الى ص ٥٨ ، ولا سيما الهوامش ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

مئات من السنين ، وكانت ستحملهم الى اليوم ، وربما أبدا ، لو لم يدمر بعضهم بعضا •

ماذا تقول مصر ، وهي أيضا « حرّرها » الدكتور الصليبي من ظلم المؤرخين والمفسرين والباحثين التوراتيين؟

ماذا تقول الانهار والجبال السورية ؟

ماذا تقول العراق •• ودجلة •• والفرات ؟

ماذا يقول الشاطىء الابيض ـ الازرق ؟

أما آن للجغرافيا الصحيحة أن تفك عن فمها هذا اللجام الحديدي ؟

يبقى أن نذكّر بأن في كتاب « التوراة جاءت من الجزيرة العربية » دعوة الى تفسير وشرح بعض الاحداث التوراتية ، بما يتفق والذوق السليم والجمال الادبي • ففي الفصل السابع عشر : « نشيد من جبال جيزان » (من ص ٢٨١ الى ص ٢٩٣) شرح جديد لخمسة عشر نشيدا، يستحق منا التقدير والثناء • وهنا مثل على ذلك :

« أنا سوداء وجميلة ، يا بنات أورشليم ، كخيام قيدار (ء هلي قدر) ، كشقق سليمان (يديعوت شلمه) (١ : ٥) • والواقع هو أن هذا المقطع لا يأتي اطلاقا على ذكر « شقق سليمان » ، بل يتحدث عن « مضارب » الكداري (كدر بلا تصويت) و « خيم » السّلمة •

والكداري والسلمة هما اليوم قريتان من أعمال أبي‌عريش بمنطقة جيزان • وءهليم بالعبرية تعني « الخيم » أو « المضارب » ، ويديعوت تعني « ستائر الخيم » ، وقد استعملت الكلمتان في المقطع بالمعنى ذاته منعا لاعادة الكلمة ذاتها • وبهذا فان النص يقول : « أنا سوداء وجميلة ، يا بنات أورشليم، كمضارب الكداري ، كخيم السلمة »[40] •

أرأيتم كيف استقام المعنى ؟ وكيف صارت تلك الفتاة التوراتية سوداء وجميلة حقا ؟

ما قيمة الكلمات ان لم يُعرف لها معنى ؟

المعنى الصحيح والحقيقة صنوان • ان هذا ما يسعى الى التأكيد عليه الدكتور الصليبي ، حيث قال في مطلع الفصل السابع عشر :

« من الاشياء التي حيّرت العقول بأمر التوراة العبرية هو احتفاظها بديوان صغير من الشعر الغرامي يسمّى بالعبرية شيره ـ شيريم ـ شرل ـ شلمه (واسمه بالترجمة العربية « نشيد الانشاد الذي لسليمان »)•وقد اعتبر تقليديا ان هذا الديوان الذي يكاد أن يكون إباحيا في بعض مقاطعه هو من وضع الملك سليمان • ولعلماء التوراة فيه آراء مختلفة ، ومنها أنه مجموعة من أغاني الحب الشعبية التي كانت رائجة في قرى فلسطين وجبل لبنان في زمن التوراة » •

(٤٠) الصليبي ، ص ٢٨٤ •

أضاف :

« واللاهوت المسيحي ينشر مضمون هذا الديوان على انه نبوءة بقدوم المسيح وحبه للكنيسة • والواقع هو أن « نشيد الأنشاد » ليس قصيدة حب واحدة : ولا هو مسرحية غنائية (وهذا ما اعتبره بعض علماء التوراة الذين أعادوا ترجمته ووزّعوا فيه الادوار بين الملك سليمان وعشيقته « اللبنانية » شلميت راعية الكروم ، وبنات أورشليم ، وما الى ذلك) ، بل هو بالفعل مجموعة من أغاني شعبية مختلفة•وهذا هو الرأي السائد بشأنها »[41]•

ويتضح للصليبي ان اسماء الاماكن الواردة في هذه الاغاني تنافي الاعتقاد بأنها أغاني « فلسطينية » أو « لبنانية » ، بل ان مصدرها كان تلك السلسلة الرائعة من الذرى الجبلية التي تمتد على شكل هلال تفصل بين منخفضات منطقة جيزان ، وبلاد السراة الى الجنوب من أبها وما يليها الى الداخل[42] • الامر الذي يجعلنا نسأل : ما هو مصير تلك الاعمال الضخمة والجهود العظيمة التي بُذلت وتُبذل في شرح التوراة وتفسيرها وتبسيطها ؟

وأياً كان موقفك من الدكتور الصليبي ، فان الواجب يفرض أن تقدّر فيه الجرأة العلمية والاخلاص للحقيقة وحرية البحث •

(٤١) الصليبي ، ص ٢٨١ •
(٤٢) المصدر نفسه •

صحيح أن كتاب الدكتور الصليبي هو مثل « عقد محكم الرصف » ، على قول الاب مبارك ، ولكن الصحيح أيضا هو ان حبة واحدة اذا ما سقطت منه لا تلغي كونه عقدا ثمينا ونادرا .

لنا في خاتمة الكتاب ما يغني عن الكلام الكثير ، اذ يقول المؤلف ونقول معه :

« وعندما تُعاد دراسة التوراة كسجل تاريخي على ضوء هذه الاطالس الجديدة ، لا بد أن ينجلي الكثير من الغموض ليس فقط عن التاريخ التوراتي ، بل أيضا عن مجمل تاريخ الشرق الادنى القديم الذي دُرس حتى الآن على أساس مفهوم جغرافي مغلوط للتوراة : ومن قِبل باحثين غربيين صعب عليهم كنه أسرار اللغات السامية أصلا . وعندئذ يصبح باستطاعتنا الوقوف على حقائق لا نهاية لها بشأن التاريخ القديم لمصر والشام والعراق ، ناهيك عن تاريخ شبه الجزيرة العربية حيث ترسخ ، على ما يبدو ، أقدم الجذور وأعمقها لحضارة العالم . وهذا أمر لم يُعطَ حقه بعد » (٤٣) .

أيتها الجغرافيا ، كم ظلمتِ أمما وشعوبا ! وكم هُتِكَت باسمكِ كرامات وحريات ، واغتُصِبَت حقوق وواجبات !!

١٩٨٦/١/١٦

---

(٤٣) الصليبي ، ص ٢٩٦ .

(٦)

قضايا التبعيّة الاعلامية والثقافية في العالم الثالث

بعد ثماني سنوات قضاها السيد روبرت ماكنمارا ، مع أكبر آلة حربية في العالم ، على أرض فيتنام ، حيث ظن (البنتاغون) ان الطائرات المروحية هي التي تصنع الانتصارات الاميركية ، أطلق ، وفي العام ١٩٧٣ ، تحذيرا سوف يبقى علامة بارزة في تاريخنا المعاصر ، فقال :

« هناك هاوية اقتصادية بين الشمال والجنوب ، وهذه الهاوية تشكل مكمنا للاهتزاز في قشرة كوكبنا الاجتماعية . وهي بامكانها أن تحدث ، وستحدث بالفعل هزات واضطرابات رهيبة . فاذا لم تفعل الامم الغنية شيئا لازاحة تلك الهاوية القائمة بين النصف المزدهر كثيرا من كوكبنا ، والنصف الجنوبي الجائع ، لن يكون أي كان في مأمن ، في نهاية الامر ، مهما كان حجم مخزون السلاح »[1]

---

(١) التحدي العالمي : تأليف جان جاك سرفان شرايبر ، نقله الى العربية فيكتور سحاب وابراهيم العريس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، طبعة اولى ١٩٨٠ ص ١٧٤ .

ويرى الكاتب الفرنسي (جان جاك سرفان شرايبر) ان هذه الهوة ـ بين البلدان الفقيرة والغنية ـ « تزداد اتساعا » [٢] ، بحيث ان بلدان الجنوب التي تمثل نوعا من « حزام للبؤس ، يمتد من آسيا وافريقيا ليتصل بأميركا الجنوبية ، يعيش ضمنه أكثر من ٨٠٠ مليون شخص تحت مستوى الحد الادنى الحيوي ويشكل وجودهم أزمة ضمير وأخلاق ، عدا انهم يمثلون قوة من شأنها ان تزعزع استقرار عالمنا المضطرب هذا . ففي ٣٤ بلدا لا يزال ٨٠٪ من السكان أميين . ان ابن الشمال يستهلك من الطاقة مئة مرة أكثر من ابن الجنوب . أما الامريكي فيستهلك من الطاقة ألف مرة أكثر من النيبالي » [٣] .

الا ان ما يجب أن نعرفه أيضا هو ان بلدان الشمال « بحاجة الى أسواق العالم الثالث قدر حاجتها الى موارده الاولية » [٤] ، وعلى قول السيد جان سيويل ، رئيس مجلس التنمية لما وراء البحار في الولايات المتحدة « ان العالم الثالث قد يصبح في الثمانينات محرّك النمو الاقتصادي المقبل في العالم . ولكن شرط ان تقبل البلدان الصناعية بأن توظف رساميلها فيه وتشتري منتجاته » [٥] .

من يتحدى من ؟

---

(٢) (٣) (٤) (٥) المصدر نفسه ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

أهل الجنوب في صراع على التراث والامن ، وأهل الشمال في صراع على الانسان الآلي والحروب النووية . الكلمة ، هنا ، جذوة . داعية للخير . مثيرة للشر . قلقة . تتسلل الى أعماق الوجدان . تلعب بها الهموم . تنام قليلا . تشرب « القهوة التركية » ، كل يوم ، قبل أن تتعارف الوجوه . تبحث عن البيداء في قلب المدينة المزروع بالبيوت الكبيرة المتعددة المنازل والطبقات .

وفي الشمال تقاعدت العاطفة والكلمة . الناس ، هناك ، يسودهم الخوف من الآلة . من خطأ الصناعة . من حرب ليس لهم فيها أي دون . من غضب الكيمياء . من تعب التكنولوجيا . التحديث يفوق المعقول والموصوف . حقول التجارب بدأت تستغني عن الحيوان . والانسان ، في الشمال ، يطارده القتل خطأ . بينما السلطة مثل العاصفة : تهدأ حينا وتهيج أحيانا : الديمقراطية هي ظل السلطة الضاحكة . والدكتاتورية ظل السلطة المزقة .

كثير مما في الجنوب موجود في الشمال . وكثير مما هو في الشمال موجود في الجنوب .

يقول الدكتور علي نصار [٦] :

---

(٦) الدكتور علي نصار : مستشار بمعهد التخطيط القومي القاهرة ، وعضو فريق العمل المركزي لمشروع « استشراف مستقبل الوطن العربي » ، الذي يعده مركز دراسات الوحدة العربية .

« لا شك ان ثـورة الاتصالات يمكن أن تضيف كثيرا الى التنمية الاجتماعية والثقافية في الوطن العربي اذا ما تدخل المخطط في عصر الاعلامية • ويستطيع المرء في التجمعات السكنية في الوطن العربي أن يسمع أخبـارا من عواصم اوروبية ووكالات اجنبية دون أن يعرف ماذا يحدث في القرية المجاورة له » [٧] •

ان هذا يعني ان الوكالات الاجنبية هي خزان المعلومات ••• والقيِّمون عليها شماليون لهم في الجنوب عمـلاء يقبضون على أجهزتهم بأيد ذات أصابع ذهبية •

من هنا ، يعتبر كتاب « قضايا التبعيـة الاعلاميـة والثقافيـة ــ في العالم الثالث » [٨] للدكتورة عواطـف عبد الرحمن [٩] بمثابة رسالة كريمة من « أساتـذة » الجنوب الى « أساتذة » الشمال ، مكتوبـة بـأسلوب المحقق الذي همّه ابراز « القضايا » وتبسيطها من دون أن يقمِّشها أو يزخرفها أو يرغّب فيها •

---

(٧) مجلة « المستقبل العربي » (٦٥) ٧ــ١٩٨٤ ، « هذا القادم الجديد .. ماذا اعددنا له ؟ « المعلوماتية » في الوطن العربي » ص١٣ •

(٨) ٢٦٨ صفحة من القياس الوسط مع قائمـة المراجـع العامة ، صدر عن (عالم المعرفة) ــ الكويت (٧٨) رمضان ١٤٠٤ هـ ــ يونيو (حزيران) ١٩٨٤ •

(٩) انظر حاشية رقم (٢) ص ٢٧٧ •

غاية هذا الكتاب هي ، كما حـدّدتها الـدكتورة عواطف عبد الرحمن « تقصّي ودراسة جـذور التبعيـة الثقافية والاعلامية واستجلاء أبعادها ومظاهرها والكشف عن ألوانها وأدواتها وتتبّع آثارها على المستويين المحلي والعالمي » (ص ٧) •

وما يمكننا قوله هو ان الدكتورة عبد الرحمن قد بذلت جهدا غير قليل ، من أجل « مناقشة التراث الغربي في التنمية وخصوصا الكتابات الاميركية عـن الاعـلام والتنمية » ذات التأثير « الحـاسم على صنّـاع القـرار السياسي والثقافي والاعلامي في معظم دول العالم الثالث » (ص ٥) •

تنطلق الدكتورة عواطف عبد الرحمن (الجنوبية) ، في دراستهـا ، من وصفها عمليـات السيطرة الاعلاميـة والثقافية والعوامل التي تؤثر فيها وكيفية مقاومتها ، وهي العالمة بأن « التهديد الحقيقي للصحافة الوطنية في دول العالم الثالث يأتي من الاحتكارات الاعلامية الاجنبية في داخـل بعض دول العالم الثالث والتي تعبّر بشكل مباشر عـن مصالح القوى الموالية للاستعمار » (ص ٢٢) •

فنحن في عصر « يتطلب امكـانيات هائلـة لاقامـة صحف » (ص ٢٣) وتحكمه فجوة وسيعة « بـين مـن

يملكون المعلومات ووسائل نشرها وتوزيعها وبين من يفتقرون اليها » (ص ٧٢) .

وما يهدد صحافة الجنوب (العالم الثالث) يهدد أيضا ثقافته واقتصاده ، وكل انسان في شكل عام ، اذ ان « موت كلب في شارع اللوفر بباريس ينال اهمية لدى وكالات الانباء الغربية أكبر من حدوث زلزال في احدى الدول الافريقية » (ص ١٧٦) ، و « يشكو العالم الثالث من أن تدفّق الانباء ــ حتى بين بلدانه ــ يتخذ طريق الاتصال الموروث من عهد السيطرة الاستعمارية (مثل غانا ، وساحل العاج) رغم الاميال القليلة التي تفصلهما ولكن الاخبار من أكرا تطير الى لندن ثم الى باريس كي تصل الى ابيدجان » (ص ٢١٨) .

لذلك نفرح بترجمة أي أثر أدبي أو فكري ــ من العالم الثالث ــ الى اللغة الفرنسية أو الانكليزية أو الالمانية أو الروسية أو أي لغة أجنبية مهما يكن شأنها .

فلو ان أصحاب العربية ــ مثلا ــ أقوياء مثلما أميركا أو روسيا ، لوصلت أعمالهم الادبية والفكرية ــ باللغة الام ــ الى أرجاء الدنيا كافة . ولكن الهوة بينهم وبين الآخرين سحيقة جدا .

لماذا لا تكون « الاهرام » مثل « الواشنطن بوست » ، و « النهار » مثل « الفيغارو » ، و « الاسبوع العربي » مثل « التايمز » ، و « الحوادث » مثل « نيوز ويك » ، و « المستقبل » مثل « فايننشل تايمز » ، و « الشرق الاوسط » مثل « البرافدا » ، و « الثورة » (الدمشقية) مثل « الازفستيا » ، و « الموندي مورننغ » مثل « التايم » ، و « النهار العربي والدولي » مثل « الهيرالد تريبيون » ، و « كل العرب » مثل « الاكونومست » ؟

هذه المشكلة لا يجوز حصرها في الكاتب وحده، ولا في اللغة دون الدولة أو بالعكس .

ان الكاتب الذي يحتاج الى لغة يحتاج أيضا الى من يحميه ويتعهد انتاجه وحريته وحقه في القول والعيش والمعتقد . مثله اللغة ، التي تتطلب مجتهدين وعلماء يبحثون دائما في تطويرها وتنقيتها من الشائب والقديم المائت .

واللغة أيضا يجب أن يكون لها مفكرون وأدباء وشعراء خلاّقون يرتفعون بها الى مستوى اللغات العالمية .

ولكي تصبح الامة ، أي أمة ، في قلب العالم ، لا بد لها من لغة محبوبة ، من أبنائها ، وكاتب محترم وشجاع ، على أن يكون لها دولة مكتفية بذاتها ومتماسكة وقوية

ومخلصة لحقوقها ومنتجاتها وأسواقها ، وشديدة الادراك لمسألتها القومية وعارفة ما لها وما عليها .

هل سينتظرنا الشماليون ؟

كيف سنتجاوز المسافة الفاصلة بيننا وبينهم ؟

تقول الدكتورة عواطف عبد الرحمن :

« وكما كانت أجهزة الاعلام الاوروبية تصوّر في الماضي الولايات المتحدة أرضا للخطف والقتل والجريمة فهي تصور الآن العالم الثالث بؤرة دائمة للانقلابات والمذابح وعدم الاستقرار وفقدان الامان وتفشّي الفساد والرشوة وفشل التخطيط والكسل والكوارث الطبيعية وغير الطبيعية . ولعل هذا يبرر قول انديرا غاندي في المؤتمر الوزاري لدول عدم الانحياز الذي انعقد في نيودلهي عام ١٩٧٦ (نحن نريد أن نسمع ما يقوله الافريقيون عما يحدث في أفريقيا ونتمكن من شرح ما يدور في الهند للهنود) » (ص ٢١٨) .

وهكذا تكون السيدة غاندي قد وضعت اصبعها على الجرح الثخين .

يبقى أن تعرف السيدة غاندي وغيرها ان الجرح اذا ما تُرك مفتوحا يتعفّن ويهترىء .

وجه العالم الثالث مجرّح ومشوّه . الانظمة ، في

الشرق والغرب ، متصارعة متباينة . ويقال ان المطلوب « نظام اعلامي عالمي جديد » (ص ٢٤٣) .

من أين يأتي هذا النظام المطلوب ؟

في الجنوب ضجة . وفي الشمال قلق حضاري .

وكما خرجت الولايات المتحدة من عزلتها « بكيان اقتصادي وسياسي متماسك » (ص ٢١٠) يجب أن يخرج العالم الثالث من بؤسه ليكوّن شخصيته وينعم بخيراته الطبيعية ، التي بعضها يُسرق منه وبعضها لا يزال نائما في جوف الارض .

من الطبيعي أن يقصّر الفقير ـ الجائع عن مواكبة الغني ـ الشبعان ، وكلما نأت المسافة بينهما تقترب البشرية من خطر الموت أو الانفجار .

الجوع ظاهرة ، والشبع ظاهرة أيضا .

الاول يتلف الاعصاب ... ويشلّ الذاكرة .

الثاني يلغي العاطفة ... ويحاصر العقل .

العلاقة بين الجوع والشبع قائمة على خضوع الجائع للشبعان . فالذي بدون أعصاب أو ذاكرة ينقاد للذي لا عاطفة له.ويأبى الذي عقله محاصَر أن لا يرى حوله سوى الأذلاّء العبيد المقهورين الخاشعين والمحتاجين والتابعين والسائلين والمحرومين .

« أكلتْ حنيفةُ ربَّها
زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربّهم
سوء العواقب والتباعه»[10]

القبيلة جائعة •• والإله المعبود المصمود منحيس[11]
هل يبقى الاله معلّقا ؟
يكفي حنيفة انها عبدته زمانا ••
العقاب ولا الجوع •
من أين جاءت « التبعية » الى العربية ؟
يقول الدكتور جميل صليبا :

«التبعية (Subordination) كون التابع بحيث لا يمكن انفكاكه عن المتبوع بان يكون وجوده في نفسه هو وجوده في متبوعه ، وتطلق التبعية ايضا على علاقة النوع بالجنس ، ومعناها ان صفات النوع خاضعة لصفات الجنس لانها اخص منها » [12] •

وتقول الدكتورة عواطف عبد الرحمن :

---

(١٠) لسان العرب ، المجلد الثامن ، ص ٢٧ .
(١١) الحيس : طعام مركب من تمر وسمن وسويق .
(١٢) المعجم الفلسفي (بالالفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية) دار الكتاب اللبناني ــ بيروت طبعة اولى ١٩٧١ ، المجلد الاول ص ٢٣٧ .

« وهنا يؤكد سعد الدين ابراهيم ما سبق ان طرحه كتّاب مدرسة التبعية من ان التبعية هي نتاج عمليات تاريخية تمت في الدول النامية وانتجت مجموعة من السمات التي تميز ظاهرة التخلف ، مثل الركود في القطاع الزراعي التقليدي والاعتماد على تصدير سلعةواحدة وضعفالتصنيع أو غيابه وغرس قيم حضارية اجنبية واسلوب حياة أجنبي، وخصوصا بين الصفوة من ابناء العالم الثالث • ولا شك ان كل هذه العوامل تجعل دول الهوامش في وضع ضعيف، بل وتابع نتيجة لهذه الضغوط الخارجية المستمرة »(ص٥٨)

وجاء في لسان العرب :

« تبع الشيء تبعا وتباعا في الافعال وتبعت الشيء تبوعا سرت في اثره ، واتبعه وأتبعه وتتبعه قفاه وتطلبه متبعا له كذلك تتبعه وتتبعته تتبعا ، قال القطامي[13] •

---

(١٣) القطامي : عمير بن شيم بن عمرو بن عباد ، (نحو ١٣٠ هـ ٧٤٧ م) من بني جشم بن بكر ، ابو سعيد ، التغلبي الملقب بالقطامي شاعر غزل فحل . كان من نصارى تغلب في العراق ، واسلم . وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الاسلاميين ، وقال : الاخطل ابعد منه ذكرا وامتن شعرا واورد العباسي (في معاهد التنصيص) طائفة حسنة من اخباره يفهم منها أنه كان صغيرا في أيام شهرة الاخطل ، وان الاخطل حسده على ابيات من شعره . ونقل ان القطامي اول من لقب « صريع الغواني » بقوله :

« صريع غوان راقهن ورقنه
لدن شب حتى شاب سود الذوائب » =

« وخير الامر ما استقبلت فيه ،

وليس بان تتبعه اتباعا » [١٤]

و « التبعية ان قبلنا بها ـ لغة ـ فلا نقبل بها مدرسة « تنهج » الجوع والشبع وتبرر الخضوع (Subordination) والطاعة والعبودية .

و « قد أظهرت الاحداث في أميركا اللاتينية ان الشعوب تخزن طاقات للمقاومة غير مرئية ، وان الدرس الذي لم تستوعبه القوى الاستعمارية هو استحالة الاستمرار في عرقلة عمليات التحرير من القهر السياسي ، والثقافي ، وهذه الحقيقة كفيلة بمفردها لاعادة النظر في الميزانيات المخصصة لعلم الاجتماع الامريكي المستمر لتأكيد صحة الفروض والاختبارات المرسومة لشعوب اميركا اللاتينية » (ص ١٨٩/١٩٠) .

ألا يخشى العالم المتقدم من علة تعاوده بعد النقه ؟

= وقال المرزباني : كان في صدر الاسلام (؟) من شعره البيت المشهور :

« قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقد يكون مع المستعجل الذلل »

له « ديوان شعر ـ (طبع) » نشر مشروحا في ليدن ، وأعيد طبعه محققا في بغداد . والقطامي بضم القاف وفتحها . قال الزبيدي : الفتح لقيس ، وسائر العرب يضمون . (عن الاعلام ـ الزركلي ـ المجلد الخامس ، ص ٨٨/٨٩) .

(١٤) لسان العرب ، نفسه ، ص ٢٧

العالم ، بقسميه ، الجنوب والشمال ، تحكمه الشركات المتعددة الجنسية ، بمساعدة خمس وكالات انباء « تحتكر حركات الانباء في العالم » (ص ٨١) و « تقوم هذه الوكالات [١٥] بدور عالمي هام في نقل وتبادل الانباء عبر القارات يؤهلها للقيام بهذا الدور قدرتها التكنولوجية [١٦] وكوادرها البشرية المدرّبة التي تستعين بها في جميع (جمع) الانباء وتوزيعها بلغات عديدة في مختلف أنحاء العالم » (ص ٨١) .

« وكل وكالة من الوكالات الخمس لها مكاتب في أكثر من مائة دولة وتستخدم عدة آلاف من الموظفين المتفرغين والمراسلين ويقومون بجمع مئات الالوف من الكلمات كل يوم وتوزيع مئات الاخبار على النطاق المحلي والعالمي » (ص ٨١) .

ولكن « احتكار وكالات الانباء الغربية لعمليات

---

(١٥) وهي وكالة الانباء الفرنسية (أ. ف. ب) و « رويتر » (البريطانية) و « اسوشيتدبرس » و « يونيتدبرس » (الامريكيتان) و « تاس » السوفياتية .

(١٦) لا بد هنا من الاخذ برأي الدكتور محمد عبد الشفيع عيسى الذي يعرّف التكنولوجيا بأنها « المعارف والمهارات الموجهة الى ـ والمتضمنة في ـ عملية الانتاج ، سعيا الى زيادة الناتج والانتاجية وتنويع المنتجات أو تغيير خصائصها » (أنظر « العالم الثالث والتحدي التكنولوجي الغربي » للدكتور عيسى نفسه ، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٤ ص ٧٦) .

تداول الانباء ونشرها على الصعيد الدولي قد ترتب عليه نتيجة أساسية لها خطورتها العالمية . وتتلخص في ان جميع دول العالم الثالث تتلقى ٨٠ ٪ من الانباء العالمية من لندن وباريس ونيويورك ، وان هذا الاختلال في تداول الانباء يمثل الفرق بين كمية الانباء المرسلة من جانب العالم الصناعي الى العالم النامي وكمية الانباء المتدفقة في الاتجاه العكسي » (ص ١٤٠) .

و « يمكن القول ان وكالات الانباء الغربية الاربعة (الاربع) لا تخصص الا حوالى ما يتراوح بين ٢٠ـ٣٠ ٪ من أنبائها للعالم الثالث . وهناك ٣٥ دولة في العالم ليست فيها أية وكالات أنباء منها ثلاث دول عربية . كذلك لا يوجد لبعض وكالات الانباء الوطنية مراسلون خاصون . فهي تعتمد اعتمادا كاملا على وكالات الانباء العالمية للحصول على الانباء الخارجية تماما كما تعتمد المصادر الحكومية بالدرجة الاولى للحصول على الانباء المحلية . وتوضح الاحصائية الخاصة بالتوزيع العالمي لمراسلي وكالات الانباء العالمية ان أوروبا وأميركا الشمالية هما الموقعان الرئيسيان لمراسلي الوكالات وان العالم العربي وافريقيا يأتيان في المؤخرة » (ص ١٤٠) .

ماذا يقول « أساتذة » العالم الثالث ؟

الجوع كذبة اختلقها الاعلام ، والشبع أيضا كذبة اختلقها الاعلام نفسه .

في رسالة الدكتورة عواطف عبد الرحمن الى العالم الصناعي ، مثلما قلنا ، نقرأ ما يلي :

« من سمات العصر الراهن خضوع عدد كبير من الدول لسيطرة الشركات المتعددة الجنسية . وحيث ثبتت سذاجة الفكرة القائلة بأن التفاهم بين الدول يأتي كنتيجة لتحسن وسائل الاتصال ، فقد ثبت ان وسائل الاتصال المتطورة لا تؤدي بالضرورة الى تفاهم أفضل . ولكن من المؤكد انه لا يمكن أن يكون هناك تفاهم دون وسائل اتصال . ومن هذا المنظور يمكن النظر الى قضية التفاهم بين شعوب العالم الثالث ، وبينهم وبين الدول الصناعية.. مما يستلزم ضرورة اقامة ابنية اتصالية تساهم في تحقيق هذا الهدف » (ص ٢٥٠) .

أي هدف ؟

ماذا ينتظر « المتفوقون » ؟

اليابان على الطريق ... وربما الصين ايضا على الطريق .

لقد كتب العالم الانكليزي كريستوفر ايفانز ، قبل أن يموت في العام ١٩٧٩ ، أفضل دراسة حول نتائج الثورة التكنولوجية ، وهي الدراسة التي جعل عنوانها ، تمجيدا للمنهجات الدقيقة « العمالقة الصغار » ـ كتب على هذا النحو تشخيصه ليابان الثمانينات :

« في أثناء مؤتمر عُقد في لندن في أواخر العام ١٩٧٧، دعاني رئيس احدى شركات الادمغة الالكترونية اليابانية وشرح لي نقطة نقطة كيف ستكون استراتيجية بلاده الصناعية للثمانينات ، لقد نجحت اليابان في ان تصبح القوة الاقتصادية الاكثر حيوية وانتاجا ، بعد الحرب ، بمصانع جديدة ، ومن غير ميراث صناعي قاسر ، وبتقدير دقيق جدا لما ستكون عليه الاسواق العالمية في الخمسينات والستينات ، وتستعد اليابان الآن لمواجهة الطور التالي ..

« ان أزمة النفط والتطورات التي حدثت في توازن الاقتصاد العالمي ، كانت تظهر ان اليابان ستعجز عن المحافظة على مستواها المعيشي لو واصلت الاعتماد فقط على وسائل الاغتناء التقليدية ، مثل تصدير آلات التصوير ، والفيديو ، والدراجات النارية ، والسيارات .. ولذلك لم يكن الحل يحتمل أي غموض : فكان على اليابان أن تصبح القوة الاولى في الاعلاماتية في الثمانينات .

« ولتحقيق هذا الغرض ، تستعد الصناعة اليابانية لحقن الاعلاماتية لسبعين مليار دولار بين العامين ١٩٧٥ و ١٩٨٥ . وفي نهاية ١٩٧٩ تكون ٣٠ مليار دولار قد استثمرت ، ويبلغ المجهود الياباني أكثر من منتصف طريقه . ونصف هذه الموازنة الخرافية ، سيخصص لتدريب الرجال ،

أي ما يقرب من ٣ مليارات دولار في السنة .. هذه الايضاحات أزالت آخر شكوكي حول وصول اليابان قريبا الى احتلال المكانة الاولى في الاعلاماتية » [١٧] .

---

(١٧) التحدي العالمي ، نفسه ص ٢٨١/٢٨٢ .

من جهة أخرى يقول الدكتور محمد عبد الشفيع عيسى في موضوع تعادل القطبين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) على أرض أوروبا ما يلي :

« فقد سيطر الاتحاد السوفياتي – سياسيا وعسكريا – على أرض أوروبا الشرقية ، كناتج فرعي من نواتج العمليات الحربية بالمحل الاول ، وهو ما عزز حركة التغيير الاجتماعي لصالح الاحزاب الشيوعية والاشتراكية ثم تعزز بالتسوية التي توصل اليها الحلفاء أثناء وغداة الحرب .

« وبالمقابل ، سيطرت الولايات المتحدة – سياسيا وعسكريا واقتصاديا – على أوروبا الغربية ، وكان الدعم الاقتصادي الامريكي لدول أوروبا الغربية هو العامل الرئيسي في تثبيت الانظمة الاقتصادية الاجتماعية الرأسمالية فيها وفي ربطها الحاسم بالقطب الامريكي – وقد تبلور هذا الدعم بمقتضى « مشروع مارشال » (١٧ بليون دولار أمريكي في الفترة من ١٩٤٧ الى ١٩٥١) .

« وكرمز لهذه السيطرة الثنائية على أوروبا – مركز النظام الدولي سابقا – قسمت المانيا – مركز أوروبا عشية الحرب – الى اربع مناطق احتلال : خضعت ثلاث منها لسيطرة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا (والتي تكونت منها جمهورية المانيا الاتحادية عام ١٩٤٩) وسيطر الاتحاد السوفياتي على المنطقة الرابعة (والتي تكونت منها جمهورية المانيا الديمقراطية عام ١٩٤٩) ثم تم تقنين الوجود العسكري للقطبين في شطري المانيا من خلال القوات العسكرية المشتركة لكل من حلف الاطلنطي (١٩٤٩) وحلف وارسو (١٩٥٥) » .

انظر « العالم الثالث والتحدي ... » ص ١٣/١٤ .

لقد شرّعت الدكتورة عبد الرحمن الابواب على العالم الثالث [١٨] لتمكّن أصحاب الشركات المتعددة الجنسية ووكالات الانباء من التعرّف الى هذا الجائع الذي كوته الآلام والايام والسياسات والاديان وعذّبته القيود التي ما زال بعض الشماليين ينظر اليها بلذة وسعادة فائقتين . هل سيقرأ الشمال رسالة الجنوب هذه ؟ لست أدري .

١٩٨٤/١٢/٢٧

---

(١٨) تتألف رسالة الدكتورة عبد الرحمن من اربعة ابواب هي :الباب الاول (العالم الثالث والتبعة الاعلامية والثقافية) الباب الثاني (الاطار التطبيقي لبحوث التبعية)الباب الثالث (العالم الثالث والنظام الاعلامي العالمي الجديد) الباب الرابع (آفاق الاستقلال الاعلامي والثقافي في العالم الثالث).
وما يجب التأكيد عليه ، هنا ، هو أن الدكتورة عبد الرحمن قد نجحت في مخاطبة العالم الشمالي المتمدن ، بينما اخفقت في البحث عن فلسطين في مصر ، مثلما مر معنا في الفصل الخامس من الباب الثاني ، (من ص ٢٧٧ الى ص ٢٩٠) .

(٧)
تغيير العالم

دخل « الترانزيستور » الياباني الى البيوت والمصانع والمكاتب والمناجم والمزارع والمختبرات والمدارس وبقية الاماكن من الابواب الكبيرة ، فتبعه التلفون واللاسلكي والتلفزيون ، واذا الوطن كالحصان الاصيل ، المرابط في الاسطبل ، يأكل ويشرب وينام،وكذلك الامة،وحتى القادة، كبيرة كانت أو صغيرة ، فكأن لا حدود طبيعية،ولا أسلاك شائكة ، ولا مجاهل مجهولة ، ولا أرض مَضَلّة [١] ، ولا محيطات « مسكونة » ، بل عالم واحد ، له رأسان : أحدهما أكبر من الآخر ، وقاعدتان مختلفتان متحركتان ، فالتي تتصل بالرأس الاكبر تحرص على أن تُظهر سيطرة اقتصادية وعسكرية وثقافية واعلامية ، الا انها قلّما تنجح ، بسبب الاضطرابات التي ترافق هذا الشعور ،

---

(١) أرض مَضَلّة : تَضِلّ فيها الطريق . وفي الجمع يقال: « أرضون مضلات » (قاموس) .

والنزعات الوطنية والقومية المتمثلة في النضال من أجل الاستقلال والحرية والمحافظة على الذات ، بمساعدة الرأس الاصغر وما يتصل به .

ولا أعتقد ان الفيلسوف والعالِم الاجتماعي الكندي مارشال ماكلوان (Marchall Mcluhan) [٢] قد جانب الحقيقة عندما أعلن « ان وسيلة الاتصال والاعلام، وبخاصة التلفزيون الذي يُعتبر أخطر وسائل الاتصال والاعلام والثقافة الجماهيرية في العصر الحديث ، أهم بكثير جدا من مضمون ومحتوى البرامج التي يرسلها أو يذيعها » [٣] و « ما يصدق على التلفزيون يصدق ـ بدرجات متفاوتة ـ

---

(٢) ولد عام ١٩١١ . وتوفي في آخر ايار ١٩٨٠ . من أعماله : « العروس الآلية : فولكلور الانسان الصناعي » (The Medhanical Bride : Folklore of Industrial Man) (١٩٥١) و « محاولة فهم وسائل الاتصال » (١٩٦٤) والكتاب الضخم (The Gottenberg Galaxy) عام ١٩٦٢ . كما أسس مجلة « اكتشافات » (Explorations) وأشرف على تحريرها بمعاونة العالم الانتروبولوجي ادموند كاربينتر (Edmund Carpenter) . انظر دراسة عنه بقلم الدكتور أحمد أبو زيد : « الوسائل هي الرسائل » مجلة عالم الفكر ـ الكويت المجلد الثاني عشر ، أبريل ، مايو ، يونيو ، ١٩٨١ ، ص ٢٠١/ ٢٢٠ .

(٣) د. أحمد أبو زيد ص ٢٠٢ . وللمقارنة بين ماكلوان (نبي الواسطة) أو (النبي البارد) أو (نبي البرود)، ومحمد، نبي الاسلام ، وماكلوان وماركس ، ومحمد وماركس ، والخميني وبيغن ، انظر كتابنا « أبعد من زحلة وصور » (حرب الوفاق الشرق الاوسطي) ١٩٨١ ، المقدمة ، من ص ٢٠ الى ص ٣٥

على وسائل الاتصال الاخرى . فالشخص ، وبالتالي المجتمع كله ـ يتأثر « بطبيعة الوسيلة » أكثر مما يتأثر بمحتوى أو مضمون تلك الوسيلة ، أي ان المصدر الذي نحصل منه على المعلومات يؤثر فينا تأثيرا أقوى وأعمق من تأثير تفصيلات مضمون هذه المعلومات ومادتها » [٤] .

ان ما يفرض ، هنا ، الرجوع الى وسيلة (Media) ماكلوان هو كتاب « تغيير العالم » [٥] للدكتور أنور عبد الملك [٦] ، الذي لا يهتم «بالسرد التفصيلي» (ص ٥)

---

(٤) المصدر نفسه .

(٥) ٢٥٥ صفحة من القياس الوسط ، منشورات عالم المعرفة ـ الكويت رقم (٩٥) صفر ١٤٠٦ هـ ـ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٥

(٦) الدكتور أنور عبد الملك . من مواليد القاهرة عام ١٩٢٤م. حاصل على درجة الدكتوراة في العلوم الاجتماعية عام ١٩٦٤ من جامعة باريس ـ السوربون بفرنسا ، كما حصل على دكتوراه الدولة في الآداب من نفس الجامعة . شارك في العديد من النشاطات والمؤتمرات والندوات وحلقات البحث العربية والدولية ، بالاضافة الى نشاطه كمحاضر واستاذ زائر في عدة جامعات عربية وأجنبية .

له العديد من المقالات والابحاث والمؤلفات ، بعضها باللغة العربية ، والبعض الآخر بالفرنسية ، وتُرجمت الى لغات أخرى . ومن هذه الكتب : « مصر مجتمع يبنيه العسكريون» وكتاب « مدخل الى الفلسفة » وكتاب «دراسات في الثقافة الوطنية » ودراسات أخرى تتناول المجتمع المصري من جوانب متعددة .

عضو في هيئات عدة ، وجمعيات علمية وأكاديمية عربية ودولية . يعمل حاليا كأستاذ بمشروع جامعة الامم المتحدة بفرنسا .

وانما بـ « المحاور العامة لعملية تغيير العالم » (ص٥)، وليس في نيتنا المقارنة بين ماكلوان وعبد الملك، ولا نحن نرغب في مطالبة الاخير بحق الاول عليه، مع انه ،أي عبد الملك، فاته أن يلتفت الى هذا « النبي » المغمور [٧] الذي سخّف من يزعم « ان كعكة التفاح ليست في ذاتها طيبة أو سيئة ولكن الطريقة التي تُستخدم بها هذه الكعكة هي التي تحدد قيمتها، أو ان فيروس (Virus) مرض الجدري ليس في ذاته طيبا أو سيئا ولكن الطريقة التي يُستخدم بها هذا الفيروس هي التي تحدد قيمته، او ان الذخيرة وأسلحة الحرب ليست في ذاتها طيبة أو سيئة ولكنها تستمد قيمتها من الطريقة التي تُستخدم بها » [٨] .

ومن أبرز أولئك الذين سخّف ماكلوان منطقهم الجنرال ديفيد سارنوف (David Sarnoff) القائل في خطاب له أمام جامعة « نوتردام » حينما قدّمت له درجة فخرية : « اننا نميل الى أن نلقي على الآلات والادوات والاجهزة التكنولوجية أخطاء ومساوىء هؤلاء الذين صنعوا تلك الآلات واستخدموها . فنتائج العلم الحديث

(٧) راجعنا قائمة المراجع باللغتين : العربية والانكليزية، المثبتة في آخر الكتاب فلم نجد له (مارشال ماكلوان) أثرا؟!
(٨) د. أحمد ابو زيد ، المصدر نفسه .

ليست في ذاتها طيبة أو سيئة ، خيّرة أو شريرة ، لكن الطريقة والاسلوب اللذين تُستخدم بهما هذه الآلات والادوات هي التي تحدد قيمتها » [٩] .

حقا ان الجنرال سارنوف (Sarnoff) كشف، آنذاك، « عن ضحالة الافكار التي تحتويها (محاضرته) لانها تجاهلت « طبيعة الوسيلة » على قول ماكلوان [١٠]، والتكنولوجيا يمكنها أن تفعل كل شيء في الوجود الا ان تضيف ذاتها الى ما هو موجود بالفعل، أو بقول آخر أدق وأوضح، أن تضيف ذاتها الى ذواتنا نحن البشر » كما يقول ماكلوان نفسه [١١] .

(٩) (١٠) (١١) د. أحمد ابو زيد ، المصدر نفسه .
ويقول الدكتور محمد عبد الشفيع عيسى أيضا :
« كانت الاختراعات والابتكارات في ظل الثورةالزراعية وقفا على الافراد ، أي على أشخاص مخترعين ومبتكرين بذواتهم ، وفي ظل الثورة الصناعية اتسع نطاق الاختراعات والابتكارات الفردية بل وكانت هي القاعدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن في القرن العشرين أخذ يبرز دور الدولة والشركات الكبرى في حث التطور التكنولوجي ، كما أخذ يبرز دور المؤسسات الجامعية والجمعيات العلمية في حث التطور العلمي .
« وفي ظل الثورة العلمية التكنولوجية تحديدا ،اندمج جهاز الدولة الرأسمالية (وخاصة في الولايات المتحدة) في الصناعة وفي الانشطة ذات الاهمية الاستراتيجيةوالسياسية عموما:التسليح والطاقة النووية والفضاء والالكترونيات. =

كيف ينسى الدكتور عبد الملك ، وهو المثقف والمطّلع ، مارشال ماكلوان وعبارته الشهيرة : « وسيلة الاتصال هي الرسالة » (The Medium is the Message) (١٢) ، وهي بمثابة « حكمة » أو « قول مأثور » (١٣) ، وفي كتابه « تغيير العالم » صفحات شتى تؤكد على أهمية الوسيلة أو الواسطة ، وضرورة الانتباه الى خطورتها ، كأن يقول مثلا : « يكفي (...) أن نذكر واقعة تبدو غريبة : ذلك انه عندما توفي الامبراطور نابوليون الاول في منفاه بجزيرة سانت هيلانة سنة ١٨٢١ ، لم يصل النبأ الى ميناء مارسيليا الا بعد انقضاء شهرين على الوفاة ، ولم ينتشر في ارجاء فرنسا الا بعد نصف عام ... لم نكن آنذاك في عصر اللاسلكي والتلفون (والتلفزيون) رغم تقدم فنون

= واصبحت عقود الدولة والاعلانات العامة وسياسة الاعفاءات والتيسيرات الضريبية والجمركية ونفقات البحث والتطوير (R & D) أدوات رئيسية لدفع الصناعات الآخذة في الانكماش (Contracting) ، وتعزيز وزن الصناعات كثيفة العلم والتكنولوجيا (Science and Technology intensive) وبذا أصبحت الدولة تلعب دورا رئيسيا في تحديد اتجاهات التطور التكنولوجي » .

(العالم الثالث والتحدي ... ص ٥٣)

(١٢) (١٣) د. احمد ابو زيد : المصدر نفسه .

الحرب والهندسة بشكل ملحوظ . هكذا كان « عالم » أوروبا وحدها في الربع الاول من القرن التاسع عشر بالنسبة الى حدث بالغ الخطورة » (الباب الاول / الفصل الاول: في أصول « النظام العالمي » ص ١٢) ، ويقول : « وقد بلغ تشابك المفاهيم حداً دفع الى ظهور مجموعة من الاتجاهات المغايرة في وقت واحد : فبعد ضعف الايمان وتأثير الفلسفات التي وعدت بالحياة في الآخرة ظهرت فكرة مؤداها انه في وسع الانسان أن يحتفظ بصفاته الشبابية حتى في مرحلة الشيخوخة ، بينما يُبعد الشيوخ عن ممارسة العمل والسلطة الاجتماعية دون رحمة ، وفي الوقت نفسه فان الاعجاب بالشباب ولا سيما باعتبار كونه أوسع شريحة من المشترين في السوق يمتزج بنسبة عالية جداً من الريبة نظرا لقلة تجربته أو ضعف شعوره بالمسؤولية ، كذلك فان وسائل الاتصال الجماهيري حلَّت محل « أساتذة الآباء والمعلمين » (الباب الثاني / الفصل السادس : الحياة الاجتماعية والثورة العلمية والتكنولوجية ص ١٠٦) ، ويقول أيضا وأيضا : « صيحة « الازمة » تتعالى من قلب عواصم الدول الكبرى ، ومن أرض المناطق الصناعية المتقدمة ، ومن المجتمعات الاستهلاكية التي لا تعرف ظاهريا أي معنى من معاني الازمة ، اللهم الا ما تشير اليه معدلات الزيادة المطّردة في البطالة ، خاصة في أوروبا الغربية ، غير أن « الازمة » بالمصطلح الفلسفي الدقيق ـ أي عجز

الانسان ، أو المجتمع عن أن يواجه التعايش مع ظـاهرة محددة ، دون أن يقتضي هذا التعايش بالضرورة التغلب على جوانبها السالبة ــ تبدو بعيدة • ان دولاب الانتاج والاستهلاك ، والتبادل ، وكذلك انتشار المعرفة والعلم ــ بواسطة الاعلام ووسائله الحديثة الالكترونية الـواسعة الانتشار ــ مطّرد ، فضلا عن دوام التأثير على سائر مناطق العالم » (الباب الثالث ، الفصل الحادي عشر : أزمةالعالم ــ أم تغيير العالم ؟ » (ص ١٩٧)

أجل ! لقد تغيّر العالم •

الحربان العالميتان : الاولى والثانية ، هما الحركـة الفاعلة والمدهشة • وليس هيّنا على أوروبا ، التي كـانت هي « العالم » ، أن تتراجع ، وربما الى الوراء البعيد ، لتأخذ مكانها أميركا الشقراء ذات الحظ السعيد والابراج التي لا تقاوَم •

ولكن هل الدنيا كلها أميركا ؟

من حق الدكتور عبد الملك أن ينتظر ريح التغيير من الشرق ، من مصر مثلا أو من ايران أو الهند أو الصين أو اليابان • غير ان الذي سيحدث ، وهو ــ لا شك ــ أهم من التغيير ، انما هو الموت النووي ، بل الموت العالمي ، بحيث ان التغيير الذي أحدثته الحربان العالميتان : الاولى

والثانية ، « جعل العالم نوعا من (القرية الكبيرة) التي يُطلق عليها اسم « القرية العالميـة » (Global Village) أو « القرية الالكترونية » (Electronic Village) •[١٤]

هـل نبكي عرش الشرق الـذي حطّمته الـزلازل والفيضانات ؟ أم نبكي مع الغرب وقد بات فـي اكتئاب شديد ؟

« التلفزيون العالمي » يؤكد ان العالم (القريةالعالمية) في أزمة ، والوسيلة (Media) أيضا في أزمة ، فما بال الدكتور عبد الملك كمن يضع يديه ورجليه في الماء البارد، مستندا الى مسح صحافي أجرته مجلة «ذي ايكونوميست» (The Economist) البريطانية (العدد الخاص بعيـد الميلاد يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٨٣) حيث كوّنت ملفاً « لفت الانظار باسم « النيرفانا » (أي الفردوس) بالارقـام » (ص ١٩٧) و « قد تناول هذا الملف دراسة المـؤشرات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والصحية،والمناخية، والسياسية ، في ثلاث وعشرين دولة في مختلف القارات ، ومن مختلف الاحجام والانظمة : الولايـات المتحدة ، واليابان ، والمانيا الغربية ، وفرنسا ، وانكلترا ، وايطاليا ، وكنـدا ، وأوستراليا ، وأسوج ، وأسبانيا ، وسويسرا ، والمملكة العربية السعودية ، واسرائيل ، وكينيا، والاتحاد

(١٤) د. احمد ابو زيد ، المصدر السابق .

السوفيــاتي ، والمجر ، والمكسيـــك ، والبرازيل ،وجزر الباهاما ، وسنغافورة ، والهند ، والصين ، وسيريلانكــا (ص ١٩٧) !

ملف مجلة « ذي ايكونوميست » (The Economist) دل « دلالة واضحة على ان الاستقرار والثبات هما الاساس في معظم الاختيارات ، دون المبالغة في اية ناحية ، وخاصة من حيث الاستهلاك » (ص ١٩٧) الامر الذي جعل الدكتور عبد الملك يستبعد « الأزمة » ويكذّب « الصيحة » التي تكاد تنسف الجبال ؟!

من أين نأتي بالاستقرار والعالم له رأسان غير متساويين مثلما قلنا؟ وكيف نحد من المبالغة ولا سيما في الاستهلاك ، وقاعدة هذا العالم هي قاعدتان مختلفتان متحركتان ، مثلما قلنا ايضا ؟

يقول الدكتور عبد الملك :

« لا شك ان هناك قوتين عظميين ، لهما التأثير الاكبر في تنظيم امور العالم ، وتكييف الدوائر الممكنة لحركات التغيير والتطوير في كل مكان ، ولو بدرجات متفاوتة .كما انه لا ريب في ان الامتداد القاري لكل من الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي ، وامتلاك كل منهما لشبكات الاتصال البعيدة المدى ، والقوى الاستراتيجية الضاربة ».

ويتابع قائلا :

« وفوق هذا وذاك التهديد النووي يسكن كلا منهما من نوعيات من العمل ، والتأثير ، والفاعلية ، مما يضطر كل دولة الى ان تحسب حسابها على الاقل بنفس القدر الذي تضع في حسابها ــ اولا ــ مصالحها الذاتية ، وقواهــا الذاتية الكامنة والعامة معا » (ص ٢٠٦) .

مما لا شك فيه ان الذات الاميركية ــ حتى الان ــ هي غيرها الذات السوفياتية . واذا ما تغير العالم ثانيــة ــ وسيتغير ــ فان الحصاد المنتظر قد لا يكون أميركيا ولا سوفياتيا .

صحيح ان الانسان ككل يحلم ــ بـ « جنة عدن » ، أو هو عاش في نوع من هذه « الجنة » ــ في مرحلة البدائية (Primitivism) ــ كما يقول ماكلوان، ولكن التغيير المتوقع لا بد ان يقضي على ذلك الحلم، كما على تلك الذاكرة المغطاة بالصورة السوريالية التي اسمها « جنة عدن » .

وسواء كان الرأس العالمي الاتي صينيا او يابانيا فان النتيجة واحدة ، هذا اذا بقيت «القرية العالمية» او «القرية الالكترونية » فوق الارض .

ينبغي للتغيير القادم ان يلغي المطبعة والكتاب ، فهل

سيلغي الجوع والصورة السوداء التي تحتل اكثر من ثلثي المعمورة ؟

يقول مارشال ماكلوان :

« كان الانسان البدائي يعيش في نوع من « جنة عدن » وفي هذا المجتمع البدائي يتصل الناس بعضهم ببعض اتصالا مباشرا فيتحادثون معا وفي مواجهة بعضهم البعض ، وهي تجربة تضم الى جانب النطق والسمع الرؤية واللمس بل والشم ايضا وتحتوي بذلك على قدر كبير من (الاندماج) ثم جاء اختراع الكتابة فكان اشبه شيء بالتفاحة التي استعانت بها الافعى في الاغراء والاغواء والتي ادت الى الخروج من الجنة ، وهدم فكرة الجنة والقضاء عليها ، اذ نجم عن اختراع الكتابة ان انفصل التفكير عن الاحساس، كما اصبح المعنى مرتبطا ارتباطا وثيقا بالكلمات المجردة بدلا من ارتباطه بالاشياء الحياتية الملموسة » .

اضاف قائلا :

« ثم جاء اختراع غوتنبرغ للمطبعة والطباعة ، وهو اختراعادى الى ذلكالانتاج الكبير الهائل للكتب والصحف والمجلات ، وبه اكتملت عملية اغتراب الانسان عن نفسه وتعمق الفصل بين الاحساس والفكر لدى الفرد ، وتيسرت القراءة ، وانتشر التعليم ، وازدادت الفردية » (١٥) .

وينقل الدكتور عبد الملك ما يشبه « البيان العالمي » او

(١٥) د. أحمد أبو زيد ، المصدر السابق .

« البيان الالكتروني » وفيه ان هناك « ١٥ مليون طفل يموتون في الدول النامية كل عام قبل سن الخامسة بسبب نقص التغذية ، وحوالي ٨٠ـ٩٠ ٪ من سكان الريف في الدول النامية لا يتمتعون بالعون الصحي والاجتماعي ، بينما تبلغ نسبة السكان الذين لا يتمتعون بالمياه النقية ولا وسائل الصرف اللازمة ٥/٤ التعداد الكامل،كما ان انتشار الاوبئة بين الاطفال في افريقيا في الاعوام الاخيرة ، وهي مأساة انسانية تشبه انتشار الاوبئة في اوروبا العصور المظلمة ، الا النتيجة الموضوعية لتراكم هذه المؤشرات ، ثم ان احصاءات اليونسكو تدل بوضوح على انتشار الامية في العالم : ٨٠٠ مليون من المواطنين البالغين سن الرشد ، وكلهم خارج الدول الاشتراكية ، بينما ٢٧ ٪ من الاطفال لا يدخلون المدارس الاولية ، وتبلغ هذه النسبة ٦٧ ٪ بالنسبة للمدارس الثانوية ، و٩٦ ٪ بالنسبة للدراسات الجامعية .. الخ» (ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩) (١٦) .

صورتان رسمهما لنا العالم الذي تغير:واحدة شرقية واخرى غربية .

وربما لا فرق بين الجوع والاغتراب،والاميةوالاكتئاب

(١٦) كما وان هنالك تقارير صادرة عن الاتحاد الدولي للنقابات الحرة تقول انه يجري استخدام حوالى ١٤٥مليون طفل يعملون في العالم من بينهم ١٦ مليون طفل في الشرق الاوسط .

والماء الملوث واللحم الصناعي ، واوبئة الاطفال و « جلالة القلق » [١٧] • ذلك لان الانسان ليس آلـة حتى ولا الكترونية ، ولا هو تفاحة او عنقود عنب او مصباح لا يستنير وان ملأ الدنيا نورا •

لو خيروني بين الصورتين ، لرفضتهما معا ، وان كنت ممن يقولون بالتغيير •

لعل المأساة الكبرى هي في « جنة عدن » نفسها ، والا لماذا تركها الانسان وراح يلهث وراء افعى كاذبة وتفاحة من حديد ؟

ان أخطر ما في التغيير الالكتروني كونه يعيدنا الى هذه « الجنة » ــ الوهم ، عبر أمية مصنوعة وجهالة اشد فتكا من البدائية •

لكي تقرأ « تغيير العـالم » ذا الاقسام الثلاثة : عالمية العالم (أربعة فصول) ، قنوات التغيير (ستة فصول) ، التحديات والرؤى (أربعة فصول) يجب ان تتذكر دائما ما قاله مارشال ماكلوان ذات يوم :

« ولكن عصر الالكترونيات الحديث قلب الاوضـاع تماما ، ورد الانسان مرة اخرى الى جذوره القديمة فالسينما

(١٧) انظر كتابنا « شاهد الثعلب ذنبه » طبعة ١٩٨٤ : « جلالة القلق » من ص ٣٢٣ الى ص ٣٣٠

والتلفزيون بوجه خاص يحتاجان من الانسان ان يستخدم سمعه وبصره ، كما يتطلبان منه قدرا كبيرا من الاستغراق والاندماج ، وكان ظهورهما ، وبخاصة ظهور التلفزيـون وانتشاره ، بمثابة خطر حقيقي يهدد الكتاب المطبوع الذي يزداد الشعور الان بامكان الاستغناء عنه • وحين تزول قوة الطباعة ، أو على الاقل تضعف بنسبة كبيرة ، فسوف يصبح في الامكان استعادة تلك الجنة المفقودة • فوسائل الاتصال الالكتروني تساعد مساعدة فعالة على ربط الناس بعضهم ببعض او حتى على توحيدهم ، وسوف يعمل هذا « التوحيد » على خلق الحياة السعيدة في تلك القرية العالمية أو القرية الالكترونية » [١٨] •

تتذكر هذه المقولة « الماكلوانية » ، بل نرددها ، لنؤكد أهمية كتاب « تغيير العالم » ، وان يفتقد فيه ذكر ماكلوان « النبي البارد » او « نبي البرود » او « نبي وسائـل الاتصال الالكترونية المتغطرس » ــ كما وصفه بعضهم [١٩] ، ولست ادري ما اذا كانت « ريح الشرق » ، اذا هبت يوما ستبقي « الرؤية الثالثة ــ التعددية » [٢٠] التي عليها يعلق عبد الملك الامال العالمية •• والالكترونية •

٢٧ــ١ــ١٩٨٦

(١٨) د. احمد أبو زيد : المصدر السابق .
(١٩) المصدر نفسه .
(٢٠) عنوان الفصل الرابع عشر من البند الثالث من كتاب الدكتور عبد الملك ، من ص ٢٣٦ الى ص ٢٥٥

(٨)
حملة على الشيوعيّة والرأسماليّة لمصلحة "نظام الشخصيّة الانسانيّة"

بين « وجه العالم » (١) و « نور العالم » (٢) للأب (العام) سمعان نصر المخلّصي (رئيس دير المخلّص المنكوب والمحتل ، كما مر معنا في الفصل الثاني من الباب الاول)، علاقة تتعدى ما هو بين الرأس والعين ، والحق والطريق ، والانسان والهدى ، والارض والسماء ، مما حدا نقيب المحامين الاستاذ عصام كرم على وضع مقدمة واحدة للكتابين ، فنجح في ذلك أيّما نجاح ، فكان لا بد لهذا الاديب المحامي من أن يختم مقدمته بالقول التالي :

(١) ٢٠٠ صفحة من القياس الوسط ، منشورات الرهبانية المخلصية ، طبعة اولى ، بدون تاريخ ، الا ان مقدمة نقيب المحامين الاستاذ عصام كرم المؤرخة في ١٥-١٢-١٩٨٤ تدفعنا الى الاعتقاد بان تاريخ الطبع هو اما في اواخر عام ١٩٨٤ واما في بدايات ١٩٨٥ .

(٢) ١٢٣ صفحة من القياس الوسط ، منشورات الرهبانية المخلصية ، طبعة اولى ، كذلك بدون تاريخ . ضمنه المؤلف مقدمة الاستاذ كرم نفسها .

« .. ويا أبت ،

سلِمَ فكرك الشامل الراقي . وسلِم قلمك المبريّ أبدا والولوع أبدا بعِشرة الحلا . وكان لمقالاتك ، وكل واحدة منها بحث وتطلّع ومدى ، مقامها الرفيع بين أعمال الساعين الى تجميل وجه العالم بالنّور ، لانهم ، بذلك ، يكونون ، مثلك أنت ، في خط التفتيش عن سبيل الهداية الحق » .

ستّ وأربعون مقالة (الوجه ٣١ والنور ١٥) «كُتبت ونُشرت ما بين ١٩٦٠ — ١٩٦٦ » ، فمنها « كالموضة » (Mode) ولكل سَنة صورتها وهيئتها وعادتها وزيّها وأسلوبها وشكلها ، وهذه ، مجتمعة ، تؤلف قضيتها العليا ، أو ملفها الكامل المتكامل ، فاذا ما ذهبت السنَة ذهبت معها ، ولكن لا الى المجهول المعدوم ، بل الى المعلوم والمعروف ، أي التاريخ المفتوح بابه أبدا ، على الحاضر ، كما على المستقبل ، ومنها ما هو كالتمثال الشاهد الدائم ، أو كجرس الكنيسة الذي لا يقرع عبثا ولا لهْواً .

وكما التمثال كذلك الجرس ، كلاهما صديق الازمنة، وصدى الدهور ، وحليف الحياة . فكلما هوى تمثال أو تحطم جرس ، ارتفعت نُصُب ونهضت نواقيس ، لتؤكد

على ان الانسان هو ابن الله ، والحرية هدف وغاية ، فمن كان عبدا لا يكون أبا ولا ابنا ، بيْد أن التكاثر هو سمة من سمات عصر الظلمات ، وان بدا أن لكل ذي وجه عينين ، فان نُعمة العين ومسرّتها هي النور فحسب .

لقد عالج الاب العام سمعان نصر موضوعات كثيرة متعددة ، فلا جرَح حيث لا حاجة الا الى المداواة ، ولا تردّد في الشق بالمبضع حيثما عجز الدواء واستحال الشفاء. واذ جعَل الكنيسة أمل العالم ورجاءه ، فلأن « الزمام أُفلِت من يد الانسان » (٣) ، ولأن « الاول الوحيد هو في رحمة الله وعنايته » (٤) !! ويمكننا القول بأن الاب العام نصر هو واحد من أدباء الكنيسة ، ممن حِبْرهم من دم المسيح وقراطيسهم من ذلك الجسد الطهور ، الذي تعذّب وصُلب « عن الناس جميعا ومن أجلهم » .

ان كلمة النائب العام نصر سلسة وهادئة وجميلة. وقد يصعب عليك الاختيار أو الانتقاء ، فأنت في حديقة واسعة ، ملؤها المِسْك أو الطيب ، وقد تفاوَح الزهر من كل صوب ، وانتشر الجمال والحسْن والبهاء ، لكأنك مع فريق من الباحثين والادباء ، نهجهم واحد ، وعقيدتهم واحدة ، ورسالتهم المحبة التي « وحدها بنّاءة العالم »(٥).

(٣) (٤) (٥) وجه العالم : ص ٩٣–٩٤ .

من الوجه بدأ الاب المؤلف ، والى النور انتهى . فاذا الرحلة أولها « عامل الزمن » (٦) وآخرها « الكنيسة وتعديل النسل »(٧)، وما بينهما جنائن وصحارى ، وبحار وأنهار ، وسهول وجبال ، وممالك ومعابد ، ورحماء ومتشددون ، وبسطاء وجبابرة ، ومصلحون ومفسدون ، وشرفاء وخونة ، ومخْلصون ومتآمرون، وحقيقة ووهْم ، وعقل وعاطفة ، وقديم وحديث ،ورؤساء وباباوات ، وقديسون وفلاسفة ، على « أن الطريق الى الانسان لا تَسلُك الا من الداخل » (٨) ، ومن أتاها من الخارج ذهب متحيرا أو ضلّ سعْيُه .

يحْمل الاب العام المؤلف على الشيوعية ، في غير مقالة ، متكئا على الكنيسة وآبائها العظام ولا سيما منهم: البابا ليون (لاون) الثالث عشر (١٨٧٨ — ١٩٠٣)والبابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ — ١٩٣٩) والبابا يوحنا الثالث والعشرين (١٩٥٨ — ١٩٦٣) والبابا بولس السادس (١٩٦٣ — ١٩٧٨) .

ويهاجم الاب العام المؤلف خروشوف بلسان الرئيس الاميركي كنيدي (جون) ، مع ان الرأسمالية لا « تفترق

(٦) المقالة الاولى في « وجه العالم » من ص ١٣ الى ص١٦ .
(٧) المقالة الاخيرة في « نور العالم » من ص ١١٥ الى ص١٢٣
(٨) وجه العالم ص ١١٨ .

عن الشيوعية شراً وظلما ، عندما تعبد الإله المال ، وتدوس كـل شريعـة تنـادي بالعـدل والمحبة ، لتستعبد العمال وتستثمرهم كعبيد لا حق لهم بالثراء » [٩] ؟!

في مقالة « إلامَ هذا القلق ؟ » كتب يقول :

« يكفي اليوم أن يلوّح خروشوف بيده على الدنيا بشيء من الحدّة والتهديد ، حتى يقوم العالم ويقعد، كأن تلويحة خروشوف هي سيف الله المسلّط على الانام .

« ويكفي ايزنهاور أن يعدل عن زيارة اليابان ، حتى تتأثر مرافق الحياة ويحدث انخفاض في أسعار الاسهـم التجارية وارتفاع في أسعار بعض السلع ، فمـا عـدول ايزنهاور سوى نذير الحرب ودليل التوتر » بحيث « أن ما يملكه الجانبان من أسلحة مبيدة هائلة ، يجعل مـن مجرد ذكر الحرب باعث هول وقلق ، وانفجارا يفعل في الاعصاب والعقول ما لا تفعله القنابل النووية في الديار والابدان» [١٠]

وكتب في مقالة « المنطق الجديد » يقول :

« ومن أبْلَغ وأرفع ما جاء في مخطط كنيدي (جون) (رئيس الولايات المتحدة الاميركية ١٩٦١ . اغتيل فـي

(٩) المصدر نفسه ص ٨١ .

(١٠) المصدر نفسه ص ٤٣–٤٤ .

٢٢ تشرين الثـاني ١٩٦٣) ، قـوله في صدد المساعـدة الخارجية : (ولاولئك الشعوب المقيمين في الاكواخ والقرى بنصف الكرة الارضية ، حيث يكافحون للانعتاق من قيود البؤس الجماعي ، تتعهد ببذل أقصى جهدنا لمساعدتهم، على أن يساعدوا أنفسهم لأية فترة لازمة ، ليس لان الشيوعيين يفعلون ذلك ، وليس لاننا نبغي الحصول على أصواتهم ، ولكن لأن ذلك حق) » .

« وقوله في بناء عالم المستقبل : (دعونا نشترك فـي بناء عالم جديد ، يكون فيه القوي عادلا والضعيف آمنـا والسلام مصونا الى الابد) » .

« وهذه الصرخة الصادقة الاخيرة : (يا مواطني من ابناء العالم ، لا تسألوا ماذا ستفعل أميركا من أجلكم، بل اسألوا ماذا نستطيع أن نفعل من أجل حرية الانسان)» [١١]

ويعلّق الاب العام سمعان نصر على هـذه النداءات الكنيدية فيقول :

« اننـا نستشف من هذه الكلمات ، تعبّداً للحـق والعـدل والمحبة ، هذه القيم الخالدة التي طالمـا ديست وضحيت على مذبح الانانية . ونستشف منها أيضا كبْحا

(١١) المصدر نفسه ص ٦٨–٦٩ .

لرغبة السيطرة ، بحيث لا يكون القوي قويا الا بنسبة ما يحقق الامان للضعيف ، وهـذا هـو الشرط لاستتبـاب السلام » .

أضاف :

« كما نستشف أيضا روح تنازل ومساواة وتعاون ، فالانسانية بحاجة الى كل أفرادها ليعملوا معا في سبيل حرية الانسان وسعادته .

هذا هو الدستور الجديد الذي يجب أن تتمشى عليه كل دول العالم ، وهذا هو اللحن الجديد الذي برز بين ألحان العالم الناشزة » .

وقال أيضا :

« يبقى لنا أن نتساءل ، الى أي مدى سوف يتحقق هذا الدستور ، وهل يستقيم للرئيس الشاب أن يغالب التيار ويحدث ثورته البيضاء في مفاهيم الشعوب ؟

« كما يحق لنا التساؤل : هل تمدّ دول العالم أيديها الى الرئيس كنيدي لتتعاهد معه على نصرة الحق والحرية ، أم انها تزجّ بقضبانها في هذه العجلة ، لتستتب لها السيطرة في الفوضى والفساد ؟! »[13]

---

(١٢) المصدر نفسه .

ولكن الرئيس جون كنيدي ، يا للاسف ، اغتيل ، ولمّا يمض عليه ثلاث سنوات رئيسا لاعظم وأغنى دولة . فهل ان اغتياله هذا انما هو لاغتيال مثل ذلك الحلم الذي راود أحد أدباء الكنيسة ، الاب سمعان نصر المخلّصي المشرقي؟ ام انها السياسة الاميركية (...) التي قررت أن يبقـى العالم بين العواصف والصواعق ؟!

من الواضح أن مواقف الأب العام نصر جميعها صريحة ومعروفة ، وهي لا تحتاج الى دليـل . اذ انـه مسيحي ، ومسيحي فقط ، وما القلم بيده الا إما سيف قاطع ، وإما زهرة ذات عبير . وليست آراؤه ومواقفه من النوع الذي يُستهلك ، بل هي لكل وقت وكل مناسبة .

ففي مقالة « حصيلة عام (؟) » يقول :

« وليس لنا كبير دليل على أن الشيوعية بـدّلت وسائلها لنشر سيطرتها ، رغم ما صرّح به زعماؤها في آخر مؤتمر عقدوه في موسكو ، من ان الشيوعية حوّلت ميدانها الى الصعيد المبدإي ، فلا يجديها كثير نفع بعد الآن ، اثارة الحروب والاضطرابات ، بل سوف تعتمد على حرب المبادىء والعقائد لبلوغ غايتها » .

أضاف :

« ولكن من يجهل مبادىء الشيوعية وعقائدهـا ؟

من يجهل أن الشيوعية قامت على الدم والثورة والالحاد، وان لا قوام لها الا مكتنفة بهذا الجو الاحمر المقيت؟على أن مفاهيم الامور قد تتغيَّر ، وقد يدرك قادة الشيوعية مغبة ما يهدمون من قيم الحرية والدين والعدالة ، فهل أخذوا يدركون ذلك ؟ والى أي مدى ؟ هذا ما لا قِبل لنا بالجواب عليه الآن ، ولسوف يتكشف عنه المستقبل القريب » (١٣) .

ويترك المؤلف الشيوعية ، ولو لفترة وجيزة ، ليلقي « نظرة خاطفة على بقية بقاع الارض » (١٤) حيث « نشهد ولادة دول كثيرة ، تنفض عنها كفن الذل ونير المستعمر ، وتعبر الى مجموعة الدول الحرة ولو على أشلاء ضحاياها، وما ان تفتح عينيها للنور ، حتى تتعثر وتتحسس عريها وعدمها ازاء ما يرفل به العالم المتمدن المترف ، وتشعر أن لا غنى لها عن غيرها بل كالطفيليات تعيش على حساب هذا الغير ، فتنتقل من عبودية الحكم الى عبودية الحاجة ، وكلاهما سيَّان » (١٥) .

ان هذا « الاعلان الادبي » عن بؤس النظامين : الشيوعي والاستعماري ، قد تبعه « اعلان » مماثل ، وفيه :

---

(١٣) المصدر نفسه ص ٥٦ .
(١٤) (١٥) المصدر نفسه .

« لا خلاص للعالم بالشيوعية ، لانها تحمل في صميمها بذار الموت والفساد ، ولأن الارهاب والضغط لا يقويان على خنق الحرية الى الابد في كائنات أثمن حليها الارادة والحرية » ، « ولا خلاص للعالم بالرأسمالية ،وها هي كادت تقوده الى شفير الدمار والخراب ، لانها تقلب النظام ، وتخون أقدس قيم الحياة كالعدل والمساواة والمحبة » (١٦) .

ولئلا يستمر هذا « الافلاس الشيو ــ رأسمالي » في نخر عقل العالم وتشويه وجهه واطفاء نوره وحرق أعصابه، وضع المؤلف الحل ، أو هو ركّبه تركيبا ، فقال :

« أين نجد الشيوعية والرأسمالية المثاليتين ؟نجدهما في نظام يؤمن بالشخصية الانسانية فوق كل مصلحة ، ويؤمن بالحرية والمحبة كأقدس كنوز الانسانية ، وكنقطة انطلاق تتشعب منها كل أعمال الانسان وعليها يتعلق مصيره » .

وقال أيضا :

« يبقى على كل دولة أن تؤمن هذه القيم وتوجّه أفرادها اليها ، فيستقيم لها انشاء دولة انسانية عاقلة ، لا مصنع آلات للانتاج » .

---

(١٦) المصدر نفسه ص ٨٢ .

ثم قال :

« يكفي المسيحية شرفا انها علّقت خلاص الانسان بكأس ماء بارد يقدّم للأخ ، وقدّمت مصالحة الاخوة على كل ذبيحة ومحرقة .

« هل يرجع العالم فيردُ هذه الينابيع » (١٧) !!

تناقش من في هذه المسألة المعقّدة ؟

هناك الشيوعية والرأسمالية ، وهنا الكنيسة . غير أن رأي الاولى هو مثل رأي الثانية : ما أُخذ بالقوة لا يُردّ الا بالقوة . والحاكم يجب أن يطاع .

بقيت الكنيسة ... وهذه قد ظلمتها الدنيا ، أو هي ظلمت نفسها ، مذ جمعت بين السياسة والدين ، وكان ذلك في الثلث الاول من القرن الرابع الميلادي .

كيف الرجوع الى « هذه الينابيع » يا ترى ؟

ان الشيوعية المثالية والرأسمالية المثالية هما حركتان انسانيتان متوافقتان تقريبا ، ولكنهما محكومتان بالاعدام، أو هما مقتولتان في المهد . وكذلك المسيحية القائلة :

« ان لم ترجعوا وتصيروا كالاطفال فلن تدخلوا ملكوت السماء » .

---

(١٧) المصدر نفسه .

وعلى كل دعنا نسأل :

ــ الاباطرة والطغاة كيف يصيرون كالاطفال ، وكل منهم يحسب نفسه الاله المعبود ؟

ــ الشعب الذي مزقته الفتن والاطماع والمصالح والانانيات، من أين له أن يتقرب في السداد والصدق ويتبع المسيح ، وعلى باب الهيكل يقف عملاء للأباطرة والطواغيت؟

أجل . لكل دهر كوارثه ونكباته . وانما الكارثة التي لا ترتبط بدهر ، هي ان الانسان يقتل أخاه الانسان ، باسم الله والعدالة والحق والدين !! وما كان المسيح الا ليوقف هذه الكارثة وينهيها ، الا ان الشر سبقه اليها ، فصلبه ، في منتصف الطريق ، بينما الشعب يتفرّج بين ضاحك شامت وباكٍ متألم . ومن أسف ان الضاحكين الشامتين هم الغالبون في الامس واليوم وغدا .

وتزداد آراء الأب سمعان نصر ومواقفه صراحة ووضوحا ، فيقول في مقالة « أوروبا : أنزعٌ أم انطلاق؟» ما يلي :

« وتجلّت البدائية النازية خصوصا في التمييز العنصري ، وسفك الدم ، وتسخير كل مقدرات الامة للحرب ، وعدم التقيّد بالمواثيق ، والغارات المفاجئة ، والتعذيب الوحشي ، وعبادة الفرد » .

ويقول :

« وتحملنا الشيوعية الى أبعد من النازية ، فتوغلنا في متاهات المادية والوثنية .

« وهنا أيضا شرذمة صغيرة تتحكم برقاب أمة كبيرة ، فالشعب الروسي مؤمن بغالبيته ، على خلاف حكامه وبالرغم من حكامه . تفلتت اذن الشيوعية من تأثير الحضارة الاوروبية ، أو قل عمدت الى تشويهها ، فعرّتها من قيمها الادبية ومن روحانيتها المسيحية ، واتخذت قشرتها ومظهرها المادي الصرف ، فاستقام لها محصول من الامكانات الجبارة سخرته لاقامة وترسيخ صنمها الجبار » .

وتابع يقول :

« والاستعمار في مفهومه المجرد ليس مظهر ضعف وبربرية ، بل هو من أرفع مظاهر القوة والانسانية ، اذا روعيت أهدافه السامية وتنزهت عن الانانية والنفعية . واذا كان الغرور قد ركب رأس المستعمرين أحيانا ، وأفرطوا في استغلال الشعوب المستعمَرة ، فذلك من باب الشواذ والانحراف . وتبقى أوروبا معلمة الاجيال والشعوب ومقلع كل حضارة وتقدّم » [18] .

من المؤكد أن الاب العام سمعان نصر كتب هذه

(١٨) المصدر نفسه ص ١١٢ .

المقالات جميعها ، عندما كان دير المخلّص يغسل وجهه ، كل يوم ، بنور المسيح . ونحمد الله اذ ان المؤلف قد سبق العاصفة وكتب ما كان يجب أن يكتب . بيد أن أوروبا ليست تماما « مقلع كل حضارة وتقدم » حسبما يقول .

أليس الشرق هو مسقط رأس المسيح ومنطلق المسيحية ؟

لقد قلتُ في « رسالتي الى المسيحيين » [19] وأردد القول :

« — أيّ معنى لهذا الشرق ، بدون المسيحية ، وأية مسيحية ، ستتخلّى عن الشرق ؟! » [20]

وبناء عليه كان سؤالي التالي :

« في الشرق غليان ديني .. وثورات وانفجارات كثيرة . وفي الغرب غليان مادي ... وتسارع الى احتلال الفضاء ... وكلاهما لم يعرف الاستقرار ولا الهدوء . وترى الاديان والمذاهب والعقائد كلها متورطة ... وهي تتصرف في الامور على غير بصيرة . لكن سؤالا كبيرا

(١٩) المذكورة سابقا .
(٢٠) من المقدمة (رسالتي الى المسيحيين) ص ١٦ .

يبرز ، برغم الاضطرابات التي نعاني ، ألا وهو : المسيحية الى أين ؟ » (٢١)

ذلك هو السؤال ، اليوم ، فمن يستطيع الاجابة عنه ؟

لعل في « نور العالم » بعض الجواب ، بحيث يقول الاب العام المؤلف :

« لا خلاص لأوروبا الا بمسيحيتها ، ولا دوام لسيطرتها الا بنسيان ضغائنها القديمة ، لترجع فتعتمد وتتحد بالمحبة . وحينئذ يصبح بمكنتها اعطاء العالم ما قد حرمته اياه الى الآن ، وهو وجه المسيحية المشرق بالسلام والمحبة » (٢٢) .

اذا كان هذا هو المطلوب لأوروبا فما المطلوب للشرق اذاً ؟

بين الشرق وأوروبا أنهار من الدم أجرتها الفتوحات الاسلامية والحروب الصليبية ، وبين أوروبا وأوروبا جبال من الجثث أقامتها الحروب الدينية والمذهبية ، فماذا عساها تفعل تلك المبادرة الشجاعة والكريمة من قداسة البابا

(٢١) من الخاتمة (رسالتي الى المسيحيين) ص ٥٠٨ .
(٢٢) نور العالم ص ١٠٦ .

بولس السادس الذي « استغنى عن تاجه المثلث » ووزّع ثمنه على فقراء الهند » (٢٣) ؟!

لنعلمْ اذن أن مشكلات وقضايا الهند وسائر العالم الثالث لا تحلها مبادرة عظيمة ورائدة كمبادرة قداسة البابا بولس السادس،ولا هي تُحلّ في ليلة أو ضحاها.ولسوف ينتظر العالم الثالث طويلا وطويلا .

لو طُلب مني أن أختار فصلا أو بعض الفصل من « نور العالم » ، لوقع اختياري ، المتواضع ، على «تحوّل في تاريخ الكنيسة» . ذلك لأن المؤلف قد عقده لاجل أن تفتح رسالة الكنيسة « آفاقا على المطلق » (٢٤) . ومما جاء فيه :

« كانت الكنيسة تنظر الى العالم كله في داخلها ، أي تحت طاعة التاج المثلث ، وكان همّها الوحيد رد الضالين اليها . لم تكن تعترف بعالم مستقل عنها لتتحاور معه » .

وتحت تأثير الاب (اليسوعي) تيلار دو شاردان (Teilhard de Chardin) (١٨٨١ ــ ١٩٨٥) أصبحت الكنيسة تنظر الى العالم كوحدة لا تتجزأ ، لأن الروح

(٢٣) (٢٤) المصدر نفسه ص ٧٢-٧٣-٧٤-

القدس يعمل في العالم كله كخميرة صالحة ليوجهه نحو المسيح » .

ويضيف الاب العام نصر قائلا :

« وأصبح دور الكنيسة لا أن تحسب نفسها عدوّة العالم ، بل أن تتغلغل فيه بواسطة أبنائها ، لتكون فيه هو العجين الواحد ، خميرة تقدم للانسانية جمعاء رغيف الروح »

ويقول أيضا :

« ومن مقررات المجمع حول الرهبان ، هذه الملاحظة الخطيرة : على الراهب أن لا ينكر أنه بمجرد نذوره أصبح غريبا عن الناس ، وغير نافع في القطاع الارضي . انه يساهم ماديا وروحيا في بناء المملكة الارضية على أساس إلهي وباتجاه إلهي » [٢٥] .

في مطلع كلمتنا هذه قلنا : « كلمة الاب العام نصر سلسة وهادئة وجميلة . وقد يصعب عليك الاختيار أو الانتقاء ، فأنت في حديقة واسعة » . ولكن الاختيار قد تم ، مثلما تقدّم ، لان كلمة من قداسة البابا بولس السادس : « لا تنسَ أن أول تهيئة للمسيحيين الذين يعملون في حقل الرسالة ، هي أن يحبوا العالم » [٢٦] ، شجّعتْنا وقوّتْنا على ذلك ، كما وانها تدعم رأينا في

---

(٢٥) (٢٦) المصدر نفسه ص ٧٣ـ٧٤

المسيحية وسلاح المسيحية القائل : « سلاح المسيحية لا تصنعه الفبارك ... ولا هو يخرج من الارض ، فيتخذ شكلا معيَّنا أو حجما معيَّنا أو لونا معيَّنا. سلاح المسيحية هو حب الغير ... والتجْسِير بين الانسان والانسان، حتى لا يكون هنالك واحد بعيد وآخر قريب ... » و « معنى هذا أنك مسيحي بمقدار ما أنت نقي وطاهر ونظيف وكريم وشجاع ومتواضع » [٢٧] .

عندما كان دير المخلّص حرّاً سيّدا ، رسم لنا الاب العام سمعان نصر وجه العالم ، ودلّنا الى نوره . فما عساه يكتب ، اليوم ، وهو البعيد عن ديره الحزين والمظلوم والمغتصَب ؟

١٩٨٥/١٠/٦

---

(٢٧) رسالتي الى المسيحيين : الخاتمة ص ٥٠٩ـ٥١٠ .

خاتِمَة

اذا كانت خاتمة الكتاب ، أي كتاب ، هي الكلمة التي ترافق — عادة — طي الصفحة الاخيرة منه ، أو إسدال الستارة ، فان كتابنا « نحن ... وصنمية التاريخ » ، بهذا المعنى ، يحتاج الى أكثر من خاتمة وأكثر من كلمة أخيرة . فهو ، كما ظهر ، أربعة كتب في كتاب واحد ، وان أياً من هذه الاجزاء الاربعة لم يُعَدّ ، أصلا ، لاجل موضوع محدَّد ، ولا هو ذو فكرة واحدة .

ومع هذا كدنا نصرف النظر عن أهم شروط « المنهجية » ، تاركين للقارىء حرية البحث عن « الخيط الرفيع » الذي نقول بوجوده ، وبأنه يصل أبواب كتابنا بعضها ببعض [1] . ولكننا عدنا عن ذلك ، لا لأننا غير واثقين بمقدرة القارىء على الاستنتاج والاستكشاف ،

(١) انظر المقدمة .

وإنما فعلناه بتحريض من « الخيط » نفسه ، اذ برز بعد الخفاء ، فكنا مثل بنت الصَّفاء أو « بنت الجبل» التي تقول عن سَماع ، أو كنا كمن يتكلم مع كل متكلم ويجيب كل سائل .

لولا التطور العظيم الذي حمله الينا القرن العشرون، لبقي كل في مكانه يعالج نفسه بنفسه ، دونما التفكير في ما هو عند الغير ، فاذا نجَحتْ المعالجة عاد ليدور على ذاته حتى السقوط أو الانهيار ، واذا فشلتْ فالتسليم بالقدَر، حينئذ ، عذْر «طبيعي» لا يمكننا اعتباره « أقبح من ذنب » .

ومنذ ساد الاعتقاد بأن النقد يعلو التاريخ ، صار للخطأ لون جديد ، وطعْم لم يسبق أن عرفناه من قبل، ووقع علينا «التغيير» حتى لكأننا بدون جذور ، فاذا البيئة قد تراجعت ، واللغة تمددت ، والشعور القومي بات نقطة في بحر ، فانبثقت ، من الهموم والقضايا الخاصة ، هموم وقضايا عالمية لا ينفع معها « الطب النبوي » ولا « السحر» ولا « التعاويذ » بل « الجراحة » ، و « الجراحة »السريعة فحسب . وكان أن تلاشت « العناصر المقررة » التي خبرْنا، فأخذت محلها عناصر أخرى هي أشد تعقيدا وأكثر خطرا، فيما ظل السؤال : أيهما أبقى : الانسان أم الانسان الآلي؟ يثوّر الامور ، ويشجع على البحث والتقصي والدرس

والتحقيق والتحليل . ولكن الاحداث تسارعت وتعاظمت مما جعل التمييز بيننا وبينها من الاعمال المستعصية ، الا بالموت وهذا وحده بقي محتفظا بأهميته وبدوره الطبيعي المعروف !

ولما صممنا على مجابهة التاريخ اتخذنا من الانسان غاية لنا ، فغلبّناه على الميتولوجيا ومشتقاتها ، وعلى العلوم كافة ، والاديان والمذاهب والفلسفات بكل أنواعها، وناصرناه على الآلهة مهما تعددت وتكبرت، أو طغت ،ووقفنا في وجه الحضارات القمعية وحديدها ونارها ، لنصون له حقوقه وواجباته،وأخضعنْا اليه السياسة والنظام والقانون، وجندْنا له الادب والشعر والموسيقى والرسم والنحت والتأريخ والحساب ، وتمرّدْنا على المسلّمات والمثاليات والفرائض والحدود ، لا لنفرض منهجية (Methodism) أو حدّاً ، أو قياسا ، أو مثالا ، بل لنؤكد على زوالها من جهة ، وعلى بقاء الانسان من جهة أخرى .

من لبنان ، انطلقنا نحو ذلك البعيد ـ البعيد ، الانسان الكامل المتكامل ، فدخلنا في الآفاق العربية والاسلامية ، ومنها الى الآفاق العالمية ، واذا في كل ركن «مشروع انسان» لا يزال ينتظر المتعهد المخلْص الامين ، فمتى تحقق هذا (المشروع) سقطت، لا شك، الاقنعة جميعها وزالت أسباب القتل والقتل الجماعي الرخيص ، وكذلك

عوامل الجوع والاضطهاد والقهر والتنكيل وما سمّي بـ « التبادل السكاني » ، و « التمييز العنصري » !

وبما ان عملنا هذا هو بمثابة رحلة الى الانسان ، فالموضوعات والافكار التي ، ان اجتمعت ، تكوّن مثل هذه الرحلة ، هي كثيرة ومتنوعة ، يشكل التاريخ،بالنسبة اليها ، العمود الفقري ، فبدونه لا يمكن لملمتها ، ولا هي تؤلف حياة ، على أن التاريخ لا يرقى الى الحقيقة الا بعد النقد والمعارضة .

أين هو الخيط الرفيع ؟

عندما نصف التاريخ بالعمود الفقري ، أفلا نكون قد حدّدْنا ما هو « الخيط الرفيع » الذي نصر على وجوده ؟ وما ميدان عمله ؟ بل ما هو شكله ولونه ونوع حركته ؟

هنالك السياسة والدين والمجتمع والفلسفة والاقتصاد والعلوم والايديولوجيات والاحزاب والدول . كلها فقرات لعمود واحد ، فاذا تكلّست احداها أو تعطلت فان سائر الفقرات تتجاوب معها عاجلا لا آجلا ، واذا لم يُتدارَك الامر فالنتيجة لن تكون الا سوءاً ، وعندئذ تحصل الكارثة حيث تضيع فرص النجاة وينقطع حبل الرجاء ، أو الخيط الممتد بين رأس العمود الفقري والقاعدة .

مذ برز لنا هذا الخيط ، مثلما قلنا ، أخذنا نطالب بسياسات صحيحة وأديان غير جائرة ، وعالم متماسك وفلسفات بناءة ، واقتصاد كوني سليم ، وعلوم غير تخريبية، وأحزاب توحّد ولا تفرّق ، واخوّة انسانية ، وعلاقات دولية مرتكزة على الاحترام المتبادَل والثقة والامانة .
ان مطاليبنا هذه هي كل أحلامنا وطموحاتنا وآمالنا وأمانينا ، أردنا أن يضمها كتاب ، فكان « نحن... وصنمية التاريخ » ذو الابواب الاربعة ، المشرفة على لبنان والعرب، كما على الاسلام والعالم ، وفي داخلها ستة وثلاثون فصلا، للبنان منها عشرة ، والعرب لهم عشرة ، وللاسلام كما للعالم أي ثمانية ، وليس غريبا أن نسمع هنا جلبة وضجيجا ، وهناك توجعًا وصراخا ، وهنالك مقارعة ومشادة ، في حين يسود غير فصل الهدوءُ والتفاهم والمشاركة،فالتاريخ، كما اتفقنا ، « هو الحاضر يصنع الماضي » ، وكتابنا ورشة فيها من كل شيء ، وإن طغى صوت فانما هو صوت تلك المطرقة التي أُعدت لتحطم هذا التاريخ ــ الصنم الذي أحرقنا جميعا ، من دون أن يستعمل لا يديه ولا رجليه ، حتى ولا عقله ، اذ لا عقل له ، بل نحن الذين كنا الحطب والنار ، كما حاولنا ، في « نحن ... وصنمية التاريخ » برهنته والتأكيد عليه ، فهل وُفّقنا الى ذلك فعلا ؟!

المؤلف